

نظام الطبيعة

قوانين العالم الأخلاقية والمادية

بارون دي هولباخ

ترجمة وتقديم د. منال محمد خليف

الجزء الأول

Baron d'Holbach

نظام الطبيعة
أو
قوانين العالم الأخلاقية والمادية

(المجلد الأول)

THE SYSTEM OF NATURE
OR LAWS OF THE MORAL AND PHYSICAL WORLD 4

تأليف
بارون دي هولباخ
BARON D' HOLBACH

ترجمة وتقديم
د. منال محمد خليف

الطبعة ثانية منقحة، 2024
ISBN: 978-9922-717-35-7

تصميم الغلاف: إلهام ذبيحي

للنشر والتوزيع / العراق – بغداد

بغداد : 009647811898461
Email: Abkallu91@gmail.com

بارون دي هولباخ

نظام الطبيعة

أو

قوانين العالم الأخلاقية والمادية

(المجلد الأول)

ترجمة وتقديم

د. منال محمد خليف

أبكالو 2024

المحتوى

مقدمة المترجم

استقبلتْ أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي ما أطلق عليه الباحثون اسم عصر التنوير، الذي حمل معه إلى جانب التطبيقات العملية للعلم، فلاسفة ومفكرون تمكّنوا بفضل تأملاتهم من تخليص البشرية عموماً وأوروبا تحديداً من بقايا ظلمات العصور الوسطى وهيمنة رجال الدين عبرَ مصباح العقل والعقلانية، وانتفضوا في وجه كلّ أوجه الاستعباد التي عانى منها الإنسان، ومن ضمنها اللاهوتيين الذين أدخلوا إلى الدين الخرافات، كما يقرر ذلك الكثير من المؤرخين، وجعلوها عقائد دينية، مما أدى إلى ظهور تيارين، أحدهما إيماني يناصر العقل والأفكار الميتافيزيقية، والآخر غير إيماني أو تيار الشك في العقائد الدينية، لاسيما أنَّ سطوة رجال الدين بدأتْ بالتعاظم مع مساندة السياسة لها، وكان للحلقات والصالونات التي استضافت المفكرين من مختلف المذاهب دورٌ في الكشفِ عن الوجه الحقيقي لسطوة الدين ومطامع الحكام، إضافةً إلى ظهور الموسوعة الشاملة الفرنسية التي أنتجت الجناح الالحادي في حركة التنوير الأوروبي متمثلاً في **بول هنري تيري بارون دي هولباخ Paul-Henri Thiry (Baron) d'Holbach**،(*) الذي استضاف في بيته العديد من المفكرين الأحرار الذين كان لهم دورٌ فيما بعد في ظهور الحركات الثورية في أوروبا، وبعد أن كانت أفكاره تُمارس تأثيرها تحت أسماءٍ مستعارة، ظهرتْ للعلن ضمن العديد من المؤلفات، ومن أهمها الكتاب الذي نحن بصدده؛ أي

---

* - **بول هنري تيري، بارون دي هولباخ:** (1723–1789)، فيلسوف ومترجم وموسوعي وشخصيةً اجتماعية بارزة، ألماني المولد وفرنسي التربية والفكر، حيث ولد في إديشيم وترعرع في باريس على يد خاله فرانسيس آدم دي هولباخ Franciscus Adam d'Holbach، وألف أو شارك في تأليف أكثر من خمسين كتاب وأكثر من أربعمئة مقالة، وترجم عن الألمانية في الكيمياء وعلم طبقات الأرض إلى الفرنسية، وترجم أعمالاً إنجليزية مهمة عن الدين وفلسفة السياسة إلى الفرنسية، وكان الملهم الرئيسي للموسوعة التي أعدها وأشرف على إخراجها ديدرو Diderot. أنظر: (موسوعة ستانفورد للفلسفة، مجلة حكمة، بول هنري تيري، بارون دي هولباخ، تر: منال محمد خليف.)

كتاب **نظام الطبيعة**، والذي أراد من خلاله أن يعيد الحقيقة إلى معبدها الصحيح، وبناء مذبح تتوطد أساساته على الأخلاق والعقل والعدالة، وتوضيح الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه الإنسان لبلوغ سعادته التي تمثل الغاية الحقيقية من وجوده، والتي لا يمكن تحقيقها إلا من خلال تعزيز سعادة كلّ البشرية، ولا يمكن فهم الغاية من وجود الإنسان عبر مناجاة ذيول الميتافيزيقا الوهمية، بل من خلال العودة إلى الطبيعة وفهم قوانينها؛ لأنَّ جهله بها سيؤدي إلى تعاسته، وبناءً على ذلك يوضح **هولباخ** رأيه بالطبيعة وقوانيها ونظرية المعرفة والإرادة والمجتمع والسعادة في المجلد الأول من كتابهِ هذا ضمن فصول متعددة، ولكن آثرنا أن نوجزها إلى خمسة محاور أساسية:

يوضح **هولباخ في المحور الأول** آلية عمل الطبيعة وموقع الإنسان فيها والغاية من وجوده، وهو على قناعة تامة بأنَّ الطبيعة عبارة عن سلسلةٍ من العلل والمعلولات، وميز فيها بين مفهومين ما انفكت الفلسفات القديمة والحديثة عن الحديث عنهما، وهما المادة والحركة، حيث أخذ عن **أرسطو Aristotle** قوله بتلازم المادة والحركة، وأنَّ كليهما أزلي؛ لأنَّ الحركة ملازمة للمادة، ويجب أن تكون موجودة منذ الأزل، نظراً إلى أنَّ الحركة هي النتيجة الضرورية لوجودها، وماهيتها، وخصائصها الأولية التي يستحيل من دونها تكوين فكرة عنها.

وميز **هولباخ** بين نوعين من الحركة، النوع الأول: حركة الكم التي ينتقل بواسطتها الجسم بأكمله من مكانٍ إلى آخر، ونحنُ قادرون على إدراكها تماماً، والنوع الآخر: حركة داخلية أو خفية، تعتمدُ دائماً على طاقات خاصة بالجسم؛ أي على ماهيته أو تركيبه وعلى الفعل ورد الفعل الناجمان عن جسيمات المادة الصغيرة جداً وغير المحسوسة، والتي يتكون منها هذا الجسم. ونحنُ لا نرى هذه الحركة ولا نعرفها إلا من خلال التغيير الذي نكتشفه بعد فترة في هذه الأجسام أو المركبات. وتكون الحركة مكتسبة دائماً سواء كانت مرئية أو مخفية، وتُكتسب عند تأثير جسمٍ ما على آخر، إما بفعل علّة خاصة بنا أو بسبب فاعل خارجي تمكّننا حواسنا من اكتشافه. وهناك حركة بسيطة وحركة مركبة، أما البسيطة فتُثار في الجسم بفعل علّة وحيدة، في حين تنجم الحركة المركبة عن علتين مختلفين أو أكثر، وتنجم حركة الكائنات مهما كانت طبيعتها بالضرورة عن ماهيتها دائماً أو الخصائص التي تتكون منها والعلل التي تؤثر عليها. ويمكن لكلّ كائن أن يتحرك ويعمل بما

يتوافق مع القوانين المرتبطة بماهيته وتركيبه الخاص، وطبيعته الفردية، ومع تلك الخاصة بالأجسام التي تؤثر عليه. ولا يوجد شيء يبقى على حاله، فالكلّ في تحول وحركة دائمين، وليست الفوضى عند الكائن سوى انتقاله إلى فئةٍ جديدة، ونمطٍ جديد من الوجود، يحمل بالضرورة سلسلةً جديدة من الأفعال، وتسلسل جديدة من الحركات التي تختلف عن السابقة. ويجد الإنسان نظاماً في كلّ شيء يتوافق مع نمط كينونته، وفوضى في كلّ شيء يتعارض معها، ومع ذلك كلّ شيء في الطبيعة منظم، ولا يمكن لأيّ جزء من أجزائها أن يتحرر من تلك القواعد الثابتة والضرورية التي تنجم عن ماهية كلّ منها، ولا يمكن أن تكون هناك فوضى بالمطلق. ويترتب على ذلك نفي **هولباخ** لوجود الوحوش والآيات، والعجائب والمعجزات؛ لكونها معلولات ناجمة عن عللٍ طبيعية يجهل الإنسان طريقة عملها، وينسب إليها عللاً وهمية، وما من صدفة في هذه الطبيعة، وكلّ معلولٍ ينتج عن علّة كافية لتفسيره.

والطبيعة برأي **هولباخ** هي الكلّ الذي نستوعب من خلاله كينونتنا، ولا يمكن أن نفهم طبيعتنا إذا ما أخذنا بتأملات الميتافيزيقيين حول الطبيعة الثنائية، وأنّنا نتألف من جوهرين مختلفين أحدهما مادي والآخر روحي وآتٍ من عالم مفارق، بل ينبغي أن نعرف أنّ كلّ ما تمتلكه الطبيعة هو من انتاجها ويخضع لكلّ التغيرات التي تعتريها، وليس هناك من كائنٍ متميزٍ عنها، ولا يمكن النظر إلى النفس إلا على أنّها جزءاً من الجسد، ولا يمكن تمييزها عنه إلا ذهنياً، وهي مجبرةٌ على الخضوع للتغييرات ذاتها التي يخضع لها الجسد، وتعاني وتتمتع معه بكلّ ميزاته من صحة ومرض وسبات، وتلف، وموت؛ لذلك رفض **هولباخ** رؤية البعض حول خلود النفس، وأنّها تعود إلى الجزء الإلهي الذي انفصلت عنه، وفسّر عقيدة الخلود برغبة الإنسان في الحفاظ على ذاته وحبه لوجوده الذي جعله يؤمن بهذه العقيدة، وولّدتْ لديه الرغبة في الوجود الأبدي الذي أصبح يقينياً بالنسبة له. ولكن لو تأمل قليلاً في طبيعة نفسه لاقتنع أنّ فكرة خلودها ما هي إلا وهمٌ من صنع دماغه الذي ابتكرها لتعوضه بشكلٍ طفيف عن الحزن الذي يشعر به عند حرمانه من جسده الفاني.

من هنا تأتي مهمة الفلسفة في رأي **هولباخ** في التخفيف من أهوال الموت التي لا طائل من ورائها، من خلال التأمل في الموت والتعرّف عليه؛ لأنّه ضروري كضرورة وجوده

تماماً، لذلك عليه أن ينتظره بهدوء، وينزع عن الموت هذه الأوهام الباطلة، ويدرك أنَّه ليس سوى نومٌ للحياة، وهو إعادة الدخول في حالة عدم الإحساس التي كان فيها قبل ولادته، وقبل أن يدرك وجوده الفعلي. وستعيده القوانين الضرورية إلى رحم الطبيعة الذي انطلق منه، لكي تعيد إنتاجه بعد ذلك في شكلٍ جديد، وسيكون من غير المجدي أن يعرفه؛ حيث تخضعه الطبيعة من دون استشارته لفترةٍ لنظام الكائنات المنظمة، وتلزمه من دون موافقته بتركه ليشغل نظاماً آخر؛ لذلك ينبغي ألا يتذمر من قسوةِ الطبيعة التي تُخضعه لقانون لا تستثني منه أيَّ كائن فيها. وإذا أراد الإنسان أن يكوِّن لذاته أفكاراً واضحة عن نفسه، فليرجع إلى خبرته، وينبذ تحيزاته، ويتجنب التخمين اللاهوتي. وكلّما زاد تفكيره، زاد اقتناعه بأنَّ النفس هي الجسد بحدّ ذاته منظوراً إليه نسبياً من حيث بعض وظائفه التي يشعر بها أثناء حياته. وينبغي النظر إلى جميع العمليات التي تُنسب إلى النفس على أنَّها تعديلات معينة للجسد، تظهر عبر تأثير الدماغ على الجسد، والتغيرات التي تطرأ على الدماغ بحد ذاته، إما بفعل عوامل داخلية من الجسد ذاته أو من خلال تأثّره بمحيطه بفضل الحواس.

وهذا ما أكد عليه **هولباخ** في **المحور الثاني**؛ الذي يشرح فيه نظريته في المعرفة التي كشفت عن مدى تأثّره بالفلاسفة التجريبين، من أمثال **جون لوك John Locke**(*)، الذي ذهب إلى أنَّ عقل الطفل يولد صفحة بيضاء تماماً وتنقش عليها التجربة ما تشاء، وأنَّ معرفة الإنسان مركبة، حيث إنَّ جميع الأجسام تمتلك صفات أولية تعود إلى الجسم ذاته كالصلابة، والامتداد، والشكل والعدد والحركة. وصفات ثانوية يطلقها الجهاز الإدراكي عليها، كاللون والصوت والتذوق وما إلى ذلك. ويجب علينا دائماً أن نشرح صفة ثانوية من حيث الصفة الأولية التي تُحدث بواسطتها الإحساس المناسب فينا، ويحافظ **هولباخ** على ما يشبه تمييز **لوك** بين الصفات الأولية والثانوية، لكنه لا يصرّ على أنَّ خصائص الأجسام التي يسميها **لوك** الصفات الثانوية، هي خصائص تمتلكها

---

* – جون لوك: (1632–1684) فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي، كتب العديد من الكتب والمقالات ومنها مقال خاص بالفهم البشري، ومقالاً عن التسامح. (المترجم)، للمزيد راجع:
The concise Encyclopedia, Western Philosophy, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed. s).p.207.

الأجسام بحكم صفات أولية معينة.(*) ذلك أنَّ المادة بالنسبة لهولباخ هي كلّ ما يصنع الأجسام ويُحدث الانطباعات الحسية التي لدينا عنها. والخصائص التي تمتلكها أيّ مادة هي تقريباً صفات أولية بالمعنى الذي ذهب إليه لوك مع استثناء مهم وهو الحركة، وتختلف خصائص المادة بتنوع الكائنات. ولم يدّعِ هولباخ كما فعل لوك، أنَّ الصفات الثانوية ميتافيزيقية ومختلفة عن الصفات الأولية، بل اعتبر الصفات الثانوية أساسية للمادة. ونظراً لأنَّ هولباخ يسمح بالقول: إنَّ بعض المواد تمتلك صفات لا تمتلكها المادة الأخرى، فإنَّ مفهومه عن المادة أكثر تنوعاً من مفهوم لوك الذي نظر إلى المادة على أنَّها متجانسة، بمعنى أنَّها تمتلك كلّ الصفات الأولية ولا توجد صفات أخرى غير ذلك. في حين أخذَ هولباخ المادة بالاعتبار على أنَّها غير متجانسة.

وهذا ما قادَ هولباخ كما كان ذلك حال لوك إلى انتقاد القول بوجود أفكار فطرية في النفس، وأكدّ على أنَّ جميع أفكارنا مكتسبة وتأتي عن طريق الحواس، بما فيها ما يسميه العقلانيون بالبديهيات الرياضية والمفاهيم المجردة، وأيُّ فكرة ليس لها مقابل في العالم الخارجي، إنَّما هي مجرد لغو وخالية من المعنى، وبذلك يكون قد سبق الوضعية المنطقية في التمييز بين الجمل التي لها معنى وتلك الخالية من المعنى، وأرجع كلّ ما في ذهن الإنسان إلى الحواس، ويمكن أن نلمس أيضاً ضمن تجريبية هولباخ تأثير ديفيد هيوم Hume،(**) أكثر من لوك الذي أكد على دور العقل في تركيب الأفكار، في حين أنَّ العقل هو بحد ذاته سلبي برأي هولباخ، ولا تكون مهمته سوى الربط بين الأفكار التي تزوده بها الحواس، ولا يمكن أن نعثر فيه على فكرة من وحي الخيال من دون أن يكون لها ارتباط بما خبره سابقاً. ويرجع سبب الاعتقاد بوجود أفكار فطرية عند هولباخ إلى تحيز العديد من الفلاسفة أو خوفهم من محاربة آراء اللاهوت المتسلط، مما جعلهم يزعمون أنَّ النفس روحاً

* – عباس، راوية عبد المنعم، عباس، جون لوك إمام الفلسفة التجريبية، دار النهضة العربية، بيروت، 1996.

** – ديفيد هيوم: (1711–1776) فيلسوف تجريبي وشكي ومؤرخ وعالم اقتصاد أسكتلندي، ويعد خصماً لتصور نيوتن للطبيعة وللعقل الرياضي، غير أنَّه طبّق مناهج البحث التجريبي الّتي جاءَ بها نيوتن على دراسة الجنس البشري، من مؤلفاته: "رسالة في الطبيعة البشرية"، "بحث عن الفهم البشري". أنظر: The concise Encyclopedia, Western Philosophy, David Hume, Jonathan Ree And J.o.Urmson (Ed.s).p.168.

نقية وجوهراً غير مادي، وذات ماهية مختلفة تماماً عن ماهية الجسد، وتصوروا أنَّ كلّ تحولات هذه النفس التي نشأت من طاقة خاصة بها، طبعها عليها خالق الطبيعة منذ تكوينها الأول، وهو كائنٌ غير مادي قائم بذاته. ودعموا رأيهم بحجة أنَّ النفس ملكة تنتج أفكارها من ذاتها، والدليل على ذلك الأحلام التي تصنعها من دون أن تكون متصلة بالعالم الخارجي، ولم ينتبهوا كما يشير **هولباخ** إلى أنَّ دماغ الإنسان زُوّد حتى أثناء النوم بالعديد من الأفكار التي خزنها في الليل أو في وقت سابق، ونُقلت إليه عن طريق الأشياء الخارجية والملموسة وتم تعديلها بواسطته، وسيجد أنَّ هذه التعديلات تتجدد بحدّ ذاتها عن طريق سلسلة من الحركات اللاإرادية التي تحدث في عضويته، وتثير تلك التي تحفز الدماغ. وقد تنجم تلك الأحلام أيضاً عن فوضى ما في عضويته بحد ذاتها. ولو كان هناك بالفعل كائناً في الطبيعة لديه القدرة على تحريك نفسه باستقلال عن جميع العلل الأخرى، لكان لمثل هذا الكائن القدرة على إيقاف ذاته، أو تعطيل حركة الكون، ولا يمكن تغيير قوانين الطبيعة إلا إذا تغيرت ماهية كلّ شيء فيها.

ولا يمكن أن تكون هناك أيّ أفكار لا تمتلك مقابل لها في العالم الخارجي، وما يبدو فطرياً عند الكثير من الكائنات لم ينجم سوى عن الحاجة، ولم يأتِ حكمها السريع على كثير من الأفعال إلا بعد سلسلةٍ طويلة من التفكير. حتى الأفكار الأخلاقية ليست سوى أفكار مكتسبة، ولو كانت هناك أفكاراً فطرية لامتلك الرضيع أفكاراً عن اللاهوت أو الفضيلة، غير أنَّ الخبرة تعلمنا أنّنا لا نكتسب هذه الأفكار إلا تدريجياً عن طريق الأبوين والتربية بحسب منظومة كلّ فرد، والملكات التي زودته بها الطبيعة. وبالتالي فإنَّ كلّ الأفكار والمفاهيم وأنماط الوجود تكون مكتسبة. ولا يستطيع العقل أن يعمل ويدرب نفسه إلا على أساس ما لديه معرفةً به، ويمكنه أن يفهم فقط تلك الأشياء التي شعر بها سابقاً. ولم تنجمْ أفكاره التي يسميها مجردة سوى عن التعديلات التي تطرأ على دماغه واستوحاها بالأساس من العالم الخارجي.

ويبحث **المحور الثالث** من الكتاب في موقف **هولباخ** من الإرادة، ونفيه لحرية الإرادة والقول بالجبرية أو القضاء والقدر؛ حيث يشير إلى أنَّ كلّ موجود له غاية معينة ولا شيء يحدث عبثاً من غير قصد، ويخالف الرواقيين الذين أقروا أنَّ الأشياء تمضي وفق قانون محتوم وقدر مرسوم وتسلسل سببي لا مصادفة فيه، مع عدم نفيهم لحرية إرادة الإنسان واختياره،

في حين ذهب **هولباخ** إلى أنَّ القول بالضرورة والحتمية يفترض بحد ذاته نفي قدرة الإنسان على الاختيار، وما نراه من اختيار لديه إنَّما ناجم عن ترويه وتريثه عند القيام ببعض الأعمال التي تتطلب ذلك، وهذا أمرٌ موجود عند جميع الكائنات، ويأتي هذا التروي من عدم معرفته لما يختاره، فيقع في حيرة وارتباك حتى تقرر إرادته أعظم الفوائد التي سيجدها في الشيء الذي يختاره أو الإجراء الذي يقوم به. ولكن هذه الإرادة لا تقرر من تلقاء ذاتها أيضاً، ودائماً تكون محتّمة بدافعٍ ورغماً عنها، مما يدل على أنَّ الإنسان لم يكن أبداً متحكماً بتحديد إرادته، ولا يتصرف أبداً كفاعلٍ حر؛ لأنَّ إرادته بحد ذاتها تحركها عللٌ مستقلة عنه، وجميع أفكاره وتأملاته وطريقة رؤيته للأشياء والشعور والحكم والجمع بين الأفكار ليست إرادية ولا حرة. ولا يتحكم بما في داخله ولا تكون أفعاله حرة أبداً، وهي دائماً نتيجة ضرورية لمزاجه وللأفكار المقبولة والمفاهيم التي كوّنها لنفسه عن السعادة، ومن آرائه المعززة بالقدوة والتربية والخبرة اليومية. ولا تعني الجبرية أنَّ الإنسان آلياً لا حول له ولا قوة، ذلك أنَّه يحتوي في داخله على عللٍ متأصلة في وجوده، ويحركه دماغٌ له قوانينه الخاصة؛ لذلك لا يلغي نظام القدرية والجبرية محاسبة الإنسان على أفعاله، وتشجيعه على ارتكاب الجريمة، وغياب تأنيب الضمير له.

يوضح **المحور الرابع** موقف **هولباخ** من المجتمع، حيث منحه الحق في الحفاظ على ذاته عبر محاسبة أفراده، بشرط أن يوفر لهم كلّ ما يمكّنهم بدورهم من تحقيق الغاية الأساسية من وجودهم، وجعلهم جديرين بالانتساب لذلك المجتمع، صحيح أنَّ أفعالهم ناجمة عن طبائعهم الفردية ونزواتهم وأمزجتهم وعواطفهم المتقلبة، لكن المجتمع هو الذي بذرَ بذورها الأولى، وعمل على تعديلها، وبحسب طبيعة المجتمع تكون طبيعة أفراده، ولا يحق له محاسبتهم على أعمال زرعها هو بحد ذاته في داخلهم، ولا يحق له وضع قوانين لا تحقق الفائدة لهم أو سن عقوبات هدفها فقط الاستمتاع بتعذيبهم، ولا تكسبهم أيّ فائدة. ومن هنا تحدث **هولباخ** عن صفات المجتمع الذي يرغب به الأفراد لتحقيق سعادتهم، ومن أهمها أن تكون سياسته فناً لتنظيم عواطف الإنسان وتوجيهها نحو رفاهية المجتمع، ولكي تكون مفيدة يجب أن تتوافق مع ماهيته ومع الغاية الكبرى للمجتمع، والحفاظ عليه وأن تتدخل في آرائه بما يتناسب ورفاهية أفراده، وتسهّل الوسائل التي تمنحها لهم، وتزيل بجدارة كلّ العوائق التي تنحو ضد نية الإنسان في الاقتران بجماعة

ما. ويمكن التعبير عن هذا الاقتران في نظرية العقد الاجتماعي الذي يتكون من مرحلتين، الأولى اجتماعية: عندما يدرك الأفراد أنَّ الآخرين هم من يحقق لهم رفاهيتهم، فيبرمون اتفاقاً مع بعضهم، ويتحدون من أجل الحصول على الأمن الشخصي والممتلكات وغيرها من المنافع للمجتمع، ولا يُلغى هذا العقد بين الأفراد أبداً، لاسيما مع إدراكهم لضرورة الإنسان لأخيه الإنسان بما يمتلكه من ميزات متنوعة تختلف من فرد إلى آخر، ولا يمكنه العيش بمعزل عن أفراد جنسه، مما يلزمهم التعاون للحصول على ما هو ضروري لهم، ويجعلهم ذلك التنوع والتفاوت كائنات اجتماعية، ويثبت لهم بشكلٍ قاطع ضرورة الأخلاق.

أما المرحلة الثانية من العقد الاجتماعي فهي المرحلة السياسية الضيقة: وهو عقد يبرمه المجتمع من أجل تأمين الرفاهية العامة مع سلطة ملكية، يفهمها **هولباخ** عادةً على أنَّها ملك محدود أو على الأقل معلوم من قبل هيئة من الممثلين المنتخبين. وقد يلغي الأفراد هذا العقد الاجتماعي الثاني بنظر **هولباخ** كما هو الحال عند **لوك**؛ لأنَّ الحكام برأيه يمثلون كهنة المجتمع والمترجمين له والمؤتمنين إلى حدٍ ما على جزءٍ من سلطته، لكنهم ليسوا سادةً مطلقين ولا هم مالكين للأمم. وهم ملزمون بموجب ميثاقٍ صريحٍ أو ضمني بمراقبة الحفاظ على المجتمع والانشغال برفاهيته، وبهذه الشروط يوافق المجتمع على طاعتهم. ويكون ثمن الطاعة هو الحماية وضمان الحرية والملكية والأمن وكلّ ما يلزم المواطنين نحو مجتمعهم. وعندما تفشل الحكومة في تأمين الرفاهية العامة، يكون للمجتمع الحق في الثورة. ويتوقع **هولباخ** كما كان الحال عند **هوبز Hobbes**،(*) انهيار طاعة صاحب السيادة عند شعور الأفراد بالحاجة إلى تأمين حياتهم وعجز الحكام عن توفيرها، فالحكومة لا يمكن أن تكون شرعية إلا بتأسيسها على القبول الحر للمجتمع، ومن دونها يكون العنف والاغتصاب والسرقة، ويمكن للمجتمع أن يلغي هذه السلطة متى كانت مصلحته تفرض عليه تغيير شكل حكومته، وتوسيع أو تقييد السلطة التي عهد بها إلى رؤسائه الذين كان

* - **توماس هوبز**: (1588–1679) عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي، كان لمفاهيمه دور كبير على مستوى النظرية السياسية، لاسيما مفهوم العقد الاجتماعي، ومن أشهر أعماله: لوياثان. أنظر:
The concise Encyclopedia, Western Philosophy, Hobbes, Thomas, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed.s).p.168.

من واجبهم الاهتمام برعاية المواطنين وتعليمهم. وعندما يفشلون في القيام بذلك يصبح المواطنون محكومين بالعاطفة، وتنتج الظروف المواتية لحصول الثورة. ولكي يتحرر الإنسان من سطوة الحكام عليه أن يعتق نفسه من سلطة الدين، ولكن هيهات له ذلك، حيث يرى **هولباخ** أنَّ الناس كانوا عبر مختلف العصور أشبه بالمخمورين نتيجة هذه السلطة التي قدّمت لهم وعوداً مختلفة حول حياة ما بعد الموت، وأنَّ سعادتهم لا تكمن في حياتهم الدنيا، ولكنه يشير إلى أنَّ الإنسان لن يبلغ السعادة طالما ظل مؤمناً بحياة ما بعد الموت، ولكي ينالها ينبغي أن يجعل من نفسه مفيداً ونافعاً لأقرانه في الحياة الوحيدة التي ليس لديه أيّ معرفة بها، ويبتعد عن الأهوال التي زرعها الدين في قلبه عن الموت، ويفكر في إصلاح مؤسساته وتحسين قوانينه، والارتقاء بتقدم العلم وكمال أخلاقه، والبحث في هذا العالم الواقعي عن الأمور التي تحثه على الانصراف عن الجريمة وإيقاظه على الفضيلة، والبحث ضمن الطبيعة وفي الخبرة عن علاجات لشرور أبناء جنسه، وعن الدوافع المناسبة لبث ميول العاطفة البشرية المفيدة حقاً للمجتمع. ويمكن أن توفر له التربية أفضل الوسائل لتصحيح ضلالات البشرية، وتزرع لديه براعم العطاء.

ويوضح **المحور الخامس** نظرية **هولباخ** في السعادة التي بناها على حفظ البقاء، ورغبته بالخلود، فإذا كان هناك خلود فهو يُطلق فحسب على ما يبذله الإنسان من جهدٍ في هذه الحياة يبقي اسمه من بعده عند ذريته، ولا يكون هذا إلا للنفوس الجريئة والنبيلة، والتي تكون ثمرة جهود العقول النشطة، وتتجاوز حدود وجودها الفعلي، وتحفل بالعبقرية والمواهب والفضيلة، وإن لم يكن الإنسان يمتلكُ هذه المواهب، فسيشعر أيضاً بالسعادة من فكرة بقاء اسمه خالداً عبر استمرار سلالته التي لن تذكره إلا بمقدار ما بذله من أجلها، وما قدمه لمن عاش معهم، وإذا ما فكر على هذا النحو فلن يكترث بالموت، وسينظر له بثباتٍ واستسلام هادئ، ويتعلم التخلص من أهواله العبثية. ومهما كان ارتباط الإنسان بالحياة وخوفه من الموت إلا أنَّ الطبيعة ستزوده بالكثير من الدوافع التي تحثه على استقبال الموت برحابةِ صدر، ولا يمكنه أن يحب وجوده إن لم يكن سعيداً، وحالما تجعله الطبيعة بأسرها يرفض هذه السعادة، وتجعل كلّ ما يحيط به غير ملائم له، ولا تقدم أفكاره الكئيبة لخياله سوى الصور المؤلمة، فإنَّه لم يعد موجوداً بالفعل، وقد يتنحى عن رتبةٍ لم تعد تناسبه. ولا يجد فيها أيُّ مصلحة له، ولا توفر له أيّ حماية، ولم يعد من الممكن أن يكون مفيداً

فيها لا لنفسه ولا للآخرين. ولا يعني ذلك الدعوة للانتحار، لأنَّ الإنسان يمتلك ما أطلق عليه **هولباخ** البلسم الملكي؛ أي العقل الذي يزوده بالأمل والرغبة بالحياة والتي تمثل أعظم نعمةٍ للإنسان. ومن حرمته الطبيعة من هذه النعمة لا يحق لنا الحكم عليه لا بالثواب ولا بالعقاب؛ لأنَّه وجد ضمن بيئة لم توفر له ذلك، ولا يحق لبلده أو لأسرته التذمر من عضو لا يمكنها إسعاده. ولكي يكون مفيداً لأيّ منهما، من الضروري أن يعتز بوجوده الخاص، ويعرف أنَّ مصلحته تكمن في الحفاظ على نفسه والحفاظ على علاقته مع الآخرين والانشغال بسعادتهم. وينبغي أن يدربه المجتمع على ازدراء الموت ويبعد عن ذهنه الأفكار الخاطئة التي تقع عواقبها عليه، ويزرع فيه حبه لذاته، ويميل إلى الحفاظ عليها، ويسعى إلى إسعاد وجوده، ولا يمكنه أن يشعر بالسعادة من دون القناعة، فليست السعادة بالثروة أو في شيء محدد بعينه.

وهكذا فإنَّ المصلحة أو الرغبة في السعادة، هي الدافع الحقيقي الوحيد لجميع أفعاله، وتعتمد هذه المصلحة على منظومته الطبيعية، ورغباته، وأفكاره المكتسبة، والعادات التي اتفق معها، وهو مخطئ عندما تظهر له منظومة فاسدة أو آراء خاطئة رفاهيته في أشياء عديمة الفائدة أو ضارة له وللآخرين. ويصبح فاضلاً عندما يؤسس سعادته على سلوكٍ مفيد لجنسه، ويستحسنه الآخرون. وستكون الأخلاق علماً عديم الجدوى، إذا لم تثبت للإنسان بشكلٍ قاطع أنَّ مصلحته تكمن في فضيلته. ولا يمكن لأيّ كائن عاقل أن يغفل في أيّ لحظة من حياته عن الحفاظ على ذاته أو ينسى رفاهيته، ولن يحصل على سعادته إلا إذا اعترف بفضل غيره، وعندها يدرك ضرورة امتلاك الفضيلة والتي تعني فن إسعاد ذاته من خلال سعادة الآخرين. والطبيعة تهب السعيد كل ما يمكّنه من الحصول على سعادته وسعادة أقرانه، وتعطي التعيس منظومة بائسة، ولكن ذلك لا يعني وجود سعادة بالمطلق أو تعاسة بالمطلق، إذ أنَّ التربية والمجتمع والطبيعة ذاتها لها دورٌ في تغيّر منظومة الإنسان، فسعادته لا تتوقف عليه وحده وإنّما على ماهية الأشياء من حوله، والتي تخضع بدورها لضرورة الطبيعة.

ولا يمكن الحديث عن السعادة في شيءٍ بعينه، فما يخلق السعادة عند كائن قد يسبب البؤس عند كائن آخر، واللذة، والثروات، والسلطة، أشياء تستحق أن يطمح إليها ويبذل جهوداً كبيرة لأجلها، عندما يتعلم كيف يستخدمها بطريقةٍ تجعل وجوده أكثر

قبولاً. والسلطة المطلقة بالنسبة لمن لا يعرف كيف يطبقها لصالح مواطنيه ليست شيئاً، وإذا جعلته تعيساً فهي شرٌ حقيقي، وإذا تسببت في سوء حظ قسم من الجنس البشري فستكون إساءةً مقيتة، وتكون العظمة والرتبة والسمعة مرغوبة عند كلّ من هم على دراية بجميع الوسائل التي تجعلهم خاضعين لسعادتهم، وهي عديمة الجدوى بالنسبة لأولئك البشر العاديين الذين ليس لديهم الطاقة ولا القدرة على استخدامها بطريقةٍ مفيدة لأنفسهم، وهي بغيضة عندما يحصل عليها إنسان يساوي بين سعادته ورفاهية المجتمع، ويخطأ هذا المجتمع ذاته في كلّ مرة يحترم فيها بشراً يستخدمون القوة لتدميره فحسب، ولا يجوز أبداً الموافقة على ممارستهم وإن حصل منهم على فوائد جمة. ولا يمكن أن يؤسس حق الإنسان على أخيه الإنسان إلا على السعادة الحقيقية التي يؤمنها له.

وسيجد الإنسان دائماً في العقل ملاذاً له؛ فهو الذي يعلّمه أنَّ اللذة سعادة مؤقتة، وغالباً ما تتحول إلى شر. وأنَّ الشر مشكلةٌ عابرة، وغالباً ما يصبح خيراً، وهو الذي يجعله يفهم الطبيعة الحقيقية للأشياء، ويمكّنه من التنبؤ بالنتائج التي قد يتوقعها، ويميز بين الرغبات التي ترضي رفاهيته وتلك التي يجب أن يقاوم إغراءها. وسيقنعه ذلك برأي **هولباخ** أنَّ المصلحة الحقيقية لمن يرغب في إسعاد وجوده، تتطلب منه إلغاء كلّ الأشباح التي تعيق سعادته في هذا العالم، وأولها المعتقدات الدينية كخلود النفس والجنة والنار والإيمان بخالق قائم بذاته لهذه الطبيعة، وكلّها لا وجود لها، ولا تنجم سوى عن جهل الإنسان بالأسباب الطبيعية، ولجوئه إلى الدجل الذي أرعبه من تلك الآلهة، وطاردته هذه الأفكار المصيرية من دون أن تجعله أفضل، وجعلته يرتجف من دون أن يسعد نفسه أو الآخرين. وجعلته مخاوفه عبداً لمن خدعوه بحجة تحقيق رفاهيته؛ فيرتكب الشر كلّما قالوا له: إنَّ آلهته أرادت ذلك، وعاش بائساً؛ لأنَّهم جعلوه يؤمن أنَّ الآلهة حكمت عليه بأن يكون تعيساً وعبداً لها ولم يجرؤ أبداً على فك قيوده بنفسه؛ لأنَّ الدين أفهمه أنَّ الغباء، والتخلي عن العقل، وكسل العقل، وتذليل النفس، كانت الوسائل الأكيدة للحصول على السعادة الأبدية، ولكنه زاد من بؤسه ويأسه عبر حضّه على كبت سعادته الخاصة، ولم يوضح له أنَّه بمقدار إسعاده لنفسه يسعد من حوله. لذلك يدعو **هولباخ** إلى تحرير الإنسان من أغلال التعصب الديني وعودته إلى الطبيعة؛ لأنَّه من صُنعها ويخضع لقوانينها التي لا يستطيع أن يتجاوزها ولو فكرياً. وينبغي أن يحقق في قوانينها الثابتة، ويبحث فيها وحدها عن

علاجات لتلك الشرور التي تنتج عن أخطائه الحالية، وسيكون لغزاً لنفسه طالما أنَّه يعتقد بازدواجيته، وأنَّه متحرك بقوة يجهلها، وستبقى قدراته الفكرية والأخلاقية مبهمةً بالنسبة له إذا لم ينظر إليها كما ينظر لصفاته الجسدية، وأنَّها تخضع في كلّ شيء للنظم ذاتها. وأن يدرك أنَّ الحاجة هي الشر الأول الذي يختبره، وأنَّه ضروري للحفاظ على وجوده، وسيكون من دون الشر جاهلاً بالخير، وسيتعرض باستمرار للهلاك.

وبذلك قدم **هولباخ** أفكاراً ثرية حول الطبيعة والإنسان، ولم يكن فيلسوفاً هداماً بالمطلق أو مثيراً للفتنة كما اعتقد البعض، لاسيما أفكاره حول الفضيلة التي بدتْ قريبة من الأفكار الدينية التي يستنكرها هو ذاته، فالدين يحثّ على العمل ولا يمكن للإنسان أن يحصل على الفضيلة من دون العمل ضمن أفراد يتقاسم معهم الخيرات والسعادة، ولا يتعارض ذلك مع الحفاظ على ذاته وأن يضع مصلحته ضمن حدود مصلحة الآخرين، ومن هنا جاءت رغبتنا في ترجمة **هولباخ** إلى العربية بدافع تسليط الضوء على أفكاره، وتزويد المكتبة العربية بالمحتوى الفلسفي الخصب الذي كان له دورٌ كبير في إنعاش أوروبا في فترة من أهم فترات تاريخها، آملين توفير مادة تحفز الفكر العربي على الخروج من الأوهام الكثيرة التي علقت ضمن تراثه، وتنقية عقيدته، وخروجه من خيبات الأمل المتكررة التي عاشها في عصر العلم الذي زاد من تعاسة الإنسان وعجزه عن الإجابة على الكثير من الأسئلة، وتأتي أهمية ترجمة **هولباخ** على المستوى الفلسفي من حاجة الفكر إلى معرفة أصول الطبيعانية الحديثة والمادية والتجريبية المعاصرة، وفهم الدعوات والشعارات الرنانة للأمم المتقدمة إلى فصل الدولة عن الدين، وما تمخضَ عن هذه الدعوات من انحطاطٍ في وضع الأخلاق العملية من دون الارتكاز على الأخلاق النظرية التي استقاها الإنسان من الكتب السماوية، حيث بدأ رجل الدين يفقد قدرته على التوجيه الأخلاقي والإرشاد المعيشي للأفراد، مما جعلهم يخلقون مرشدين جدد، تمثلوا برجالات العلم والطب النفسي والمعالج النفسي، والتنمية البشرية، والإرشاد المعيشي؛ أي خلق الإنسان ديناً جديداً مبنياً على السلعة ذاتها وهي بيع الوهم للناس، واستبدال صلواته الفعلية بعلاجات استخلصها من الطبيعة، لتخليصه من الاكتئاب والقلق الذي تسببت به الشبكة العنكبوتية، فظهر ما يُسمى بالعلاج عن طريق التأمل الذهني والعلاج بالامتنان ويتمثل هذا الأخير في تأمل الإنسان لما لديه من نعمٍ وفضائل في هذه الحياة، ونشهد في الوقت الراهن العديد من

الخطوات الحثيثة لتحويل الإلحاد إلى مؤسسات اجتماعية تضاهي الخطاب الديني ومؤسساته كما يأملون ذلك، ولسنا هنا بصدد النقد وإنَّما توضيح كيف يطور الإنسان بنية فكرية مختلفة عن سابقتها من حيث الشكل فحسب، في حين أنَّ المضمون ذاته وهو سيطرة من يمتلك معرفةً بالعلل على من يجهلها، ويمكن القول: إنَّ فكرة إحداث قطيعة مع الدين أو اللاهوت هي فكرة شبه مستحيلة، طالما أنَّ الدين هو خمرُ الإنسان وسكره أو أنَّه أفيون الشعوب، وما دام هناك من يعمل على تجديده. وإذا كان جهل الإنسان بالعلل جعله يخلق أشباحاً كما أوضح **هولباخ**، فإنَّ العلم مكّنه من معرفة الكثير من هذه العلل التي جهلها الإنسان القديم، ومع ذلك خلق أشباحاً أخرى وأغرق الإنسان في دوامةٍ من الأسئلة عن أمورٍ لا طائل منها، وجعله حبيس العقل، ولكنه لم يطلب منه الانفكاك عن الإيمان بالإله والمعجزات؛ لأنَّ هذا الإيمان ازداد مع الكثير من النظريات العلمية الحديثة وعند أكبر العلماء في عصرنا، وأخيراً سيحفّز كتاب **هولباخ** الكثير من الباحثين إلى متابعةِ المهمة التي بدأها مفكرونا العرب في بداية القرن العشرين، والتي تمثلت في تنقية تراثنا من كلّ ما علق به عبر سيطرة الحكام في مختلف العصور.

صيف 2021

د. منال محمد خليف

إعلان للعامة

إنَّ كشف الخرافة والجهل وما وراءها من سذاجة، وتحسين حال الجنس البشري، هي الرغبة الشديدة لدى كلّ عقل محبٍ للخير.

فإذا تعلم البشر التعساء الذين خدعتهم أنظمة لاهوتية وهمية، أن يولوا أهميةً كبيرة للإيمان بالعقائد الدينية وأشكال وطقوس العبادة الدينية فحسب، فسيكون أدنى اختلاف بين العقائديين اللاهوتيين كافياً في كثيرٍ من الأحيان لتأجيج عقولهم، وإثارة تعصبهم الأعمى، ودفعهم إلى أن يلعنوا ويدمروا بعضهم بعض من دون شفقةٍ أو رحمةٍ أو ندم.

وما الأنظمة اللاهوتية المختلفة التي انخدع الجنس البشري بإيمانه بها سوى خرافات وأكاذيب فرضها الحالمون والمتطرفون على الجاهل والضعيف والساذج كحقائق تاريخية، والحادُّ هلك به الملايين على الصليب، أو وهنوا في زنزانات مظلمة، وسيظل هذا هو الحال دائماً، حتى ينكشف ضباب الخرافة ونفوذ الكهنوت من خلال نور المعرفة وقوة الحقيقة.

وقد وجّه العديد من محبي الخير الصادقين والموهوبين عقولهم القوية ضد العقائد الدينية التي تسببت بالكثير من البؤس والاضطهاد للبشر. ومع ذلك، حُرقت العديد من تلك الكتب التعليمية والتحررية أو دُفنت في غياهب النسيان بسبب تضافر سلطة ونفوذ الملوك والكهنة، وتعرضت شخصيات من الكُتاب للهجوم بفعل حقدٍ قاس لا هوادة فيه بسبب سوء معاملة الورّع.

ومن ثم فإنَّ مواجهة مصادر الأذى والبؤس هذه وتدميرها إن أمكن، هي المقصد لناشري مكتبة العائلة للمستفسر الحر. والتي يُفترض أن تنشر أعمال هؤلاء المؤلفين المشهورين الذين تم الاحتفاظ بكتاباتهم على نحوٍ مبهم بسبب التعصب الديني، في شكلٍ يجمع بين المزايا المختلفة لدقة الطباعة ورخص الثمن.

وقد بدأنا المكتبة بترجمة (نظام الطبيعة لـ**لبارون دي هولباخ**)؛ نظراً لتقديره على أنَّه من أكثر الكتب قدرةً على كشف السخافات اللاهوتية التي كُتبت على الإطلاق، وهو في الواقع (نظام الطبيعة). إذ يُنظر إلى الإنسان هنا من حيث علاقاته كافة مع أبناء جنسه، أي تلك الكائنات الروحية التي من المفترض أن تكون موجودة في المدينة الفاضلة الخيالية للمتدينين. ويمس هذا العمل العظيم جذور كلّ الأخطاء والنتائج الشريرة للخرافة والتعصب الديني. حيث يغرس التقي الأخلاق ويعلمنا أن نكون طيبين مع بعضنا لكي نعيش بسعادةٍ في المجتمع مع بعضنا، وأن نكون متسامحين وخيرين؛ لأنَّ اللطف يولد اللطف، وبالتالي يصبح كلّ فرد مهتم بسعادة كلّ شخص آخر، وبالتالي يساهم الجميع في سعادة البشر، وأن نكون متسامحين وقادرين على التحمل؛ لأنَّ الإيمان لا إرادي، والبشرية منظمة لدرجة أنَّ الجميع لا يستطيعون التفكير بالقدر ذاته.

دعوا أولئك الذين يعلنون لا أخلاقية الكتابات المتشككة، يقرأوا كتاب نظام الطبيعة، وسيتحررون من الأوهام. وسوف يتعلمون بعد ذلك أنَّ المشككين المفترين لا تحرّضهم دوافع أخرى غير دوافع الإحسان التي تستحق الثناء، ولا يسعون لزيادة هذا البؤس العرضي في حياة البشر، بل يرغبون فقط في علاج الأحقاد التي سببتها الخلافات الدينية، وإظهار البشر الذين يكون هدفهم الحقيقي بأن يكونوا سعداء، والسعي لجعل الآخرين كذلك. لكن دع أولئك يقرأون في البداية هذا الكتاب ويسعون للوصول إلى "معرفة الحقيقة"، دع أولئك الذين يقرؤونه يرهقون عقولهم بسبب الخوف من الموت، أو يضطربون من الحكايات الرهيبة عن إلهٍ دموي ومنتقم. دعهم يقرأوا هذا الكتاب، وستختفي شكوكهم إذا كان هناك أيّ قوة في رمح إيثوريل the spear of Ithuriel.(*)

* – رمح إيثوريل: الإيثوريل نبات بصلي معمر ينبت في أمريكا الشمالية، وقديماً كان إيثوريل شخصية في قصيدة جون ميلتون John Milton الإنجليزية الملحمية، *الجنة المفقودة*، وهو ملاك أرسله جبريل للعثور على الشيطان في جنة عدن. وظهر الشيطان على شكل علجوم ضفدع، وكلما بدأ الشيطان يدخل إيحاءات الشر في أذن حواء يضربه إيثوريل برمحه، فيعود الشيطان إلى شكله الحقيقي. (المترجم)، وللمزيد راجع: [Ithuriel's Spear (fs.fed.us)]

وإن كان بإمكان المنطق الأعمق، والتمييز الأدق، والسخرية اللاذعة والأشدُّ حماسةً، أن تضفي شهرةً على مصداقية المؤلف، فقد نشيد بحق البارون **دي هولباخ** باعتباره الأعظم بين الفلاسفة، وشرفاً للصابئين. وهو مؤلفٌ للعديد من الأعمال الشهيرة إلى جانب كتاب (نظام الطبيعة)،[1] ويمكن أن نذكر من بينها، (الحس السليم Good Sense)، و(التاريخ الطبيعي للخرافة The Natural History of Superstition)، و(رسائل إلى يوجينيا Letters to Eugenia)، وغيرها من المنشورات الشهيرة. ويصفه كُتاب السيرة الذاتية بأنَّه "رجلاً ذو مواهب عظيمة ومتنوعة، وكريمٌ وطيب القلب".[2] ويروي لنا القس **لورنس ستيرن Laurence Sterne**(*) في رسائله أنَّه غنيٌ وكريمٌ ومتعلم، ويحتفظ بصالون مفتوح عدة أيام في الأسبوع للعلماء الفقراء. ويقول **دافنبورت Davenport**، في كتاب (عند العشاء ubi sup)، صفحة 324 :"نُشرت أعماله الهائلة جميعها بشكلٍ مجهول." ولا شك أنَّ كتاب نظام الطبيعة نُسب بناءً على هذا التفسير، ولأول مرة إلى **هيلفيتيوس Helvetius**، ثم إلى **ميرابو Mirabeau**. لكن هذه المسألة المهمة طرحها على البقية البارون **جريم Grimm**، والذي نذكر المقتطفات التالية من مراسلاته الشهيرة، بتاريخ 10 آب1789 :

"تعرفتُ على البارون **دي هولباخ** قبل سنواتٍ قليلة من وفاته، ولكن من أجل التعرّف عليه، والشعور بهذا الاحترام والتقدير الذي ألهم أصدقاءه بشخصيته النبيلة، لم يكن من الضروري التعارف لفترة طويلة. لذلك سأحاولُ وصفه كما بدا لي، وسأقنع نفسي أنَّه لو تمكن من سماعي، لكان مسروراً بصراحةِ وبساطةِ إجلالي".

ويقول أيضاً: "لم ألتقِ أبداً برجلٍ مثقفٍ – ويمكنني أن أضيف، مثقف على نحوٍ كلي أكثر من البارون **دي هولباخ**؛ ولم أرَ أبداً أيّ شخص يهتم بالقليل ليثقف العالم. ولولا الاهتمام الصادق الذي أبداه بتقدّم العلم، والتوقُ إلى نقل ما يعتقد أنَّه ربما يكون مفيداً للآخرين، لبقي العالم جاهلاً دائماً بسعة معرفته الواسعة. وهو الذي تخلى عن تعلّمه، وثروته، لكنه لم ينحني إلى الرأي العام".

---

*- لورنس ستيرن: (1713–1768) رجل دين وروائي أيرلندي. (المترجم) للمزيد راجع: [Britannica.com/biography/Laurence-Sterne]

ويضيف: "الأمة الفرنسية مدينة للبارون **دي هولباخ** بتقدمها السريع في التاريخ الطبيعي وعلم الكيمياء. وهو الذي ترجمَ قبل 30 عاماً أفضل الأعمال التي نشرها الألمان في هذين العلمين، وكانت حتى ذلك الحين بالكاد معروفة، أو اهملتْ على الأغلب في فرنسا على الأقل. وأثريتْ ترجماته بملاحظات قيّمة، لكن أولئك الذين استفادوا بجدّ ذاتهم من عمله تجاهلوا من كانوا مدينون له؛ ونادراً ما يُعرف حتى اليوم".

و"لم يعد هناك أيّ تهورٍ بالإشارة إلى أنَّ البارون **دي هولباخ** هو مؤلف العمل الذي أحدث منذ ثمانية عشر عاماً ضجةً كبيرة في أوروبا، وهو كتاب نظام الطبيعة الشهير. ولم يغرِه حبهُ لذاته بالسمعة السامية التي اكتسبها عمله. وإن كان محظوظاً لدرجة تنصله من الشك، لكنه كان مديناً به لتواضعه أكثر مما هو مدينا به لرجاحة عقل أصدقائه وحكمتهم. أما بالنسبة لي، فأنا لا أفضّل تدريس العقائد في هذا العمل، لكن أولئك الذين عرفوا المؤلف، سيعترفون بحق بعدم وجود أيّ اعتبار خاص يدفعه للدفاع عن ذلك النظام؛ حيث أصبح رسوله نقاء النية، وإنكار الذات والذي كان في نظر الإيمان يبجله رسل أقدس الأديان".

و"لم يخلق كتابيه النظام الاجتماعي Système Social، والأخلاق الكلية Morale Universelle، الإحساس ذاته مثل كتاب نظام الطبيعة؛ لكن يظهر بهذين العملين أنَّه بعد إزالة ما أقامه الضعف البشري كحاجزٍ أمام الرذيلة، شعر المؤلف بضرورة إعادة بناءٍ أخرى مبنية على تقدم العقل، والتعليم الجيد، والقوانين السليمة".

ولذلك "كان من الطبيعي أن يؤمن البارون **دي هولباخ** بهيمنة العقل؛ لأنَّ مشاعره (ونحن نحكم دائماً على الآخرين من خلال أنفسنا)، قدمت في جميع القضايا تعريفاً للفضيلة والمبادئ الصحيحة. وكان من المستحيل أن يكره أحداً، ومع ذلك لم يستطع ومن دون عناء أن يخفي رعبه العميق عن الكهنة ورعاة الاستبداد، ومروجي الخرافة، وكلّما تحدث عن ذلك كان مزاجه الطبيعي يتخلى عنه".

و"يـذكر البـارون دي هولبـاخ مـن أصـدقائه، كلـود أدريان هيلفيتيـوس Helvétius،(*) المعروف ودنيس ديدرو Diderot،(**) وجان لوروند دالمبير d'Alembert،(***) ونيجيون Naigeon وإيتين بونوت دي كوندياك Condillac، (****) وتيرغو Turgot، وبوفون Buffon،(*****) وجان جاك روسو J.J Rousseau، (******)

---

* - كلـود أدريان هيلفتيـوس: (1715 - 1771) فيلسوف وموسوعي فرنسي، أثار الجدل بفلسفته، اعتنق مذهب اللذة الحسية، وأكد أنَّ كل نشاط عقلي صادر عن الإحساس، وعرف بهجومه على الأسس الدينية للأخلاق، ونظريته التعليمية. (المترجم)، وللمزيد أنظر:
Claude-Adrien Helvétius/ French philosopher/ Britannica

** - دنيس ديدرو: (1713–1884) كاتب ومحرر فرنسي، وتلقى تعليمه في الكلية اليسوعية في لويس غراند في باريس. كتب العديد من المقالات في الفلسفة والدين والنظرية السياسية والأدب، والعلوم التطبيقية، من أعماله (الأفكار الفلسفية 1746)؛ (أفكار حول تفسير الطبيعة 1754)؛ كان تجريبياً مقتنعاً، وقبل "الحقائق" العلمية ورفض جميع الأنظمة الميتافيزيقية، وخاصة الوحي المسيحي، وادعاء الكنيسة بالسيطرة على العقل. (المترجم)، وللمزيد أنظر:
The concise Encyclopedia, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed.s), Western Philosophy, Third Edition, Routledge, London and New York,2005.p.110.

***- جان لوروند دالمبير: (1717–1783) رياضي وفيلسوف وموسوعي فرنسي ساهم في اصدار الموسوعة الفرنسية إلى جانب ديدرو، وكان من المؤمنين بالعقل، وناهض المعتقدات القديمة وأيد المفكرين المتحررين من سطوة الدين. (المترجم) وللمزيد أنظر:
The concise Encyclopedia, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed.s), Western Philosophy, Third Edition, Routledge, London and New York,2005.pp.7 &109.

**** - إيتين بونو دي كوندياك: (1715–1780) ولد في غرونوبل وأخذ أوامر مقدسة قبل أن يتواصل مع ديدرو وغيره من علماء الفلك، الذين تأثر بهم بشكل كبير. كان أيضاً صديقاً لروسو لفترة طويلة. بدأ كتلميذ للوك، الذي كانت فلسفته تحظى بشعبية كبيرة بين المفكرين المتقدمين في فرنسا في ذلك الوقت. وفي كتابه الأول، مقال عن أصل المعرفة البشرية (1746)، كان راضياً باتباع لوك، لكنه كان تجريبياً أكثر منه. لاسيما في عمله الرئيسي، (أطروحة عن الحواس 1754). (المترجم) وللمزيد: (**The concise Encyclopedia**, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed.s), Western Philosophy, Third Edition, Routledge, (London and New York,2005. p.78.

***** - بوفون: (1707–1788) عالم طبيعة وكونيات وفيلسوف وكاتب فرنسي. كان له تأثير عظيم على علماء الطبيعة اللاحقين، وقد أشاد به معاصروه لكتابه العظيم (التاريخ الطبيعي). (المترجم) للمزيد: (The concise Encyclopedia, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed.s), Western Philosophy, Third (Edition, Routledge, London and New York,2005.p.101.

****** - جان جاك روسو: (1712–1778) كاتب سويسري، كان لآرائه الفلسفية والسياسية دوراً كبيراً في إشعال الثورة الفرنسية، ومن أشهر كتبه، إميل (1762)، وهو كتاب عن التعليم، و(العقد الاجتماعي) وهو كتاب في السياسة. (المترجم)، وللمزيد: (**The concise Encyclopedia**, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed.s), Western Philosophy, Third Edition, Routledge, London and New (York,2005.p.334.

وفولتير Voltaire،(*) وآخرون، وفي بلدان أخرى، رجال مثل **ديفيد هيوم**، **وديفيد غاريك Garrick** **وأباتي غالياني Abbate Galiani** وآخرون. ولو أخذ المجتمع المتميز والمتعلم بالحسبان على أنَّه يقدم المزيد من القوة والتوسع لعقله، لكان قد لوحظ أيضاً أنَّ هؤلاء الرجال اللامعين لم يتمكنوا من الحصول سوى على أمورٍ غريبة ومفيدة منه؛ لأنَّه امتلك مكتبةً واسعة، وكانت صلابة ذاكرته من النوع الذي مكّنه من تذكر كلّ ما قرأه ذات مرة من دون بذلِ أيّ جهد".

ومع ذلك، فإنَّ أكثر ميزة جديرة بالثناء في شخصية **دي هولباخ**، كانت إحسانه، ونختم الآن هذا الوصف بالحكاية البليغة التالية التي رواها السيد **نيغون Naigeon** في مجلة باريس:

"كان من أولئك الذين يترددون على منزل **دي هولباخ**، سيداً واسع الاطلاع، وبدا فيما مضى في حالةِ تأمل وحزنٍ عميق. وتألم لرؤية صديقه في تلك الحالة، وهنا يتحدث عنه **دي هولباخ** قائلاً: لا أرغب في أن تفشي لي سراً لم تشأ أن تأتمنني عليه، لكني أراك حزيناً، ووضعك يجعلني غير مرتاح وتعيس في الآن ذاته. وأعلمُ أنَّك لست غنياً، وقد تكون لديك رغبات أخفيتها عني. لذلك أحضرتُ لك عشرة آلاف فرنك لا حاجةَ لي بها. ولن ترفضها بالتأكيد إذا كنت تشعر بأيّ صداقة لي، وستعيدها قريباً عندما تجد نفسك في ظروف أفضل". وأكّد له هذا الصديق الذي انهال بالبكاء من كرم الفعل أنَّه لا يريد المال، وأنَّ امتعاضه كان لسببٍ آخر، وبالتالي لم يستطع قبول عرضه؛ لكنه لم ينس أبداً ما منحه إياه من لطفٍ، وأنا مدين له بفضل الحقائق التي ذكرتها للتو".

وليس لدينا أيّ اعتذارٍ نقدمها لإعادة نشر كتاب نظام الطبيعة في هذا الوقت، وسوف يدعم الكتاب ذاته ولا يحتاج مناصر، ولن يُردَّ عليه أبداً؛ لأنَّه في الحقيقة لا يمكن الرد عليه. فهو يوضح مغالطة دين الوثني وكذلك اليهودي – المسيحي والمحمدي. وهو دليلٌ للفيلسوف المتحرر من العبودية الدينية، وللناخب الفقير الذي ضللته حماقات الخرافة على حدٍ سواء.

---

* – فولتير:(1694–1778) فيلسوف وكاتب مسرحي فرنسي. للمزيد: (The concise Encyclopedia, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed.s), Western Philosophy, Third Edition, Routledge, (London and New York,2005.p.338.

ولذلك تجنب جميع الكُتاب المسيحيين في علم اللاهوت الطبيعي عن كتب ذكر هذا الإنتاج المتقن؛ لعلمهم بعدم قدرتهم المطلقة على التعامل مع منطقه القوي، وتجاوزوه بحكمةٍ وصمت. وفي الحقيقة أشار هنري لورد بروغام Henry Lord Brougham،(*) في خطابه الأخير عن اللاهوت الطبيعي إلى هذه الأطروحة الاستثنائية، ولكن يا له من حرص يتجنب به الدخول في القوائم مع هذا الكاتب المتميز! فهو يتجاوز الكتاب بسرعة وحنكة تنمُّ عن مدى وعيه الكامل بضعفه وقوة خصمه. ويقول سيادته: "ما من كتابٍ عن الوصف الإلحادي ترك انطباعاً أعظم من كتاب نظام الطبيعة الشهير".

*****

"من المستحيل إنكار مزايا كتاب نظام الطبيعة. فهو كتابٌ لكاتب عظيم بلا شك، وتكمن ميزتهُ في بلاغة التأليف غير العادية، والمهارة التي تُستبدل بها الكلمات بالأفكار، ووضع الافتراضات كبراهين لاجتياز التيار...الخ. وهو بضع صفحات عن هذا الخطاب الفارغ الذي يهاجم به سيادته ويدين هذا الكتاب البليغ والمنطقي".(3)

لا نرغب في تأخير القارئ لفترةٍ أطول عن قراءته بإطالة مقدمتنا، وعلينا فقط أن نشير في الختام إلى أنَّه عند انتهاء البارون دي هولباخ من هذا الكتاب، ربما قال بحقيقة أكبر، وبغرور أقل بكثير من حورس Horace:

أنهيتُ النصب التذكاري الدائم
المرموق أكثر من الأهرامات
التي لم يبليها مطر، ولم تتمكن وحوش البرية
من تدميرها، أو أن تحصيها
السنين وما مضى من الزمن.* - وما يليها.

Q, Hor. Flac. Car. Lib. III. 30, v. 1-5

نيويورك، أيلول، 1835.

---

* - هنري بيتر بروام: (1778- 1868)، حقوقي وسياسي بريطاني، من كتبه (السياسة الاستعمارية للقوى الأوروبية 1803). (المترجم)، للمزيد راجع: Henry Peter Brougham, 1st Baron Brougham and Vaux/British politician/ Britannica.

تصدير المؤلف

مصدر تعاسة الإنسان هو جهله بالطبيعة، وعناده الذي يجعله يتمسك بأفكارٍ عمياء تشرّبها منذ طفولته، ونُسجت بحد ذاتها بجبلته، وكذلك تحيزه الناجم عن تشويه عقله الذي يمنع نموه ويجعله عبداً لخياله، ويبدو أنّه يحكم عليه بالضلال المستمر. وهو أشبه بطفلٍ يفتقر للخبرة، ومفعماً بمفاهيم الخمول؛ حيث تختلط خميرةً خطيرة بحد ذاتها مع كلّ معرفته، وهي غامضة ومتذبذبة وكاذبة بالضرورة، ويتخذ لهجةً لأفكاره بحسب سلطة الآخرين الذين هم أنفسهم مخطئون أو لهم مصلحةٌ في خداعه. ولإزالة هذا الظلام السيميري Cimmerian،(*) وهذه العقبات التي تقف أمام تحسين حالته؛ وإبعاده عن غيوم الضلال التي تحيط به، وتحجب الطريق الذي يجب أن يسلكه ويوجهه للخروج من هذه المتاهة الكريتية Cretan،(**) يحتاج إلى دليل أريادن **Ariadne**، وكلّ الحب الذي تمكنت من منحه لثيسيوس **Theseus**. (***) ويحتاج إلى بذلٍ مجهود مشترك وإلى شجاعة أكثر إصراراً وأكثر بسالةً، ولا تُنفذ أبداً إلا من خلال تصميم مثابر على التصرف والتفكير بنفسه، وفحص الآراء التي يتبنّاها بصرامةٍ وحيادية. وسيجد أنَّ الأعشاب الأكثر ضرراً قد نبتت إلى جانب الزهور الجميلة؛ وتشابكت بحد ذاتها حول سيقانها، وطغت عليها بوفرةٍ من الأوراق، فخنقت الأرض وأضعفت نموها، وقلّلت من بتلاتها، وأضعفت من تألق ألوانها، وخدعت بعذوبة نظارتها الواضحة وبسهولة تقشيرها، فمنحها الحراثة وسقاها ورعاها، في حين كان عليه اقتلاعها من جذورها.

---

* – نسبة إلى قارة قديمة تشمل جزء من تركيا وإيران وأفغانستان.(المترجم)

** – نسبة إلى الجزيرة اليونانية كريت.(المترجم)

*** – للمزيد حول أسطورة ثيسيوس وأريادن راجع: ساليس، د. فيكتور، الميثولوجيا الحية: فن الحب والحياة في الأساطير اليونانية، تحقيق وترجمة: نبيل سلامة، دار نوافذ للدراسات والنشر، ط1، 2011.(المترجم)

ويسعى الإنسان للخروج من نطاق كوكبه، ولا يزال يحاول المستحيل على الرغم من التحقق المتكرر من خبراته الحمقاء الطموحة؛ فيسعى جاهداً لنقل أبحاثه إلى ما وراء العالَم المرئي، ويطارد البؤس في مناطق خيالية. وأن يكون ميتافيزيقياً قبل أن يصبح فيلسوفاً عملياً، ويتوقف عن التأمل بالوقائع للتأمل بالوهم. ويهمل الخبرة ليتغذى على التخمين، والانغماس بالفرضية. ولا يجرؤ على تثقيف عقله؛ لأنَّه تعلّم منذ أيامه الأولى على اعتباره جريمة. ولذلك يتظاهر بمعرفة مصيره في مساكن غير واضحة عن حياة أخرى، قبل أن يفكر في الوسائل التي يُسعد نفسه من خلالها في العالم الذي يسكنه، وباختصار، يستهين الإنسان بدراسة الطبيعة إلى حدّ ما، ويلاحق الأشباح التي تمثلت بوهج المستنقع ignis-fatuus،(*) الذي يبهرُ ويذهلُ ويحيّر في الآن ذاته، وهو مثل المسافر الغامض الذي ضلّ الطريق بهذا الزفير المخادع لتربةٍ سبخة، يتخلى على نحوٍ متكرر عن الخطة وطريق الحقيقة السهل والبسيط، والذي يمكّنه عند تتبعه من أن يأمل لوحده منطقياً الوصول إلى الغاية وهي السعادة.

ومن هنا فإنَّ أهم واجباتنا هو البحث عن الوسائل التي تمكننا من تدمير الأوهام التي لا يسعها سوى تضليلنا. ويجب البحث عن علاجات لهذه الشرور في الطبيعة ذاتها، ويمكننا أن نتوقع بعقلانية أنْ نجد في وفرة مواردها فقط، ترياقاً للأضرار التي يجلبها لنا التعصبُ السيئ التوجيه، والتعصبُ الديني الطاغي. إنَّها الزيزفون الذي عُثر فيه على هذه العلاجات؛ وقد حان الوقت للنظر بجرأة في وجه الشر، وفحص أسسه والتدقيق في بنيته الفوقية، وأن يهاجم العقلُ بخبرته الإرشادية المخلّصة وتحصينه بتلك التحيزات التي ظل الجنس البشري ضحيةً لها لفترة طويلة. ولهذا الهدف يجب إعادة العقل إلى معقله، بعد أن جعله الجبن خاضعاً للهذيان وعبداً للباطل، ويجب إنقاذه من الصحبة الشريرة المرتبط بها، والتي حطت من قدره لفترة طويلة، وأهملته لفترة طويلة، ويجب ألا يُكبل بعد الآن بسلاسل ضخمة من التحيز الجاهل.

* – وهج المستقع أو إغنيس فاتوس: مصطلح لاتيني يعني (النار الحمقاء)، وهو ضوء طيفي مائل للزرقة، يُشاهد أحياناً فوق المستنقعات والمقابر. ويعتقد العلماء بأنَّه ينجم عن الاحتراق الطبيعي لغاز الميثان الذي ينتج بدوره عن النباتات المتحللة.(المترجم)، للمزيد راجع: [vocabulary.com/dictionary/ignis%20fatuus.]

والحقيقة ثابتة – ضرورية للإنسان – لا يمكن أن تؤذيه أبداً – وتلزمه ضروراته ذاتها، عاجلاً أم آجلاً، وعقلانياً على الإقرار بذلك. لذا دعونا نكشفها للبشر، ونُظهر سحرها، ونلقي بفعاليتها على الطريق المظلمة؛ فهي الطريقة الوحيدة التي يمكن للإنسان من خلالها أن يشعر بالاشمئزاز من تلك الخرافة المشينة التي تؤدي به إلى الضلال، وغالباً ما تنتهك احترامه من خلال تغليف نفسها غدراً بقناع الحقيقة – لا يمكن لبريقها أن يجرح أحداً سوى أعداء الجنس البشري الذين تتموضع سلطتهم على الجهل وحده، وعلى الظلمة التي يدعونها في كلّ مناخٍ تقريباً لتوريط عقل الإنسان.

ولا تخاطب الحقيقة هذه الكائنات المنحرفة، ولا يمكن أن يسمع صوتها إلا عقولاً كريمة اعتادتْ على التأمل، وندبتْ بفضل احساساتها على المصائب الهائلة المنهمرة على الأرض بفعل الاستبداد السياسي والديني، وتفكرُ عقولهم المستنيرة بشرفٍ في ضخامةِ وثقل هذه السلسلة من المصائب التي طغى بها الضلال على البشرية في كلّ العصور.

ويجب أن يُنسب الضلال إلى تلك السلاسل غير المحتملة التي وضعها الطغاة، وزورها الكهنة لجميع الأمم، ويجب أن يُنسب الضلال بالقدر ذاته إلى تلك العبودية البغيضة التي سقطَ فيها الناس بكلّ بلد تقريباً. وأصرّت عليهم الطبيعة أن يسعوا وراء سعادتهم بأقصى قدرٍ من الحرية. ويجب أن يُنسب الضلال إلى تلك الأهوال الدينية التي حجَّرت الإنسان بفعل الخوف في كلّ مناخ تقريباً، أو جعلته يدمرُ نفسه من أجل كائنات فظة أو خيالية. ويجب أن يُعزى الضلال إلى تلك الأحقاد المتأصلة، وتلك الاضطهادات الهمجية وتلك المذابح العديدة، والمآسي المروّعة التي جعلت من الأرض، بحجة خدمة مصالح السماء، مسرحاً في كثيرٍ من الأحيان. إنَّه ضلال كرّسه التعصب الديني الذي ينتج ذلك الجهل، وذلك الشك الذي يجدُ فيه الإنسان نفسه أمام واجباته الجلية وحقوقه الواضحة، والحقائق الأكثر إثباتاً. وباختصار، يكون الإنسان في كلّ مكان يتواجد فيه تقريباً مكبلاً بفقرٍ مدقع، وخالٍ من عظمة النفس أو العقل أو الفضيلة، ولا يسمح له حراسه اللاإنسانيون أبداً برؤية ضوء النهار.

دعونا نسعى إذن إلى تبديد غيوم الجهل تلك، وضباب الظلام الذي يعوق الإنسان في رحلته، ويحجب تقدمه ويمنعه من السير بخطوةٍ حازمة وثابتة في الحياة. دعونا نحاول أن

نلهِمه الشجاعة – واحترام عقله – وحب لا ينضب للحقيقة – حتى يتعلّم أن يعرف نفسه – أن يعرفَ حقوقه المشروعة – ربما يتعلم أن يستشير خبرته، ولا يعد مخدوعاً بالخيال الذي ضللته به السلطة – ربما يتخلى عن تحيزاتِ طفولته – ربما يتعلّم أن يؤسس أخلاقه على طبيعته، وعلى حاجاته، وعلى الميزة الحقيقية للمجتمع – وقد يجرؤ على حبّ ذاته – ربما يتعلم السعي وراء سعادته الحقيقية من خلال الترويج لسعادة الآخرين – باختصار، ربما لا يشغل نفسه بعد الآن بخيالات عديمة الفائدة أو خطيرة – ربما يصبح كائناً فاضلاً وعقلانياً، ولا يمكنه في هذه الحالة أن يفشلَ في أن يصبح سعيداً.

وإذا كان لابدّ أن تكون لديه كائنات خيالية، دعه يتعلّم على الأقل السماح للآخرين بتكوين كائناتهم الخاصة بهم على شاكلتهم؛ بما أنَّ لا شيء يمكن أن يكون غير مادي سوى طريقة تفكير البشر في موضوعات ليست في متناول العقل، بشرط عدم المعاناة بتجسيد تلك الأفكار بحد ذاتها إلى أفعال ضارة بالآخرين، ودعه يقتنع في البداية بأهمية أن يكون سكان هذا العالم عادلين ولطفاء ومسالمين.

وسيُظهر الفحص المحايد لمبادئ هذا الكتاب، بعيداً عن الإضرار بقضية الفضيلة، أنَّ هدفه إعادة الحقيقة إلى معبدها الصحيح، وبناء مذبح تتوطد أساساته على الأخلاقِ والعقل والعدالة، وستشع من هذه الروح المقدسة الفضيلة التي يحرسها الحق وتكسوها الخبرة بنورها على البشر المبتهجين؛ الذين سيفتح إجلالهم المتدفق دوماً على العالم حقبةً جديدة، لكونه يقدم عموماً اعتقاداً مفاده أنَّ السعادة، أيّ الغاية الحقيقية لوجود الإنسان، لا يمكن تحقيقها إلا من خلال تعزيز سعادة إخوانه البشر.

وفي الختام: حذَّر من الشيخوخة والأطراف الضعيفة التي تجعلك تدنو من الموت بسرعة، ويؤكد المؤلف بشدة على أنَّ موضوعه الوحيد في أعماله كان تعزيز سعادة أقرانه من البشر، وطموحه الوحيد هو الحصول على استحسان بعض أنصار الحقيقة الذين يبحثون عنها بصدقٍ وإخلاص. وأنَّه لا يكتب لمنْ يصمّون آذانهم عن سماعِ صوت العقل، ويحكمون على الأشياء فقط من خلال مصلحتهم الدنيئة أو تحيزاتهم القاتلة، فبقاياه الباردة لن تخشى صخبهم ولا استيائهم، وهو منزعجٌ جداً من أولئك الذين تجرأوا على التصريح بالحقيقة أثناء حياتهم.

الفصل الأول
الطبيعة

سيخدع البشر أنفسهم دائماً بتخليهم عن الخبرة لاتباع أنظمة خيالية. فالإنسان من عمل الطبيعة وموجودٌ فيها، ويخضع لقوانينها التي لا يستطيع أن يحرر نفسه منها، ولا يمكنه أن يتجاوزها ولو ذهنياً. ومن العبث أن ينطلق عقله إلى ما وراء العالم المرئي، حيث تفرض الضرورةُ الملحة دائماً عودته. وما من شيء بالنسبة لكائنٍ شكّلته الطبيعة ومقيد بقوانينها، يتجاوز الكلّ العظيم الذي يشكّل هو جزءاً منه ويواجه نفوذه. والكائنات التي يصورها لنفسه على أنّها فوق الطبيعة أو متميزة عنها، هي دوماً كائنات خرافية تشكّلت بموجب ما رآهُ بالفعل، ولكن من المستحيل أن تكون لديه أيّ فكرة صحيحة، سواء فيما يتعلق بالمكان الذي تشغله أو طريقة تأثيرها. ولا يوجد شيء ولا يمكن أن يكون هناك شيئاً خارج تلك الطبيعة التي تشمل جميع الكائنات.

ولذلك بدلاً من البحثِ خارج العالم الذي يقطنه عن كائنات يمكن أن تجلب له السعادة التي حرمته منها الطبيعة، دع الإنسان يدرس هذه الطبيعة، ويتعلم قوانينها ويفكر في طاقاتها، ويدرك القواعد الثابتة التي تعمل بموجبها: - دعه يطبق هذه الاكتشافات على سعادته ويخضع بصمتٍ لوصاياها التي لا يمكن أن يغيرها شيء: - دعه يوافق بمرحٍ على تجاهل العلل التي أخفاها عنه حجابٌ لا يمكن اختراقه: - دعه يستسلم من دون أنْ يتذمر لأوامر ضرورة كلية لا يمكن أن يستوعبها فهمه، ولا أن تحرره أبداً من تلك القوانين التي فرضتها عليه ماهيته.

ومن الواضح أنَّ التمييز الذي غالباً ما يكون بين الإنسان المادي والأخلاقي ناجمٌ عن إساءة استخدام المصطلحات. فالإنسان كائنٌ مادي بحت؛ والإنسان الأخلاقي ليس سوى هذا الكائن المادي منظوراً إليه من وجهة نظر معينة، أيّ فيما يتعلق ببعض أنماط عمله الناشئة عن منظومته الخاصة. ولكن أليستْ هذه المنظومة ذاتها من عمل الطبيعة؟

أليست هذه الحركة أو الدافع للفعل القابل لتأثّر به، هي حركة مادية؟ ألا تنجم أفعاله المرئية، وكذلك الحركة غير المرئية التي تثيرها إرادته أو أفكاره داخلياً، بالقدر ذاته عن تأثيرات طبيعية ونتائج لازمة عن عضويته وعن التأثير الذي يتلقاه؟ أيٌ من تلك الكائنات المحيطة به؟. وهل كان كلّ ما اخترعه عقل الإنسان على التوالي بهدف تغيير أو إتمام كينونته وإسعاد نفسه أكثر، نتيجةً ضرورية فقط للماهية الخاصة بالإنسان وماهية الكائن؟ أيّ الذي يؤثر عليه. إنَّ موضوع كلّ مؤسساته، وكلّ تأملاته، وكلّ معرفته، هو فقط الحصول على تلك السعادة التي تفرضها باستمرار ميزةٌ خاصة بطبيعته. وليس كلّ ما يفعله وكلّ ما يعتقده، وكلّ ما هو عليه وكلّ ما سيكون عليه، سوى ما صنعته الطبيعة. فأفكاره، وإرادته، وأفعاله، هي النتائج الضرورية لتلك الصفات التي غرستها الطبيعة فيه، وللظروف التي وضعته فيها. وباختصار، ليس الفن سوى تصرف الطبيعة بالأدوات التي صنعتها.

حيث تبعث الطبيعة الإنسان عارياً ومعدماً إلى هذا العالم الذي سيصبح مسكناً له، ويتعلم بسرعة أن يغطي عورته ليحمي نفسه من سوء الأحوال الجوية، أولاً بأكواخ جلفة وجلودِ وحوش الغابة، التي يصلح مظهرها تدريجياً ويجعلها أكثر ملاءمةً؛ فينشئ مصانعاً للأقمشة والقطن والحرير، ويحفر الطين وينقّب عن الذهب والحفريات الأخرى من أحشاء الأرض، ويحولها إلى طوبٍ لمنزله وإلى أوانٍ يستخدمها ويحسّن شكلها تدريجياً ويزيد من جمالها. وبالنسبة لكائنٍ يسمو على مجال كرتنا الأرضية، والذي لابدّ أن يفكر في الجنس البشري من خلال جميع التغييرات التي يخضع لها في تقدمه نحو الحضارة، لن يظهر الإنسان أقل خضوعاً لقوانين الطبيعة عندما يكون عارياً في الغابة يبحث عن رزقه بشكلٍ مؤلم، مما يحدث عندما يعيش في مجتمعٍ متحضر محاطاً بوسائل الراحة؛ وهذا يعني أنّه اغتنى بخبرةٍ أعظم وانغمس في الرفاهية، حيث يخترع كلّ يوم ألف رغبة جديدة ويكتشف ألف طريقة جديدة لإشباعها. ولابدّ من الأخذ بالاعتبار جميع الخطوات التي يتخذها الإنسان لتنظيم وجوده على أنّها سلسلة طويلة من العلل والمعلولات التي لم تكن سوى تطوير للدافع الأول الذي أعطته الطبيعة له.

وينتقل الحيوان ذاته بحكم منظومته تباعاً من أبسط الحاجات إلى أكثرها تعقيداً، ولكنها تكون نتيجة لطبيعته. فالفراشة التي نُعجب بجمالها وألوانها الغنية للغاية ومظهرها اللامع جداً، تبدأ كبيضة غير جذابة؛ فتنتج الحرارة عن هذه دودة، وتصبح هذه شرنقة ثم

تتحول إلى تلك الحشرة المُجنحة المزركشة بألوانٍ زاهية؛ وعند وصول الحيوان إلى هذه المرحلة يتكاثر وينتشر، وأخيراً يُسلب منه زهوه؟ وهو مجبرٌ على الاختفاء، بعد أن أنجز المهمة التي أوكلته بها الطبيعة، ووصف دائرة الطفرة المحددة لكائنات من رتبته.

ويحدث التقدم والتغير ذاته عند الخضروات. فمن خلال سلسلة من التوليفات المتشابكة أصلاً مع طاقات من الصبار، يُنظم هذا النبات بشكلٍ غير مدروس ويمتد تدريجياً، وعند نهاية عدد كبير من السنين ينتج تلك الأزهار التي تعلن عن انحلاله.

والأمر كذلك مع الإنسان الذي لا يعمل أبداً في كلّ حركة له، وكلّ التغييرات التي يخضع لها، إلا وفقاً لقوانين خاصة بمنظومته وبالمادة التي يتكون منها. فالإنسان المادي هو الذي يعمل وفق أسبابٍ نفهمها بحواسنا.

في حين أنَّ الإنسان الأخلاقي هو الذي يعمل وفق أسبابٍ مادية تمنعنا تحيزاتنا من الإلمام بها.

والإنسان المتوحش طفلٌ يفتقر إلى الخبرة وعاجز عن السعي وراء سعادته؛ لأنَّه لم يتعلّم كيف يتصدى لمقاومة التأثيرات التي يتلقاها من تلك الكائنات المحاط بها.

أما الإنسان المتحضر فهو الذي مكّنته خبرته وحياته الاجتماعية من أن يستقي من الطبيعة وسائلَ لسعادته؛ لأنَّه تعلّم أن يعارض مقاومة تلك التأثيرات التي يتلقاها من الكائنات الخارجية عندما علمته الخبرة أنَّها ستضر برفاهيته.

والإنسان المستنير هو إنسان قادرٌ من حيث نضجه وكماله على السعي وراء سعادته؛ لأنَّه تعلّم أن يبحث ويفكر بنفسه، ولا يأخذ بالحسبان الحقيقة بناءً على سلطة الآخرين، وعلَّمته الخبرة أنَّ البحث سيبرهن على خطأه في كثيرٍ من الأحيان.

أما الإنسان السعيد فهو الذي يعرفُ كيف يستمتع بفوائد الطبيعة؛ بمعنى آخر، هو الذي يفكر بنفسه ويحمد الله على الخير الذي يمتلكه. ولا يحسد الآخرين على رفاهيتهم، ولا يتنهّد الصعداء على الفوائد الخيالية التي تتجاوز فهمه دائماً.

في حين أنَّ الإنسان التعيس هو العاجز عن التمتع بفوائد الطبيعة؛ أيّ الذي يُحمّل الآخرين عناء التفكير عنه؛ ويهملُ الخير المطلق الذي يمتلكه، في بحثٍ عقيمٍ عن فوائد خيالية، ويتنهد الصعداء عبثاً على تلك التي يخيب سعيه إليها.

وينتج عن ذلك بالضرورة أنَّ الإنسان يجب أن يرتكز دائماً في أبحاثه على الخبرة والفلسفة الطبيعية، وهذا ما يجب أن يستشيره في دينه – في أخلاقه – في تشريعاته – في حكومته السياسية – في الآداب – في العلوم – في ملذاته – في مصائبه. وتُعلمنا الخبرة أنَّ الطبيعة تعمل بموجب قوانين بسيطة وموحدة وثابتة يربطها الإنسان من خلال حواسه بهذه الطبيعة الكلية، والتي يجب أن يخترق أسرارها بحواسه، ويجب أن يستخلص من حواسه الخبرة بقوانينها. ولذلك عندما يفشل في اكتساب الخبرة أو يخرج عن مسارها، يقع في الهاوية ويضلله خياله.

وجميع أخطاء الإنسان هي أخطاءٌ مادية، ولا يخدع نفسه أبداً إلا عندما يتجاهل العودة إلى الطبيعة وقوانينها، ويستدعي الخبرة لمساعدته. وبسبب نقص الخبرة يشكل أفكاراً ناقصة عن المادة وخصائصها ومركباتها وقوتها، وأسلوب عملها أو الطاقات التي تنبثق عن ماهيتها. وبافتقاره إلى هذه الخبرة لا يكون الكون كلّه بالنسبة له سوى مشهداً واحداً واسعاً من الوهم. وتبدو النتائج الأكثر اعتيادية بالنسبة له على أنّها ظواهر أكثر إثارة للدهشة، ويتعجب من كلّ شيء ولا يفهم شيئاً، ويهدي أفعاله للمهتمين بخيانة مصالحه. ويجهل الطبيعة ويخطئ في قوانينها، ولا يفكر في الروتين الضروري الذي حددته لكلّ شيء تحتويه. وهو مخطأٌ في قوانين الطبيعة، ألم أقل ذلك؟ أخطأ بحد ذاته، والنتيجة هي أنَّ كلّ أنظمته وكلّ تخميناته، وكلّ استدلاله التي نفى عنها الخبرة ليست سوى نسيجٌ من الأخطاء وسلسلة طويلة من السخافات.

وكلّ خطأ ضار، وعندما يخدع الإنسان نفسه يتوغل في البؤس. حيث أهمل الطبيعة ولم يفهم قوانينها، وشكّل آلهة من أكثر الأنواع إثارةً للضحك، وأصبحت هذه الموضوعات الوحيدة التي يأملها مخلوقات تخيفه، وارتعش في ظل هذه المعبودات الخيالية، ومن التأثير المفترض لكائنات خيالية خلقها بنفسه، والرعب المستوحى من كتلٍ من الحجر ومن جذوع الخشب ومن الأسماك الطائرة أو أيضاً من عبوس البشر الفانين مثله، والذين جعلوا خياله المضطرب يسمو فوق تلك الطبيعة التي يمكنه وحده أن يشكل كلّ فكرة عنها. وتسخر ذريته بحد ذاتها من ازدراء حماقته؛ لأنَّ الخبرة أقنعتهم بعبثية مخاوفه التي لا أساس لها من الصحة، وعبادته التي لم تكن في محلها. وهكذا تلاشى علم الأساطير القديم، مع كلّ الصفات التافهة التي ارتبطت به بفعل الجهل.(4)

ولم يفهم الإنسان أنَّ الطبيعة متساوية من حيث أصنافها ومفتقرة تماماً للخير أو الحقد، وتتبع فقط القوانين الضرورية وغير القابلة للتغيير، وعندما تنتج كائنات أو تملكها، وعندما تتسبب في معاناة أولئك الذين يشعرون بحكم منظومتهم، وعندما تنثر بينهم الخير والشر، وتُخضِعهم لتغيير متواصل – لم يدرك أنَّها كانت في حضن الطبيعة ذاتها، وأنَّه كان يتوجب عليه عند وفرتها أن يسعى إلى إشباع رغباته لعلاج آلامه وإسعاد نفسه؛ فتوقع أن يجني هذه الفوائد من كائنات خيالية، تخيل خطأً أنَّها الخالقة لملذاته، وعلة لمصائبه. ومن هنا يتضح أنَّ الإنسان مدينٌ بسبب جهله بالطبيعة، بخلق تلك القوى الخادعة التي طالما ارتعش في ظلها من الخوف، لتلك العبادة الخرافية التي كانت مصدر كلّ بؤسه.

وبسبب عدم فهم طبيعته الخاصة بوضوحٍ وميله الأصلي وحاجاته وحقوقه، انحدر الإنسان في المجتمع من الحرية إلى العبودية. ونسي تصميم وجوده أو اعتقد أنَّه ملزمٌ بكبح الرغبات الطبيعية لعاطفته، والتضحية برفاهيته لنزوة الرؤساء، إما المنتخبين من قبله أو الخاضعين له من دون أن يختبرهم. وكان يجهل السياسة الحقيقية للجماعة – الموضوع الحقيقي للحكومة، وكان يكره الاستماع إلى صوت الطبيعة التي أعلنتْ بصوتٍ عالٍ أنَّ ثمن كلّ خضوع هو الحماية والسعادة، وغاية كلّ حكومة منفعة المحكوم، وليس المصلحة الحصرية للحكام. وسلّم نفسه من دون تحفّظ لأمثاله من البشر، ومن دفعته تحيزاته إلى التفكير بهم ككائنات ذات رتبة أعلى، وكآلهة على الأرض، واستفاد هؤلاء من جهله واستغلوا تحيزاته، وأفسدوه وجعلوه شريراً، واستعبدوه وجعلوه بائساً. وهكذا، فإنَّ الإنسان الذي خصّته الطبيعة بالتمتع الكامل بالحرية، والتحقيق بصبر في قوانينها، والبحث في أسرارها، والتشبث دائماً بخبرته، قد انحدر من إهمال تحذيراتها المفيدة ومن جهلٍ لا يُغتفر بماهيته الخاصة إلى العبودية وحُكم عليه بطريقة شريرة.

وبعد أن أخطأ في حق نفسه، ظل جاهلاً بالانجذاب الضروري القائم بينه وبين كائنات من جنسه، وبعد أن أخطأ في واجبه تجاه نفسه، ترتب على ذلك كنتيجة، أن يخطأ في واجبه تجاه الآخرين. وأجرى عملية حسابية خاطئة بشأن ما تتطلبه سعادته، ولم يدرك، وهذا ما يدين به لنفسه، التجاوزات التي يجب أن يتجنبها والعواطف التي يجب أن يقاومها، والمثيرات التي يجب أن يتبعها لدعم سعادته وتعزيز راحته، وخدمة مصلحته. وباختصار، كان يجهل مصالحه الحقيقية، ومن هنا جاءت شذوذاته وإدمانه، وشراهته

المخزية، وتلك السلسلة الطويلة من الرذائل التي تخلى عنها بنفسه على حسابِ حمايته، والمجازفة بسعادته الدائمة.

ولذلك فإنَّ جهل الإنسان بذاته هو الذي منعهُ من تهذيب أخلاقه. حيث شعرت الحكومات الفاسدة التي خضع لها بأنَّ من مصلحتها منعه من ممارسة واجباته، حتى وإنْ عرفها.

واستمر جهل الإنسان لفترة طويلة، ولم يتخذ مثل هذه الخطوات البطيئة والمترددة لتحسين حالته إلا لأنَّه أهمل دراسة الطبيعة والتدقيق في قوانينها، والبحث عن مواردها واكتشاف خصائصها. ويجد تباطؤه تفسيراً لها في السماحِ لنفسه بالاسترشاد بسلفه، بدلاً من اتباع الخبرة التي تتطلب نشاطاً، ليقوده الروتين وليس عقله الذي يضبط التأمل. ومن هنا يمكن اقتفاء أثر البغض الذي يغرّر بالإنسان نحو كلّ شيء ينحرف عن تلك القواعد التي اعتاد عليها، ومن هنا جاء حمقهُ واحترامهُ الصارم للقديم، ولمؤسسات آبائه الأكثر تفاهةً، والأكثر سخافةً، ومن هنا جاءت تلك المخاوف التي تستحوذ عليه، عندما تُقترح التغييرات الأكثر فائدة له، أو القيام بمحاولات يُحتمل أن تحسّن حالته أكثر. فهو يخشى أن يبحث؛ لأنَّه تعلّم أن يعتبرها تدنيساً لشيءٍ ارتبط مباشرةً برفاهيته، ويؤمن بصدقِ بالنصيحة المثيرة للانتباه، ويزدري أولئك الذين يرغبون في أن يُظهروا له خطورة الطريق الذي يسلكه.

وهذا هو سببُ بقاء الأمم في حالة الخمول الأكثر خزياً، وأنينها تحت وطأة الانتهاكات التي تنتقل من قرنٍ إلى آخر، وارتعاشها من الفكرةِ ذاتها التي يمكن أن تعالج لوحدها مصائبها.

وبعبارة أخرى، بسبب الافتقار للطاقة والافتقار إلى الخبرة الاستشارية، والطب، والفلسفة الطبيعية، والزراعة، والرسم، ظلت جميع العلوم المفيدة لفترةٍ طويلة تحت قيود السلطة، ولم تتقدم إلا قليلاً، حيث يفضل أولئك الذين يعترفون بهذه العلوم في الغالب السير في الدروب المألوفة مهما كانت غير ملائمة لغاياتهم، بدلاً من اكتشاف دروبٍ جديدة، ويفضلون هذيان خيالهم وتخميناتهم غير المبررة على تلك الخبرة الشاقة التي يمكنها وحدها استخراج أسرارها من الطبيعة.

وباختصار، بعد أن تخلى الإنسان عن أدلة حواسه، سواء بسبب الكسل أو الرعب، استرشد في كلّ أفعاله، وفي جميع مشاريعه بالخيال، والتعصب الديني، والعادة، والتحيز، وفي البداية بالسلطة التي عرفتْ جيداً كيف تخدعه. وهكذا، وفرتْ الأنظمة التخيلية مكاناً للخبرة — للتأمل– للعقل. واستسلم الإنسان المرعوب من مخاوفه، والمخمور من المعجزات أو المخدّر من الكسل، لخبرته، وبسبب استرشاده بسذاجته لم يكن قادراً على الرجوع إليها، وأصبح بالتالي عديم الخبرة، ومن هنا أنجبَ أسخف الآراء، أو تبنّى من دون فحص كلّ تلك الكائنات الخرافية، وكلّ تلك الأفكار الخاملة التي قدمها له أناسٌ كان من مصلحتهم خداعه بأوجِ عنفوانه. وهكذا، نسي الإنسان الطبيعة وأهمل دروبها – لأنَّه احتقر الخبرة – وتنازل عن عقله – وكان مفتوناً بالمعجزات وبما هو خارق للطبيعة – لأنَّه ارتعش بلا مبرر، واستمر الإنسان على هذا النحو لفترةٍ طويلة في مرحلة الطفولة. وهذه هي أسباب وجود الكثير من المتاعب عند انتقاله من مرحلة الطفولة هذه إلى مرحلة النضج. ولم يكن لديه سوى أبسط الفرضيات التي لم يجرؤ أبداً على فحص مبادئها أو براهينها؛ لأنَّه اعتاد على تقديسها واعتبارها الحقائق الأكثر كمالاً، والتي لا يُسمح له بالشك بها ولو للحظة. فجعله جهله ساذجاً، وجعله فضوله يستوعب مخططات كبيرة عن المعجزات، وأيده الزمن في آرائه، فتجاوز تخميناته من عِرق إلى آخر من أجل الوقائع، وأبقتهُ السلطة الاستبدادية ضمن مفاهيمه؛ لأنَّه من خلالها وحدها يمكن استعباد المجتمع. وأصبح الإنسان على امتداد العلم كلّه كتلةً مشوشةً من الظلام والباطل والتناقضات، وشعاع ضعيف من الحقيقة هنا وهناك، ومزوداً بتلك الطبيعة التي لا يستطيع أبداً تجريد نفسه منها بالكامل؛ لأنَّ ضروراته تعيده من دون معرفته دوماً إلى مواردها.

دعونا إذن نسمو بأنفسنا فوق غيوم التحيز هذه، ونتأمل آراء الناس، ونراقب أنظمتهم المختلفة، ودعونا نتعلم عدم الثقة في الخيال المضطرب، ونأخذ بالخبرة، وبهذا المراقب الأمين لإرشادنا، ودعونا نستشير الطبيعة ونستكشف قوانينها، ونغوص في مخازنها، ونستخلص منها بحد ذاتها أفكارنا عن الكائنات التي تحتويها، ودعونا نتخلى عن حواسنا التي ضللتنا، وعلمنا الخطأ المثير للانتباه أن نشك بها، ودعونا نستشير هذا العقل الذي تم الافتراء عليه لأغراضٍ خبيثة بشكلٍ مخجل للغاية، وأُلحِق به العار بقسوة، دعونا نفحص العالم المرئي باهتمام، ونحاول إن لم نتمكن من أن نشكّل حكماً مقبولاً على

المنطقة غير المرئية من العالم الفكري، وربما يمكننا العثور على عدم وجود سبب كاف للتمييز بينهما، وأنَّه لا يتم الفصل من دون دوافع بين إمبراطوريتين ترثان الطبيعة على قدم المساواة.

ولا يقدم الكون، ذلك التجمع الواسع لكلّ ما هو موجود، إلا المادة والحركة، ولا يقدم الكلّ لتفكيرنا سوى سلسلة هائلة ومتواصلة من العلل والمعلولات، وبعض هذه العلل معروفة لنا؛ لأنَّها تمسّ حواسنا مباشرة، والأخرى غير معروفة لنا؛ لأنَّها تمارس فعلها علينا من خلال المعلولات، وبعيدة جداً في كثيرٍ من الأحيان عن علّتها الأصلية.

وتتواصل باستمرار مجموعة هائلة متنوعة من المواد المركبة من أشكال لا متناهية، وتتلقى من دون توقف مجموعة متنوعة من المثيرات. وتشكّل الخصائص المختلفة لهذه المادة وتركيباتها التي لا تعد ولا تحصى، وأساليب عملها المختلفة، والتي هي النتيجة الضرورية لهذه المركبات، للإنسان ما يسميه ماهية الكائنات، وتنبثق من هذه الماهيات المتنوعة المراتب، والفئات أو الأنظمة التي تشغلها هذه الكائنات على التوالي، ويشكّل مجموعها الإجمالي ما يُسمى بالطبيعة.

لذلك فإنَّ الطبيعة، في أكثر معانيها انتشاراً، هي الكلّ العظيم الذي ينتج عن تجمع المادة تحت مركباتها المختلفة مع مجموعة متنوعة من الحركات التي يعرضها الكون أمام أنظارنا. والطبيعة، بمعنى أقل انتشاراً أو مع الأخذ بالاعتبار كلّ فرد، هي كلّ ما ينجم عن ماهيتها؛ أي الخصائص، والمركب، والمثير، وأنماط الفعل الغريبة التي تتميز من خلالها عن الكائنات الأخرى. ومن هنا ينجم الإنسان ككلّ عن تركيب معين من المادة، ويتمتع بخصائص خاصة به، ومؤهلاً ليعطي مثيرات معينة وقادرٌ على تلقيها، ويُطلق على التنظيم الموجود فيه اسم المنظومة، وتكون ماهيتها: أن تشعر، وتفكر، وتعمل، وتتحرك بطريقةٍ متميزة عن الكائنات الأخرى التي يمكن مقارنته بها. لذلك يصنّفُ الإنسان بحد ذاته ضمن ترتيب، ونظام، وفئة، تختلف عن تلك الموجودة عند الحيوانات الأخرى التي لا ندرك فيها ما تمتلكه من خصائص. وتعتمد الأنظمة المختلفة للكائنات أو إذا جاز القول طبائعها الخاصة، على النظام العام للكلّ العظيم أو تلك الطبيعة الكلية التي تشكّل جزءاً منها؛ ويخضع لها بالضرورة كلّ شيء موجود ويرتبط بها.

وبعد أن وصفتُ التعريف المناسب الذي كان لابدّ من تطبيقه على كلمة طبيعة، يجب أن أنصح القارئ لمرةٍ واحدة، بتعبيرٍ يظهر في أيّ مكان ضمن سياق هذا الكتاب، يقول: إنَّ "الطبيعة تنتج مثل هذا المعلول أو ذاك"، ولا توجد نيةٌ بتجسيد تلك الطبيعة التي هي كائنٌ مجرد محض، وتشير فقط إلى أنَّ المعلول الذي تتحدث عنه، ينبثق بالضرورة من الخصائص المميزة لتلك الكائنات التي يتشكّل منها الكون العظيم. لذلك عندما يُقال: إنَّ الطبيعة تطلب من الإنسان أن يسعى وراء سعادته الخاصة، فهذا يعني منع الاطناب وتجنب الحشو، ليفهم أنَّ ميزة الكائن الذي يشعر، ويفكر، ويريد، ويعمل، ويكافح من أجل سعادته، والتي يطلق عليها باختصار اسم (طبيعية) تكون متوافقة مع ماهية الأشياء أو القوانين التي تحددها الطبيعة للكائنات المتضمنة فيها، ومن حيث الرتب المختلفة التي تشغلها، وفي ظل الظروف المختلفة التي يتعين عليها تخطيها. وبالتالي فإنَّ الصحة طبيعية بالنسبة للإنسان في حالٍ معينة، والمرض طبيعي بالنسبة له في ظل ظروف أخرى، والانحلال، أو إذا جاز القول: الموت حالةٌ طبيعية للجسم، وهو حرمان من بعض تلك الأشياء الضرورية للحفاظ على وجود الحيوان، إلخ. ويُفهم بالماهية، ما يشكل كائناً على هذا النحو؛ أيّ كل الخصائص أو الصفات التي يتصرف أو يعمل بموجبها. وهكذا، فإنَّ القول: "إنَّ ماهية الحجر أن يسقط"، مماثل للقول: إنَّ انحداره هو النتيجة اللازمة عن جاذبيته، وكثافته، وتماسك أجزائه، وعناصره التي يتكون منها. وباختصار، ماهية الكائن هي طبيعته الخاصة والفردية.

الفصل الثاني
الحركة ومصدرها

الحركة هي النتيجة التي يتغير من خلالها الجسم أو يميل إلى تغيير موضعه؛ أي، يتطابق من خلالها على التوالي مع أجزاء مختلفة من المكان، أو يغير المسافة النسبية بينه وبين الأجسام الأخرى. فالحركة وحدها التي تُنشأ العلاقة بين حواسنا وكائنات خارجية أو داخلية، وعن طريق الحركة وحدها تؤثر هذه الكائنات علينا - نعرف وجودها - نحكم على خصائصها - نميز أحدها عن الآخر - نصنّفها إلى فئات.

والكائنات والمواد أو الأجسام المختلفة التي تشكّل الطبيعة ككل، هي بحد ذاتها معلولات لتركيبات معينة - تصبح المعلولات بدورها عللاً. و(العلّة) هي الكائن الذي يحرك آخر أو يحدث فيه تغييراً ما. أما (المعلول) فهو التغيير الذي طرأ على جسم ما بفعلِ حركة أو وجود آخر.

ويمتلك كلّ كائن من حيث ماهيته وطبيعته الخاصة، ملكة الانتاج، وقابل لتلقي مختلف الحركات ولديه القدرة على نقلها. وبالتالي من الملائم أن تمس بعض الكائنات أعضائنا، وهذه الأعضاء مؤهلة لتلقي الانطباع، وتكفي لإحداث تغييرات على وجودها. وتلك التي لا يمكنها أن تؤثر على أيٍّ من أعضائنا، إما مباشرة ومن تلقاء نفسها أو بشكلٍ غير مباشر من خلال تدخل الأجسام الأخرى، غير موجودة بنا؛ لأنّها غير قادرة على تحريكنا وعلى تزودنا بالتالي بأفكار، ولا يمكنه أن يطلعنا عليها، ولا أن يحكم عليها بالطبع من خلالنا. ومعرفة الشيء هي الشعور به، ويُفترض للشعور به أن يتحرك من تلقاء ذاته. ولكي نرى، يجب أن تتم الحركة بوساطة شيءٍ يؤثر على أعضائنا البصرية، ولكي نسمع يجب أن يمس شيء ما أعصابنا السمعية. وباختصار، أياً كانت الطريقة التي يؤثر بها الجسم علينا، وأياً كان التأثير الذي قد نتلقاه منه، لا يمكن أن تكون

لدينا معرفة أخرى به إلا من خلال التغيير الذي يحدثه فينا. وتشمل الطبيعة، كما قلنا سابقاً، كلّ الكائنات، وبالتالي كلّ الحركات التي لدينا معرفةٌ بها، بالإضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى التي لا نعرف عنها شيئاً؛ لأنَّها لم تصبح متاحة لحواسنا بعد. وينتج من خلال الفعل ورد الفعل المتواصل لهذه الكائنات، سلسلة من العلل والمعلولات أو سلسلة من الحركات الموجهة بقوانين ثابتة وغير متغيرة خاصة بكلّ كائن، وتُعتبر ضرورية أو متأصلة في طبيعته الخاصة، وتجعله دائماً يؤثر أو يتحرك بطريقة محددة. ولا تكون المبادئ المختلفة لهذه الحركة معروفة لنا؛ لكوننا في كثير من الحالات، إن لم يكن في جميع الحالات، جاهلون بما يشكّل ماهية الكائنات. حيث تفلت عناصر الأجسام من حواسنا، ونعرفها فقط من حيث الكم، ولسنا على دراية بتركيبها الداخلي ولا بمقدار هذه المركبات، ومن أين يجب أن ينتج بالضرورة نمط عملها أو تأثيرها، أو معلولاتها المختلفة. وتجعلنا حواسنا ملمّين بشكلٍ عام بنوعين من الحركة عند الكائنات المحيطة بنا. والنوع الأول هو حركة الكم التي ينتقل بواسطتها الجسم بأكمله من مكان إلى آخر. وحركة من هذا النوع ندركها تماماً – ونرى بالتالي، سقوط الحجر أو تدحرج الكرة، أو تحريك ذراع أو تغيير موضعه. والنوع الآخر هو حركة داخلية أو خفية، تعتمد دائماً على طاقات خاصة بالجسم؛ أي على ماهيته أو تركيبه وعلى الفعل ورد الفعل الناجمان عن جسيماتِ المادة الصغيرة جداً وغير المحسوسة التي يتكون منها هذا الجسم. ونحن لا نرى هذه الحركة ولا نعرفها إلا من خلال التبدل أو التغيير الذي نكتشفه بعد فترة في هذه الأجسام أو المركبات. ومن هذا النوع من الحركة الخفية يحدث التخمّر في الجزيئات التي يتكون منها الطحين، والتي تتحد رغمَ تناثرها وانفصالها، وتشكّل ذلك الكم الذي نسميه الخبز. وهذه هي أيضاً الحركة غير المحسوسة التي نرى من خلالها النبات أو الحيوان يكبر ويقوى، ويخضع للتغييرات ويكتسب صفات جديدة، ومن دون أن تكون أعيننا مؤهلة لمتابعة تقدمه، أو إدراك العلل التي أدت إلى هذه المعلولات. وهذه هي أيضاً الحركة الداخلية التي تحدث عند الإنسان، والتي تُسمى (ملكاته الفكرية) و(أفكاره) و(عواطفه) و(إرادته). وليس لدينا طريقة أخرى للحكم على هذه إلا من خلال عملها؛ أيّ من خلال تلك المعلولات المُدركة التي ترافقها أو تتبعها. وهكذا، عندما نرى إنساناً يهرب، نحكم عليه أنَّه مدفوع داخلياً بعاطفة الخوف.

وتُكتسب الحركة سواء كانت مرئية أو مخفية عند تأثير جسم على آخر؛ إما بفعل علّة خاصة بنا أو بسبب فاعل خارجي تمكّننا حواسنا من اكتشافه. وهكذا نطلق اسم (الحركة المكتسبة) على تلك التي تمنحها الرياح لأشرعة السفينة. وتُسمى هذه الحركة، التي تُستثار في الجسم المتضمن بحد ذاته عللاً لتلك التغييرات التي نرى أنّه يخضع لها، بـ (العفوية). – ثم يُقال هذا الجسم يؤثر أو يتحرك من خلال طاقة خاصة به. ومن هذا النوع حركة الإنسان الذي يمشي، ويتحدث، ويفكر. ولكن إذا فحصنا الأمر عن كثب، سنقتنع بالمعنى الدقيق للكلمة بعدم وجود ما يماثل الحركة العفوية في أيّ من أجسام الطبيعة المختلفة، نظراً إلى أنّها تعمل على الدوام الواحدة تلو الأخرى، وستُعزى جميع تغييراتها إلى عللٍ تتحرك بموجبها، سواء أكانت مرئية أو غير مرئية. ويتم تحريك أو تحديد إرادة الإنسان على نحوٍ خفي من خلال علة ما خارجية تُحدث فيه تغييراً، ونعتقد أنّه يتحرك من تلقاء ذاته؛ لأنّنا لا نرى العلّة المقررة له والطريقة التي تؤثر بها، ولا العضو الذي تحركه.

وهذا ما يسمى بـ (الحركة البسيطة)، التي تُثار في الجسم بفعل علّة وحيدة. في حين تنجم (الحركة المركبة) عن علتين مختلفين أو أكثر، يتعاونان بشكلٍ مختلف، سواء كانت هذه العلل متكافئة أو غير متكافئة، وتعمل معاً أو متتالية، ومعروفة أو غير معروفة.

وتنجم حركة الكائنات مهما كانت طبيعتها بالضرورة عن ماهيتها دائماً، أو الخصائص التي تتكون منها، وتلك العلل التي تؤثر عليها. ويمكن لكلّ كائن أن يتحرك ويعمل بطريقة معينة؛ أي بما يتوافق مع تلك القوانين التي تنتج عن ماهيته الخاصة، وتركيبه الخاص، وطبيعته الفردية، وباختصار، من طاقة خاصة به، وأخرى خاصة بالأجسام التي يتلقى منها التأثير. وهذا ما يشكّل قوانين الحركة الثابتة، وأقول (ثابتة)؛ لأنّها لا يمكن أن تتغير أبداً من دون أن تحدث فوضى في ماهية الأشياء. وبالتالي، لابدّ أن يسقط الجسم الثقيل بالضرورة، ما لم تواجهه عقبة كافية لإيقاف انحداره، ويجب أن يبحث الجسم المحسوس بشكلٍ طبيعي عن المتعة ويتجنب الألم، ويجب أن تحرق النار بالضرورة وتنشر الضوء.

كلّ كائن إذن لديه قوانين حركة تتلاءم معه، ويعمل باستمرار وفقاً لهذه القوانين أو يتحرك بها؛ على الأقل عندما لا تقطع أيّ علّة خارقة عمله. وهكذا تكفّ النار عن حرق المادة القابلة للاحتراق؛ فمجرد إلقاء كمية كافية من الماء عليها يوقف تقدمها. وهكذا

يكفّ الكائن العاقل عن السعي وراء اللذة بمجرد خوفه من أن ينجم عنها ألم. كما أنَّ نقل الحركة أو أداة الفعل، من جسمٍ إلى آخر، تتبع أيضاً قوانين معينة وضرورية، ويمكن للكائن أن ينقل الحركة إلى الآخر فقط من خلال التقارب أو التشابه أو التوافق، أو التماثل أو عن طريق نقطة الاتصال التي تربطه بهذا الكائن الآخر. ولا يمكن أن تنتشر النار إلا عندما تجد مادةً مماثلة لها، وتنطفئ عندما تصادف أجساداً لا تستطيع احتضانها؛ وهذا يعني أنَّها لا تحمل تجاهها درجة معينة من العلاقة أو التقارب.

وكلّ شيء في الكون يتحرك، وماهية المادة هي الفعل، وإذا نظرنا إلى أجزائها باهتمام فسوف نكتشف أنَّه ما من جُسيم يتمتع بسكونٍ مطلق. وتلك التي تبدو لنا من دون حركة هي في الواقع في سكون نسبي أو ظاهري، وتُختبر مثل هذه الحركة غير المدركة، ويُكشف قليلاً جدًا من مظاهرها الخارجية التي لا يمكننا أن ندرك التغييرات التي تطرأ عليها.[5] وكلّ ما يبدو لنا في حال سكون، لا يبقى رغم ذلك لحظة واحدة في الحالة ذاتها. فجميع الكائنات تتكاثر باستمرار، وتزيد أو تنقص أو تتشتت، وتتباطأ أو تسرع إلى حدٍ ما. فالحشرة المسماة بالزوال ephemeron على سبيل المثال تولد وتموت في اليوم ذاته. وبالتالي فإنَّها تشهد التغييرات العظيمة لوجودها بسرعةٍ كبيرة. وتلك التركيبات التي تشكّل الأجسام الأكثر صلابةً، والتي تبدو في نظرنا وكأنَّها تتمتع بأكبر قدرٍ من السكون، تتحلل وتضمحل بمرور الوقت. وتسمح الحجارة الأكثر صلابةً بملامسة الهواء تدريجياً. ولابدّ أن تكون كتلة الحديد التي أكلها الصدأ بمرور الزمن وتأثير الغلاف الجوي، في حالة حركة منذ لحظة تشكّلها في باطن الأرض، حتى لحظة رؤيتنا لها في حالة الانحلال هذه.

ويبدو أنَّ معظم الفلاسفة الطبيعيين لم يفكروا بشكلٍ كافٍ فيما يسمونه بـ (الجهد)؛ أي الجهود المتواصلة التي يبذلها جسم على الآخر، غير أنَّها تظهر رغم ذلك بالنسبة لملاحظتنا السطحية، على أنَّها تتمتع بسكونٍ تام. ويبدو الحجر الذي يبلغ وزنه خمسمائة، ساكناً على الأرض رغم أنَّه لا يكف للحظة عن الضغط بقوةٍ على الأرض التي تقاومه بدورها أو تصده. ولكن هل سنتجرأ ونؤكد أنَّ الحجر والأرض لا يدوران؟ هل يرغبون في التحرر من الوهم؟ ليس لديهم ما يفعلونه سوى أن يحشروا أنفسهم بين الأرض والحجر، وسيكتشفون بعد ذلك أنَّ الحجر على الرغم من سكونه الظاهر، إلا أنَّ لديه قوةً تكفي لرضها. ولا يمكن أن يوجد الفعل في الأجسام من دون رد الفعل. فلو قاوم الجسم

الذي يطرأ عليه التأثير، جذباً أو ضغطاً من أيّ نوع، لظهر بوضوحٍ من خلال هذه المقاومة أنَّه يتفاعل، وينتج عن ذلك أنَّ هناك قوةً خفية، دعاها الفلاسفة بـ (القصور الذاتي) الذي يظهر بحد ذاته ضد قوة أخرى؛ وهذا يثبت بوضوحٍ أنَّ هذه القوة الكامنة قادرة على إحداث الفعل ورد الفعل. وباختصار، سيُكتشف من خلال البحث الدقيق أنَّ تلك القوى التي تُدعى (ميتة)، وتلك التي تُدعى (حية) أو (متحركة)، هي قوى من النوع ذاته، الذي لا يظهر إلا بطريقة مختلفة.(6)

هل نذهب أبعد من ذلك، ونقول: إنَّ تلك الأجسام أو الكتل التي تبدو لنا ككل في حالة سكون، تكون رغم ذلك في حالة فعل ورد فعل مستمرين، وتبذل جهوداً متواصلة، وتأثير متواصل ومقاومة متواصلة؟ وبعبارة أخرى، أليست الجهود التي تضغط بفضلها الجزيئات المكونة لهذه الأجسام على بعضها بعض، تقاوم بعضها بعض بشكلٍ متبادل، وتحدث الفعل ورد الفعل باستمرار؟ هل هذا التبادل بين الفعل ورد الفعل المرافق له، يبقيها متحدة، ويتسبب في أن تشكل جزيئاتها كتلةً، وجسماً، وتركيباً، يمتلك عند النظر إليه في مجمله مظهر السكون الكامل على الرغم من عدم توقف أيّ من جزيئاته أبداً عن الحركة للحظة واحدة؟ وتبدو هذه الأجسام وكأنَّها في حالة سكون، ببساطة من خلال تساوي حركة القوى المؤثرة فيها.

وهكذا فإنَّ الأجسام التي تبدو وكأنَّها تتمتع بأكبر قدرٍ من السكون تستقبل بالفعل، سواء على سطحها أو في باطنها، تأثيراً مستمراً من تلك الأجسام التي تكون محيطة بها أو تتخللها، وتتمدد أو تتقلص من خلالها، وتتخلخل أو تتكثف؛ وباختصار، من تلك التي تتكون منها؛ حيث تعمل جزيئاتها باستمرار وتتفاعل أو تكون في حركة مستمرة، وتظهر آثارها بشكلٍ خفي من خلال تغييرات ملحوظة للغاية. وهكذا يثبت تخلل الحرارة وتمدد المعادن بوضوح أنَّ قضيب الحديد يجب أن يكون بسبب تنوع الغلاف الجوي وحده، في حركة مستمرة ولا يمكن القول: إنَّه يوجد فيه جزيء واحد يتمتع بسكون ولو للحظة واحدة. وكيف يمكن أن نتصور بالفعل في تلك الأجسام الصلبة التي تكون جزيئاتها متجاورة ومتحدة بشكلٍ وثيق، أن يؤثر الهواء، والبرودة أو الحرارة على أحد هذه الجزيئات، وإن خارجياً، من دون نقل الحركة على التوالي إلى تلك التي يمكن أن تكون أكثر حميمية ودقة من حيث اتحادها؟ كيف نكون قادرين من دون حركة على تصور الطريقة التي تتأثر

بها حاسة الشم لدينا بالانبعاثات الصادرة عن الأجسام الأكثر تماسكاً، والتي تبدو جميع الجسيمات فيها في حالة سكون تام؟ كيف يمكننا، حتى بمساعدة التلسكوب، رؤية النجوم الأبعد، إذا لم تكن هناك حركة تدريجية للضوء المنبعث من هذه النجوم إلى شبكية العين؟

ويجب أن تقنعنا الملاحظة والتأمل بأنَّ كلّ شيء في الطبيعة في حالة حركة مستمرة، ولا يتمتع أيّ جزءٍ من أجزائها بسكونٍ تام، وأنَّ الطبيعة تعمل ككل، وستكف عن كونها طبيعة إذا لم تعمل، وأنَّه من دون حركة متواصلة لا يمكن الحفاظ على أيّ شيء، ولا يمكن حدوث أيّ شيء، ولا يمكن لشيء أن يعمل. وهكذا تتضمن فكرة الطبيعة بالضرورة فكرة الحركة. ولكن سيُطرح السؤال: من أين تلقت حركتها؟ وردنا هو: من ذاتها؛ لأنَّها الكلّ العظيم، وبالتالي لا يمكن أن يوجد أيّ شيء خارج عنها. ونقول: إنَّ هذه الحركة هي طريقة للوجود الذي ينشأ بالضرورة من ماهية المادة، وتتحرك هذه المادة بوساطة طاقات خاصة بها، ويجب أن تُنسب حركتها إلى القوة المتأصلة فيها، وينتج تنوع الحركة والظواهر الناتجة عنها من تنوع الخصائص والصفات والتركيبات الموجودة أصلاً في المادة البدائية التي تشكّل المجموع الكلي للطبيعة.

ولكن معظم الفلاسفة الطبيعيون أخذوا بالاعتبار الأجسام غير الحيوية أو المحرومة من ملكة الحركة، وتلك التي لا تتحرك إلا من خلال تدخل عامل ما أو علةٍ خارجي، واعتبروا أنفسهم مبررين في استنتاج أنَّ المادة التي تشكل هذه الاجسام كامنة تماماً في طبيعتها. ولم يتخلوا عن هذا الخطأ، على الرغم من أنَّهم لاحظوا حتماً أنَّه عندما يُترك جسد لوحده، أو ينفصل عن تلك العوائق التي تعارض بحد ذاتها سقوطه، فإنَّه يميل إلى السقوط أو الاقتراب من مركز الأرض، وبحركة متسارعة بشكلٍ منتظم؛ واختاروا أن يفترضوا علةً خارجية وهمية لم يكن لديهم هم أنفسهم فكرة صحيحة عنها، بدلاً من أن يعترفوا بأنَّ هذه الأجسام امتلكت حركتها من طبيعتها الخاصة بها.

وبالطريقة ذاتها، على الرغم من أنَّ هؤلاء الفلاسفة رأوا فوقهم عدداً لامتناهياً من الكرات الهائلة، تتحرك بسرعةٍ كبيرة حول مركز مشترك، إلا أنَّهم ما زالوا يتشبثون بآرائهم؛ ولم يكفوا أبداً عن افتراض الأسباب الوهمية لهذه الحركات، حتى أثبت نيوتن **Newton** الخالد أنَّ ذلك كان نتيجة جذب هذه الأجرام السماوية لبعضها بعض.[7] وكانت

ملاحظة بسيطة للغاية تكفي لجعل الفلاسفة السابقين على نيوتن يشعرون بعدم كفاية العلل التي اعترفوا بأنَّها تحدث هذا التأثير القوي، وكان لديهم ما يكفي لإقناع أنفسهم في تصادم جسم ما مع آخر يمكنهم التفكير فيه، وفي القوانين المعروفة لتلك الحركة، والتي تنتقل دائماً بسبب كثافتها إلى حدٍ كبير، ومن هنا كان لابدّ لهم من استنتاج أنَّ كثافة المادة الرقيقة أو الأثيرية أقل بكثيرٍ من كثافة الكواكب، ويمكن أن تنقل لهم فقط حركة ضعيفة للغاية.

ولو كانوا قد رأوا بفعل تحيزهم أنَّ الطبيعة غير متأثرة، لكان لزاماً عليهم أن يقتنعوا منذ فترة طويلة، بأنَّ المادة تعمل من خلال طاقة خاصة بها، ولا تحتاج إلى أيِّ تأثير خارجي لتحريكها. وسيدركون أنَّه كلما وُضعت أجسام مركبة قادرة على التأثير على بعضها البعض، تولدتْ الحركة على الفور، وأثرت هذه التركيبات بقوة تمكنها من إحداث التأثيرات الأكثر إثارة للدهشة. فلو خُلطت برادة الحديد والكبريت والماء معاً، لاستطاعت هذه الأجسام بالتالي أن تؤثر على بعضها بعض، وينتج عن تسخينها تدريجياً في النهاية احتراق عنيف. وإذا تم ترطيب الطحين بالماء، وأغلِق على الخليط، فسنجد بمساعدة المجهر وبعد مرور قليل من الوقت، أنَّه أنتج كائنات منظمة تتمتع بالحياة، التي يُعتقد أنَّ الماء والطحين لا يتمتعان بها؛[8] ومن ثم يمكن انتقال المادة الجامدة إلى الحياة أو المادة الحية، التي هي بحد ذاتها ليست سوى مجموعة من الحركات. وبالاستدلال من القياس، لن يكن تولد الإنسان، بغض النظر عن الوسائل العادية، أكثر روعةً من تولد الحشرة من الدقيق والماء. ومن الواضح أنَّ التخمر والتعفن يولدان حيوانات حية. ولدينا هنا المبدأ، ويمكن دائماً أن يحول استخدام المواد المناسبة المبادئ إلى فعل. ويُخصص هذا التولد الذي يُدعى مبهماً فقط لأولئك الذين لا يتأملون، أو الذين لا يسمحون لأنفسهم بمراقبة عمليات الطبيعة باهتمام. ويمكن رؤية توليد الحركة وتطورها، وكذلك طاقة المادة بشكلٍ خاص في تلك المركبات التي نجد فيها اتحاد النار والهواء والماء. وتكون هذه العناصر أو بالأحرى هذه الأجسام المختلطة، من أكثر الكائنات تبخراً وزوالاً؛ ومع ذلك، يكون في متناول الطبيعة عوامل رئيسية تعمل على إنتاج أكثر الظواهر إثارةً للانتباه. وتُعزى إلى هذه تأثيرات الرعد وثوران البراكين والزلازل والخ. ويقدم الفن أداةً للقوة المذهلة في البارود، في اللحظة التي يلامس فيها النار. وتنتج التأثيرات الأكثر فظاعة في الواقع عن تركيب المادة التي يُعتقد عموماً أنَّها ميتة وخاملة.

وتثبت هذه الحقائق بشكلٍ لا جدال فيه، أنَّ الحركة يتم إحداثها، وزيادتها، وتسريعها في المادة من دون تدخل أيّ عامل خارجي؛ لذلك، من المعقول أن نستنتج أنَّ الحركة ناجمة بالضرورة عن قوانين ثابتة، وناتجة عن الماهية، وعن الخصائص المتأصلة في العناصر المختلفة، والمركبات المختلفة لهذه العناصر. وبالتالي ألا نبرر ذلك، عندما نستنتج من هذه الأمثلة، أنَّ هناك عدداً لا نهائي من المركبات الأخرى التي لا نعلم بها، مؤهلة لإحداث مجموعة كبيرة ومتنوعة من الحركات في المادة، من دون الحاجة إلى تكرار شرح العوامل التي يصعب استيعابها أكثر من التأثيرات المنسوبة إليها؟

ولو كان الإنسان قد أولى انتباهاً مناسباً لما يمر تحت ناظره، لما بحث خارج الطبيعة عن قوةٍ متميزة عنها، وتحدث فعلها الذي يعتقد أنَّها لا يمكن أن تتحرك من دونه. فإذا كانت الطبيعة تعني بالفعل كومةً من المادة الميتة، المفتقرة للخصائص، وسلبية تماماً، فينبغي علينا من دون شك البحث عن مبدأ حركة هذه الطبيعة خارجها، لكن لو فُهمت الطبيعة كما هي حقاً، ككلّ تتمتع أجزائه العديدة بخصائص متنوعة ومختلفة، لتحتم عليها أن تعمل وفقاً لهذه الخصائص التي تتبادل باستمرار الفعل ورد الفعل، وتضغط، وتنجذب نحو مركز مشترك، بينما تتباعد الأخرى وتتطاير نحو السطح الخارجي أو المحيط، وتجذب وتتنافر وتتوحد وتنفصل، وتنتج من خلال التقارب المستمر والتصادم الثابت، فتحدث وتتحلل كلّ الأجسام الذي ننظر إليها، غير أنَّني أقول: ليس بالضرورة اللجوء إلى قوى خارقة للطبيعة لتفسير تكوّن الأشياء والظواهر الناجمة عن الحركة.

ويجب أن يفترض أولئك الذين يعترفون بوجود علّة خارجة عن المادة، أنَّ هذه العلّة أحدثت كلّ الحركات التي تمنحها المادة المنفعلة للوجود. وتقوم هذه الفرضية على فرضية أخرى، وهي أنَّ هذه المادة يمكن أن تبدأ في الوجود؛ ولكن تلك الفرضية لم تُثبت حتى هذه اللحظة بأيّ شيء كدليل محكم. إنَّ الحدوث من العدم أو (الخلق)، المصطلح الذي لا يمكن أن يعطينا سوى فكرةً ضئيلة جداً عن تكوين الكون؛ لا يقدم أيّ معنى يمكن للعقل بحد ذاته أن يثبته.(9)

وقد تصبح الحركة أكثر غموضاً عندما يُعزى خلق المادة أو تكوينها إلى (كائن روحي)؛ أيّ إلى كائن لا مثيل له، ولا غاية للاتصال معه، وإلى كائن ليس له امتداد ولا أجزاء، وبالتالي لا يمكن أن يقبل الحركة، بالمعنى الذي نفهمه، لكون هذه مجرد تغير جسم

واحد بالنسبة إلى جسم آخر، يظهر فيه الجسم المتحرك أجزاء مختلفة على التوالي بمواضع مختلفة من المكان. وعلاوة على ذلك، بما أنَّ العالم كلّه متفق تقريباً على أنَّ المادة لا يمكن أبداً القضاء عليها بالكامل، أو أن تكف عن الوجود، فكيف نفهم أنَّ ما لا يمكن أن يكف عن الوجود يمكن أن تكون له بداية؟

وبناءً على ذلك إذا طُرح السؤال: من أين جاءت المادة؟ فمن المعقول جداً الإجابة بالقول: إنَّها موجودة دائماً. وإذا طُرح السؤال: من أين تبدأ الحركة التي تثير المادة؟ يقدم الاستدلال ذاته الجواب؛ أيّ بما أنَّ الحركة ملازمة للمادة، فيجب أن تكون موجودة منذ الأزل، نظراً لأنَّ الحركة هي النتيجة الضرورية لوجودها وماهيتها، وخصائصها الأولية، مثل امتدادها، وجاذبيتها، وعدم قابلية اختراقها، وشكلها...الخ. وبحكم هذه الخصائص الأساسية المكونة لكلّ مادة والمتأصلة فيها، والتي من دونها يستحيل تكوين فكرة عنها، يجب أن تضغط المادة المختلفة التي يتكون منها الكون منذ الأزل على بعضها البعض؛ وتنجذب نحو المركز وتتصادم وتتصل ويتم جذبها وتنافرها، وتركيبها وفصلها، وباختصار، يجب أن تؤثر وتتحرك وفقاً للماهية والطاقة الخاصة بكلّ جنس، وبكلّ مركباته. ويفترضُ الوجود خصائص في الشيء الموجود؛ فكلما كانت له خصائص يجب أن ينجم نمط عمله بالضرورة من تلك الخصائص التي تشكّل نمط وجوده. وهكذا، عندما يكون الجسد ثقيلاً يجب أن يسقط، وعندما يسقط يجب أن يصطدم بالأجسام التي يلتقي بها عند هبوطه، وعندما يكون كثيفاً، وعندما يكون صلباً، يجب أن يوصل بسبب هذه الكثافة الحركة إلى الأجسام التي يصطدم بها، وبما أنَّه يشبه هذه الأجسام أو يقاربها فيجب أن يتحد معها، وعندما لا يكون له أي تشابه معها يتم صده.

ويمكن أن نستنتج من ذلك إلى حدٍ ما، أنَّه عند افتراض وجود المادة، كما يتحتم علينا فعل ذلك، يجب أن نفترض أنَّ لها نوعاً ما من الخصائص التي يجب أن تنجم عنها حركتها أو أنماط فعلها بالضرورة. وبالنسبة لتكوين الكون لم يسأل **ديكارت** **Descartes** سوى عن المادة والحركة، فكان تنوع المادة كافياً بالنسبة له، وكان اختلاف الحركة نتيجةً لوجودها، وماهيتها، وخصائصها، وستكون أنماط فعلها المختلفة النتيجة اللازمة عن أنماط وجودها المختلفة. وستكون المادة من دون خصائص مجرد عدم؛ لذلك، بمجرد وجود

المادة، يجب أن تؤثر، وبمجرد أن تكون مختلفة، يجب أن تؤثر بشكلٍ مختلف، وإذا لم يكن بإمكانها أن تبدأ في الوجود، فلابدّ أنّها كانت موجودة منذ الأزل، وإذا كانت موجودة دائماً، فلن تكفّ أبداً عن الوجود، وإذا لم تستطع التوقف عن الوجود، فلن تتوقف أبداً عن التأثير من خلال طاقة خاصة بها. والحركة هي طريقة للكائن، الذي تستمد المادة منه وجودها الخاص.

وبالتالي فإنَّ وجود المادة حقيقة، ووجود الحركة حقيقة أخرى. حيث تشير أعضائنا المرئية إلى مادتنا من خلال ماهيات مختلفة، وتشكل مجموعة متنوعة من المركبات التي تتمتع بخصائص مختلفة تميزها. ومن الخطأ في الواقع، الاعتقاد بأنَّ المادة جسمٌ متجانس تختلف أجزائه عن بعضها البعض فقط من خلال تعديلاتها المختلفة. فلا يوجد عند الأفراد من النوع ذاته الذي نلاحظه، اثنان متماثلان تماماً، ومن الواضح بالتالي أنَّ اختلاف الموقف وحده، سيحمل بالضرورة تنوعاً منطقياً إلى حدٍ ما، ليس فقط في التعديلات، ولكن أيضاً من حيث الماهية، والخصائص ونظام الكائنات بأكمله.(10)

وإذا فكرنا ملياً بهذا المبدأ بشكلٍ صحيح، ويبدو أنَّ الخبرة المضمونة تعطي دائماً دليلاً على حقيقته، فيجب أن نقتنع بأنَّ المادة أو العناصر الأولية التي تدخل في تكوين الأجسام، ليست من الطبيعة ذاتها، وبالتالي لا يمكن لأيّ منها أن تكون له الخصائص ذاتها ولا التعديلات ذاتها، وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن يكون لديها النمط ذاته من حيث الحركة والفعل. ويمكن تنويع فاعليتها أو حركتها المختلفة بالفعل إلى ما لا نهاية، وزيادتها أو إنقاصها، وتسريعها أو تأخيرها، وفقاً للمركبات والخصائص، والضغط والكثافة، وحجم المادة التي تدخل في تكوينها. ومن الواضح أنَّ عنصر النار، أكثر فاعلية وتغيراً من عنصر التراب. وهذا أكثر صلابةً وثقلاً من النار والهواء والماء. ووفقاً لنوعية العناصر التي تدخل في تكوين الأجسام، يجب أن تعمل هذه العناصر بشكلٍ متنوع، ويجب أن تشارك حركتها بمقدار ما في الحركة الخاصة بكلّ جزء من الأجزاء المكونة لها. وتظهر النار الأولية لتكون في الطبيعة مبدأ الفاعلية، ويمكن مقارنتها بخميرة خصبة، تخمّر الكتلة وتمنحها الحياة. ويظهر التراب ليكون مبدأ الصلابة في الأجسام، من عدم قابليتها للاختراق، ومن خلال التماسك المتين بين أجزائها. والماء هو الوسيط ويسهّل تركيب الأجسام التي يدخل فيها كجزء من مكوناتها. والهواء عبارة عن سائل، ويبدو أنَّ عمله هو

تزويد العناصر الأخرى بالمساحة اللازمة لممارسة حركتها، والتي نكتشف أنَّها ملائمة علاوة على ذلك لتندمج معها. وهذه العناصر التي لا تكتشفها حواسنا أبداً في الحالة المجردة، والتي تُحرك بعضها بعض بشكلٍ مستمر ومتبادل، وتمارس الفعل ورد الفعل دائماً، وتتركب وتنفصل، وتنجذب وتتنافر، تكفي لتشرح لنا تكوين جميع الكائنات التي نراها. وتنتج حركتها بلا انقطاع وبشكلٍ متبادل من بعضهم البعض، وتكون بالتناوب عللاً ومعلولات. وهكذا فإنَّها تشكّل دائرة واسعة من التكوين والهدم، ومن التركيب والتحلل، ولا يمكن أن تكون لها بداية، ولا يمكن أن تنتهي أبداً. وما الطبيعة باختصار سوى سلسلة هائلة من العلل والمعلولات التي تنجم بلا توقف عن بعضها البعض. وتعتمد الحركة الخاصة بالكائنات على الحركة العامة التي تشير إليها الحركة الفردية بحد ذاتها. ويتم تقويتها أو إضعافها – تسريعها أو إعاقتها – تبسيطها أو تعقيدها – إنشاؤها أو تدميرها، من خلال مجموعة متنوعة من المركبات والظروف التي تغير في كلّ لحظة اتجاهات، وميول، وأنماط الوجود والفعل للكائنات المختلفة التي تتلقى تأثيرها.(11)

وإذا كنا نرغب في تجاوز هذا، لإيجاد مبدأ الفعل في المادة وتتبّع أصل الأشياء، فمن الضروري الرجوع دائماً إلى الصعوبات التي تختصر بالتأكيد أدلة حواسنا، والتي يمكننا من خلالها وحدها أن نحكم ونفهم العلل التي تعمل بناءً عليها، أو التأثير الذي تمارس الفعل من خلاله.

لذلك دعونا نكتفي بالقول: إنَّ ما تدعمه خبرتنا، وكلّ الأدلة التي تمكننا من فهمه، وفهم حقيقته التي لا يمكن أن يعترف بها ظل دليل مثل عقلنا، ولم يُسترشد بها، ولم يحتفظ بها الفلاسفة في كلّ عصر، ولم ينكرها اللاهوتيون أنفسهم، بل أيّدها الكثير منهم، هو أنَّ "المادة موجودة دائماً، وتتحرك بحكم ماهيتها، وأنَّ جميع ظواهر الطبيعة تُعزى إلى الحركة المتنوعة بتنوع المادة التي تحتويها، والتي تتجدد باستمرار من رمادها مثل طائر الفينيق".(*) (12)

* ـ طائر الفينيق: طائر أسطوري يجدد شكله باستمرار بحسب الأساطير الإغريقية، وهو طائر كلفته الآلهة بأن يأكل كبد بروميثيوس عقوبة له كونه نقل سر النار إلى البشر، وعرف عند الشعوب بأسماء متعددة مثل العنقاء عند المصريين. (المترجم) وللمزيد راجع: (كائنات أسطورية: طائر الفينيق Phoenix (paranormalarabia.com.)

الفصل الثالث
المادة - مركباتها المختلفة، وحركتها المتنوعة، أو مسار الطبيعة

لا نعرف شيئاً عن عناصر الأجسام، لكننا نعرف بعض خصائصها أو صفاتها، ونميز بين مجموعة متنوعة من موادها من خلال التأثير أو التغيير الذي تحدثه على حواسنا؛ أي من خلال مجموعة متنوعة من الحركات التي يثيرها وجودها فينا. ونكتشف نتيجة لذلك، امتدادها وتحولها، وقابليتها للقسمة، وصلابتها، وجاذبيتها، وقوة خمولها. وينتج عن هذه الخصائص العامة والأولية عدداً من الخصائص الأخرى، مثل الكثافة، والشكل، واللون، والجهد، والخ. وبذلك تكون المادة بالنسبة لنا كلّ ما يؤثر على حواسنا بأيّ طريقة كانت، وتستند الخصائص المختلفة التي ننسبها للمادة إلى الانطباعات المختلفة التي نتلقاها، والتغييرات التي تحدثها فينا.

ولكن لم يُقدم حتى الآن تعريفٌ مرضٍ للمادة. حيث شكّل الإنسان الذي خدعته وضلّلته تحيزاته، مفاهيمَ غامضة وسطحية وغير كاملة بشأنها. ونظر إليها على أنّها كائناً فريداً، وفظاً وسلبياً، وعاجزاً عن التحرك من تلقاء ذاته، أو تكوين مركبات، أو إنتاج أيّ شيء من خلال طاقات خاصة به؛ في حين كان يجب أن يفكر فيها على أنّها جنس للكائنات، رغم أنّ الأفراد الذين قد يمتلكون بعض الخصائص المشتركة، مثل الامتداد، وقابلية القسمة، والشكل، وما إلى ذلك، لا ينبغي تصنيفهم في الفئة ذاتها، ولا تشملهم المجموعة العامة ذاتها.

وسوف يفيد المثال تماماً بشرح ما أكدّنا عليه للتو، وإلقاء الضوء على صحته، وسهولة تطبيقه. والذي مفاده أنّ الخصائص المشتركة بين جميع المواد هي: الامتداد، والقابلية للقسمة، وعدم القابلية للاختراق، والشكل، والتغير، أو خاصية حركة الكائن من

حيث كتله. وتتمتع النار أيضاً، إلى جانب هذه الخصائص العامة المشتركة بين جميع المواد، بخاصية مميزة تتمثل في وضعها موضع التنفيذ بواسطة حركة تثير في أعضائنا الحسية الإحساس بالحرارة، وبوساطة أخرى تنقل إلى أعضائنا البصرية الإحساس بالضوء. فالحديد، المشترك من حيث المادة بشكلٍ عام، له امتدادٌ وشكل، وقابل للقسمة ويتغير من حيث الكتلة، وإذا اختلطت النار مع الحديد بنسب معينة، يكتسب خاصيتين جديدتين؛ أيّ يثيران لدينا إحساساً مماثلاً للإحساس بالحرارة والضوء، لم يكن يمتلكه الحديد قبل تركيبه مع المادة النارية. ويمكن أن يُقال بالمعنى الدقيق للكلمة عن هذه الخصائص المميزة غير المنفصلة عن المادة والظواهر الناجمة عنها، أنّها تنتج بالضرورة.

وإذا كنا نفكر فقط في مسارات الطبيعة، وتتبّعنا الكائنات في هذه الطبيعة في حالات مختلفة نضطر إلى تجاوزها بسبب خصائصها، فسنكتشف أنّها تتحرك، وباختصار تصف الحركة لوحدها كلّ التغييرات، وكلّ المركبات، والأشكال، والتعديلات المختلفة للمادة. ويحدث من خلال الحركة كلّ ما هو موجود، فتتغير الخبرات وتتسع وتنهار. فالحركة التي تغير مظهر الكائنات وتضيف إلى خصائصها أو تزيل منها، تلزم كلّ منها نتيجة لطبيعته، بعد أن يحتل مرتبة أو ترتيباً معيناً بالتخلي عنه ليشغل آخر ويساهم في توليد كائنات أخرى وحفظها وتحللها، ويكون مختلفاً تماماً من حيث حجمه، ورتبته وماهيته.

ومن حيث ما يسميه الفلاسفة التجريبيون المراتب الثلاثة للطبيعة، أي المعادن، والنباتات، وعوالم الحيوانات التي أحدثت بمساعدة الحركة، تناسخاً، وتبدلاً، وانتشاراً مستمراً في جسيمات المادة، أحدثت الطبيعة في أحد الأماكن تلك الجسيمات التي انتقلت بعد فترة إلى مكان آخر. وكوّنت هذه الجسيمات بعد ذلك من خلال مركبات معينة، كائنات حظيت بماهيات خاصة بها، وخصائص معينة، وأنماط عمل محددة، حيث تتحلل وتنفصل بسهولة إلى حدٍ ما، وتتركب بطريقةٍ جديدة وتشكّل كائنات جديدة. ويرى المراقب اليقظ أنَّ هذا القانون يجري بحد ذاته بطريقة واضحةٍ إلى حدٍ ما على جميع الكائنات التي تحيط به. ويرى الطبيعة مليئة بالجراثيم الشاذة، التي يتضاعف بعضها، بينما ينتظر البعض الآخر حتى تضعها الحركة في وضعٍ مناسب لها، وفي أرحامٍ أو مصفوفات

مناسبة وفي الظروف اللازمة لتكاثرها، وزيادتها، وجعلها مدركة أكثر من خلال إضافة مواد أخرى من مادة مماثلة لكيانها الأولي. ولا نرى في كلّ هذا سوى تأثير الحركة التي توجه بالضرورة، وتُعدل ويتم تسريعها أو تتباطأ وتقوى، أو تضعف بفعل الخصائص المختلفة التي تكتسبها الكائنات وتفقدها على التوالي، وتحدث في كلّ لحظة بطريقة لا تشوبها الخطأ تبدلات ملحوظة في الأجسام إلى حدٍ ما. ولا يمكن في الواقع لهذه الأجسام، بالمعنى الدقيق للكلمة، أن تكون ذاتها في لحظتين متتاليتين من وجودها؛ إذ لابدّ أن تكسب أو تفقد في كلّ لحظة، وباختصار يلزم أن تخضع لتغيراتٍ مستمرة من حيث ماهيتها، وخصائصها، وطاقاتها، وكتلتها، وصفاتها، ونمط وجودها.

وبعد أن تنتشر الحيوانات وتخرج من الأرحام المناسبة للعناصر المكونة لأعضائها، تكبر وتقوى وتكتسب خصائص جديدة وطاقات جديدة وملكات جديدة، إما من خلال الحصول على الغذاء من نباتات مماثلة لكينونتها، أو من خلال التهام حيوانات أخرى تكون مادتها مناسبة لحفظها؛ أيّ لترميم فسادها المستمر أو فقدان جزء من مادتها التي تنفصل عنها في كلّ لحظة. وبمساعدة الهواء والماء والتراب والنار تتغذى هذه الحيوانات وتحافظ على ذاتها وتقوى وتكبر. وبحرمانها من الهواء أو السائل الذي يحيط بها، ويضغط عليها ويخترقها، ويمنحها مرونتها، تكفّ حالاً عن الحياة. إذ يدخل الماء المركب وهذا الهواء في عضويتها بالكامل، مما يسهل حركتها. ويفيد التراب كأساسٍ لها، ويضفي الصلابة على تركيبها، وينقله الهواء والماء، ويحملانه إلى أجزاء من الجسم التي يمكن أن تتحد معه. والنار ذاتها، المتخفية والمغطاة بما لانهاية له من الأشكال، يتلقاها الحيوان باستمرار وتزوده بالحرارة، وتبقيه على قيد الحياة، وتجعله قادراً على ممارسة وظائفه. وتدخل المواد الغذائية المشبّعة بهذه المصادر المختلفة إلى المعدة وتعيد تأسيس الجهاز العصبي، وتستعيد من خلال فاعليتها والعناصر المكونة لها، العضو الذي يبدأ بالضعف والهوان بسبب الخسارة التي تكبدتها. وبعد ذلك يشهد الحيوان تغيراً في نظامه بالكامل؛ إذ أصبح لديه المزيد من الطاقة والمزيد من الفاعلية، ويشعر بشجاعةٍ أكبر ويظهر المزيد من الابتهاج، ويعمل ويتحرك، ويفكر بعد ذلك بطريقةٍ مختلفة، ويمارس كلّ ملكاته بسهولة أكبر.[13] ويتضح من هذا أنَّ ما يُسمى بالعناصر، أو الأجزاء الاولية للمادة، عندما تتركب بشكلٍ مختلف،

تتحد باستمرار من خلال أداة الحركة، وتستوعب المادة الموجودة عند الحيوانات، ذلك أنّها تعدّل كينونتها بشكلٍ مرئي، ولها تأثيرٌ واضح على أفعالها، أيّ على الحركة التي تخضع لها، سواء أكانت مرئية أم مخفية.

والعناصر ذاتها التي تفيد في ظل ظروف معينة بتغذية الحيوان وتقويته والحفاظ عليه، تصبح في ظل ظروف أخرى مبادئ لإضعافه، وأدوات لانحلاله، وموته؛ فتعمل على تدميره إنْ لم تكن بذلك القدر الذي يجعلها مناسبة للحفاظ على وجوده، وهكذا عندما يصبح الماء وافراً في جسم الحيوان فإنَّه يضعفه، ويوهن الألياف، ويعيق العمل الضروري للعناصر الأخرى، وهكذا تثير فيه النار المسلم بها عند زيادتها حركة غير منتظمة، ومدمرة لكينونته الحية، وهكذا يجلب إليه الهواء المشبع بعناصر غير مماثلة لكينونته الحية، الأمراض الخطيرة والعدوى. وبعبارة أخرى دمرت المواد الغذائية المعدلة بأوضاع معينة، الحيوان بدلاً من تغذيته وأدّت إلى تلفه، ولم تعد هذه المواد المماثلة لنظام الحيوان تحافظ عليه. وتتلفه عند افتقارها إلى ذلك التوازن المناسب للحفاظ على وجوده.

وتتغذى النباتات التي تفيد بتغذية الحيوانات وترميمها، بحد ذاتها من الأرض؛ التي تنمو على نَهدها، وتكبر وتقوى على حسابها، وتُدخل باستمرار في تركيبها من خلال جذورها ومسامها، ماءً، وهواءً، ومادة نارية، وينعشها الماء بشكلٍ واضح كلّما تضاءل غطاؤها النباتي أو مصدر حياتها؛ الذي ينقل إليها تلك العناصر المماثلة التي تمكنها من الوصول إلى الكمال، والهواء الضروري لنموها، وتمدّها بالماء والتراب والمادة النارية المشبعة بها. وبهذه الوسائل تتلقى إلى حدٍ ما المادة القابلة للاشتعال؛ والمقادير المختلفة من هذه العناصر، ومركباتها العديدة التي ينتج عنها عدداً هائلاً من الخصائص، ومجموعةً متنوعة من الأشكال، التي تشكّل العائلات والفئات المختلفة التي صنّف فيها علماء النبات النباتات: هكذا نرى تطور نمو الأرز والزوفا،(*) حيث ترتفع الأولى الى السحاب، وتزحف الثانية بتواضع على الأرض. وهكذا ينشأ عن جوزة البلوط تدريجياً، شجرة البلوط المهيبة، وتتكاثر فروعها المتعددة بمرور الوقت، وتظللنا بأوراقها. وهكذا تفيد حبة الذرة بدورها بعد

* – نبات عطري كثيف صغير من صنف النعناع. (المترجم)

أن استمدت غذائها من عصارات التراب، في تغذية الإنسان الذي تنقل إلى نظامه العناصر أو الأسس التي ينمي ذاته بها - تتركب وتتعدل بطريقة تجعل هذه الخضار مناسبة للاندماج والاتحاد مع الجسد البشري؛ أيّ مع السوائل والمواد الصلبة التي يتكون منها. وتوجد العناصر ذاتها والأسس ذاتها في تكوين المعادن، وكذلك عند تحللها، سواء كانت طبيعية أو اصطناعية. ونجد أنَّ التراب المتحول والمصنوع والمركب على نحوٍ مختلف، يفيد في زيادة حجمها ومنحها كثافةً وجاذبيةً إلى حدٍ ما. ويساهم الهواء والماء في جعل جزيئاتها متماسكة، وتعطيها المادة النارية أو المبدأ القابل للاشتعال لوناً، وكثيراً ما تدل على وجودها بوضوح من خلال وهجها المضيء الذي يُستدل منه على وجود الحركة. وتتفكك وتتحطم هذه الأحجار والمعادن، وهذه الأجسام المتماسكة والصلبة بفعل الهواء والماء والنار التي يكفي التحليل الأعم لإثباتها، بالإضافة إلى تعدد الخبرة التي تدل أعيننا عليها يومياً.

وبعد فترة من الزمن، تعيد الحيوانات والنباتات والمعادن إلى الطبيعة - أيّ إلى الكتلة العامة للأشياء، وإلى المخزن الكلي - العناصر أو المبادئ التي استعارتها منها. وتستعيد الأرض ذلك الجزء من الجسم الذي شكّلت أساسه وصلابته؛ حيث يشبع الهواء ذاته بتلك الأجزاء المماثلة له، أي بتلك الجزيئات الخفيفة والرقيقة، ويحمل الماء ما هو رديء، وتنفجر النار في حلقاتها وتفكك ذاتها وتندفع إلى مركبات جديدة وأجسام أخرى. وهكذا تتحلل الجسيمات الأولية للحيوان وتتفكك وتتبعثر، وتتخذ نشاطاً جديداً وتُشكل مركبات جديدة، وهكذا تعمل على تغذية كائنات جديدة وتحافظ عليها أو تدمرها - وعند بلوغ النباتات مرحلة النضج، تغذي حيوانات جديدة وتحافظ عليها، وهذه بدورها تستسلم لمصير الأولى ذاته.

وهذا هو المسار الثابت للطبيعة؛ هذه هي الدائرة الأبدية للطفرة التي يجب أن تصف كلّ ما هو موجود. وهكذا فإنَّ تلك التي تولدها الحركة وتحافظ عليها لفترةٍ من الزمن، تدمر تباعاً جزءاً من الكون من خلال جزء آخر، بينما تبقى حصيلة الوجود هي ذاتها إلى الأبد. وتحدث الطبيعة من خلال مركباتها شموساً، وتضعها في مركز العديد من الأنظمة؛ فتتشكل الكواكب التي تنجذب بفضل ماهيتها الخاصة، وترسم دوراناتها حول هذه

الشموس؛ فتتغير الحركة تدريجياً معها وتصبح لامركزية، وربما يأتي اليوم الذي تتبدد فيه هذه الكتل العجيبة التي لا يمكن للإنسان ضمن المساحة الصغيرة من وجوده أن يكون سوى لمحة خافتة وعابرة فيها.

وهكذا يتضحُ أنَّ الحركة المستمرة المتأصلة في المادة تغيّر كلّ الكائنات وتدمرها، وتحرمها في كلّ لحظة من بعض خصائصها لتحل محلها أخرى، وهي الحركة التي تغيّر أيضاً عند تغيير ماهيتها الفعلية، ترتيبها، واتجاهها، وميلها، والقوانين التي تنظم طريقة عملها وكينونتها، وتكوّن من الحجر في أحشاء الأرض بسبب المركب الحميمي والتماسك الوثيق بين جزيئات مشابهة ومماثلة للشمس، ذلك الخزان الواسع من الجسيمات النارية التي سلّطت الضوء على السماء. ونرى من المحار الرخوي وصولاً إلى الإنسان المفكر والفعال، تقدماً متواصل، وسلسلةً دائمة من الحركات والمركبات التي تنتج منها كائنات تختلف عن بعضها البعض فقط من خلال تنوع مادتها الأولية؛ فتنبثق من خلال مركبات هائلة من هذه العناصر أنماطاً من الفعل والوجود وتنوع لا ينتهي. ولا نرى عند التولد والتغذية والحفظ شيئاً سوى مادةً مركبةً بشكلٍ مختلف، ولكلّ منها حركته الخاصة به والتي تنظمها قوانين ثابتة وحاسمة، تلزمها بالخضوع للتغييرات الضرورية. ولن نجد من حيث التكوين، والنمو، والحياة الآنية للحيوانات والخضروات والمعادن، سوى مادةً تتشكل منها الكائنات المركبة والمتراكمة والمتآلفة التي تتكاثر تدريجياً، وتشعر بالحياة، وتنمو أو تتقاسم أيضاً هذه الملكات، ولكونها وجدت في وقتٍ ما ضمن شكلٍ معين فهي ملزمةٌ بالمساهمةِ من خلال تدميرها في إنتاجِ أشكالٍ أخرى.(14)

الفصل الرابع
عن قوانين الحركة المشتركة بين جميع الكائنات في الطبيعة - الجذب والتنافر - القوة الخاملة - الضرورة

لا يتفاجأ الإنسان بالمطلق من معلولات ظن أنَّه يعرف علّتها، ويعتقد أنَّه يعرف العلّة بمجرد رؤية الأشياء تعمل بطريقة موحدة وحاسمة، أو عندما تكون الحركة التي تثيرها بسيطة: كانحدار الحجر الذي يسقط بسبب ثقله، وهو موضوع تأمل بالنسبة للفيلسوف فقط، وتحدث بالنسبة له بفعل عللٍ مباشرة وبأبسط حركة، وبطريقة أقل إبهاماً من تلك التي تكون حركتها أكثر تعقيداً، وتحدث تأثيراً لأسباب أكثر تعقيداً. أما غير المطلعين فنادراً ما يثير فضولهم البحث في النتائج المألوفة بالنسبة لهم أو العودة إلى المبادئ الأولى، ولا يظنوا أنَّهم رأوا شيئاً سوى انحدار حجرٍ أثار دهشتهم أو أصبح موضوعاً لبحثهم. ويُفترض أنَّ نيوتن يدرك أنَّ انحدار الأجسام الثقيلة ظاهرة تستحق كلّ اهتمامه بشكلٍ جدي أكثر، وتفترض بصيرةُ فيلسوف تجريبي متعمق، اكتشاف القوانين التي تسقط بموجبها الأجسام الثقيلة، وتنقل بموجبها حركتها الخاصة للأجسام الأخرى. وبعبارة أخرى غالباً ما يكون لدى العقل الذي يُمارس في الغالب الملاحظة الفلسفية، ما يدعو إلى الاستياء عند اكتشافه أنَّ النتائج الأبسط والأكثر شيوعاً تفلت من جميع أبحاثه، وتبقى غير قابلة للتفسير بالنسبة له.

وعند حدوث أيّ نتيجة استثنائية وغير عادية، لم تعتدْ أعيننا عليها أو عندما نجهل الطاقات الموجودة في العلّة، وكذلك الفعل المرتبط بحواسنا بقوة كبيرة، فإنَّنا نميل إلى التأمل فيها وأخذها بالاعتبار. فالأوروبيون على سبيل المثال الذين اعتادوا على استخدام البارود، يستخدمونه من دون أن يفكروا كثيراً في طاقاته غير العادية، ولا يجد العامل الذي يجتهد في صنعه شيئاً رائعاً من حيث خواصه؛ لأنَّه يتعامل يومياً مع المادة التي تدخل في تكوينه.

وكذلك نظر إليه الأمريكي الذي لم يسبق له أن رأى تأثيره، على أنَّه قوة إلهية وطاقاته خارقة للطبيعة. ويعتبر غير المطّلعين الذين يجهلون السبب الحقيقي للرعد، أنَّه أداةٌ للانتقام السماوي. ويعتبره الفيلسوف التجريبي ناجماً عن المادة الكهربائية، والتي يكون سببها في حد ذاته على الرغم من ذلك بعيداً جداً عن فهمه الكامل لها.(15)

ولكون الأمر على هذا النحو، فكلما رأينا علّة الفعل، فإنَّنا ننظر إلى نتيجته على أنَّها طبيعية؛ وعندما تصبح هذه العلّة مألوفة للنظر ونعتاد عليها، نعتقد أنَّنا نفهمها ولم تعد نتائجها تفاجئنا. وعندما ندرك أيّ نتيجة غير عادية من دون اكتشافنا للعلة، يخطط العقل للعمل ويصبح قلقاً، ويزداد هذا القلق بشكلٍ يتناسب مع حجمه، ونضطرب تماماً بمجرد أن نعتقد أنَّه يهدد بقائنا، ونسعى وراء العلّة بما يتناسب فعلاً مع قلقنا، فتزيد حيرتنا بما يتناسب مع قناعتنا في مدى ضرورة اعترافنا بالعلّة التي أثّرت فينا بطريقة مفعمةٍ بالحيوية. وكما يحدث في كثيرٍ من الأحيان فإنَّ حواسنا لا يمكن أن تعلّمنا سوى الاهتمام بهذه العلّة التي تهمّنا بشدة ونبحث عنها بحماسةٍ كبيرة، ونلجأ إلى خيالنا، ويصبح هذا الذي تشوش من الرعب، وأضناه الخوف، دليلاً مشكوكاً به وخاطئاً؛ ذلك أنَّنا نخلق كائنات خيالية، وعللاً وهمية نثق بها وننسب لها شرف تلك الظواهر التي أثارت رعبنا الشديد. ويجب أن ينسب هذا الفعل للعقل البشري، وكما سيظهر فيما يلي، الأخطاء الدينية للإنسان اليائس من القدرة على تتبّع العلل الطبيعية لتلك الظواهر المحيّرة التي شهدها، وكان أحياناً ضحيةً لها، وخلقت في دماغه المتقد من الرعب عللاً خيالية، أصبحت بالنسبة له مصدراً لأشد الحماقات تهوراً.

ومع ذلك، يمكن أن توجد في الطبيعة عللاً ومعلولات طبيعية فقط، حيث تنتج كلّ الحركات التي تُثار في هذه الطبيعة عن قوانين ثابتة وضرورية، وتكفي العمليات الطبيعية للمعرفة التي نريدها ويمكننا الحكم عليها، لتمكيننا بحد ذاتها من اكتشاف العمليات التي لا يقع عليها بصرنا، ويمكننا على الأقل الحكم عليها عن طريق القياس. وستعلمنا الطبيعة إذا درسنا باهتمام، أنماط الفعل التي تعرضها على حواسنا، والشعور بعدم الاستياء من تلك التي يتعذر اكتشافها. وتؤثر تلك العلّل الأكثر بعداً عن معلولاتها من دون شك من خلال عللٍ وسيطة تساعدنا غالباً على تتبع الأولى. وإذا واجهنا أحياناً في سلسلة هذه العلل عقبات تعارض بحدّ ذاتها بحثنا، فعلينا أن نسعى بصبرٍ واجتهاد للتغلب عليها، ولا يمكننا عندما يحدث ذلك أن نتغلب على الصعوبات التي تظهر، وقد لا نبرر على

الإطلاق في النتيجة السلسلة المراد قطعها أو كون العلّة التي تُحدثها خارقة للطبيعة. فلنكتفي إذن بإقرارٍ صادق بأنَّ الطبيعة تحتوي على موارد نجهلها، لكن لا يُسمح لنا أبداً باستبدال الأشباح أو التخيلات أو العلل الوهمية، والمصطلحات التي لا معنى لها بتلك العلل التي تفلت من بحثنا؛ لأنَّنا بهذه الوسائل نثبت فقط جهلنا ونعوق أبحاثنا ونبقى متشبثين بالخطأ.

وعلى الرغم من جهلنا فيما يتعلق بمنحنيات الطبيعة وماهية الكائنات وخصائصها وعناصرها ومركباتها وخصائصها، إلا أنَّنا نعرف القوانين البسيطة والعامة التي تتحرك بموجبها الأجسام، ونرى بوضوحٍ أنَّ بعض هذه القوانين المشتركة بين جميع الكائنات، لا تناقض ذاتها أبداً، وعلى الرغمّ من أنَّها تبدو متباينة في بعض الحوادث إلا أنَّنا مؤهلون في كثير من الأحيان لاكتشاف أنَّ العلّة التي تكون معقدة لكونها مركبة من علل أخرى، تعرقل نمط عملها أو تعوقه، كما هو الحال في حالتها البدائية التي كنا محقين في توقعها. ونعلّم أنَّ المادة النارية النشطة عند تفاعلها مع البارود لابدّ أن تؤدي بالضرورة إلى انفجاره، وعندما لا ينجم عن هذا التأثير دمج المادة النارية مع البارود، وعندما لا تقدم لنا حواسنا دليلاً على حقيقته، فإنَّنا نبرّر النتيجة بأنَّ المسحوق رطب أو أنَّه اتحد مع مادةٍ أخرى تقاوم انفجاره. ونعلّم أنَّ جميع أفعال الإنسان تميلُ إلى إسعاده؛ لذلك كلما رأيناه يعمل على إيذاء نفسه أو تدميرها، نستنتج أنَّ ما دفعه هو علّةٌ ما تعارض ميله الطبيعي، وأنَّ تميز ما يخدعه، وأنَّه محجوبٌ عن النتائج بسبب نقص خبرته، ولا يرى إلى أين ستقوده أفعاله.

وإذا كانت الحركة التي تظهر عند الكائنات بسيطة دائماً، وإذا لم تمتزج أفعالها وتندمج مع بعضها بعض، فسيكون من السهل معرفة النتيجة الناجمة عن علّة ما. أعرفُ أنَّ الحجر يجب أن يسقط عند انحداره عمودياً، وأعلّم أيضاً أنَّه إذا واجه أيّ جسمٍ آخر فسيغير مساره وسيجبره على اتخاذ اتجاه مائل، ولكن إذا اعترض سقوطه عدة قوى متناقضة تعمل بالتناوب، فلن أكن قادراً على تحديد الخط الذي سيرسمه. فقد يكون قطعاً مكافئاً، وبيضوياً، ولولبياً، ودائرياً...إلخ. وسيعتمد هذا على التأثير الذي يتلقاه، والقوى التي تدفعه.

ومع ذلك، فإنَّ الحركة الأكثر تعقيداً ليست سوى النتيجة الناجمة عن حركات بسيطة مندمجة معاً؛ لذلك بمجرد أن نعرف القوانين العامة للكائنات، وعملها، يجب أن نحللها ونفككها لكي نكتشف تلك المندمجة معها، حيث تعلّمنا الخبرة توقع النتائج. وهكذا من الواضح أنَّ أبسط حركة تُحدث اتصالاً ضرورياً بمادةٍ مختلفة تتكون منها كلّ الأجسام؛ ذلك أنَّ المادة متنوعة من حيث ماهيتها، وخصائصها، ومركباتها، ولكلّ منها أنماط عمل أو حركات متعددة خاصة بها، وحركة الجسم ككل هي بالتالي المجموع الكلّي لدمج حركات معينة معاً.

وتميل بعض المواد التي نراها باستمرار إلى الاتحاد، في حين لا يتمكن بعضها الآخر من ذلك، وتشكّل تلك الملائمة لأن تتحد، مركبات متماسكة نوعاً ما، وتمتلك متانةً إلى حدٍ ما؛ أيّ قدرة الحفاظ إلى حدٍ ما على اتحادها ومقاومة الانحلال. وتتلقى تلك الأجسام التي تُسمى بالأجسام الصلبة، من حيث تكوينها عدداً كبيراً من الجسيمات المتجانسة والمتشابهة والمماثلة وتتحد بحد ذاتها مع طاقات تتعاون أو تميل إلى النقطة ذاتها. وتحتاج الكائنات البدائية أو عناصر الأجسام إلى الدعم والتأييد؛ أي إلى وجود بعضها البعض بغرض الحفاظ على ذاتها، واكتساب الاتساق أو الصلابة التي تنطبق حقيقةً من خلال اتحادها بالقدر ذاته على ما يسمى (مادي)، وما يُصطلح عليه اسم (أخلاقي). وبناءً على هذا الميل للمادة والأجسام وعلاقتها ببعضهما البعض، تنشأ أنماط الفعل التي يعينها الفلاسفة الطبيعيون بمصطلحات: الجذب، والتنافر، والتعاطف، والكراهية، والألفة، والعلاقات.[16] ويصف الأخلاقيون هذا الميل تحت أسماء الحب والكراهية والصداقة والنفور. ويختبرُ الإنسان مثل كلّ الكائنات في الطبيعة، تأثير التجاذب والتنافر؛ وتختلف الحركة المُثارة فيه عن حركة الكائنات الأخرى فقط لكونها مستترة أكثر، وغالباً ما تكون مخفية جداً، بحيث لا تُعرف الأسباب التي تثيرها ولا طريقة عملها.

ومهما كان الأمر، يكفي أن نعرف أنَّ بعض الأجسام تميلُ بموجب قانونٍ ثابت إلى الاتحاد بسهولة إلى حدٍ ما، بينما لا يمكن لأجسام أخرى أنْ تتركب. حيث يتركب الماء بسهولة مع الملح، لكنه لا يمتزج مع الزيت. وبعض المركبات قوية جداً ومترابطة بقوةٍ كبيرة مثل المعادن، ومعظمها ضعيفٌ للغاية، وتماسكها طفيف، وتنحلل بسهولة، كما هو الحال في الألوان سريعة الزوال. وتصبح بعض الأجسام غير القادرة على الاتحاد من تلقاء ذاتها،

قابلة للاتحاد بمساعدة أجسام أخرى تفيد كروابط أو وسائط مشتركة. وهكذا، يتركب الزيت والماء غير المتجانسين بشكلٍ طبيعي، ويصنعان الصابون بتدخل الملح القلوي. وتنتج عن المادة المركبة بشكلٍ متنوع وبنسب متفاوتة تقريباً إلى ما لا نهاية كلّ الأجسام المادية والمعنوية التي تختلف خصائصها وصفاتها اختلافاً جوهرياً، وتكون أنماط فعلها معقدة إلى حدٍ ما، وتُفهم بطريقة سهلة أو يصعب فهمها بحسب المادة التي دخلت في تكوينها، والتعديلات المختلفة التي أُجريت على هذه المادة.

وهكذا، تصبح الجسيمات البدائية غير المحسوسة للمادة التي تشكّل الأجسام بفعلِ التحول في جاذبيتها، مُدركة وتشكّل مواداً مركبة، وكتل كلية، من خلال اتحادها مع مادة مشابهة ومماثلة لها، وتكون ماهياتها ملائمة للاتحاد معها. وتتحلل الأجسام ذاتها أو تفكك تركيبها، كلّما خضعت لعمل مادة غير ملائمة للاتصال معها. وهكذا تتكون النباتات والمعادن والحيوانات والبشر تدريجياً، وينمو كلّ منها ويتكاثر ويزيد من حيث نظامه أو ترتيبه؛ ويحافظ على ذاته ضمن وجوده الخاص به من خلال الجذب المستمر للمادة المماثلة له، والتي قد تتحد به وتحافظ عليه وتعمل على تقويته. وهكذا تصبح بعض الأطعمة صالحة لتغذية الإنسان، والبعض الآخر يدمر وجوده، وبعضها يرضيه ويعزز سلوكه. وأخرى كارهة له وتضعف نظامه. وباختصار، لا يوجد انفصال مطلق بين القوانين المادية والقوانين المعنوية – ومن ثم فإنَّ البشر الذين ينجذبون إلى بعضهم بعض بفعل رغباتهم المتبادلة، يشكّلون تلك الاتحادات التي نسميها بمصطلحات الزواج، والعائلات، والمجتمعات، والصداقات، والصلات التي تقويها الفضيلة وتعززها؛ وتوهنها الرذيلة أو تحللها تماماً.

وربما يكون كلّ ما في الطبيعة مركباً من الكائنات التي تتحرك دائماً باتجاه واحد أو ميلٍ واحد، ولا يمكن أن تكون لدينا من دون اتجاه أيّ فكرةٍ عن الحركة، وعن تنظم خصائص كلّ كائن لهذا الاتجاه، وبمجرد أن تكون لديها كلّ الخصائص المحددة، فإنّها تتصرف بالضرورة بالامتثال لها؛ وهذا يعني أنّها تتّبع القانون الذي تحدده دائماً هذه الخصائص ذاتها، والتي تشكّل في حد ذاتها الكائن كما وجد، وتحدد طريقة عمله وتكون دائماً نتيجة لأسلوب وجوده. ولكن ما هو الاتجاه العام أو الميل المشترك الذي نراه عند

جميع الكائنات؟ وما هي الغاية المرئية والمعروفة لكلّ حركتها؟ لتحافظ على وجودها الفعلي – لتقوية أجسادها المتعددة – لجذب ما هو مفضل لها – لصد ما يؤذيها – لتجنب ما يمكن أن يضرّ بها، ومقاومة التأثيرات المخالفة لطريقة وجودها وميلها الطبيعي.

ولكي توجد، يجب أنْ تختبر حركة خاصة بماهية محددة، ولكي تحافظ على هذا الوجود، يجب أن تمنح وتتلقى تلك الحركة التي ينتج عنها الاحتفاظ بوجودها: – تجذب مادةً مناسبة لتعزيز وجودها – تتجنب ما قد يعرضها للخطر أو يضعفها. وهكذا، تميل جميع الكائنات التي نعرفها إلى الحفاظ على بعضها بعض بطريقتها الخاصة؛ حيث يبدي الحجر مقاومةً تجاه تدميره من خلال التماسك القوي بين جزيئاته. وتحافظ الكائنات المتعضية على ذاتها بوسائل أكثر تعقيداً، فلكي تحافظ على وجودها تأخذها بالحسبان مواجهة ما قد يؤذيها. ويسعى الإنسان، سواء من حيث قدرته الجسدية أو الأخلاقية، وهو كائنٌ حي وشاعر ومفكر وفاعل، في كلّ لحظة من بقائه إلى تجنب ما قد يضر به، والحصول على ما يرضيه أو يتناسب مع أسلوب وجوده.[17]

ومن هنا فإنّ الحفظ هو النقطة المشتركة التي يبدو أنّها توجه باستمرار كلّ الطاقات، وكلّ القوى، وكلّ ملكات الكائن. ويسمي الفلاسفة الطبيعيون هذا الاتجاه، أو الميل، بـ (الجاذبية الذاتية Self-gravitation). ويسميه نيوتن القوة الخاملة. ويُطلق عليه علماء الأخلاق حب الإنسان لذاته؛ والذي هو ليس سوى ميل لديه للحفاظ على ذاته – الرغبة في السعادة – حب رفاهيته – الرغبة في اللذة – سرعة في الاستياء من كلّ ما يبدو مؤاتياً للحفاظ عليه – وكره واضح لكلّ ما يؤرق سعادته أو يهدد وجوده – تكون المشاعر البدائية المشتركة بين جميع أفراد الجنس البشري التي تسعى كلّ ملكاتهم باستمرار إلى إشباعها، هدفاً وغاية دائمة لكلّ عواطفهم، وإرادتهم، وأفعالهم. ومن الواضح إذن أنّ هذه الجاذبية الذاتية ميلٌ ضروري عند الإنسان وعند جميع الكائنات الأخرى التي تساهم من خلال مجموعة متنوعة من الوسائل، في الحفاظ على الوجود الذي تتلقاه طالما لا يوجد ما يفسد نظام عضويتها أو ميلها البدائي.

وتُحدث العلّة دائماً معلولاً، ولا يمكن أن يكون هناك معلول من دون علّة. ويتبع المثير دائماً بعض الحركات المحسوسة إلى حدٍ ما، وبعض التغييرات الملحوظة إلى حدٍ ما في

الجسم الذي يستقبله. ولكن الحركة وأنماطها المختلفة التي تبرز بها، كما ظهرت بالفعل، تحددها الطبيعة، والماهية، والخصائص، ومركبات من الكائنات المؤثرة. وبالتالي يجب أن نستنتج أنَّ الحركة أو الأنماط التي تعمل بموجبها الكائنات، تنشأ عن علّة ما، وبما أنَّ هذه العلّة غير قادرة على التحرك أو العمل إلّا بما يتوافق مع طريقة وجودها أو خصائصها الأساسية، يجب أن نستنتج أنَّ جميع الظواهر التي ندركها على حدٍ سواء ضرورية؛ وأنَّ كلّ كائن في الطبيعة لا يمكن أن يعمل في ظل الظروف التي وُضِع فيها وبما يمتلكه من خصائص معينة، بطريقة أخرى غير تلك التي يعمل بها.

والضرورة هي الارتباط الثابت والمعصوم بين العلل ومعلولاتها. حيث تلتهم النار بالضرورة مادةً قابلة للاحتراق موضوعة ضمن مجال فعلها، ويرغب الإنسان بالضرورة بما هو مفيد حقاً لرفاهيته أو يبدو كذلك. وتعمل الطبيعة بالضرورة في كلّ ما تظهره من ظواهر وفقاً لماهيتها الخاصة بها، وتعمل كلّ الكائنات التي تحتويها بالضرورة وفقاً لماهيتها الفردية. ويرتبط الكلّ من خلال الحركة بأجزائه، وهذه مع الكل، وهكذا يكون كلّ شيء في الكون متصل؛ ويكون بحدّ ذاته سلسلة هائلة من العلل والمعلولات التي تتدفق باستمرار أحدها عن الآخر. وإذا فكرّنا قليلاً، فسنضطر للاعتراف بأنَّ كلّ ما نراه ضروري، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، وأنَّ جميع الكائنات التي نعاينها وكذلك تلك التي لا نراها، تعمل بموجب قوانين معينة وثابتة. ووفقاً لهذه القوانين، تسقط الأجسام الثقيلة وترتفع الأجسام الخفيفة؛ وتجذب المواد المماثلة بعضها البعض، وتميلُ الكائنات إلى الحفاظ على ذاتها، ويرفّه الإنسان ذاته، ويحب ما يعتقد أنَّه مفيد له، ويكره ما يمتلك عنه فكرة غير مواتية له. ونضطر في النهاية للاعتراف بأنَّه لا يمكن أن تكون هناك طاقة مستقلة – لا يوجد علّة معزولة – لا يوجد عمل منفصل في طبيعة تكون فيها جميع الكائنات في حالةِ فعل متبادل – يدفع بعضهم البعض من دون انقطاع وتقاوم بعضها البعض – هي بحد ذاتها ليست سوى دائرة أبدية لحركةٍ تُمنح وتُستقبل وفقاً لقوانين ضرورية.

وسيفيدنا مثالان بإلقاء الضوء على المبدأ المنصوص عليه هنا – أحدهما مأخوذ من الفيزياء والآخر من الأخلاق.

حيث تثيرُ العناصر العنيفة والفوضوية زوبعةً من الغبار كما يبدو لأعيننا، وتثير الرياح المعاكسة أشد الأحوال الجوية رعباً، وتتلاطم الأمواج مرتفعة فوق الجبال، ولا يوجد جسيم

واحد أو غبار أو قطرة ماء وضِعت بالصدفة، إلا وكان لها علّة كافية وضعتها حيث توجد، ولا تعمل بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا وفقاً للطريقة التي يجب أن تعمل بها؛ أي وفقاً لماهيتها الخاصة، وماهية الكائنات التي تتلقى منها التأثير. ويمكن أن يثبت الهندسي، الذي يعرف بالضبط الطاقات المختلفة لعمل كلّ حالة وخصائص الجسيمات المتحركة، أنَّ كلّ جسيم يعمل بدقة وفقاً للعلل المعطاة، وكما يجب أن يعمل، وأنَّه لا يمكنه أن يعمل بطريقة مغايرة لما كان عليه.

وفي تلك الاضطرابات الرهيبة التي تتحول بها أحياناً المجتمعات السياسية، وتهز أسسها، وتؤدي في كثيرٍ من الأحيان إلى الإطاحة بالإمبراطورية - لا يوجد فعل واحد، أو كلمة واحدة، أو فكرة واحدة أو إرادة واحدة، أو عاطفة واحدة عند العمال، سواء كانوا يعملون كمخربين أو ضحايا، إلا وتكون ناجمة بالضرورة عن عللٍ فاعلة، ولا تعمل بحكم الضرورة التي يجب أن تعمل بها بموجب الوضع الخاص الذي يشغله هؤلاء العمال في الزوبعة الأخلاقية. ويمكن إثبات ذلك بوضوح من خلال فهم القدرة على الاستيلاء وتقييم جميع أفعال وردود فعل عقول وأجساد أولئك الذين ساهموا في الثورة.

وإذا كانت جميعها مرتبطة بالفعل بالطبيعة، وإذا كانت كلّ الحركات تنتج عن بعضها البعض، بصرف النظر عن روابطها المخفية التي لا نراها كثيراً؛ فيجب أن نشعر بالاقتناع بأنَّه لا توجد علّة، مهما كانت صغيرة جداً، ومهما كانت بعيدة، لا تُحدث أحياناً أكبر المعلولات المرتبطة مباشرة بالإنسان. ونجد على سبيل المثال أنَّ سهول ليبيا القاحلة التي تجمعت فيها العناصر الأولى لعاصفة أو زوبعة حملتها الرياح، ربما تقترب من مناخنا، وتجعل غلافنا الجوي كثيفاً، وتؤثر على المزاج وربما تؤثر على عواطف إنسان مكّنته ظروفه من التأثير على عددٍ من الناس الآخرين، وسيقرّر وفقاً لإرادته مصير العديد من الأمم.

إنَّ الإنسان في الواقع يكتشف نفسه في الطبيعة ويشكّل جزءاً منها، ويتصرف وفقاً لقوانينها؛ فيتلقى بطريقة مميزة إلى حدٍ ما الفعل والتأثير من الكائنات التي تحيط به وتعمل بحد ذاتها وفقاً لقوانين خاصة بماهيتها. ومن ثم يتحول على نحوٍ مغاير؛ لكن أفعاله تكون ناجمة دائماً عن طاقة خاصة به، وطاقة موجودة عند الكائنات التي تؤثر عليه، ويتحول من خلالها. وذلك ما يمنحه هذا التنوع من حيث تحديداته. وما يولد هذا التناقض في كثير من الأحيان في أفكاره وآرائه وإرادته وأفعاله؛ وباختصار، ينفعل بتلك الحركة سواء

كانت مخفية أو مرئية. وسيكون لدينا متسع فيما يلي، لإثبات هذه الحقيقة، ونناقش في الوقت الحاضر الكثير ونلقي عليه ضوءاً أكبر، وسيكون كافياً لغرضنا الحالي أن نثبت بشكلٍ عام أنَّ كلّ شيء في الطبيعة ضروري، وأنَّه لا يوجد فيها ما يمكن أن يتصرف بخلاف ما يفعله.

إنَّ الحركة التي يتمّ نقلها وتلقيها بالتناوب هي التي تثبت الصلة والعلاقة بين الرتب المختلفة للكائنات؛ فعندما تكون في مجال الفعل المتبادل، يقرّبها الجذب ويحللها التنافر ويفصل بينها، وتحفظها الأولى وتقويها، وتضعفها الأخرى وتدمرها. وتميلُ بمجرد تركيبها إلى الحفاظ على ذاتها في هذا النمط من الوجود بحكم قوتها الخاملة، ولا يمكنها النجاح في ذلك؛ لأنَّها تتعرض للتأثر المستمر بجميع الكائنات الأخرى التي تعمل وفقاً لها بشكلٍ دائم ومتعاقب، ويكون تغيير شكلها وتحللها ضروريان للحفاظ على الطبيعة ذاتها. وهذه هي الغاية الوحيدة التي يمكننا تخصيصها لها، والتي نميلُ إلى رؤيتها باستمرار، وتتبّعها باستمرار من خلال فناء وتكاثر جميع الكائنات الخاضعة لها، والتي يجب أن تخضع لقوانينها وتتعاون من خلال أسلوب عملها للحفاظ على وجودها الفعال، وهو أمرٌ ضروري على نحوٍ أساسي للكل العظيم.

وهكذا، فإنَّ كلّ كائن هو فرد، ينفذ في العائلة الكبيرة المهمة الضرورية الموكلة إليه. حيث تعمل جميع الأجسام وفقاً لقوانين متأصلة في ماهيتها الخاصة، ولا يمكنها أن تحيد قيد انملة عن تلك القوانين التي تعمل الطبيعة وفقاً لها. وهذه هي القوة المركزية التي تخضع لها كلّ القوى الأخرى، وكلّ الماهيات الأخرى، وكلّ الطاقات الأخرى التي تنظم حركة الكائنات بسبب ضرورة وجود ماهية خاص بها تجعلها تفي من خلال أنماط مختلفة بالخطة العامة، ويبدو أنَّ هذه الخطة ليست سوى الحياة والفعل، والحفاظ على الكلّ من خلال التغيير المستمر بأجزائه. وهذا شيء تحصل عليه باستبعاد أحدها الآخر، وتثبت من خلاله، وتدمر بواسطته العلاقة القائمة بينها؛ وتمنحها أو تحرمها من خلاله أشكالها، وتركيباتها، وخصائصها، وصفاتها التي تعمل وفقاً لها منذ زمن، وبموجب وضع معين، ويؤخذ هذا منها بعد ذلك، ويجعلها تعمل بطريقةٍ مختلفة. ومن ثم فإنَّ الطبيعة تجعلها تمتد وتتغير، وتنمو وتضعف، وتزيد وتنقص، وتقترب وتبتعد، وتشكلها وتدمرها، بحسب ما تجده ضرورياً للحفاظ على الكل، ومن الضروري من أجل الحفاظ على ما في هذه الطبيعة

أن تمتلك بحدّ ذاتها ميلاً. وبالتالي تنجم هذه القوة التي لا تُقاوم وهذه الضرورة الكلية، وهذه الطاقة العامة، عن طبيعة الأشياء فحسب؛ والتي يعمل بموجبها كلّ شيء من دون انقطاع، وبموجب قوانين ثابتة وغير قابلة للتغيير، ولا تختلف هذه القوانين بالنسبة للكل أكثر من اختلاف الكينونات التي يتكون منها. فالطبيعة هي الكلّ الفعال والحي الذي تتفق أجزائه بالضرورة، وذلك من دون معرفة خاصة بها للحفاظ على الفاعلية والحياة والوجود. وتعمل الطبيعة وتوجد بالضرورة، ويتعاون كلّ ما تحتويه بالضرورة على حفظ وجودها الفعال.(18)

وسنرى في فيما يلي، مقداراً مما بذله خيال الإنسان من جهدٍ لتكوين فكرة عن طاقات تلك الطبيعة التي جسّدها وميزها عنه، وبعبارة أخرى، سوف نفحص بعض الاختراعات السخيفة والمؤذية التي تمّ تخيلها بسبب عدم فهمه للطبيعة، وإعاقة مسارها، وتعليق قوانينها الأبدية، ووضع عقبات أمام ضرورة الأشياء.

الفصل الخامس
النظام والفوضى - الذكاء - الصدفة

ولّدت ملاحظة الحركة الضرورية والمنتظمة والدورية في الكون فكرة (النظام) في ذهن الإنسان. وهو مصطلح لا يمثل له، من حيث معناه البدائي، سوى طريقة للنظر ووسيلة لإدراك العلاقات المختلفة معاً وبشكلٍ منفصل عن ذلك الكلّ الذي يُكتشف فيه من خلال أسلوب وجوده وفعله انجذاباً معيناً أو متطابقاً معه. حيث حمل الإنسان معه عندما وسّع هذه الفكرة لتشمل الكون، تلك الأساليب في النظر إلى الأشياء الخاصة به، وافترض بالتالي أنّه توجد بالفعل تجاذبات وعلاقات في الطبيعة، وصنّفها تحت اسم النظام؛ وصنّف الأخرى التي بدت له أنّها لا تتوافق معها تحت مصطلح (الفوضى).

ومن السهولة أن نفهم أنّ فكرة النظام والفوضى هذه لا يمكن أن يكون لها وجود مطلق في الطبيعة، حيث كلّ شيء ضروري، وحيث يتبع الكل قوانين ثابتة وغير قابلة للتغير؛ ويلتزم كلّ كائن في كلّ لحظة من بقائه بالخضوع بقوانين أخرى تنبثق هي ذاتها عن نمط وجوده. ولذلك، يجد الإنسان في خياله وحده نموذجاً لما يسميه النظام أو الفوضى، والتي لا تفترض مثل كلّ أفكاره المجردة الميتافيزيقية سوى ما هو بعيد عن متناول يده. وليس النظام سوى القدرة على التوفيق بينه وبين الكائنات التي تحيط به أو مع الكل الذي يشكّل جزءاً منه.

ومع ذلك، إذا طُبقت فكرة النظام على الطبيعة، فسوف يتبين أنّها ليست سوى سلسلة من الأفعال أو الحركات التي تحكم الإنسان عبر تضافرها لتحقيق غاية واحدة مشتركة. وهكذا، يكوّن النظام في الجسم الذي يتحرك، سلسلة من الأفعال وسلسلة من الحركات المناسبة لتكوينه على ما هو عليه، وللحفاظ عليه من حيث حالته الحقيقية. ويكون نظام الطبيعة كلّها، سلسلة من العلل والمعلولات الضرورية لوجودها الفعلي وللحفاظ عليها إلى الأبد؛ ولكن، كما ثبت في الفصل السابق، فإنّ كلّ كائن فردي ملزم

بالتعاون لتحقيق هذه الغاية من حيث الرتب المختلفة التي يشغلها؛ ويُستدل عليها بالضرورة منها، ولا يمكن أبداً أن يكون ما يُسمى بنظام الطبيعة، سوى طريقة معينة للنظر في ضرورة الأشياء التي يخضع لها الجميع وليس للإنسان أيّ معرفة بشأنها. وليس ما يُسمى فوضى سوى مصطلحٌ نسبي يُستخدم لتعيين تلك السلسلة من الأفعال الضرورية، وتلك السلسلة من الحركات الضرورية التي يتغير من خلالها الكائن الفردي بالضرورة أو يستاء من حيث نمط وجوده، ويتم الالتزام من خلالها على الفور بتعديل طريقة عمله، ولكن ولا واحدة من هذه الأفعال، ولا أيّ جزء من هذه الحركات، قادرٌ حتى ولو للحظة واحدة، على معارضة أو عرقلة النظام العام للطبيعة، والذي يستمد منه كلّ كائن وجوده وخصائصه، والحركة الخاصة به.

وليس ما يسمى الفوضى عند الكائن سوى انتقاله إلى فئةٍ جديدة، ونمطٍ جديد من الوجود، يحمل بالضرورة سلسلة جديدة من الأفعال، وسلسلة جديدة من الحركات، ويختلف عن ذلك الذي كان يشغل مكان الرتبة السابقة. وما يسمى بالنظام في الطبيعة هو نمطٌ من الوجود أو ميلٌ ضروري للغاية لجزيئاتها. وكان لابدّ أن ينشأ بالضرورة في كلّ تركيب آخر من العلل والمعلولات أو العوالم، وكذلك العالم الذي نعيش فيه، هو نوعٌ من الترتيب ونوعٌ من النظام. ولنفترض أنّ المواد الأكثر تعارضاً والأكثر تغايراً قد دخلت حيز التنفيذ من خلال تسلسل الظواهر الضرورية التي ستشكل فيما بينها نظاماً كاملاً وترتيباً مثالياً من نوعٍ ما. وهذا هو المفهوم الحقيقي للخاصية التي يمكن أن تحدد الاستعداد لتكوين كائن كما هو موجود بالفعل، وكما هو كذلك، فيما يتعلق بالكلّ الذي يشكل جزءاً منه.

وهكذا، أكرر، ليس النظام سوى ضرورة، ويُنظر إليه كسلسلة من الأفعال أو سلسلة من العلل والمعلولات المترابطة التي تحدث في الكون. ولكن ما هي الحركة في الواقع ضمن نظامنا الفلكي الذي لا يمتلك عنه الإنسان أيّ فكرة مميزة، سوى أنّه نظام وسلسلة من الظواهر التي تعمل وفقاً لقوانين ضرورية وتنظم الأجسام التي تتكون منها؟ وانسجاماً مع هذه القوانين، تحتلُ الشمس المركز، وتنجذب الكواكب نحوها وتدور حولها باستمرار وفي فترات منتظمة، وتنجذب أقمار هذه الكواكب نحو تلك التي تقع في مركز مجال عملها وترسم حولها مسارها الدوري. ويدور أحد هذه الكواكب، وهو الأرض التي يسكنها

الإنسان، حول محورها الخاص بها، ومن خلال الجوانب المختلفة التي يلتزم بها دورانها السنوي حول الشمس، تحدث تلك الاختلافات المنتظمة التي تسمى بالفصول. ومن خلال سلسلة ضرورية من تأثير الشمس على أجزاء مختلفة من هذا العالم، تخضع جميع منتجاتها لتقلبات؛ ففي حين تكون النباتات، والحيوانات، والبشر، في حالة من الخمول خلال فصل الشتاء، يبدو أنَّ هذه الكائنات تنتعش في الربيع، وتخرج، إذا جاز التعبير، من سباتٍ طويل. أي، تمتلك الطريقة التي تستقبل فيها الأرض أشعة الشمس تأثيراً على كلّ منتجاتها، وعندما تنطلق هذه الأشعة بشكلٍ غير مباشر، لا تعمل بالطريقة التي تعمل بها عندما تسقط بشكلٍ عمودي، ونتيجة غيابها الدوري وبسبب دوران هذا المجال حول نفسه، يتعاقب الليل والنهار. ومع ذلك، لا يشاهد الإنسان في كلّ هذا أبداً سوى التأثيرات الضرورية التي تنتج عن ماهية الأشياء، والتي ينبغي بقاءها على حالها، ولا يمكن أبداً أن تكون متناقضة. وتنجمُ هذه التأثيرات عن الجاذبية والجذب وقوة الطرد المركزي...الخ.(19)

ومن ناحية أخرى يضطرب أحياناً هذا النظام الذي يُعجب به الإنسان كونه معلولاً خارقاً للطبيعة أو يتحول إلى ما يسميه الفوضى، ولكن هذه الفوضى تكون بحد ذاتها دائماً نتيجة ضرورية لقوانين الطبيعة التي تكون ضرورية للحفاظ على الكلّ الذي لابدّ أن تختل بعض أجزائه، وتخرج عن المسار العادي. ومن ثم فإنَّ المذنبات تبّهر بحد ذاتها بشكلٍ غير متوقع عيون الإنسان المتعجب، وتقلق حركتها اللامركزية هدوء نظامه الفلكي؛ وتثير الرعب عند الجاهل، الذي يكون كلّ شيء غير عادي بالنسبة له أمرٌ عجيب. ويخمّن الفيلسوف الطبيعي ذاته أنَّ هذه المذنبات، أطاحت في العصور السابقة بسطح هذه الكرة الأرضية وتسببت في ثوراتٍ كبيرة على الأرض. ويتعرض بغض النظر عن هذه الفوضى الاستثنائية، لظواهر أخرى مألوفة أكثر بالنسبة له: في بعض الأحيان تبدو الفصول كما لو أنَّها استُبدلت مكان بعضها البعض – تخلت عن نظامها المعتاد، وفي بعض الأحيان يبدو أنَّ العناصر المتنافرة تتنازع فيما بينها على سيادة العالم؛ فيندفع البحر نحو شواطئه، وتتزلزل الارض الصلبة وتتصدع، وتكون الجبال في حالة اشتعال، وتفتك الأمراض الوبائية بالبشر وتكتسح الحيوانات، ويخرّب العقم البلد. ثم يصرخُ الإنسان الغاضب صرخات خارقة، ويصلي صلاته لاستدعاء النظام ويرفع يديه مرتجفاً نحو الكائن الذي يُفترض أنَّه الخالق

لكلّ هـذه الكُرب، مـع أنَّ كـلّ هـذه الفوضـى المؤلمة تكـون نتـائج ضـرورية، وتـنجم عـن عللٍ طبيعة، وتعمل وفقاً لقوانين ثابتة ودائمة تحددها ماهيتها الخاصة، وللماهية الكلية للطبيعة التي يجب أن يتغير فيها بالضرورة كلّ شيء، ويتحرك، ويتحلّل؛ حيث يجب أحياناً أن يتزعزع ما يسمى بالنظام، ويغير إلى نمطٍ جديد من الوجود الذي يبدو في نظره على أنَّه فوضى.

وليس هناك من وجود لما يسمى فوضى الطبيعة؛ حيث يجد الإنسان نظاماً في كلّ ما يتوافق مع نمط كينونته، وفوضى في كلّ ما يتعارض معها، ومع ذلك، كلّ ما في الطبيعة منظم؛ لأنَّه لا يوجد أيّ جزء من أجزائها قادر على الإطلاق على التحرر من تلك القواعد الثابتة والضرورية التي تنجم عن ماهية كلّ منها، ولا يوجد فوضى، ولا يمكن أن يكون هناك فوضى ككل، ولا بقاء لما يسمى الفوضى بالمطلق؛ فلا يمكن أبداً تشويش مسارها العام الذي تكون فيه جميع التأثيرات الناجمة نتيجة لعلل طبيعية، لا تعمل في ظل الظروف التي يتم وضعها فيها، إلا إذا كانت ملزمة بالعمل بشكلٍ معصوم.

ويترتـب علـى ذلـك أنَّـه لا يمكـن أن يوجـد في الطبيعـة وحـوش ولا آيات، ولا عجائب ولا معجزات؛ فتلك التي توصف بأنَّها وحوش هي مركبات معينة لم تألفها عيون الإنسـان، إلا أنَّها ليست سوى المعلولات اللازمة عن علّل طبيعية. وتلك التي يسـميها الآيات أو العجائب أو التـأثيرات الخارقـة للطبيعـة هـي ظـواهر الطبيعـة الـتي لا يعرف طريقة عملها – ولا يسمح له جهله بالتحقق من مبادئها – لا يستطيع تتبع عللها، ولكن خياله المتّقد يجعله ينسب إليها بحماقة عللاً وهمية، مثل فكرة النظام التي ليس لها وجود إلا في نفسه؛ لأنَّه لا يمكن لأيّ من هذه الأشياء أن توجد خارج الطبيعة.

أما بالنسبة لتلك المعلولات التي تُسمى معجزات؛ أيّ على عكس قوانين الطبيعة غير القابلة للتغير، فهذه الأشياء مستحيلة؛ لأنَّه لا شيء يمكن أن يوقف للحظة المسار الضروري للكائنات من دون أن يوقف الطبيعة بأكملها، ويعيق ميلها. ولم يكن هناك عجائب ولا معجزات في الطبيعة، إلا عند أولئك الذين لم يدرسوا هذه الطبيعة بشكلٍ كافٍ، ولا يشعرون بالتالي أنَّ قوانينها لا يمكن أبداً أن تكون متناقضة، حتى في أدق أجزائها، من دون أن يُفني الكل أو على الأقل من دون تغيير ما هيتها أو طريقة عملها.[20]

ومن هنا فإنَّ النظام والفوضى مصطلحان نسبيان، حيث يحدد الإنسان الحالة التي توجد فيها كائنات معينة بحد ذاتها. ويقول: يكون الكائن في حالة نظام عندما تتعاون كلّ حركة يخضع لها لصالح ميله إلى حفظ ذاته، وتؤدي إلى الحفاظ على وجوده الفعلي. ويكون في حالة فوضى، عندما تعيق العلل التي تحركه انسجام وجوده أو تميل إلى تدمير التوازن الضروري للحفاظ على حالته الحقيقية. ومع ذلك، فإنَّ الفوضى، كما أوضحنا ذلك، ليست سوى انتقال كائن إلى نظامٍ جديد. وكلّما كان التقدم أسرع، كلّما زادت الفوضى التي يخضع لها الكائن، والتي تقود الإنسان إلى ما يسمى بالموت، وهو أعظم فوضى ممكنة بالنسبة له. ومع ذلك، فإنَّ هذا الموت ليس سوى ممر إلى نمطٍ جديد من الوجود، وهو حالة نظام الطبيعة.

ويُقال إنَّ الجسم البشري يكون منظم عندما تعمل أجزائه المختلفة بطريقةٍ ينتج عنها الحفاظ على الكل الذي هو الغاية من وجوده الفعلي.[21] ويقول: إنَّه بصحةٍ جيدة عندما تتعاون الأجسام السائلة والصلبة لتحقيق هذه الغاية. ويقول: إنَّه في حالة فوضى أو في حالة صحية سيئة، كلّما كان هناك ما يعوق تحقيق هذا الميل، وعندما يتوقف أيٌ من الأجزاء المكوّنة لجسمه عن التعاون على حفظه أو عن أداء وظائفه الخاصة به. وهذا هو ما يحدث في حالة المرض الذي تكون فيه الحركة المثارة في العضوية البشرية ضرورية رغم ذلك، وتنظّمها قوانين مؤكدة، وطبيعية، وثابتة، مثل تلك التي تتعاون على إحداث الصحة. ويحدث له المرض نظاماً جديداً للحركة، وسلسلة جديدة من الأفعال، وسلسلة جديدة من الأشياء. وبموت الإنسان، وهذا يبدو لنا أكبر فوضى يمكن أن يختبرها؛ لم يعد جسده كما كان – توقفت أجزائه عن التعاون لتحقيق الغاية ذاتها – فقِدَ دمه دورانه – حُرم من الشعور – اختفت أفكاره – لم يعد يفكر – تلاشتْ رغباته – الموت هو فترة من الزمن الذي يتوقف فيه وجوده البشري. – يصبح هيكله كتلة هامدة بسبب استبدال تلك المبادئ التي كان يحيى من خلالها، فيتلقى ميله اتجاهاً جديداً، وحركة مُثارة تتعاون بدورها لتحقيق غاية جديدة. وبالنسبة لهذه الحركة، يخلف الانسجام الذي يُحدث الحياة، والتفكير الوجداني، والعواطف، والصحة، سلسلة من الحركات من أنواعٍ أخرى، تنتج رغم ذلك عن قوانين ضرورية كالأولى، وتتعاون جميع أجزاء الإنسان الميت لإنتاج ما يسمى بالتحلل والتخمر والتعفن. وهذه الأنماط الجديدة من الوجود ومن الفعل، تكون طبيعية تماماً

بالنسبة للإنسان، وتردّه إلى هذه الحالة، مثل الإحساس، والتفكير، والحركة الدورية للدم...إلخ. وبالنسبة للإنسان الحي، بعد أن تغيّرت ماهيته، وأسلوب عمله لم يعد هو نفسه. ويخلف تلك الحركة المنظمة وذلك الفعل الضروري الذي يتعاون على إنتاج الحياة، تلك الحركة المحددة، وتلك السلسلة من الأفعال التي تتعاون على إحداث انحلال الجثة الميتة، وتبدد أجزائها، وتشكيل مركبات جديدة، ينتج عنها كائنات جديدة، وهذا، كما رأينا من قبل، هو النظام الثابت لطبيعة دائمة الفعالية.[22] وبذلك لا يمكن أن يتكرر ذلك غالباً بالنسبة للكلّ العظيم، ولا يمكن لكلّ حركة من حركات الكائنات، وكلّ طرق عملها أن تدخل أبداً في حالةِ نظام؛ أي أن تتوافق دائماً مع الطبيعة التي تعمل باستمرار في جميع المراحل التي يتعين على الكائنات المرور بها، وبموجب وضع خاضع بالضرورة للكل الكلي. كلا: كلّ كائن فردي يعمل دائماً وفق نظام ما، وتكون كلّ أفعاله ونظام حركته بالكامل، هي النتيجة الضرورية لنمطٍ خاص بوجوده، سواء كان ذلك مؤقتاً أو دائماً. ويكون النظام في المجتمع السياسي، نتيجةً لسلسلة ضرورية من أفكار، وإرادات، وأفعال أولئك الذين يؤلفونه وتنتظم حركاتهم بطريقة يأخذون فيها بالاعتبار الحفاظ على عدم تجزئته أو الإسراع بتحلله. فالإنسان الذي تشكل أو تحول بطريقة مطلق عليه بموجبها فاضل، يتصرف بالضرورة بطريقةٍ تنتج عنها رفاهية أقرانه، ويتصرف الإنسان الذي نسميه شريراً بالضرورة بطريقة ينتج عنها بؤس زملائه، ولكون طبيعته وتحولها مختلفتان جوهرياً، فيجب أن يتصرف بالضرورة بطريقة مختلفة، ويكون نظامه الفردي مغاير، إلا أنَّ نظامه النسبي مكتمل وتعزز ماهية أحدهما السعادة، بينما تحدث بالنسبة للآخر البؤس.

وهكذا فإنَّ النظام والفوضى عند الكائنات الفردية ليست سوى طريقة للنظر عند الإنسان إلى التأثيرات الطبيعية والضرورية التي تحدث له على نحوٍ نسبي. فيخشى من الشرير، ويقول: سيُحدث فوضى في المجتمع؛ لأنَّه يعرقل ميله ويضع عقبات أمام سعادته. ويتجنب سقوط الحجر؛ لأنَّه سيفسد فيه النظام الضروري لحفظه. ومع ذلك، يكون النظام والفوضى دائماً، كما أوضحنا، نتيجتين ضروريتين سواء للحالة المؤقتة أو الدائمة عند الكائنات. ولذلك فإنَّ النار تحرق؛ لأنَّها محرقة من حيث ماهيتها؛ وعلى الشرير أن يقترف الإثم؛ لأنَّه يقترف الإثم من حيث ماهيته، ومن ناحية أخرى، يجب على الكائن الذكي أن يبتعد عن كلّ ما يمكن أن يعرقل نمط وجوده. ويجب على الكائن الذي تجعله

منظومته حساساً بحكم ماهيته، أن يهرب من كلّ ما يمكن أن يؤذي أعضاءه ويعرّض وجوده للخطر.

ويدعو الإنسان أولئك بالأذكياء الذين ينتظمون بموجب طريقته الخاصة، ويرى فيهم ملكات مناسبة لحفظهم، ومناسبة لحفظ وجودهم ضمن نظام يناسبهم، ويمكنهم من اتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق هذه الغاية من خلال الوعي بالحركة التي يخضعون لها. ومن هنا سوف يُدرك أنَّ الملكة المسماة بالذكاء، تتكون من القدرة على التصرف بشكلٍ يتوافق مع غاية معروفة لدى الكائن الذي تُنسب إليه. ويُنظر إلى تلك الكائنات على أنَّها محرومة من الذكاء ولا يجد فيها أيّ توافق معه؛ لا يكتشف فيها المنظومة ذاتها، ولا الملكات ذاتها، ولا يعرف ماهيتها، ولا الغاية التي تتجه إليها أو الطاقات التي تعمل من خلالها، ولا النظام الذي يناسبها. ولا يمكن أن تكون لدى الكل غاية مميزة؛ لأنّه لا يوجد شيء خارجه يمكن أن يكون لديه ميل له. وإذا كان ينسب لنفسه فكرة النظام، فهو أيضاً يرسم في نفسه فكرة الذكاء. ويرفض أن ينسبها إلى تلك الكائنات التي لا تعمل وفقاً لطريقته الخاصة، وهو يمنحها لكلّ أولئك الذين يفترض أنَّهم يتصرفون مثله، ويسميهم عمال أذكياء؛ والعلل العمياء السابقة، أي العمال الأذكياء الذين يتصرفون عن طريق الصدفة – كلمة خالية من المعنى، ولكنها تعارض دائماً فكرة الذكاء، من دون ربطها بأيّ فكرة محددة أو معينة.(23)

وينسب الإنسان إلى الصدفة بالفعل كلّ تلك المعلولات التي لا نلحظ ارتباطها بعللها، وبالتالي يستخدم كلمة الصدفة ليخفي جهله بتلك العلل الطبيعية التي تحدث معلولات مرئية، لا يستطيع تكوين فكرة عنها، أو أنَّها تعمل بطريقة لا يدرك نظامها أو لا ينتج نظامها عن أفعال تتوافق مع نظامه. وبمجرد أن يرى أو يعتقد أنَّه يرى نظام الفعل، فإنَّه ينسب ذلك النظام إلى الذكاء؛ الذي لا يكون سوى صفة مستعارة من ذاته ومن أسلوب عمله ومن الطريقة التي يتأثر بها هو ذاته.

وهكذا فإنَّ الكائن الذكي هو ذلك الذي يفكر، ويرغب، ويعمل، ويبلغ الغاية. وإذا كان الأمر كذلك، فيجب أن تكون لديه أعضاء وأهداف تتطابق مع تلك الموجودة عند الإنسان، وبالتالي، القول: إنَّ الطبيعة يحكمها الذكاء هو للتأكيد على أنَّها محكومة بكائنٍ

يزودها بأعضاء؛ نظراً إلى أنَّه من دون هذا البناء العضوي لا يمكن أن تكون لديه أحاسيس وتصورات وآراء وأفكار وإرادة، وتخطيط ولا فعل مفهوم ذاتياً.

وبذلك يجعل الإنسان نفسه دائماً مركزاً للكون، ويربط كلّ ما يراه بنفسه. وبمجرد أن يعتقد أنَّه يكتشف طريقة عمل تتوافق معه أو بعض الظواهر التي تثير مشاعره، فإنَّه ينسبها إلى علةٍ مماثلة له، وتعمل وفقاً لطريقته، ولديها ملكات مماثلة لتلك التي يمتلكها. ومصالحها مشابهة لمصالحه، ومشاريعها منسجمة معه، ولها ميلٌ مماثل لذلك الذي ينغمس هو ذاته به: وباختصار، يشكّل من ذاته، ومن الخصائص التي تحركه، أنموذجاً لـ هذه العلّة. وهكذا ينظر الإنسان إلى الأنواع الخاصة به على أنَّها ليست سوى كائنات تتصرف بشكلٍ مغاير عنه، ويعتقد رغم ذلك أنَّه يشير في الطبيعة إلى نظام مشابهٍ لأفكاره الخاصة، وتتوافق آراءه مع تلك الخاصة به. ويتخيل أنَّ الطبيعة محكومة بعلّة، وذكاؤها مطابق لذكائه، وينسب إليها شرف النظام الذي يعتقد أنَّه يشهد على تلك الآراء التي تتوافق مع آرائه، ومع الهدف الذي ينسجم مع تلك الغاية العظيمة من كلّ أفعاله. صحيح أنَّ الإنسان الذي يشعر بعدم قدرته على إحداث نتائج هائلة ومضاعفة للعملية التي يشهدها أثناء تأمله في الكون، كان مضطراً للتمييز بينه وبين العلّة التي افترض أنَّها خالقة لهذه المعلولات الهائلة، إلا أنَّه اعتقد أنَّه أزال من خلال مبالغته في هذه العلّة كلّ الصعوبات من كلّ تلك الملكات التي كان هو ذاته يمتلكها. وهكذا، توصل تدريجياً إلى تكوين فكرة عن تلك العلّة الذكية التي وضعها فوق الطبيعة لتوجه أفعالها، ومنحها تلك الحركة التي آمن بأنَّها غير قادرة على إحداثها بذاتها. ويصر بعناد دائماً على اعتبار هذه الطبيعة كومةً من مادة ميتة وخاملة ولا شكل لها، ولا تمتلك في حد ذاتها القدرة على إحداث أيٍّ من تلك المعلولات العظيمة لتلك الظواهر العادية التي ينبثق منها ما يسميه نظام الكون.(24)

ومن هنا يمكن أن نستنتج أنَّ الإنسان بسبب افتقاره إلى المعرفة المتعلقة بقوى الطبيعة، وخصائص المادة، ضاعف الكائنات من دون ضرورة، وافترض أنَّ الكون تسيطر عليه علّة ذكية والتي هو بحد ذاته وربما سيظل دائماً، أنموذجاً لها، وجعل هذه العلّة أعقد عندما وسّعها لتشمل بشكلٍ مفرط ملكاته الخاصة به. فإما أن يقضي عليها أو يجعلها مستحيلة تماماً إن ارتبطت بصفات غير متوافقة معه، وتلزمه القيام بعمل يمكّنه من تفسير ما يراه في

العالم من معلولات متناقضة وغير منتظمة. ومع أنَّه يرى في الواقع فوضى في العالم، ورغم أنَّ هـذه الفوضى تتعارض مع الخطة، والقوة، والحكمة، وسخاء هـذا الذكاء، والنظام العجيب الذي يُنسب إليها، فإنَّه يقول: إنَّ ترتيب الكل الفائق الجمال يلزمه أن يفترض أنَّه عمل ذكاء ملكي.[25]

ولا شك أنَّه سيقول: بما أنَّ الطبيعة تحتوي على كائنات ذكية تنتجها، فإما أنَّها بحد ذاتها ذكية أو لابد أنَّ هناك علّة ذكية تحكمها. ونجيب: الذكاء ملكة خاصة بالكائنات المنظمة؛ أي بكائنات تتكون وتتركب وفقاً لطريقة محددة، ومن هنا تنتج أنماط عمل معينة، ويتم تحديدها بأسماء مختلفة، بحسب التأثيرات المختلفة التي تحدثها هذه الكائنات؛ فالنبيذ على سبيل المثال لا يمتلك خصائص تُسمى الذكاء والشجاعة؛ ومع ذلك، يُنظر إليه أحياناً على أنَّه ينقل إلى البشر تلك الصفات التي يفترض أن يفتقروا لها تماماً. ولا يمكن القول: إنَّ الطبيعة ذكية على غرار أيّ كائن من الكائنات التي تحتوي عليها؛ لكنها تستطيع إنتاج كائنات ذكية، بفعل تجميع مادة مناسبة لتشكيل منظومة معينة، والتي ستُنتج من خلال طرائق عمل خاصة بها الملكة المسماة بالذكاء، وستكون قادرة على إنتاج تلك المعلولات التي تكون النتيجة اللازمة عن هذه الخاصية. لذلك أكرر، من أجل الحصول على ذكاء وخطط وآراء، من الضروري امتلاك أفكار، ويكون إنتاج الأفكار، والأعضاء أو الحواس ضروري، وهذا ما لا يُقال عن الطبيعة ولا عن العلل التي يفترض أن توجه أفعالها. وبعبارة أخرى تثبت الخبرة بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ المادة التي تُعتبر خاملة وميتة، تفترض فعلاً محسوساً، وذكاءً، وحياةً، عندما تتركب وفقاً لطرق معينة.

وبناءً على ما قيل، يجب أن نستنتج أنَّ هذا النظام ليس سوى الارتباط الضروري والموحد بين العلل ومعلولاتها أو تلك السلسلة من الأفعال التي تنتج عن الخصائص المميزة للكائنات طالما بقيت في حالة معينة – هذه الفوضى ليس سوى تغيير لهذه الحالة – وكلّ شيء في الكون منظم بالضرورة؛ لأنَّ كلّ شيء يعمل ويتحرك وفقاً لما تتضمنه الكائنات من خصائص – ولا يمكن أن توجد فوضى أو شر حقيقي في الطبيعة؛ بما أنَّ كلّ شيء يتبع قوانين وجوده الطبيعي – ولا توجد صدفة، ولا أيّ شيء عرضي في هذه الطبيعة، ولا ينتج أيّ معلول من دون علّة كافية؛ حيث تؤثر جميع العلل بالضرورة وفقاً لقوانين ثابتة

ومعينة، وتعتمد بحد ذاتها على الخصائص الأساسية لهذه العلل، وكذلك على التركيب أو التعديل الذي يشكل إما حالتها المؤقتة أو الدائمة – الذكاء طريقة للعمل، ومنهجاً للوجود وطبيعياً بالنسبة لكائنات معينة – وإذا كان لابد أن يُنسب الذكاء إلى الطبيعة، فلن يكن هناك عندئذٍ سوى ملكة الحفاظ على ذاتها في الوجود الفعلي بوسائل ضرورية. وعندما ترفض الطبيعة الذكاء الذي يتمتع به هو بحد ذاته – ورفض العلة الذكية التي من المفترض أن تكون مبتكرة لهذه الطبيعة، أو مبدأ هذا النظام الذي يكتشفه في مسارها، لا يمنح أيّ شيء للصدفة، ولا شيء للعلة العمياء؛ بل ينسب كلّ ما يراه إلى علل حقيقية أو معروفة أو لهذه العلل التي من السهولة فهمها. ومن المسلم به أنَّ كلّ ما هو موجود ناجمٌ عن الخصائص المتأصلة في المادة الأبدية، والتي تنتج النظام والفوضى وكلّ تلك الضروب التي يراها عن طريق الاتصال، والمزج، والتركيب، والتغيير في الشكل – ويكون بحد ذاته أعمى، عندما يتخيل عللاً عمياء – أظهر الإنسان جهله فقط بقوى وقوانين الطبيعة، عندما نسب كلّ معلولاتها إلى الصدفة. ولم يُظهر عقلاً أكثر تنويراً عندما نسبها إلى الذكاء، فالفكرة تُقتبس منه دائماً، لكنها لا تتوافق أبداً مع المعلولات التي ينسبها إلى تدخلها – تخيلَ فقط الكلمات لتزويد المكان بالأشياء، واعتقد أنَّه استوعبها عبر إخفائه للأفكار التي لم يجرؤ على تحديدها أو تحليلها.

الفصل السادس
الإنسان - وتمييزه أخلاقياً ومادياً - وعن أصله

دعونا نطبّق الآن القوانين العامة التي نقّبنا عنها على تلك الكائنات التي تثير اهتمامنا أكثر بالطبيعة. ودعونا نرى لماذا يختلف الإنسان عن الكائنات الأخرى التي تحيط به. ودعونا نبحث عمّا إذا لم يكن يمتلك نقاط معينة تتوافق معها، وتلزمه على الرغم من الخصائص المختلفة التي تمتلكها على التوالي، بالعمل في جوانب معينة بحسب القوانين الكلية التي يخضع لها كلّ شيء. وأخيراً، دعونا نستفسر عمّا إذا كانت الأفكار التي شكّلها عن نفسه أثناء تأمله في نمطِ وجوده الخاص، ناجمة عن كائنات خرافية أم قائمة على العقل.

حيث يشغل الإنسان مكاناً متوسطاً بين ذلك الحشد والعدد الهائل من الكائنات التي تشكّل بمجموعها الطبيعة. وتعرضّه ماهيته؛ أيّ الأسلوب الخاص بوجوده الذي يتميز به عن الكائنات الأخرى، لأنماطٍ مختلفة من العمل ولمجموعةٍ متنوعة من الحركات، بعضها بسيط ومرئي، وبعضها الآخر مخفيّ ومعقد. وليست حياته ذاتها سوى سلسلة طويلة، وتسلسل من الحركات الضرورية والمتصلة التي تحدث تغييرات دائمة ومستمرة في عضويته التي تحتوي من حيث المبدأ على علل داخليه، مثل الدم، والأعصاب، والألياف، واللحم، والعظام، وباختصار، المادة الصلبة وكذلك السوائل، التي يتكون منها جسده – أو تلك العلل الخارجية، التي تحوله بشكلٍ مختلف وتؤثر عليه؛ مثل الهواء الذي يحيط به، والأغذية التي يتغذى عليها، وكلّ تلك الأشياء التي يتلقى منها كلّ تأثير أياً كان الانطباع الذي تتركه على حواسه.

ويميل الإنسان مثل جميع الكائنات الأخرى في الطبيعة، إلى الحفاظ على نفسه – يختبر قوة خاملة – ينجذب إلى ذاته – تجذبه أشياء مماثلة له، وينفر من تلك المعارضة له – يسعى وراء بعضها – يهرب من الأخرى أو يحاول إبعاد نفسه عنها. وهي مجموعة

متنوعة من الأفعال، ومجموعة متنوعة من التعديلات التي يتعرض لها الإنسان، وتُحدد تحت أسماء مختلفة، وبموجب هذه المصطلحات المتنوعة. وسيكون من الضروري، في الوقت الحاضر، دراستها عن كثب وبالتفصيل.

ومهما كانت أنماط العمل التي يخضع لها الهيكل البشري، سواء كانت عجيبة أو خفية أو معقدة، وسواء داخلياً أو خارجياً أو ظهرت كتأثير يتلقاه أو يتصل به ويفحصه عن كثب، فسيجد أنَّ كلّ حركاته، وكلّ عملياته، وكلّ التغيرات التي تعتريه، وكلّ أحواله المختلفة، وكلّ انفعالاته، تُنظم باستمرار من خلال القوانين التي حددتها الطبيعة لجميع الكائنات التي تحدثها - وتطورها - وتثريها بالملكات - وتزيد من حجمها — وتحميها لفترة من الزمن — وتضع لها حداً بالتحلل أو الهلاك - وتلزمها بتغيير شكلها.

والإنسان من حيث أصله، نقطةٌ وذرة غير محسوسة، وأجزاءٌ لا شكل لها، وتغيب حركتها وحياتها عن حواسه، أي أنَّه لا يدرك فيها أيّ علامة تدل على تلك الصفات التي تُسمى عاطفة، وشعور، وتفكير، وذكاء، وقوة، وعقل...الخ. وتتكشف هذه النقطة التي توضع في رحم يناسب نموها، وتزداد وتمتد عن طريق الإضافة المستمرة للمادة التي يجذبها والتي تماثل كينونته وتتشابه بالتالي معه. وبعد أن يترك هذا الرحم المناسب للغاية للحفاظ على وجوده وتنمية صفاته، وتقوية طبعه؛ وهو مختص لمرحلة معينة تحقق الاتساق بين مبادئ هيكله الضعيف؛ يصبح الإنسان بالغاً، ثم يكتسب جسده نمواً كبيراً من حيث كتلته، وتكون حركته ملحوظة، وعمله مرئياً، ويحس بجميع أجزائه؛ ويكون كتلة حية وفعالة؛ أي أنَّه يشعر، ويفكر، ويقوم بالوظائف الخاصة بأفراد جنسه. لكن كيف أصبح حساساً؟ لأنَّه أصبح يتغذى، ويكبر ويتجدد تدريجياً من خلال الانجذاب المستمر الذي يحدث داخله لهذا النوع من المادة التي يُقال إنَّها خاملة، وغير مدركة، وغير حية؛ على الرغم من اتحادها باستمرار مع عضويته التي تشكل كلّاً فعالاً، وتكون حية، وتشعر، وتحكم، وتعقل، وتأنّ، وتختار، وتنتخب؛ وقادرة على العمل بكفاءة إلى حدّ ما للحفاظ على شخصيته؛ أيّ الحفاظ على انسجام وجوده الطبيعي.

وتكون كلّ الحركات والتغييرات التي يختبرها الإنسان خلال حياته، سواء كانت من أشياء خارجية أو من تلك المواد الموجودة داخله، إما مواتية لوجوده أو ضارة، وتحافظ على نظامه أو ترمي به إلى الفوضى، وتكون متوافقة مع الميل الأساسي لنمطِ الوجود الخاص به

أو كارهة له. وهو مضطر بطبيعته إلى استحسان بعضها ورفض الأخرى؛ فبعضها يجعله سعيداً بالضرورة والبعض الآخر يسهم في معاناته؛ ويصبح بعضها أهدافاً لرغبته الشديدة، وبعضها الآخر لنفوره المحتوم، ويستحوذ بعضها على ثقته، والبعض الآخر يجعله يرتعش من الخوف.

ولا يدرك الإنسان في كلّ الظواهر التي يشهدها، منذ اللحظة التي يترك فيها رحم أمه إلى أن يصبح فيها هامداً في القبر الصامت، سوى سلسلة من العلل والمعلولات الضرورية، التي تتوافق تماماً مع تلك القوانين المشتركة بين جميع الكائنات في الطبيعة. وكلّ أنماط عمله — جميع أحاسيسه – جميع أفكاره – كلّ عواطفه – كلّ فعلٍ ناجم عن إرادته – كلّ دافع يمنحه أو يتلقاه، هي النتائج اللازمة عن الخصائص الخاصة به، وعن تلك التي يجدها عند مختلف الكينونات التي يتحرك بموجبها. وكلّ شيء يفعله – كلّ شيء يحدث بداخله — ناجم عن القوة الخاملة — عن الجاذبية الذاتية — عن قوى الجذب أو الدفع الموجودة في عضويته — عن الميل الذي يشترك فيه مع الكائنات الأخرى، إلى الحفظ الفردي الخاص به، وبعبارة أخرى، عن تلك الطاقة التي تمثل خاصية مشتركة بين كلّ الكائنات التي يراها. ولا تفعل الطبيعة في الإنسان شيئاً سوى أن تُظهر بطريقة محددة ما ينتمي إلى الطبيعة الخاصة التي يتميز بها عن الكائنات الموجودة في نسقٍ أو نظام مختلف.

وكما سيظهر في الوقت الراهن، فإنَّ مصدر تلك الأخطاء التي اقترفها الإنسان عندما كان يفكر في نفسه، يكمن في الرأي الذي استمع إليه، وتحرك بموجبه – يتصرف دائماً من خلال طاقته الطبيعية – كان من حيث أفعاله، والإرادة التي منحته الدافع، مستقلاً عن القوانين العامة للطبيعة، وعن تلك الأشياء التي تؤثر عليه باستمرار، وفي كثيرٍ من الأحيان من دون علمه، ودائماً رغماً عنه عند امتثاله لهذه القوانين. ولو أنَّه فحص نفسه باهتمام، لتوجب عليه أن يعترف أنَّه ولا واحدة من الحركات التي خضع لها كانت عفوية — ولتوجب عليه اكتشاف أنَّ ولادته أيضاً اعتمدت على عللٍ خارجة بالكامل عن متناول قدراته – وأدخلها رغماً عنه في النظام الذي يشغل فيه مكاناً – وأنَّه يكون منذ لحظة ولادته وحتى تلك التي يموت فيها، مدفوعاً باستمرار بعلل تؤثر رغماً عن أنفه على بنيته، وتغيّر وجوده وتنظم سلوكه. ولكن ألا يكفي أيّ تأمل ليثبت له أنَّ السوائل والمواد الصلبة التي يتكون منها جسده، وكذلك تلك العضوية المخفية التي يعتقد أنَّها مستقلة عن

العلل الخارجية، تتأثر بالفعل دائماً بهذه العلل، وسيجد نفسه من دونها عاجزاً تماماً عن التصرف؟ ألم يرَ أنَّ مزاجه، وبنيته، تعتمد في الوقت الحاضر عليه - وأنَّ عواطفه هي النتيجة اللازمة عن هذا المزاج -تتأثر بها إرادته - تتحدد أفعاله من خلال هذه العواطف، وبالتالي بآراء لم يقدمها هو ذاته؟ إذ يمنحه دمه الحار أو الغزير إلى حدٍ ما، وأعصابه المشدودة إلى حدٍ ما، وأليافه المسترخية إلى حدٍ ما، أفعالاً مؤقتة أو دائمة، وتحسم في كلّ لحظة أفكاره، ورغباته، ومخاوفه، وحركته سواء كانت مرئية أو مستترة. ألا تعتمد الحالة التي يجد نفسه فيها بالضرورة على تحول الهواء الذي يحيط به بشكلٍ متنوع؛ وعلى الخصائص المختلفة للأطعمة التي تغذيه، والمركبات السرية التي تتشكل تلقائياً في عضويته، وتحافظ على نظامه أو تجعله في حالة من الفوضى؟ وبعبارة أخرى، لو أنَّ الإنسان فحص نفسه تماماً، لأقنعه كلّ شيء أنَّه لم يكن في كلّ لحظة من بقائه سوى أداة سلبية في أيدي الضرورة.

لذلك يتضح أنَّه عندما ترتبط جميع العلل ببعضها بعض، ولا تشكل كلّها سوى سلسلة واحدة هائلة، لا يمكن أن تكون هناك أيّ طاقة مستقلة ومعزولة وأيّ قوة منفصلة. ويترتب على ذلك أنَّ الطبيعة تحدد دائماً للإنسان من حيث الفعل، كلّ نقطة على السطر الذي يجب أن يخطه. إنَّها الطبيعة التي تدفق وتجمع العناصر التي يجب أن يتألف منها. - والطبيعة هي التي تمنحه كيانه وميله وطريقة خاصة بعمله. - الطبيعة هي التي تنميه وتمده وتقويه وتحفظه لفترة يلتزم خلالها بأداء المهمة المنوطة به. - إنَّها الطبيعة التي تنثر على الطريق أثناء رحلته في الحياة تلك الأشياء، والأحداث، والمغامرات، وتعدله بطرق متنوعة، وتمنحه دوافع تكون أحياناً مقبولة ومفيدة، وفي أحيان أخرى ضارة وغير مرغوب فيها. - وعندما منحته الطبيعة الشعور، وهبته القدرة على اختيار الوسائل واتخاذ المناهج الأكثر ملاءمةً للحفاظ عليه. - تقوده الطبيعة، عندما ينتهي من حياته المهنية إلى هلاكه، وتلزمه بالتالي بالخضوع للقانون الكلي الثابت الذي لا يُستثنى منه أيّ شيء. ومن ثم تخرج الحركة أيضاً الإنسان من الرحم، وتدعمه لفترة، وتملكه على المدى الطويل أو تلزمه بالعودة إلى حضن الطبيعة التي تعيد إنتاجه بسرعة وتنشره تحت أشكالٍ لا متناهية، سيمرّ فيها كلّ جزء من جسيماته، بالطريقة ذاتها مرة أخرى بالمراحل المختلفة، والضرورية كما تخطى الكل من قبل تلك الموجودة في وجوده السابق.

ويتعرض أفراد الجنس البشري وكذلك جميع الكائنات الأخرى، لنوعين من الحركة، النوع الأول: وهو الكم، حيث ينتقل بها الجسم بأكمله أو بعض أجزائه بشكلٍ مرئي من مكان إلى آخر. والنوع الآخر: داخلية ومخفية، ويدرك الإنسان بعضاً منها، بينما يحدث البعض الآخر من دون علمه، ولا يمكنه حتى تخمينها إلا من خلال الأثر الذي تُحدثه ظاهرياً. وفي عضوية شديدة التعقيد مثل عضوية الإنسان، تكون من مركب هذا العدد الكبير من المواد مجموعة متنوعة جداً من حيث خصائصها، ومختلفة جداً من حيث صفاتها، ومتنوعة جداً في أنماط عملها، تصبح الحركة بالضرورة من أكثر الأنواع تعقيداً، وتفلت في كثير من الأحيان سواء كانت بطيئة أو سريعة من ملاحظة أولئك الذين تحدث فيهم.

وبالتالي دعونا لا نتفاجأ إذا قام الإنسان عندما أرادَ أن يفسر بنفسه علّة وجوده وطريقة عمله، بمواجهة الكثير من العقبات، وابتكرَ هذه الفرضيات الغريبة ليشرح الانبثاق الخفي لعضويته – إذا قام عندما بدّت له هذه الحركة مغايرة عن تلك الموجودة في الأجساد الأخرى، بتصور فكرة أنَّه يتحرك ويتصرف بطريقة مختلفة تماماً عن الكائنات الأخرى في الطبيعة. وأدركَ بوضوحٍ أنَّ جسده، وكذلك أجزاء مختلفة منه، عملت في كثير من الأحيان، لكنه لم يكن قادراً على اكتشاف ما دفعها إلى العمل: ثم ظن أنَّه يحتوي في ذاته على مبدإٍ محرك متميز عن عضويته، وأعطى سراً الدافع للمصادر التي تجعل هذه العضوية متحركة، وحرّكته من خلال طاقتها الطبيعية، وبالتالي، تصرفَ وفقاً لقوانين مختلفة تماماً عن تلك التي تنظم حركة الكائنات الأخرى. وكان مدركاً لحركة داخلية معينة لم يستطع الشعور بها. ولكن كيف يمكنه تصور أنَّ هذه الحركة غير المرئية كانت مؤهلة في كثير من الأحيان لإحداث مثل هذه التأثيرات المذهلة؟ وكيف يمكن أن يستوعب أنَّ الفكرة الهائمة والفعل غير المدرك إذا فكر فيهما، يمكن أن يدخلا كينونته بأكملها في كثيرٍ من الأحيان في حالة من الاضطراب والفوضى؟ لكنه سقط ضحية الاعتقاد أنَّه أدرك في داخله جوهراً مميزاً عن تلك الذات، ويتمتع بقوة سرية، ويفترض فيه وجود صفات تختلف بوضوحٍ عن تلك الخاصة بالعلل المضحكة التي تؤثر على أعضائه أو على تلك الأعضاء ذاتها. ولم يفهم بشكل كافٍ أنَّ العلة الأولية التي تسببت في سقوط الحجر أو تحريك ذراعه، ربما يكون من الصعب فهمها ويصعب شرحها، مثل تلك الدوافع الداخلية التي سينجم عنها تفكيره أو إرادته. وبالتالي، بسبب عدم تأمل الطبيعة – النظر إليها من وجهة

نظرها الحقيقية – لملاحظة التوافق وملاحظة تزامن حركة هذه القوة الدافعة الخيالية مع حركة جسده وأعضائه المادية – ظن أنَّه لم يكن سوى كائناً متميزاً، ومنفصلاً، وطاقاته مختلفة عن جميع الكائنات الأخرى في الطبيعة، وأنَّه كان ذو ماهية أبسط، ولا يمتلك أيّ قواسم مشتركة مع أيّ شيءٍ يراه.(26)

ومن هنا نشأت مفاهيمه عن الروحانية واللامادية والخلود على التوالي. وبعبارة أخرى، ابتُكرت تدريجياً كلّ تلك الكلمات الغامضة التي لا معنى لها من أجل استغلال وتعيين سمات القوة المجهولة التي يعتقد أنَّه يحتويها في داخله، والتي يظن أنَّها المبدأ الكامن وراء جميع أفعاله المرئية.(27) ولتتويج التخمينات الجريئة التي غامر بتقديمها عن هذه القوة الدافعة الداخلية، افترض أنَّها مختلفة عن جميع الكائنات الأخرى، حتى عن الجسد الذي يفيد في تغليفها. ولم يُفرض عليها الخضوع للتحلل؛ بحكم بساطتها المثالية التي لا يمكن تحللها ولا حتى تغيير شكلها، وباختصار، كان ذلك بحكم استثناء ماهيتها من تلك الثورات التي رأى أنَّ الجسد تعرض لها، وكذلك جميع الكائنات المركبة التي تهيمّن على الطبيعة.

وهكذا أصبح الإنسان ثنائياً، ونظرَ إلى نفسه ككل على أنَّه مؤلف من مركب لا يمكن تصوره، أي من طبيعتين مختلفتين لا يوجد أيّ تشابه بينهما؛ فميز في داخله بين جوهرين، ومن الواضح أنَّ الأول يخضع لتأثير كينونات فظة ومكون من مادةٍ خاملة رديئة: أطلق على هذا اسم الجسد – الجوهر الآخر والذي يُفترض أنَّه بسيط، وذو ماهية أنقى، كان يعتقد أنَّه يعمل من تلقاء ذاته، ويمنح الحركة إلى الجسد الذي وجِد متحداً به بأعجوبة: أطلق عليه اسم النفس أو الروح، وأطلق على وظائف الأول اسم الجسمانية والمادية والجسدية، وسمى وظائف الآخر بالروحية والفكرية. واصطُلح على الإنسان، عند الأخذ بالاعتبار انتسابه للجوهر الأول، اسم الإنسان المادي، وسُمي بالنظر إلى علاقته بالآخر، بالإنسان الأخلاقي.

وعلى الرغم من تبني عدد كبير من الفلاسفة لهذه الفروق في يومنا هذا، إلا أنَّهم بنوها على افتراضات غير مبررة فحسب. فلطالما اعتقد الإنسان أنَّه عالج جهله بالأشياء من خلال اختراعه لكلمات لم يتمكن أبداً من ربطها بأيّ مغزى أو معنى حقيقي. وتخيل أنَّه فهم المادة، وخصائصها، وملكاتها، ومصادرها، ومركباتها المختلفة؛ لأنَّه كان يمتلك لمحة

سطحية عن بعض صفاتها، لكنه لم يفعل شيئاً في الواقع سوى حجب الأفكار الباهتة التي استوعب بها شكل هذه المادة، وذلك من خلال ربطها بجوهرٍ أقل وضوحاً منها بكثير. ومن ثم فإنَّ الإنسان المتأمل في تكوين الكلمات، وتكاثر الكائنات، أغرق نفسه فقط في صعوبات أكبر من تلك التي سعى إلى تجنبها، وبالتالي وضع عقبات أمام تقدم معرفته، وكلّما كان يعاني من نقص الحقائق، كان يلجأ إلى الحدس الذي سرعان ما ينقله إلى حقائق خيالية. وهكذا لم يعد خياله موجهاً بالخبرة، وتاهَ من دون أمل في العودة في متاهة العالم المثالي والفكري الذي ولِد هو ذاته به، وكان من المستحيل إبعاده عن هذا الوهم ووضعه على الطريق الصحيح الذي لا يمكن لشيءٍ أن يقدم الدليل عليه سوى الخبرة. وتشير الطبيعة إلى أنَّه لا يوجد في الإنسان ذاته، كما في كلّ تلك الأشياء التي تعمل بموجبها سوى مادة تتمتع بخصائص مختلفة، وتتحول بشكلٍ متنوع، وتعمل بموجب هذه الخصائص، وأنَّ الإنسان كلٌّ منظم يتكون من مجموعة متنوعة من المواد، ويخضع مثل جميع منتجات الطبيعة الأخرى لقوانين عامة ومعروفة، وكذلك تلك القوانين أو أساليب العمل التي تكون خاصة به ومجهولة.

وهكذا عندما يُطرح السؤال: ما هو الإنسان؟

نقول: إنَّه كائن مادي منظم بطريقة خاصة، ويتوافق مع نمطٍ معين من التفكير، والشعور، وقابل لأنْ يتحول من حيث أنماط معينة خاصة به وبمنظومته إلى ذلك المركب الخاص بالمادة التي وجِد مجمعاً فيها. وإذا طُرح السؤال مرة أخرى: ما هو الأصل الذي نمنحه لأفراد الجنس البشري؟

نجيب: إنَّ الإنسان مثله مثل جميع الكائنات الأخرى هو من إنتاج الطبيعة ويشبهها في بعض النواحي، ويجد نفسه خاضعاً للقوانين ذاتها، ويختلف عنها في نواحٍ أخرى، ويتبع قوانين معينة يحددها تنوع تكوينه. ومن ثم إذا سُئل من أين جاء الإنسان؟[28]

نجيب: إنَّ خبرتنا عن هذا الرأس لا تجعلنا قادرين على حل السؤال؛ لكن هذا لا يمكن أن يثير اهتمامنا، حيث يكفي لنا أن نعرف أنَّ الإنسان موجود، وأنَّه مكون ليفكر بالمعلولات التي نشهدها.

ولكن سيُطرح السؤال: هل كان الإنسان موجود دائماً؟ وهل كان الجنس البشري موجوداً منذ الأزل أم أنَّه مجرد إنتاج مباشر للطبيعة؟ وهل كان يوجد دائماً بشرٌ مثلنا؟ وهل سيوجد دائماً مثل هذا؟ هل كان هناك ذكوراً وإناثاً في جميع الأزمنة؟ وهل كان هناك إنسان أول انحدر منه كلّ البشر الآخرين؟ وهل كان الحيوان يسبق البيضة أم البيضة سبقت الحيوان؟ أليس لهذا النوع بداية؟ أليس له أيضاً نهاية؟ هل النوع بحد ذاته غير قابل للهلاك أم أنَّه يموت مثل أفراده؟ وهل كان الإنسان دائماً على ما هو عليه الآن، أم أنَّه قبل وصوله إلى الحالة التي نراه فيها، اضطر إلى المرور بتطورات متتالية لا متناهية؟ وهل يمكن للإنسان أخيراً أن يركد بحد ذاته بعد وصوله إلى كائن ثابت، أم يجب أن يتغير الجنس البشري مرة أخرى؟ وإذا كان الإنسان هو من إنتاج الطبيعة، فربما يُسأل: هل هذه الطبيعة مؤهلة لإنتاج كائنات جديدة، وجعل الأنواع القديمة تختفي؟ وبتبني هذا الافتراض، قد يُسأل: لماذا لا تنتج الطبيعة أمام أعيننا كائنات جديدة وأنواعاً جديدة؟ وسيبدو عند مراجعة هذه الأسئلة، أنَّها غير مبالية تماماً فيما يتعلق بثبات الحجة التي استخدمناها وبالجانب المأخوذ، وبسبب نقص خبرتنا يجب أن تقضي الفرضية على الفضول الذي يسعى دائماً إلى المضي قدماً إلى ما وراء الحدود المقررة لعقلنا. وبهذا الافتراض سيقول المتأمل في الطبيعة: إنَّه لا يرى أيّ تناقضٍ في افتراض أنَّ الجنس البشري، كما هو الحال في الوقت الحاضر، ولد في سياق الزمن أم منذ الأزل، ولن يدرك أيّ ميزة يمكن أن تنشأ من افتراض أنَّه وصل من خلال مراحل مختلفة أو تطورات متتالية إلى تلك الحالة التي يوجد فيها بالفعل. فالمادة أزلية وضرورية لكن أشكالها زائلة وعرضية. وقد يُسأل عن الإنسان: أليس عبارة عن مادة مركبة يختلف شكلها كلّ لحظة؟

وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن بعض التأملات تفضّل الافتراض، وترجّح أكثر الفرضية القائلة: إنَّ الإنسان حدثٌ تشكّل في سياق الزمن؛ وغريبٌ عن الكرة الأرضية التي يسكنها، وناجمٌ عن قوانين خاصة توجهه؛ ويمكنه بالتالي أن يؤرخ فقط تكوينه على أنَّه تزامن مع من وجدوا على كوكبه. فالوجود ضروري للكون أو للمجموع الكلي للمادة المتنوعة بالأساس والتي تقدم ذاتها أمام تأملنا، لكن التركيبات والأشكال ليست ضرورية. ويفترض هذا، على الرغم من أنَّ المادة التي تتكون منها الأرض كانت موجودة دائماً، أنَّ هذه الأرض ربما لم يكن لها شكلها الحالي وخصائصها الفعلية — ربما تكون كتلة انفصلت

عبر سياق الزمن عن بعض الأجرام السماوية الأخرى – ربما تكون نتيجة البقع أو القشرة التي اكتشفها علماء الفلك في قرص الشمس التي كان لها القدرة على نشر ضوءها فوق نظامنا الفلكي – ربما يكون المجال الذي نعيش فيه مذنباً منطفئ أو شارداً، وكان يشغل قبل ذلك مكاناً آخر في مناطق من الفضاء التي كانت بالتالي مؤهلة لإنتاج كائنات مختلفة تماماً عن تلك التي نراها الآن منتشرة على سطحها، ونظراً لموقعها وطبيعتها حينها، فلابد أنَّها جعلت إنتاجها مختلفاً عن ذلك الذي تعرضه لنا اليوم.

وأياً كان الافتراض الذي تمّ تبنيه، لا يمكن اعتبار النباتات والحيوانات والبشر سوى منتجات ملازمة لطبيعة أرضنا، وللوضع أو الظروف التي توجد فيها بالفعل، وإذا كان لابدّ أنَّ يحدث تغير في وضع هذه الأرض مع كلّ دورة لها فستتغير هذه المنتجات. ويبدو أنَّ ما يعزّز هذه الفرضية، هو أنَّه على الكرة ذاتها، تختلف جميع المنتجات باختلاف مناخاتها: فالبشر، والحيوانات والخضروات والمعادن ليست هي ذاتها في كلّ جزء منها؛ حيث تختلف أحياناً بطريقة مدركة للغاية وعلى مسافات طفيفة جداً. فالفيل على سبيل المثال ينحدر من المنطقة الحارة أو من موطنه الأصلي، والرّنة تختص بها المناخات المتجمدة في الشمال، وبلاد الهند والسند هي الرحم الذي ينضج الماس ولا نجد انتاجه في بلدنا، وينمو الأناناس عموماً في جو أمريكا، في حين لا ينتجه مناخنا أبداً حتى يمنح الفن شمساً مماثلة لتلك التي يتطلبها. وأخيراً، يختلف الإنسان، من حيث مناخاته، ولونه، وحجمه، وشكله، وقواه، وصناعته، وشجاعته، وملكات عقله. ولكن ما الذي يشكل المناخ؟ إنَّه وضع مختلف لأجزاء من الأرض ذاتها بالنسبة للشمس؛ مواضع تكفي لخلق مجموعة متنوعة مدركة من حيث منتجاتها.

يوجد إذن أساس كافٍ للحدس الذي يقول: إذا استُبدل عالمنا بسبب أيّ حدث، فستتغير كلّ منتجاته بالضرورة، ولكونه لم يعدْ هو ذاته أو لم يعدْ يعمل بالطريقة ذاتها، لم تعدْ المعلولات كما هي الآن بالضرورة؛ فجميع المنتجات التي قد تكون قادرة على الحفاظ على نفسها أو الحفاظ على وجودها الفعلي، لديها فرصة لتنظيم ذاتها مع الكلّ الذي انبثقت عنه، ومن دون ذلك لن تعد قادرة على البقاء. وهذه هي ملكة تنظيمها لذاتها – ويُسمى هذا التكيف النسبي بـ نظام الكون، في حين يُسمى الافتقار إليه فوضى. ولا تستطيع تلك المنتجات التي يتم التعامل معها على أنَّها وحش، أن تنظّم ذاتها مع القوانين

العامة أو الخاصة بالكائنات التي تحيط بها، أو مع الكل الذي وجدت ذاتها فيه، وقد حازت على ملكة ضمن تكوينها لكي تتكيف مع هذه القوانين، غير أنَّ هذه القوانين تتعارض بحدّ ذاتها مع كمالها، ولهذا السبب هي غير قادرة على البقاء. وفي النتيجة من خلال مقايسة محددة من حيث التكوين الموجود بين الحيوانات من مختلف الأنواع، نجد أنَّ البغال تولد بسهولة، لكن هذه البغال لا تستطيع أن تلد من أنواعها. ويمكن للإنسان أنْ يعيش فقط في الهواء ولا يصطاد إلا في الماء. وبوضع الإنسان في الماء، والسمكة في الهواء، لن يتمكنا من تنظيم أنفسهما مع السوائل المحيطة بهما، وستهلك هذه الحيوانات بسرعة. ولو تخيلنا انتقال الإنسان من كوكبنا إلى زحل، فسوف تتمزق رئتيه حالاً؛ لأنَّ الجو مخلخل للغاية بالنسبة لطريقة وجوده، وستتجمد هذه الأعضاء من شدة البرد، وسيموت بسبب عدم العثور على عناصر مماثلة لوجوده الفعلي، وبانتقال آخر إلى عطارد، ستهلكه الحرارة الزائدة بسرعة.

وهكذا يبدو أنَّ كلّ شيء يفضي إلى الحدس الذي يقول: إنَّ الجنس البشري هو إنتاج خاص بفلكنا، وفي الوضع الذي يوجد فيه، وعندما يحدث تغيير في هذا الوضع، فإنَّ الجنس البشري يتغير نتيجة لذلك أو سيفرض عليه الاختفاء، وبسبب ذلك لن يكون هناك ما يمكّن الإنسان من تنظيم ذاته مع الكل، أو أن يربط ذاته مع ما يمكّنه من البقاء. وهذه القدرة في الإنسان على تنظيم ذاته مع الكل، لا تزوده بفكرة النظام فحسب، بل تجعله يصرّح أيضاً بأنَّ كلّ شيء مهما كان صحيح، عندما يكون كلّ شيء ممكن تماماً، ويكون الكل بالضرورة على ما هو عليه، عندما يكون إيجابياً لا جيداً ولا سيئاً. ومجرد افتراض استبدال الإنسان يجعله يتهم الكون بالفوضى. وسيبدو أنَّ هذه التأملات تتعارض مع أفكار أولئك الذين رغبوا بالتخمين بأنَّ الكواكب الأخرى مأهولة مثل كوكبنا بكائنات تشبهنا. ولكن إذا كان الابلاندي(*) يختلف بطريقة ملحوظة جداً عن الهوتنتوت،(**) فما الاختلاف الذي يجب ألا نفترض وجوده بعقلانية بين من يسكن كوكبنا وكوكب زحل أو

* – نسبة إلى إقليم لابي أو لابلاند وهي منطقة تقع في القطب شمالي. (المترجم)

** – قبيلة تعيش في أفريقيا الشمالية ويطلق حالياً عليهم اسم خويزان.(المترجم) وللمزيد راجع: رياض، محمد، وكوثر عبد الرسول، أفريقيا، مؤسسة هنداوي،2015.

كوكب الزهرة؟ ومع ذلك، إذا اضطررنا إلى العودة عن طريق الخيال، إلى أصل الأشياء وإلى طفولة الجنس البشري، فقد نقول: من المحتمل أن يكون الإنسان نتيجةً ضرورية لتفكك عالمنا أو نتيجة من نتائج الصفات والخصائص والطاقات التي يتأثر بها في وضعه الحالي – ولِد ذكراً وأنثى – وجوده مناظر لوجود الكرة الأرضية في وضعها الحالي – ما دام هذا التناظر قائماً، فإنَّ الجنس البشري سوف يحافظ على نفسه، وسوف يُكثر من ذاته، وفقاً للدافع والقوانين البدائية التي تلقاها في الأصل – وإذا توقف هذا التناظر، أيّ إذا استُبدلت الأرض فستكف عن تلقي الدافع ذاته، والتأثير ذاته، من جانب تلك العلل التي تعمل فعلياً بموجبها وتمنحها الطاقة، وسيتغير الجنس البشري بعد ذلك ليفسح في المجال لكائنات جديدة مناسبة لتنتظم بحد ذاتها مع الحالة التي يجب أن تتبع تلك التي نراها موجودة الآن.

وبالتالي، بافتراض حدوث تغييرات في وضع كرتنا الأرضية، ربما يختلف الإنسان البدائي عن الإنسان الفعلي أكثر من اختلاف رباعي الأرجل عن الحشرات. وهكذا، يمكن اعتبار الإنسان مثل أيّ شيء آخر موجود على كوكبنا، وكذلك ربما تُعتبر جميع الأشياء الأخرى في حالة من التقلب المستمر، ومن ثم فإنَّ المصطلح الأخير لوجود الإنسان، مجهول بالنسبة لنا، وغير واضح مثل الأول؛ لذلك لا يوجد تناقض في الاعتقاد بأنَّ الأنواع تختلف باستمرار، ومن المستحيل معرفة ما ستصبح ومعرفة ما كانت عليه.

وفيما يتعلق بأولئك الذين قد يسألون: لماذا لا تنتج الطبيعة كائنات جديدة؟ نسألهم بدورنا، على أيّ أساس يفترضون هذه الحقيقة؟ وما الذي يخولهم لتصديق هذا العقم في الطبيعة؟ أيعلمون إن كانت الطبيعة، من حيث مركباتها المختلفة التي تتشكل في كلّ لحظة، لا تنشغل في إنتاج كائنات جديدة من دون علم هؤلاء الملاحظين؟ ومن الذي أخبرهم أنَّ هذه الطبيعة لا تجمع في الواقع من حيث تفاصيلها الهائلة العناصر المناسبة لتسلط الضوء على أجيالٍ جديدة تماماً، ولن تمتلك أيّ شيء مشترك مع تلك الأنواع الموجودة حالياً؟[29] يا له من عبثٍ إذن أنَّ ما يريدون الاستدلال عليه سيكون موجوداً في خيال ذلك الإنسان. ولن يعد هناك الحصان، والسمكة، والطائر! هل هذه الحيوانات ضرورية بشكلٍ لا غنى عنه في الطبيعة، لدرجة أنَّها لن تتمكن من مواصلة مسارها الأبدي من دونها؟ ألا يتغير كلّ شيء من حولنا؟ ألا نغير أنفسنا؟ أليس من الواضح أنَّ الكون كلّه لم

يكن من حيث زمانه الأزلي السابق كما هو عليه الآن؛ وأنَّه من المستحيل، من حيث زمانه الأبدي اللاحق أن يتمكن من البقاء بشكلٍ صارم على الحالة ذاتها التي هو عليها الآن ولو للحظة واحدة؟ كيف يقولون إذن بألوهية التسلسل اللانهائي للدمار، والتكاثر، والتركيب، والانحلال، والتحوّل، والتغيير، والانتقال، الذي قد يحدث في النهاية؟ حيث تُغلف الشموس ذاتها وتنطفئ؛ فتموت الكواكب وتنتشر في سهول الهواء الشاسعة، وتشتعل شموس أخرى، وتتشكل كواكب جديدة من تلقاء ذاتها، إما بدورانها حول هذه الشموس أو برسم طرق جديدة، في حين أنَّ الإنسان والذي هو جزءٌ صغيرٌ جداً من الكرة الأرضية التي تمثل في حد ذاتها نقطةً غير مدركة بالنسبة لضخامة الفضاء، يعتقد عبثاً أنَّ هذا الكون لخلق له، ويتخيل بحماقة أنَّه يجب أن يكون صديقاً حميمياً للطبيعة، ويفتخر بثقة أنَّه أبدي، ويطلق على نفسه اسم ملك الكون! آه أيها الإنسان! ألن تتصوّر أنَّك لست سوى فانٍ؟ فكلّ شيء يتغير في الكون، ولا تحتوي الطبيعة على أيّ شكل ثابت، ومع ذلك تدّعي أنَّ جنسك لا يمكن أن يختفي أبداً، وأنَّك ستُعفى من القانون الكلي الذي ينبغي أن يختبر الجميع تغيره! واحسرتاه! ألم تخضع كينونتك الفعلية لتغييرات مستمرة؟ أنت يا من تفترض لنفسك بغطرسة حماقاتك لقب ملك الطبيعة! أنت يا من تقيس الأرض والسماوات! أنت يا من تتخيل بغرورك أنَّ الكل خُلق لأنَّك ذكي! لا يتطلب الأمر سوى حادث طفيف للغاية، وهو استبدال ذرة واحدة، يفنيك ويحطّ من قدرك. وينزع منك هذا الذكاء الذي يبدو أنَّك فخوراً به.

وإذا تم رفض جميع التخمينات السابقة، والادعاء بأنَّ الطبيعة تعمل بقدرٍ معين وفقاً للقوانين العامة وغير القابلة للتغيير، وإذا اُعتُقد أنَّ البشر، ورباعيات الأرجل، والسمك، والحشرات، والنباتات، هم منذ الأزل، وسيبقون إلى الأبد كما هم الآن، وإذا قيل أنَّ النجوم أضاءت منذ الأزل في مناطق من الفضاء الشاسع، وإذا تحتّم علينا ألا نسأل بعد الآن لماذا يظهر إنسان كهذا، ثم نسأل لماذا تكون الطبيعة كما نراها أو لماذا يوجد العالم؛ فلن نعارض مثل هذه الحجج بعد الآن. وأيّاً كان النسق الذي نتبناه، فربما يستجيب بشكلٍ جيد بالقدر ذاته للصعوبات التي يسعى من خلالها خصومنا إلى اعاقة الطريق، وبفحصه عن كثب، سوف يُدرك أنَّهم لا يفعلون شيئاً أمام تلك الحقائق التي جمعناها من الخبرة. ولا يُمنح الإنسان معرفة كلّ شيء، ولا تُعطى له معرفة أصله، ولا يُتاح له أن

يتغلغل إلى ماهية الأشياء، ولا الرجوع إلى المبادئ الأولى، ولكن يُتاح له أن يمتلك عقلاً، وأن يكون لديه صدق ويُسمح له ببراعة بأنْ يجهل ما لا يستطيع معرفته، وألا يستبدل الكلمات المبهمة بالافتراضات السخيفة بسبب عدم يقينه. وهكذا نقول لحل صعوبات أولئك الذين يدّعون أنَّ الجنس البشري ينحدر من رجل أول وامرأة أولى خلقهما الله: إنَّ لدينا بعض الأفكار عن الطبيعة، لكن ليس لدينا إلهٌ ولا خلق، وأنَّ استخدام هذه الكلمات، يعني فقط الاعتراف بجهلنا بقوى الطبيعة، وعدم قدرتنا على فهم الوسائل التي تمكنت من خلالها من إنتاج الظواهر التي نراها.(30)

دعونا نستنتج بعد ذلك، أنَّ الإنسان ليس لديه سببٌ للاعتقاد بأنَّه كائن متميز في الطبيعة؛ لأنَّه يخضع للتقلبات ذاتها التي تخضع لها جميع منتجاتها الأخرى. وتكون امتيازاته المزعومة خاطئة من أساسها. دعه يرتقي بذاته، وبأفكاره فوق الكرة الأرضية التي يسكنها، وسوف ينظر إلى جنسهِ بالعيون ذاتها التي ينظر فيها إلى جميع الكائنات الأخرى في الطبيعة. وسوف يدرك بعد ذلك بوضوحٍ أنَّه بالطريقة ذاتها التي تنتج بها كلّ شجرة ثمارها بحسب نوعها، كذلك يتصرف كلّ إنسان بسبب طاقته الخاصة، وينتج ثماراً، وأفعالاً، وأعمالاً، بالأهمية ذاتها، وسيشعر أنَّ الوهم الذي يمنحه مثل هذا الرأي السامي عن نفسه، يُنشأ من كيانه في الوقت ذاته، متفرجاً وجزءاً من الكون. وسوف يعترف بأنَّ فكرة التفوق التي يربطها بكينونته، ليس لها أساسٌ آخر غير مصلحته الخاصة، وميله إلى تفضيل ذاته.(31)

الفصل السابع
النفس ونظامها الروحي

بعد أن افترض الإنسان من دون مبرر أنَّه يتكون من جوهرين مستقلتين، ليس لهما خصائص مشتركة نسبياً مع بعضهما البعض، زعمَ كما رأينا، أنَّ ما يدفعه داخلياً، أيّ تلك الحركة غير المرئية، والدافع المتضمن في داخله، يختلف جوهرياً عن ذلك الذي يؤثر عليه من الخارج. ويسمي الأول كما قلنا سابقاً، باسم النفس أو (الروح).(*) ولكن إذا طُرح سؤال عمّا هي الروح؟ فسيجيب المعاصرون: إنَّ النتيجة الكاملة لأبحاثهم الميتافيزيقية تقتصر على معرفة أنَّ هذه القوة المحركة التي يصرّحون بأنَّها تنبثق عن فعل الإنسان، هي جوهرٌ ذو طبيعة مجهولة، وبسيطة جداً، وغير قابلة للتجزئة، وليس لها امتداد، وغير مرئية، ومن المستحيل أن تكشفها الحواس، ولا يمكن فصل أجزائها، وإن كان عن طريق التجريد أو التفكير. ولكن كيف نتصور هذا الجوهر إنْ كان مجرد نفي لكلّ ما نعرفه عنه؟ كيف

* – كثيراً ما يتم الخلط بين النفس Soul والروح Spirit، رغم وجود اختلاف كبير بينهما، حيث تعني النفس فلسفياً الأنا غير المادية التي تتحكم بالعاطفة والرغبة والفعل، وتحافظ على هويته الشيء منذ ولادته، في حين تكون الروح المصدر غير المادي الذي تنجم عنه الحركة أو المبدأ الذي يحرك الكل. وتعني الروح دينياً الحياة، في قوله تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين"[سورة الحجر29]، والنفس تموت في قوله تعالى: "كلّ نفس ذائقة الموت"،[آل عمران 28]، والموت للنفس موتان أحدهما عند النوم ويسمى الأصغر ولا يرافقه قبض الروح، التي تعمل على تشغيل أعضاء الجسم الأخرى عند النوم، وتموت النفس مرة أخرى عندما تفارق البدن ويرافقها قبض الروح، في قوله تعالى: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، [سورة الزمر42]، أما الروح فلا تموت لأننا لا ندرك كنهها في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً". [الإسراء 85]. والنفس هي من يأمر بارتكاب الأفعال الشريرة، في قوله تعالى: "فمنهم ظالم لنفسه"، [سورة فاطر32] ولم يقل روحه. (المترجم) وللمزيد راجع:
The Oxford Dictionary of Philosophy, Blackburn, Simon (Ed), Oxford University Press, Oxford New York, 1994.pp.357 & 361.

نشكّل لأنفسنا فكرةً عن جوهرٍ خالٍ من الامتداد، ومع ذلك يؤثر على حواسنا؛ أي الأعضاء المادية الممتدة؟ كيف يمكن لكائنٍ بلا امتداد أن يقبل الحركة ويُشغّل المادة؟ كيف يمكن لجوهر خالٍ من الأجزاء أن يطابق على التوالي أجزاء مختلفة من المكان؟

ومع ذلك فإنَّ جميع البشر متفقون حول هذا الموقف الذي يقول: إنَّ الحركة تغييرٌ متعاقب للعلاقات بين جسد واحد وأجسام أخرى، أو أجزاء مختلفة من المكان. فإذا كان ما يُسمى بالروح ينقل أو يستقبل الحركة؛ أي إذا كانت تؤثر - إذا شغّلت الأعضاء أو الجسد - وأحدثت هذه التأثيرات التي يتبعها بالضرورة تغير هذا الكائن بشكلٍ متعاقب بعلاقته، وميله، وتوافقه، وموضع أجزائه، على نحوٍ نسبي بأماكن مختلفة أو أعضاء الجسد المتنوعة التي يعمل بها، ولكن لتغيير علاقته بالمكان وبالأعضاء التي تمنحه الدافع، يجب أن يكون لهذه الروح امتدادٌ وصلابة وبالتالي أجزاء متميزة، وعندما يمتلك الجوهر هذه الصفات التي نسميها مادة، لم يعدْ من الممكن اعتباره كينونةً مجردة بسيطة بالمعنى الذي يقصده المعاصرون.(32)

وهكذا يتبين أنَّ أولئك الذين افترضوا أنَّ في الإنسان جوهراً غير مادي ومتميز عن جسده، لم يفهموا أنفسهم تماماً ولم يفعلوا في الواقع شيئاً أكثر من تخيل صفة سلبية لا يمكن أن تكون لديهم أيّ فكرة صحيحة عنها: فالمادة وحدها قادرة على العمل بموجب حواسنا، ومن دون هذا الفعل ليس بمقدور أيّ شيء أن يعرّفنا على أنفسنا. ولم يروا أنَّ كينونة بلا امتداد، ليس لها القدرة على تحريك ذاتها، وليس لها القدرة على نقل الحركة إلى الجسد؛ لأنَّ هذه الكينونة بلا أجزاء، وليس لها القدرة على تغيير علاقتها بالأجسام الأخرى أو الابتعاد عنها، ولا إحداث حركة في الجسم البشري، الذي هو بحد ذاته مادي. فما يُسمى نفسنا تتحرك بحد ذاتها معنا، مع أنَّ الحركة خاصة بالمادة - هذه النفس تعطي دافعاً للذراع، ويحدِث الذراع الذي تحركه انطباعاً؛ أيّ ضربة تتبع القانون العام للحركة: وفي هذه الحالة تظل القوة كما هي، وإذا كانت الكتلة مضاعفة فستكون الضربة مزدوجة. وتُظهر هذه النفس مرة أخرى ماديتها في العقبات المنيعة التي تصطدم بها أجزاء الجسد. وإذا كان الذراع يتحرك بدافعٍ خاص به من دون أن يعترضه شيء، فإنَّ هذا الذراع لن يعد قادراً على الحركة عند شحنه بوزنٍ يفوق قوته. وبالتالي توجد كتلة من المادة هنا تبطل الدافع الذي تحدثه العلة الروحية، ولا ينبغي أن نماثل بين تلك العلّة الروحية والمادة، ولا

نجد أنَّ تحريك العالم كلّه أصعب من تحريك ذرةٍ واحدة، ولا تحريك ذرة أصعب من تحريك الكون. وبهذا يكون من المنصف أن نستنتج أنَّ هذا الجوهر كينونة خرافية، وكينونة من صنع الخيال، ولعلّ هذه هي الكينونة التي صنع بموجبها الميتافيزيقيون مخترعاً وخالقاً للطبيعة !!(33)

وبمجرد أنْ أشعر بدافعٍ أو أختبر حركةً، فأنا مضطرٌ إلى الاعتراف بالامتداد والصلابة والكثافة وعدم قابلية الاختراق في الجوهر الذي أراه يتحرك أو الذي يمنحني الدافع، وبالتالي، عندما يُنسب الفعل إلى أيّ علّة مهما كانت، فأنا مضطرٌ إلى اعتبارها مادية. وقد أكون جاهلاً بطبيعتها الفردية، وطريقة عملها، وخصائصها العامة، لكنني لا أستطيع أن أخدع نفسي في الخصائص العامة التي تشترك فيها جميع المواد، بالإضافة إلى أنَّ هذا الجهل سيزداد فقط عندما آخذ بالحسبان كينونة لا يمكنني تكوين أيّ فكرة عنه، علاوة على أنَّها محرومة تماماً من ملكة الحركة والفعل. وهكذا، فإنَّ الجوهر الروحي الذي يتحرك من تلقاء نفسه، ويعطي دفعاً للمادة التي تعمل، ينطوي على تناقضٍ وتنتج عنه بالضرورة استحالةٌ تامة.

وأمام ذلك يعتقدُ أنصار الروحانية أنَّهم يجيبون على الصعوبات التي راكموها بأنفسهم، بقولهم: "النفس كاملة، ومتكاملة بكلّ نقطة من امتدادها". وإذا كانوا سيحلّون الصعوبات بإجابتهم السخيفة، فقد فعلوا ذلك؛ لأنَّنا سنكتشف بعد كلّ هذا أنَّ هذه النقطة التي تُسمى النفس، مهما كانت غير محسوسة، ومهما كانت دقيقة، يجب أن تظل شيئاً.(34) ولكن إذا ظهر قدرٌ من التماسك في الإجابة بقدر ما يُفترض منها، فيجب الاعتراف أنَّ الروح أو النفس تجد ذاتها في امتداده بأيّ طريقة، وعندما يتحرك الجسد إلى الأمام، لا تبقى النفس خلفه؛ وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ لها صفة مشتركة مع الجسد خاصة بالمادة، حيث يتم نقلها من مكان إلى آخر مع الجسد. وهكذا، إن كانت النفس غير مادية، فما النتيجة التي يجب استخلاصها؟ فهي تخضع بالكامل لحركة الجسد، ومن دون هذا الجسد ستبقى ميتة وخاملة، وستكون هذه النفس مجرد جزءٍ من عضوية مؤلفة من شقين، تدفع بالضرورة إلى الأمام من خلال التسلسل أو الارتباط بالكل. وهي أشبه بطائر يقوده طفل كما يشاء من خلال الخيط الذي يربطه به.

وهكذا، بسبب افتقاره لاستشارة الخبرة، وعدم اهتمامه بالعقل، حجبَ الإنسان أفكاره المبنية على المبدأ الكامن وراء حركته. وإذا كان يفكرُ في نفسه بعيداً عن التحيز أو يفكر بالمبدأ المحرك الذي يعمل بداخله، فسيكون مقتنعاً بأنَّه يشكّل جزءاً من جسده، وأنّه لا يمكن تمييزه عنه إلا من خلال التجريد، وأنَّ الجسدَ بحدّ ذاته لا يُنظر إليه إلا مع بعض وظائفه، أو مع تلك الملكات الموجودة بطبيعته ومنظومته الخاصة. وسوف يدرك أيضاً أنَّ هذه النفس مجبرة على الخضوع للتغييرات ذاتها التي يخضع لها الجسد، وأنَّه يولد ويمتد معها، وأنَّها تمرّ مثل الجسد بمرحلةِ الطفولة، وفترة الضعف، وفترة من عدم الخبرة، وتكبر وتقوى بحدّ ذاتها من حيث التقدم ذاته، وأنَّها مثل الجسد، تصل إلى سن الرشد وتصل إلى مرحلة النضج، وتحصل عندئذ على ملكة أداء وظائف معينة، وتتمتع بالعقل، وتُظهر درجة من الذكاء والحكم وتكون مفعمةً بالحيوية، وأنَّها تخضع مثل الجسد لتلك التقلبات التي تجعلها العلل الخارجية خاضعة لتأثيرها، وتعاني وتتمتع مع الجسد، وتشارك في ملذاته، وتشاركه آلامه، وتكون سليمة عندما يتمتع الجسد بالصحة، ومريضة عندما يعتري الجسد المرض، وأنَّها تتعدل مثل الجسم باستمرار بدرجات مختلفة من الكثافة في الغلاف الجوي حسب تنوع الفصول، وبحسب الخصائص المختلفة للأغذية التي تتلقاها المعدة، وباختصار، سيكون مضطراً إلى الاعتراف بأنَّها تُظهر علامات واضحة في بعض الفترات على السبات، والتلف، والموت.

وعلى الرغم من هذا التشبيه أو بالأحرى هذه الهوية الدائمة بين النفس والجسد، رغبَ الإنسان في تمييز ماهيتها؛ لذلك جعل النفس كينونةً لا يمكن تصورها، ولكن لكي يشكّل لنفسه فكرةً ما عنها، كان ملزماً رغم ذلك على اللجوء إلى الكائنات المادية وطريقة عملها. وفي الواقع، لا تقدم كلمة روح للعقل أفكاراً أخرى غير أفكار التنفس، والنَفس والريح. وهكذا عندما يُقال: النفس هي الروح، فهذا لا يعني سوى أنَّ أسلوب عملها يشبه التنفس، والذي على الرغم من كونه غير مرئي في حد ذاته أو يعمل من دون رؤيته، فإنَّه ينتج مع ذلك تأثيرات مرئية جداً. لكن التنفس علّة مادية – إنَّه هواء معدّل؛ لذلك فهو ليس جوهراً بسيطاً ومحضاً، ويشبه ما يطلق عليه المعاصرون اسم الروح.

وعلى الرغم من أنَّ كلمة (روح) قديمة جداً عند البشر، إلا أنَّ المعنى الذي ربطه بها المعاصرون جديد تماماً؛ ففكرة الروحانية كما يُعترف بها اليوم، هي نتاجٌ حديث للخيال.

ولا يبدو أنَّ **فيثاغورس** ولا **أفلاطون**، على الرغم من دماغهما المتقد، ورغم أنَّهما قررا أن يتذوقا الأعجوبة، قد فهما الروح على أنَّها جوهر غير مادي أو جوهراً بلا امتداد، مثل ذلك الذي شكّله المعاصرون عن النفس البشرية والخالق الخفي للحركة. وكان القدماء يريدون من خلال كلمة "روح"، تعريف مادة بالغة الدقة، وذات صفة أنقى من تلك التي تؤثر بشكلٍ واضح على حواسنا. ونتيجة لذلك، اعتبر البعض أنَّ النفس جوهرٌ أثيريّ، والبعض الآخر كمادة نارية،[35] وقارنها آخرون مرةً أخرى بالضوء. وجعلها **ديموقريطس** تتوقف على الحركة، وبالتالي أعطاها نمطاً من الوجود. و**أرسطكاس Aristoxenes**،(*) الذي كان هو ذاته موسيقياً، جعلها متناغمة. واعتبر **أرسطو** النفس قوةً محركة تعتمد عليها حركة الأجسام الحية.

ولم يكن لدى الأطباء المسيحيون الأوائل أيّ فكرةٍ أخرى عن النفس غير أنَّها مادية.[36] ولم يتحدث عنها **ترتليان Tertullian**،(**) و**أرنوبيوس Arnobius**، و**إكليمندس الإسكندري Clement of Alexandria**، و**أوريجانوس Origen**، والقديس **جاسن Saint Justin**، و**إيرينيوس Irenaeus**، إلا باعتبارها جوهراً مجسداً. وتم التحفّظ عليها إلى أن جعل خلفائهم، بعد فترة طويلة من الزمن، النفس البشرية ونفس العالم أرواحاً نقية؛ أي جواهر غير مادية، ويستحيل تكوين أيّ فكرةٍ دقيقة عنها. وتتوافق هذه العقيدة الروحية الغامضة إلى حدٍ ما، ومن دون شكٍ مع آراء اللاهوتيين الذين جعلوها مبدأً لإبطال العقل وهيمنوا على الآخرين،[37] واعتُقد أنَّ هذه العقيدة إلهية وخارقة للطبيعة؛ لأنَّه يتعذر تصورها بالنسبة للإنسان. ونُظر إلى أولئك الذين تجرأوا على الاعتقاد بأنَّ النفس كانت مادية، على أنَّهم متسرعين أو مجانين متهورين، أو تم التعامل معهم كأعداء لرفاهية وسعادة الجنس البشري. وعندما تخلى الإنسان عن الخبرة ونبذَ عقله ذات مرة لم يفعل شيئاً يوماً بعد يوم، سوى استغلال هلوسات مخيلته، وأسعده أن يغرق

* – **أرسطكاس**: (360–300ق.م) فيلسوف مشائي من تلاميذ أرسطو. (المترجم)، وللمزيد راجع: britannica.com/biography/Aristoxenus.

– **ترتليان: (حوالي 155–160م) لاهوتي مسيحي، ولد في قرطاج، ويعد أول من كتب كتابات مسيحية باللغة اللاتينية. اهتم بالدفاع عن المسيحية ومعاداة الهرطقات. وقد أطلق عليه "والد المسيحية اللاتينية"، و"مؤسس اللاهوت الغربي". (المترجم)، وللمزيد أنظر: (Tertullian | Christian theologian | Britannica)

باستمرار في أعماق الظلال المبهم؛ وهنأ نفسه على اكتشافاته ومعرفته المزعومة، وغلّف فهمه بالقدر ذاته بغيوم الجهل. وهكذا، ونتيجة لتفكير الإنسان بالمبادئ الخاطئة، خلقت النفس أو المبدأ المحرك بداخله، وكذلك المبدأ المحرك الخفي للطبيعة، كائنات خيالية فحسب؛ أي مجرد كائنات من الخيال.(38)

لذلك لا تقدم عقيدة الروحانية سوى أفكاراً غامضة - أو بالأحرى غياب كلّ الأفكار. فما الذي تقدمه للعقل إلا جوهراً لا يمتلك شيئاً تمكّننا حواسنا من الحصول على معرفة بشأنه؟ هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، وأن يكون الإنسان قادراً على أن يشكل لنفسه كينونةً غير مادية، وليس لها امتداد ولا أجزاء، وتعمل رغمّ ذلك بموجب المادة من دون أن يكون لها أيّ نقطة اتصال، وأيّ نوع من التشابه معها، ويتلقى هو ذاته الدافع المادي من أعضاء مادية تنمّ عن وجود كائنات أخرى؟ وهل من الممكن تصور اتحاد النفس مع الجسد، وفهم كيف يمكن لهذا الجسم المادي الذي يفلت من كلّ حواسنا أنْ يرتبط بكائنٍ قصير الأجل يحيط به ويقيده ويحدده؟ وهل يصدق لحلِ هذه الصعوبات القول: إنَّ فيها لغزاً، وأنَّها ناجمة عن قوةٍ مطلقة لا يمكن أنْ تتصور سوى النفس البشرية وطريقة عملها؟ ومتى يجب على الإنسان أنْ يلجأ لحل هذه المشكلات إلى المعجزات، ويسمح بتدخل الإله ويعترف بجهله؟

دعونا إذن لا نتفاجأ من تلك الفرضيات الدقيقة، فرغمّ أنَّها عبقرية ولكنها غير مرضية، حيث أجبر التحيز اللاهوتي أكبر المتأملين المعاصرين على تكرارها، عندما تعهدوا بالتوفيق بين روحانية النفس والفعل الجسدي للكائنات المادية على هذا الجوهر المعنوي، ورد فعلها على هذه الكائنات واتحادها بالجسد. وعندما يسمح العقل البشري لنفسه أن يسترشد بالسلطة من دون دليلٍ يدفعه الحماس إلى الأمام - وعندما يتخلى عن الاستدلال بحواسه؛ ماذا يمكن أن يحدث له سوى الوقوع في الخطأ؟.(39)

وإذا أراد الإنسان أن يكوّن لذاته أفكاراً واضحة عن نفسه، فليرجع إلى خبرته، ودعه ينبذ تحيزاته، ويتجنب التخمين اللاهوتي. ودعه يمزق الضمّادة المقدسة التي عصِبت بها عينيه فقط لإرباك عقله، ودع الفيلسوف الطبيعي، وعالم التشريح، والطبيب، يوحدوا خبرتهم ويقارنوا بين ملاحظاتهم، من أجل إظهار ما يجب أن يعتقدوه بشأن جوهر متنكر تحت كومة من السخافات: دع اكتشافاتهم تعلّم الأخلاقيين القوة الدافعة الحقيقية التي

يجب أن تؤثر على أفعال الإنسان – المشرعون هم الدوافع الحقيقية التي لابد أن تحفزه على العمل من أجل رفاهية المجتمع – الملوك هم وسائل الأداء التي تسعد حقاً الرعايا الملتزمين بمسؤوليتهم. فالنفوس الجسدية لها احتياجات جسدية، وتطلب سعادةً جسدية وحقيقية، وهي أفضل بكثير من تلك المجموعة المتنوعة من الكائنات الخرافية الخيالية التي تغذى بها عقل الإنسان على مدى عصورٍ عديدة. دعونا نعملْ على صقل أخلاق الإنسان، ونجعلها مقبولة له. وسنرى الآن أخلاقه تتحسن ويصبح أسعدْ، ويصبح عقله هادئاً وصافياً، وتصمّم إرادته على الفضيلة من خلال الدوافع الطبيعية والملموسة المقدمة له. ومن خلال الاجتهاد والعناية التي يجب أن يمنحها المشرّعون للفلسفة الطبيعية، سيشكلون مواطنين يتمتعون بفهمٍ سليم وقوي وتكوين جيد، وعندما يجدون أنفسهم سعداء، سيكونون هم أنفسهم ملزمون بذلك الدافع المفيد الضروري للغاية للسعادة العامة. وعندما يعاني الجسد، وتكون الأمم غير سعيدة، لا يمكن للعقل أن يكون في حالةٍ جيدة. فالعقل السليم في الجسم السليم، وهذا يصنع دائماً مواطناً صالحاً.

وكلما زادَ تفكير الإنسان، زاد اقتناعه بأنَّ النفس، بعيداً جداً عن تمييزها عن الجسد، هي الجسد بحد ذاته منظوراً إليه نسبياً من حيث بعض وظائفه، أو بعض أنماط الوجود أو الفعل التي يشعر بها أثناء تمتعه بالحياة. وهكذا تُعتبر النفس إنساناً على نحوٍ نسبي بفضل ملكة الشعور التي لديه، وتفكيره وعمله بأسلوب ناجم عن طبيعته الخاصة؛ أي عن خصائصه، ومنظومته الخاصة، والتعديلات الدائمة أو العابرة التي تجربها الكائنات التي تؤثر على عضويته الخاضع لها.(40)

ويبدو أنَّ أولئك الذين ميزوا بين النفس والجسد، قد ميزوا بين دماغهم وأنفسهم. فالدماغ في الواقع هو المركز المشترك الذي تلتقي فيه جميع الأعصاب الموزعة في كلّ جزءٍ من أجزاء الجسم، وتندمج مع بعضها، وبمساعدةِ هذا العضو الداخلي يتم تنفيذ جميع العمليات التي تُنسب إلى النفس وهي التنبيه، والحركة التي يتم توصيلها إلى العصب وتعدّل الدماغ، ونتيجة لذلك، فإنَّها تتفاعل وتُشغل أعضاء الجسد أو بالأحرى تعمل من تلقاء ذاتها، وتصبح قادرة على إحداث مجموعة كبيرة ومتنوعة من الحركات داخله، التي تُحدد على أنَّها ملكات فكرية.

ويتبين من ذلك أنَّ بعض الفلاسفة كانوا يرغبون في خلق جوهر روحي للدماغ، لكن من الواضح أنَّ الجهل الذي ولّد هذا النظام واعتمده، يحتضن القليل جداً مما هو طبيعي. حيث افترض ذلك الإنسان نتيجة عدم دراسته لنفسه، أنَّه مرتبطاً بأداةٍ تختلف اختلافاً جوهرياً عن جسده. وعندما يفحص جسده سيجد أنَّه من غير المجدي أن يكرر فرضية ليشرح مختلف الظواهر التي تقدمها؛ لأنَّ الفرضية لا يمكن أن تفعل شيئاً أكثر من إبعاده عن الطريق الصحيح. وينبثق عن حجب هذا السؤال أنَّ الإنسان لا يستطيع رؤية ذاته، ولهذا الغرض سيكون من الضروري في الواقع أن يكون في اللحظة ذاتها داخل ذاته وخارجها. وربما بمقارنة الإنسان بقيثارة إيليا، التي تُصدر أصواتاً من تلقاء ذاتها، ينبغي أن نسأل ما الذي يجعلها تصدره؟ ولا يُدرك أنَّ نوعية أوتارها الحساسة تجعل الهواء يقويها، ولكونها مؤهلة لذلك، فإنَّ كلّ نفخة ريح تلامسها تجعلها تصدر صوتاً.

وكلّما زادت الخبرة التي نجمعها، كلّما اقتنعنا أكثر بأنَّ كلمة روح لا تعرب عن أيّ معنى. وبالتالي فإنَّ من اخترعها، لا يمكنه استخدامها على الأقل سواء في الفيزياء أو الأخلاق. فما يؤمن به الميتافيزيقيون المعاصرون ويفهمونه بالكلمة، ليس في الحقيقة أكثر من قوةٍ غامضة، ومتخيلة لشرحِ صفات وأفعال غامضة، ولكنها في الواقع لا تشرح شيئاً. حيث تعترفُ الأمم المتوحشة بالأرواح لتفسر لنفسها تلك التأثيرات التي تبدو عجيبة بالنسبة لها، وتجهل علّتها. ولكن عندما ننسب ظواهر الطبيعة إلى الأرواح، وكذلك ظواهر الجسم البشري، هل نفعل في الواقع شيئاً أكثر من التفكير على طريقة البرابرة؟ حيث ملأ الإنسان الطبيعة بالأرواح؛ لأنَّه كان يجهل دائما العلل الحقيقية لتلك المعلولات التي أذهلته. ولم يكن على درايةٍ بقوى الطبيعة، وافترض أنَّ روحاً عظيمة تحركها، واعتقد بالطريقةِ ذاتها بسبب عدم فهم الطاقة التي يمتلكها الهيكل البشري، أنَّ هناك روحاً تحركه، ويظهر من ذلك أنَّه كلّما رغب في الإشارة إلى علّة مجهولة للظواهر التي لم يعرف كيفية شرحها بطريقة طبيعية، كان يلجأ إلى كلمة روح. ووفقاً لهذه المبادئ، عندما رأى الأمريكيون التأثيرات الرهيبة للبارود، أرجعوا السبب إلى أرواحهم أو آلهتهم، ومن خلال تبني هذه المبادئ نؤمن الآن بالملائكة والشياطين، ويؤمن أسلافنا بتعدد الآلهة، والأشباح، والجنيات، وما إلى ذلك، وباتباع المسار ذاته، يجب أن ننسب إلى الأرواح الجاذبية، والكهرباء، والمغناطيسية، وما إلى ذلك.[41]

الفصل الثامن
الملكات الفكرية كلّها مشتقة من ملكة الشعور

لكي نقنع أنفسنا بأنَّ الملكات التي تسمى فكرية، ليست سوى أنماطاً معينة من الوجود، أو أساليب محددة للفعل الناجم عن المنظومة الخاصة بالجسد، علينا أن نحللها فحسب، وسنرى بعد ذلك أنَّ جميع العمليات التي تُنسب إلى النفس، ليست سوى تعديلات معينة للجسد، وهي جوهر بلا امتداد، وليس لها أجزاء، وغير مادية، وليست محسوسة.

والملكة الأولى التي نراها عند الإنسان الحي، والتي تتولد منها الملكات الأخرى، هي الشعور، ومع أنَّ هذه الملكة قد تبدو للوهلة الأولى معقدة، لكننا سنجد إذا درسناها عن كثب أنَّها ناجمة عن الماهية، ونتيجة لخصاص الكائنات المتعضية؛ مثل الجاذبية والمغناطيسية والمرونة والكهرباء وما إلى ذلك. وناجمةٌ عن ماهية أو طبيعة بعض الكائنات الأخرى؛ وسنجد أيضاً أنَّ هذه الظواهر الأخيرة ليست أقل تعقيداً من ظاهرة الشعور. ومع ذلك، إذا أردنا أن نحدّد لأنفسنا فكرةً دقيقةً عنها، فسنجد أنَّ هذا الشعور طريقةٌ خاصة للتحريك مختصة بأعضاء معينة من الأجساد الحية، بسبب وجود شيء مادي يؤثر على هذه الأعضاء التي تنقل التنبيه أو الصدمة إلى الدماغ.

ويمكن القول بشكلٍ أوضح: يشعر الإنسان حالما تساعده الأعصاب المنتشرة في جسده، وهي بحد ذاتها ليس سوى عصب عظيم أو يمكن القول: إنَّها تشبه شجرة كبيرة تتأثر فروعها بالجذر المتصل بالجذع. وتتحد عند الإنسان الأعصاب وتفقد ذاتها في الدماغ، وتكون تلك الأمعاء الأساس الحقيقي للشعور، وتشبه العنكبوت المعلق وسط شبكته، ويُخطر سريعاً بكلّ التغييرات التي تحدث للجسد، حتى في الأطراف التي يرسل إليها خيوطه وتفرعاته. ويمكننا عن طريق الخبرة التأكّد من أنَّ الإنسان لم يعدْ يشعر بتلك الأجزاء من جسده التي انقطع اتصالها بالدماغ، ويشعر قليلاً جداً أو لا يشعر على

الإطلاق، عندما يكون هذا العضو ذاته مختلاً أو متأثراً بشكلٍ قوي للغاية.[42]

ومع ذلك قد تكون حساسية الدماغ بكلّ أجزائه حقيقية. وإذا طُرح السؤال: من أين تأتي هذه الخاصية؟ يجب أن نجيب، بأنّها ناجمة عن تنظيم وتركيب خاص بالحيوان، حتى تكّف هذه المادة الخشنة والجامدة عن إضفاء الطابع الحيواني عليها؛ أي عن تركيبها بالحيوان وتحديدها به. وهكذا يتغيّر اللبن والخبز والخمر بحد ذاتها في جوهر الإنسان الذي هو كائن حساس، وتصبح هذه المادة الجامدة حساسة عند اتحادها مع الكلّ المحسوس. ويعتقد بعض الفلاسفة أنَّ الحساسية صفةٌ كلية للمادة، وفي هذه الحالة سيكون من غير المجدي البحث عن مصدر هذه الخاصية كما نعرفها من خلال تأثيراتها. وإذا تم قبول هذه الفرضيات، والتمييز بالطريقة ذاتها بين نوعين من الحركة في الطبيعة، إحداهما تسمى بالقوة الحية والأخرى بالميتة أو القوة الخاملة، فسيتم التمييز بين نوعين من الحساسية. – إحداهما نشطة أو حية، والأخرى خاملة أو ميتة. ومن ثم فإنَّ إضفاء الطابع الحيواني على جوهرٍ معين، ما هو إلا تدميرٌ للعقبات التي تعيق نشاطه أو حساسيته. وإما أن تكون الحساسية في الواقع صفةً متصلة به مثل الحركة، وتُكتسب من خلال التركيب أو أن تكون هذه الحساسية خاصية ملازمة لكلّ مادة، ويُقال في كلتا الحالتين أو في إحداهما، إنَّ كينونة غير ممتدة، ومن دون أجزاء، مثل النفس البشرية، لا يمكن أن تكون علّة لها ولا تخضع لعملها.[43]

إنَّ التكوين، والتنظيم، والملمس، ودقة الأعضاء الخارجية والداخلية التي تجمع بين البشر والحيوانات، تجعل أطرافها قابلة للتنقل أكثر، وتجعل عضويتها قابلة للحركة بسهولةٍ كبيرة. ومن حيث الجسد الذي هو عبارة عن كومةٍ من الألياف، وكتلةٍ من الأعصاب المتجاورة مع بعضها، تكون متحدة في مركزٍ مشترك وجاهزة دائماً للعمل، ويتكون ككل من مواد سائلة وصلبة، وتكون أطرافه في حالة توازن، ويلامس أصغرها بعضها بعض وتكون نشطة وسريعة من حيث حركتها، وتتواصل بشكلٍ متعاقب، وبالتناوب والتتابع، وتتلقى الانطباعات، والذبذبات، والاهتزازات. وأقول عن مثل هذا التكوين: ليس من المستغرب على الإطلاق أن يحركه أضئل تنبيه بسرعة، وتقوم الاهتزازات التي تنبه أبعد أطرافه بجعلها محسوسة بسرعة في الدماغ الذي يجعله نسيجه الرقيق قابلاً للتعديل بسهولة. فالهواء، والنار، والماء، والعوامل الأكثر تقلباً، تمتلك أسرع حركة، وتدور باستمرار في

الألياف، وتخترق الأعصاب باستمرار، وتسهمُ من دونٍ شك بسرعة مذهلة في تعرّف الدماغ على ما ينتقل عبر أطراف الجسم.

ورغمّ أنَّ التعديل الكبير الذي يطرأ على منظومة الإنسان يجعله حساساً، ورغم تأثير العلل الخارجية والداخلية عليه باستمرار، إلا أنَّه لا يشعر دائماً على نحوٍ مميز وحاسمٍ بالتنبيه الممنوح لحواسه، ولا يشعرُ به في الواقع حتى يطرأ تغييرٌ ما أو تحدث صدمةٌ ما لدماغه. وعلى الرغمّ من إحاطته بالهواء بالكامل، إلا أنَّه لا يشعر بتأثيره حتى يتم تعديله بحيث يمس بدرجة كافية من القوة أعضائه وجلده، والتي يتم من خلالها تنبيه دماغه بوجوده. وهكذا يكفُّ الإنسان عن الشعور عندما ينام نوماً عميقاً وهادئاً، فلا يزعجه أيّ حلم. وباختصار، على الرغم من الحركة المستمرة التي تهز هيكله، لا يبدو أنَّ الإنسان يشعر عندما تعمل هذه الحركة في نظامٍ ملائم، ولا يدركُ الحالةَ الصحية، بل يكتشفُ حالةً من الحزن أو المرض؛ لأنَّ دماغه في الحالة الأولى لا يتلقى تنبيهاً شديد الحيوية، في حين تنقبضُ أعصابه في الحالتين الأخريين وترتعش، وتهتزُ بحركةٍ عنيفة وغير منظمة، مما يعطي إشعاراً بأنَّ علّة ما تؤثر عليها بقوة، وتدفعها إلى أسلوب مغايرٍ لعادتها الطبيعية، وهذا ما يشكّل لديه ذلك النمط الغريب من الوجود الذي يسميه (الحزن).

ويحصل من ناحية أخرى، في معظم الأحيان أن تُحدث الأجسام الخارجية تغييرات كبيرة جداً على جسده، ومن دون ادراكه لها في الوقت الحالي. وغالباً لا يدرك الجندي في خضّم المعركة أنَّه مصاب بجروحٍ خطيرة؛ لأنَّ سرعة وتعدد الحركات العنيفة التي تهاجمُ دماغه في الآن ذاته، لا تتيح له تمييز ما أحدثه الجرح من تغييرٍ معين على جزءٍ من جسده. وباختصار، عندما يؤثر عليه عددٌ كبير من العلل في وقت واحد بقوة شديدة، فإنَّه يضعف تحت ضغطها المتراكم، - يغمى عليه - يفقد حواسه - يُحرمُ من الشعور. وبشكلٍ عام، لا يحصل الشعور إلا عندما يستطيع الدماغ أن يميّز بوضوح بين الانطباعات التي تحدث على الأعضاء التي يتواصل معها؛ حيث تشكل الصدمة المتميزة والتحوّل الحاسم الذي يتعرض له الإنسان ما يسمى ب(الوعي).[44] وسيتضح من هذا أنَّ (الشعورَ) نمطٌ من الوجود أو تغييرٌ ملحوظ يطرأ على دماغنا بسبب نقل التنبيه إلى أعضائنا، سواء بواسطة عوامل داخلية أو خارجية، ويتم تعديله من خلاله بشكلٍ دائم أو مؤقت. وفي الواقع ليس من الضروري دائماً أن تتحرك أعضاء الإنسان بواسطة شيء خارجي ليتمكن

من إدراك التغييرات التي تطرأ عليه، بل يمكنه الشعور بما داخله عن طريق دافع داخلي، ثم يُعدل دماغه أو يعيد بالأحرى تجديد التعديلات السابقة في داخله. ولا ينبغي أن نندهش من أنَّ الدماغ كان لابدّ من أن يحذر بالضرورة من الصدمات والعوائق والتغييرات التي قد تطرأ على عضوية معقدة مثل الجسد البشري، الذي ترتبط جميع أطرافه بالدماغ — وبالكل، الذي تجتمع فيه جميع الأطراف المحسوسة بحد ذاتها في هذا الدماغ، وتكون بحكم ماهيتها في حالة مستمرة من الفعل ورد الفعل.

وعندما يعاني الإنسان من آلام النقرس يكون واعٍ بها؛ بمعنى أنَّه يشعر داخلياً بحدوث تغييرات مميزة جداً فيه، ومن دون أن يدرك أنَّه تلقى تنبيهاً من أيّ علّة خارجية، ومع ذلك، إذا عاد إلى المصدر الحقيقي لهذه التغييرات، فسيجد أنَّها حدثت بالكامل بفعلِ عوامل خارجية، كانت ناجمة إما عن طباعه وعن المنظومة التي تلقاها من والديه أو من العناصر التي زوّد جسده بها، إلى جانب ألف سبب تافه وغير واضح تُحدِث فيه مجتمعة وبدرجات، دعابة النقرس وأثره الذي يجعله يشعر بوضعٍ حاد للغاية. حيث يولِد ألم النقرس في دماغه فكرة أو تعديلاً يُكسبه ملكة التمثيل أو تكرار ذاته، حتى عندما لا يكون يعاني من النقرس؛ حيث يوضع دماغه مرة أخرى، من خلال سلسلة من الحركات المثارة داخلياً، في حالةٍ مشابهة لتلك التي كان فيها عندما عانى بالفعل من هذا الألم، ولكن إذا لم يشعر به أبداً، فلن تكن لديه أيُّ فكرة عن هذا المرض المؤلم.

وتأخذ أعضاء جسد الإنسان المرئية التي يُعدّل دماغه من خلالها، اسم (الحواس). وتفترض التعديلات المختلفة التي يتلقاها دماغه بمساعدة هذه الحواس أسماءً متنوعة. فالإحساس، والإدراك، والفكرة، مصطلحات لا تشير إلا إلى التغييرات التي تحدث في هذا العضو الداخلي، ونتيجة الانطباعات التي تحدث على الأعضاء الخارجية من خلال الأجسام التي تؤثر عليها: ويُطلق على هذه التغييرات التي تؤخذ بالاعتبار بحدّ ذاتها، اسم (الإحساسات)، وتتخذ مصطلح (الإدراك)، عندما يُحذِّر الدماغ من وجودها؛ وتكون (الأفكار) حالة يستطيع فيها الدماغ أن ينسبها إلى الأشياء التي حدثت من خلالها.

كلّ إحساس إذن ليس أكثرُ من صدمةٍ تحدثُ للأعضاء، وكلّ إدراك، ينقل هذه الصدمة إلى الدماغ، وكلّ فكرة هي صورةٌ للشيء الذي يُعزا إليه الإحساس والإدراك.

وسوف يتبين من ذلك أنَّه إذا لم تُثار الحواس، فلا يمكن أن تكون هناك إحساسات أو إدراكات أو أفكار، وسيُبرهن على ذلك لأولئك الذين لا زالوا يشككون في الحقيقة الواضحة جداً والبارزة.

إنَّ هذا التحول الشديد الذي يستطيع الإنسان القيام به، والذي يدين إلى منظومته الخاصة التي تميزه عن الكائنات الأخرى التي تُدعى غير حسية أو جامدة، والدرجات المختلفة للتحوّل الذي يتعرّض له أفراد جنسه، ويميزهم عن بعضهم بعض، يخلقُ ما نكتشفه من تنوعٍ مذهل واختلاف لامتناهي، من حيث ملكاتهم الجسدية وكذلك العقلية أو الفكرية. وينتج عن هذا التحول الملحوظ إلى حدٍ ما عند كلّ كائن بشري، الذكاء، والحساسية، والخيال، والذوق...الخ. ومع ذلك دعونا نتابع في الوقت الحاضر عمل الحواس، ونبحث في طريقة التعامل معها وتعديلها بوساطة الأشياء الخارجية – سوف نبحث بعد ذلك في ردةِ فعل العضو الداخلي أو الدماغ.

إنَّ العيونَ أعضاءٌ حساسة للغاية وقابلة للتحريك، ويُختبر من خلالها الإحساس بالضوء أو اللون، وهذا يعطي للدماغ إدراكاً مميزاً، ونتيجة لذلك يشكّل الإنسان فكرةً تولّدت عن عملِ الأجسام الزاهية أو الملونة، وبمجرد فتح الجفون، تتأثر شبكية العين بطريقةٍ خاصة، وتتأثر السوائل والألياف والأعصاب التي تتكون منها بالصدمات التي تنقلها إلى الدماغ الذي تحدد به صور الأجسام التي تلقت منها التنبيه؛ وبهذه الطريقة يتم الحصول على فكرةٍ عن اللون والحجم والشكل والمسافة بين هذه الأجسام، ومن ثم يمكن شرح آلية (الرؤية).

وتفسّر قابلية النقل والمرونة التي تجعل الجلد حساساً بسبب الألياف والأعصاب التي تشكّل نسيجه، على أنَّها سرعة تأثر غلاف جسم الإنسان هذا عند وضع أيّ جسمٍ آخر عليه، فيلحظ الدماغ بفعل شدته، وجوده، وامتداده، وخشونته، ونعومته، وسطحه، وضغطه، وثقله...إلخ – وهي صفات يستمد منها الدماغ تصورات متميزة تولّد فيه مجموعة متنوعة من الأفكار، وهي ما يشكّل (اللمس).

والغشاء الرقيق الذي يُغلف الجزء الداخلي من الخياشيم، يجعلها عرضة للتهيج بسهولة، حتى من الجسيمات غير المرئية وغير المحسوسة التي تنبثق من أجسام معطرة،

وبهذه الطريقة تُستثار الإحساسات، ويمتلك الدماغ مدركات، وتولد الأفكار، وهذا ما يشكل حاسة (الشم).

ويتأثر الفم المليء بالغدد العصبية الحساسة والمتحركة والمتهيجة والمشبعة بالعصائر المناسبة لإذابة المواد المالحة بشكلٍ حيوي للغاية، من خلال الأغذية التي تمرّ من خلاله. وتنقل هذه الغدد إلى الدماغ الانطباعات التي تتلقاها، وينتج عن هذه الآلية (الذوق).

وتنقل الأذن التي يتلاءم شكلُها مع استقبال مثيرات مختلفة للهواء المعدل بشكلٍ متنوع، الصدمات أو الإحساسات إلى الدماغ؛ فتولد هذه إدراك الصوت، وتولد فكرة عن الأجسام الرنانة، وهذا ما يشكّل (السمع).

وبالتالي هذه هي الوسائل الوحيدة التي يتلقى بها الإنسان الإحساسات، والمدركات، والأفكار. وتكون هذه التعديلات المتتالية لدماغه تأثيراتٌ ناجمة عن أشياءٍ تنبّه حواسه، وتصبح بحدّ ذاتها أسباباً تُحدث في عقله تعديلاتٍ جديدة، تُسمى التفكير والتأمل والذاكرة والخيال والحكم والإرادة والعمل؛ ومع ذلك، فإنَّ أساس كلّ هذه هو (الإحساس).

ولتكوين فكرة دقيقة عن التفكير، سيكون من الضروري فحص ما يمرّ به الإنسان خطوة بخطوة أثناء وجود أيّ شيء مهما كان. وعلى سبيل المثال: افترض للحظة أنَّ هذا الشيء خوخاً، وهو فاكهةٌ تخلقُ للوهلة الأولى انطباعين مختلفين على عينيه؛ أي أنَّها تُحدث تعديلين ينتقلان إلى الدماغ، الذي يعاين في هذه الحادثة تصورين جديدين، ولديه فكرتان جديدتان أو طريقتان جديدتان عن الوجود، يحددهما مصطلحان هما "اللون" و"الاستدارة"، ولديه نتيجة لذلك، فكرة عن جسم يمتلك الاستدارة واللون، وإذا وضع يده على هذه الفاكهة، وبدأ عضو الشعور بالعمل، فإنَّ يده تعاين ثلاثة انطباعات جديدة، تُسمى النعومة، والبرودة، والوزن، وينتج عن هذه ثلاث مدركات جديدة في الدماغ، وبالتالي ثلاثة أفكارٍ جديدة، وإذا قرّب الخوخ إلى أنفه، يتلقى عضو الشم التنبيه الذي ينتقل إلى الدماغ فينشأ إدراكٌ جديدٌ، يكتسبُ بواسطته فكرةً جديدة تُسمى (الرائحة)، وإذا حمل هذه الفاكهة إلى فمه، يتأثر عضو الذوق بوضعٍ حيوي للغاية، ويتبع هذا التنبيه الذي ينتقل إلى الدماغ، إدراكٌ يولدُ لديه فكرةَ (النكهة). وعند إعادة توحيد

كلّ هذه الانطباعات أو هذه التعديلات المختلفة لأعضائهِ التي تنقلها بالتالي إلى دماغه، يكون لديه عند الجمع بين مختلف الإحساسات، والإدراكات، والأفكار التي تنتج عن التنبيه الذي تلقاه، فكرةً عن الكلّ الذي يسميه باسم الخوخ، والذي يمكن أن يستغرق به أفكاره.(45)

إنَّ ما قيل يكفي لإظهار توليد الإحساسات والإدراكات والأفكار وتداعياتها أو ترابطاتها في الدماغ، وسيتبين أنَّ هذه التعديلات المختلفة ليست أكثر من نتيجة للتنبيهات المتتالية التي تنقلها الأعضاء الخارجية إلى العضو الداخلي الذي يتمتع بملكةِ التفكير؛ أيّ أن يشعر بحدّ ذاته بالتعديلات المختلفة التي تلقّاها، أو يدرك الأفكارَ المختلفة التي ولّدها - دمجها - فصلها - مددها - لخصها - قارن بينها - جددها...إلخ. وسيتبين من هذا أنَّ التفكير ليس أكثر من إدراك بعض التعديلات التي يمنحها الدماغ لنفسه أو حصلَ عليها من الأشياء الخارجية.

ولا يدرك العضو الداخلي في الواقع التعديلات التي يتلقاها من دونها فقط، بل لديه أيضاً ملكة التعديل بحد ذاتها - نظراً للتغييرات التي تحدث فيه، والحركة التي يُستثار من خلالها ضمن عمليات خاصة به، ويستوعب من خلالها إدراكات جديدة، وأفكاراً جديدة. وتكون ممارسةَ هذه القوة بالارتداد إلى ذاته، وهذا ما يُسمى بـ (التأمل).

ويتضح من هذا، أنَّ الإنسان يفكر ويتأمل، ويشعر أو يدرك في داخله الانطباعات والإحساسات، والأفكار التي زوّد بها دماغه من خلال تلك الأشياء التي تنبه حواسه نتيجة التغيرات المختلفة التي أحدثها دماغه عليها.

أما (الذاكرة) فهي الملكة التي يمتلكها الدماغ ليجدد من تلقاء ذاته التعديلات التي تلقاها، أو بالأحرى ليعود بنفسه إلى حالة مماثلة لتلك التي وضع بها من خلال الإحساسات، والإدراكات، والأفكار، الناجمة عن الأشياء الخارجية، وبالترتيب الدقيق الذي استقبلتها به، ومن دون أيّ إجراء جديد من جانب هذه الأشياء أو عندما تغيب هذه الأشياء يدرك الدماغ أنَّ هذه التعديلات تتشابه مع تلك التي طرأت عليه سابقاً عند وجود الأشياء التي ترتبط بها أو تُنسب إليها. فالذاكرة أمينة عندما تكون هذه التعديلات هي ذاتها تماماً، وتخون عندما تختلف عن تلك التي اختبرتها الأعضاء من الخارج.

أما (الخيال) عند الإنسان فهو فقط الملكة التي يمتلكها الدماغ عند تعديل ذاته، أو تكوين إدراكات جديدة لنفسه بناءً على نموذج عن تلك التي تلقاها مسبقاً من خلال خيال الأشياء الخارجية على الحواس. وبالتالي لا يفعل الدماغ شيئاً أكثر من الجمع بين الأفكار التي شكّلها بالفعل، والتي يتذكّرها لتشكيل الكّل، أو مجموعة من التعديلات التي لم يتلقها، على الرغم من الأفكار الفردية أو الأجزاء التي يتكون منها هذا الكلّ المثالي، والتي وصلت إليه مسبقاً. وهكذا، يشكّل الإنسان لنفسه فكرةً عن القنطور،(46) والهيبوغريف،(47) والآلهة،(48) والشياطين.(49)

ومن خلال الذاكرة يجدّد الدماغ في داخله الإحساسات، والإدراكات، والأفكار التي تلقاها، وتمثلها له الأشياء التي حرّكت أعضائه بالفعل. ومن خلال الخيال يجمعها بشكلٍ مختلف، ويشكّل مكانها أشياءً أو مجموعات، لم تنقلها أعضائه على الرغم من أنّه على دراية تامة بالعناصر أو الأفكار التي يتكون منها. وبذلك شكّل الإنسان، من خلال الجمع بين عددٍ كبير من الأفكار المقتبسة منه، مثل العدالة والحكمة والخير والذكاء، وما إلى ذلك، بمساعدة الخيال كلاً متخيلاً سماه الله.

أما (الحكم) فهو الملكة التي يمتلكها الدماغ للمقارنة بين التعديلات التي يتلقاها مع بعضها البعض، والأفكار التي يولدها أو التي يمتلك في داخله قوة انعاشها، إلى درجة أنّه يكشف عن علاقاتها أو نتائجها.

في حين أنّ (الإرادة) تعديلٌ للدماغ الذي يميل من خلالها للعمل؛ أي يمنح هذا التنبيه لأعضاء الجسم بحيث يمكن أن يحفزها على العمل بطريقة توفرُ بها الإرادة من تلقاء ذاتها ما هو مطلوبٌ لتعديله في وضع يماثل وجودها، أو لتمكينه من تجنب ما يمكن أن يصيبه. فالإرادة هي الميلُ إلى الفعل. وتسمى الأشياء الخارجية أو الأفكار الداخلية التي تولدُ هذا الميل باسم (الدوافع)؛ لأنّها المصادر أو المثيرات التي تحدد الفعل؛ أي التي تُشغل أعضاء الجسم. وبالتالي فإنّ (الأفعال الإرادية) هي حركةٌ للجسم يحددها تعديلُ الدماغ. فالفاكهة المعلقة على شجرة، تعدّل بوساطة الأعضاء البصرية الدماغ بطريقة تجعل الذراع تمتد إلى الأمام لالتقاطها، ثم تقوم ثانية بتعديله بطريقة أخرى، مما يثير اليد لحملها إلى الفم. وجميع التعديلات التي يتلقاها العضو الداخلي أو الدماغ؛ كلّ الإحساسات – كلّ

الإدراكات - كلّ الأفكار التي تولدها الأشياء التي تعطي تنبيهاً للحواس أو التي يجددها في داخله من خلال ملكاته الخاصة، تكون مواتية لنمط وجود الإنسان أو مضرة له، وسواء كانت عابرة أو اعتيادية، فهي توجه العضو الداخلي إلى الفعل الذي يمارس بفضله العقل طاقته الخاصة به: ومع ذلك، فإنَّ هذا الفعل ليس هو ذاته عند جميع أفراد الجنس البشري، ويعتمد كثيراً على أمزجتهم الخاصة بهم. ومن هنا وِلدت (المشاعر)، وهذه عنيفة إلى حدٍ ما، إلا أنَّها ليست سوى حركة ناجمة عن الإرادة، وتحدّدها الأشياء التي تمنحها الفاعلية - وبالتالي، تتكون من التناظر أو النزاع الموجود بين هذه الأشياء ونمط الوجود الخاص بالإنسان أو قوة مزاجه. وينتج من هذا أنَّ العواطف أنماطاً من الوجود أو تعديلات للدماغ، وتجذب أو تبعد تلك الأشياء المحيطة بالإنسان، وبالتالي يخضع عملها لقوانين الجذب والتنافر الفيزيائية.

ويُشار أحياناً إلى ملكة الإدراك التي يتمتع بها الدماغ أو التي تقوم بالتعديل من تلقاء ذاتها أو من خلال الأشياء الخارجية، بمصطلح (الفهم). وينطبق اسم (الذكاء) على مجموعةٍ من الملكات المختلفة التي يتمتع بها هذا العضو الداخلي. ويُمنح نمطٌ محدد، يمارس فيه الدماغ الملكات الخاصة به، لقب (العقل). ويُطلق على الميول أو تعديلات الدماغ التي يكون بعضها ثابت والآخر عابر، وتعطي تنبيهاً لكائنات الجنس البشري وتجعلها تعمل، اسم (ذكاء، وحكمة، وخير، وبصيرة، وفضيلة، وما إلى ذلك).

وباختصار، ستكون هناك فرصة في الوقت الحاضر لإثبات أنَّ جميع الملكات الفكرية؛ أيّ جميع أنماط الفعل المنسوبة إلى النفس، يمكن اختزالها إلى التعديلات والصفات وأنماط الوجود، وإلى التغيرات التي تنتج عن حركة الدماغ التي تكون بوضوح عند الإنسان أساساً للشعور - مبدأً لكلّ أفعاله. وتُعزى هذه التعديلات إلى الموضوعات التي تمسّ حواسه التي ينتقل بها الانطباع إلى الدماغ، أو بالأحرى إلى الأفكار التي ولّدتها الإدراكات من خلال عمل هذه الموضوعات على حواسه، والتي لديها القدرة على إعادة إنتاجها. ويتحرك هذا الدماغ بدوره من تلقاء ذاته، ويتفاعل مع ذاته، ويُشغل الأعضاء التي يشكّل مركزاً لها، أو بالأحرى ليست سوى امتداداً للجوهر الخاص به. وبالتالي، فإنَّ الحركة الخفية للعضو الداخلي تجعله يحس بالإشارات الخارجية والمرئية. ويتأثر الدماغ بتعديلٍ يُسمى (الخوف)، وينتشر الشحوب على الوجه، ويثير حركةً مرتعشة في الأطراف،

تُسمى الارتعاش. ويتأثر الدماغ بإحساس (الحزن)، مما يؤدي إلى تدفقِ الدموع من العينين، وإن لم يثيرها أيُّ شيء خارجي؛ فالفكرة التي يعيد رسمها بقوةٍ كبيرة، تكفي لإعطائه تعديلات شديدة الحيوية، ولها تأثيرٌ واضحٌ على الهيكل بأكمله.

ولا يُدرك في كلّ هذا سوى الجوهر ذاته الذي يعمل بشكلٍ متنوع على أجزاءٍ مختلفة من الجسد. وإذا تم الاعتراض على ذلك، بأنَّ هذه الآلية لا تشرح بشكلٍ كافٍ مبادئ الحركة أو ملكات النفس، نجيب: أنَّه في الموقف ذاته مثل جميع أجسام الطبيعة الأخرى التي تكون فيها أبسط الحركات، والظواهر الأكثر شيوعاً، وأنماط الفعل الأعم أسراراً غير مفسرة، لن نتمكن أبداً من فهم المبادئ الأولى لها. فكيف يمكننا بالفعل أن نطري على أنفسنا بأنَّنا سنتمكن من بلوغ المبدأ الحقيقي لتلك الجاذبية التي يسقط الحجر بسببها؟ وهل نتعرّف على الآلية التي ينتج عنها التجاذب بين بعض المواد والتنافر بين أخرى؟ وهل نحن في حالةٍ تسمح لنا بشرحٍ نقل الحركة من جسد إلى آخر؟ وقد يُطرح السؤال بشكلٍ أوضح: هل أزيلتْ الصعوبات التي تحدث عند محاولة شرح الطريقة التي تعمل بها النفس، من خلال جعلها (كينونةً روحية)، وجوهراً لم نكوّن عنه فكرةً واحدة ولا يمكننا ذلك؛ أي تلك الفكرة التي لابدَّ أن تربك بالتالي جميع المفاهيم التي يمكننا تكوينها عن هذه الكينونة بأنفسنا؟ فلنكتفِ إذن بمعرفةِ أنَّ النفسَ تتحركُ من تلقاء ذاتها، وتعدّلُ ذاتها نتيجةً لأسباب مادية، تعمل على أساسها، وتعطيها فاعلية؛ ومن هنا يمكن القول: إنَّ النتيجة تنبثق تباعاً، وأنَّ جميع عملياتها وكلّ ملكاتها تثبِتَ أنَّها مادية بحدّ ذاتها.

الفصل التاسع
يعتمد تنوع الملكات الفكرية على علل مادية، وكذلك صفاتها الأخلاقية. حول المبادئ الطبيعية للمجتمع - الأخلاق - السياسة

الطبيعة متنوعة بالضرورة في جميع أعمالها. ولابدّ أن تشكّل المادة الأولية المختلفة من حيث ماهيتها كائنات مختلفة بالضرورة، وتتنوع من حيث مركباتها، وخصائصها، وأساليب عملها، وطريقة وجودها. ويستحيل أن يكون هناك كائنان، ومركبان متماثلتان رياضياً وبشكلٍ دقيق للغاية؛ بسبب عدم التشابه التام من حيث المكان، والظروف، والعلاقات، والخصائص، والتعديلات، ولا يمكن للكائنات المتولدة أن تحمل بالمطلق تشابهاً تاماً مع بعضها البعض، ومن الضروري أن تختلف أساليب عملها في شيءٍ ما، حتى وإنْ اعتقدنا أنّنا نجد بينها توافقاً إلى حدٍ كبير.

ونتيجة لهذا المبدأ الذي يتعاون كلّ ما نراه على اثبات أنّه صحيح، لا يوجد فردان من الجنس البشري لهما السمات ذاتها تماماً، ويفكران بالطريقة ذاتها؛ ويشاهدان الأشياء من وجهة النظر ذاتها، ولديهما بالتأكيد الأفكار ذاتها، وبالتالي لا يوجد اثنان لهما نظام السلوك ذاته وبشكلٍ موحد. صحيح أنّ الأعضاء المرئية عند الإنسان وكذلك أعضائه المخفية، تكون متشابهة إلى حدٍ ما وتمتلكُ بعض نقاط التشابه المشتركة، وبعض التوافق العام الذي يجعلها تبدو عند رؤيتها بشكلٍ واضح، وكأنّها تنتج بالطريقة ذاتها عن عللٍ معينة، لكن الاختلاف لا حصر له من حيث التفاصيل. ويمكن مقارنة النفس البشرية مع تلك الآلات التي ترتل فيها أيضاً الأوتار نغماتٍ مختلفة، وهي متنوعة فيها بالفعل بسبب الطريقة التي غُزلت فيها، حيث يهزها الدافع ذاته، ويصدر كلّ وتر صوتاً خاصاً به؛ أيّ يعتمد على قوامه، وشدته، وحجمه، وعلى الحالة الخاطفة التي يحل فيها بالهواء المحيط. وينجم عن هذا المنظر المتنوع مشهداً مختلفاً يقدمه العالَم المعنوي أمام ناظرنا، وينتج عن

هـذا التناقض اللافت للنظر ما يُكتشف في العقول من ملكات، ومشاعر، وطاقات، وذوق، وخيال، وأفكار، وآراء الإنسان، ويكون هـذا التنوع كبيراً أيضاً من حيث قواه الجسدية التي تعتمد مثلها على مزاجه الذي يتنوع بقدرِ تنوع ملامح وجهه. ويولدُ هذا التنوع تلك السلسلة المستمرة من الفعل ورد الفعل التي تشكّل حياة العالَم المعنوي، وينتج عن هذا الخلاف الانسجام الذي يقي على الجنس البشري ويحافظ عليه في آن واحد.

ويُسبب ذلك التنوع الموجود بين أفراد الجنس البشري عدم المساواة بين إنسان وآخر، ويُشكل هذا التفاوت دعماً للمجتمع. فلو كان البشر جميعهم متساوون من حيث قواهم الجسدية، ومواهبهم العقلية، لما كانوا مناسبين لبعضهم البعض؛ فتنوع ملكات الإنسان وعدم المساواة التي تضعه موضع تقدير بالنسبة لأقرانه، تجعل الإنسان ضرورياً للإنسان، ومن دون ذلك سيعيش بمفرده، وسيبقى كائناً منعزلاً. ومن هنا يمكن إدراك أنَّ هـذا التفاوت، الذي يشكو منه الإنسان في كثيرٍ من الأحيان من دون مبرر، وهذه الاستحالة التي يجدها كلّ إنسان عندما يكون في حالة عزلة، وعندما يُترك بمفرده، وعندما يكون غير مرتبط بأقرانهِ من البشر، ويعملُ بفعالية من أجل رفاهيته، وضمان أمنه، وضمان الحفاظ على ذاته، تضعه في حالة من السرور عند الاقتران بمن يشبهه، والاعتماد على أقرانهِ، فيستحق عونهم واستمالتهم لآرائه، وجذب نظرهم، ودعوتهم إلى مساعدته من خلال جهودهم المشتركة والموحدة في إبعاد ما يمكن أن يربك نظام وجوده أو زعزعته. ونتيجة للتنوع الذي يتمتع به الإنسان وما ينتج عن ذلك من عدم المساواة، يضطر الضعيف إلى اللجوء إلى حماية الأقوى، وهذا بدوره يعود إلى الفهم، والمواهب، وصناعة الأضعف، كلما أشار بحكمه إلى ما يمكن أن يكون مفيداً له، ويقدم هذا التفاوت الطبيعي سبباً لتمييز الأمم بين المواطنين الذين قدموا خدمات بارزة لبلدهم، على أنَّه نتيجة لضروراته التي يفتخر بها الإنسان، ويكافئ بها أولئك الذين قدّموا له بفهمهم، وعملهم لصالحه، ومساعدتهم، وفضائلهم مزايا حقيقية أو مفترضة، وملذاتٍ، أو إحساسات مقبولة من أيّ نوع، وهذا يعني أنَّ العبقرية تستميل عقل الإنسان، وتلزم جميع الناس بالاعتراف بقوتها. وهكذا، فإنَّ التنوع وعدم المساواة من حيث الملكات الجسدية والعقلية والفكرية، يجعل الإنسان ضرورياً لأخيه الإنسان، ويجعله كائناً اجتماعياً، ويثبت له بشكلٍ قاطع ضرورة الأخلاق.

ووفقاً لهذا التنوع في الملكات، ينقسم أفراد الجنس البشري إلى فئاتٍ مختلفة تتناسب كلّها مع التأثيرات الناتجة، والصفات المختلفة التي يمكن ملاحظتها. وتنبثق كلّ هذه التفاوتات عند الإنسان من الخصائص الفردية لعقله أو من التكييف الخاص بدماغه. ومن ثم فإنَّ الذكاء، والخيال، والحساسية، والمواهب، وما إلى ذلك، تتنوع بحسب الاختلافات اللامتناهية التي يمكن العثور عليها عند الإنسان. وهكذا يُقال عن البعض طيبين والبعض الآخر أشراراً. وبعضهم يُسمى فاضلاً والبعض الآخر طالحاً، ويُصنّف البعض على أنَّهم متعلمين والبعض الآخر جاهلين. ويُعتبر بعضهم عاقلاً، والبعض الآخر غير عاقل، وما إلى ذلك.

وإذا فحصنا جميع الملكات المختلفة المنسوبة إلى النفس، فسنجد أنَّها ستُنسب كتلك الموجودة في الجسد إلى عللٍ مادية، وسيكون من السهل جداً تكرارها. وسيتبين أنَّ قوى النفس هي قوى الجسد بحدّ ذاتها، وتعتمد دائماً على منظومة هذا الجسد وعلى خصائص خاصة به، وعلى التعديلات الدائمة أو المؤقتة التي يخضع لها؛ أيّ على مزاجه.

أما (المزاج) عند كلّ فرد فهو الحالة المعتادة التي يجد فيها السوائل والمواد الصلبة التي يتكون منها جسده. ويختلف هذا المزاج بحسب العناصر أو المادة السائدة فيه، وعدم مراعاة المركبات المختلفة والتعديلات المختلفة، التي تتنوع فيها هذه المادة بحدّ ذاتها وتخضع لها في عضويته. وهكذا يكون أحدهم دموياً؛ والآخر صفراوياً، والثالث بلغمياً، وما إلى ذلك.

ويستمدّ الإنسان مزاجه من الطبيعة – من والديه – من العلل التي عدّلت منذ اللحظة الأولى وجوده من دون توقف. ففي رحم أمه جذب المادة التي ستؤثر على ملكاته الفكرية – على طاقاته – على عواطفه – وعلى سلوكه طوال حياته. ويتغير هذا المزاجُ بحسب الغذاء الذي يتناوله، ونوعية الهواء الذي يستنشقه، والمناخ الذي يعيش فيه، والتعليم الذي يتلقاه، والأفكار التي يتم تقديمها إليه والآراء التي يتشرّبها. ونظراً لأنَّ هذه الظروف لا يمكن أبداً أن تكون هي ذاتها تماماً في كلّ مرحلة لأيّ اثنين من البشر، فليس من المستغرب بأيّ حال من الأحوال العثور على مثل هذا التنوع المذهل، والتضارب الكبير عند الإنسان أو أن يكون هناك العديد من الأمزجة المختلفة كتلك الموجودة عند أفراد الجنس البشري.

وهكذا، على الرغم من أنَّ الإنسان يحمل ربما تشابهاً عاماً، إلا أنَّه يختلف جوهرياً، من حيث نسيج أليافه، ونظام أعصابه، وكذلك الحال من حيث طبيعة ونوعية وكمية المادة التي تتيح له تشغيل وتحريك أعضائه. ويصبح الإنسان الذي يختلف بالفعل عن قرينه من حيث مرونة أليافه، وتوتر أعصابه، أكثر تميّزاً بفضل مجموعة متنوعة من الظروف الأخرى؛ حيث يكون أنشط وأقوى عندما يتلقى أطعمة مغذّية، وعندما يشرب الخمر، وعندما يمارس الرياضة، في حين أنَّ من لا يشرب سوى الماء، ويتناول القليل من العصير، ويقبع في الكسل، سيكون بطيئاً وضعيفاً.

وكلّ هذه العلل لها تأثير بالضرورة على العقل، والمشاعر، والإرادة؛ أيّ على ما يُسمى بالملكات الفكرية. وهكذا، يمكن ملاحظة أنَّ الإنسان ذو المزاج الدموي يكون عادةً حيوياً، وبارعاً، ومفعماً بالخيال، وعاطفياً، وشهوانياً، ومغامر، في حين يكون الإنسان البلغمي مملاً، ولديه بطء في الفهم وفي التصور، وغير نشط، ولديه صعوبةً في الحركة، وجبان، ومن دون خيال، أو يمتلكه بدرجة أقل حيوية، وغير قادرٍ على اتخاذ أيّ تدابير قوية أو عن طيب خاطر.

وإذا استُشيرت الخبرة، وكان هناك مجالاً للتحيز، فسيجمع الطبيب من الأخلاق مفتاحاً لقلبِ الإنسان، وسيطمئّن أحياناً عند علاجه للجسد على علاج العقل. فالإنسان عندما خلق الجوهر الروحي لنفسه، اكتفى بإعطائه علاجات روحية لا تؤثر على مزاجه أو تسبب ضرراً له. وجعلت عقيدة روحانية النفس من الأخلاق علماً حدسياً، لا يزودنا بمعرفة الدوافع الحقيقية التي يجب أن توضع موضع التنفيذ من أجل التأثير على الإنسان فيما يتعلق برفاهيته. وإذا استدعى الإنسان الخبرة لمساعدته، فإنَّه يسعى إلى العناصر التي تشكّل أساساً لمزاجه أو عدداً أكبر من الأفراد الذين يؤلفون أمة، وسيكتشف بعد ذلك ما هو الأنسب له، وما يمكن أن يكون أكثر ملاءمةً لنمط وجوده، وما يمكن أن يؤدي إلى مصلحته الحقيقية - ما هي القوانين التي ستكون ضرورية لسعادته - ما هي المؤسسات التي ستكون أكثر نفعاً له - ما هي التشريعات التي ستكون أكثر فائدةٍ له. وباختصار، ستمكنه الأخلاق والسياسة من الاستفادة على حدٍ سواء من المزايا المادية التي لا يمكن أن توفرها العقيدة الروحانية التي تقف عقبةً أمام الفكرة. وسيبقى الإنسان دائماً لغزاً بالنسبة لأولئك الذين يصرّون بعنادٍ على رؤيته بعيون مملوءة باللاهوت،

أو أولئك الذين سينسبون أفعاله بشكلٍ وثيق إلى مبدأ يستحيل أن يشكلوا عنه أيّ فكرة واضحةٍ لهم. وعندما يميل الإنسان بشكلٍ جدي إلى فهم نفسه، دعه يثابر لاكتشاف المادة التي تدخل في تركيبه، وتشكّل مزاجه، وستزوده هذه الاكتشافات بفكرةٍ عن طبيعة رغباته، ونوعية اهتماماته، ومنحنى ميوله، وستمكنه من توقع سلوكه في حوادث معينة، وستشير إلى الأدوية التي يمكن استخدامها بنجاحٍ لتصحيح عيوب منظومته الشريرة وطبعه الذي يضرُّ به وبالمجتمع الذي هو عضو فيه.

ولا ينبغي في الواقع، الشك في أنَّ مزاج الإنسان يمكن تصحيحه، وتعديله، وتغييره، بعللٍ مادية كالمادة التي يتكون منها. وكلّنا قادرون إلى حدٍ ما على تكوين مزاجنا الخاص بنا، فعند تناول الإنسان ذو المزاج الدموي لغذاءٍ أقل وتقليل كميته، وامتناعه عن المشروبات الكحولية القوية وما إلى ذلك، قد يحقق تصحيحاً لطبيعة، ونوعية، وكمية، وميل، وحركة السوائل التي تغلب على عضويته. ويمكن للإنسان الصفراوي، أو الشخص المصاب بالكآبة، أن يقلل بمساعدة بعض الأدوية من كمية هذا السائل الصفراوي؛ وربما يصحح عيب مزاجه بمساعدة التمرين، وربما يبدد كآبته بالبهجة الناتجة عن زيادة الحركة. وسيصبح الأوروبي عند دمجه مع الهندي [أيّ الهجين](*) إنساناً مختلفاً تماماً من حيث مزاجه وأفكاره وطبعه وشخصيته.

وعلى الرغم من إجراء القليل من التجارب بهدف معرفة ما يُشكل مزاج الإنسان، فلا يزال هناك ما يكفي إذا كان يرغب في الاستفادة منها، أو إذا كان سيسلم بتطبيقها على أهدافٍ مفيدة للخبرة القليلة التي حصل عليها. وسيتّضح عموماً أنَّ المبدأ الناري الذي يحدده الكيميائيون تحت اسم الفلوجستون phlogiston،(**) أو المادة القابلة للاشتعال، والتي تمنح الإنسان حياةً أكثر نشاطاً، تزوده بأكبر قدرٍ من الطاقة، وتوفر أكبر قدرٍ من التنقل لهيكله، وتزود أعضائه بأكبر قدرٍ من الانتعاش، وتعطي أكبر قدر من المرونة لأليافه، وأعظم شدة لأعصابه، وأكبر سرعةٍ لسوائله. وعادةً ما ينتج عن هذه الأسباب المادية عموماً، النظم أو الملكات، المسماة بالإحساس، والذكاء، والخيال، والعبقرية،

* – ينشأ عن طريق زواج البشر من مختلف السلالات سلالات جديدة. (المترجم).

** – كلمة تعني اللاهوب أو العنصر الناري الموجود ضمن الأجسام القابلة للاحتراق.(المترجم)

والحيوية، وما إلى ذلك، والتي تضفي نغمةً على العواطف والإرادة والأفعال الأخلاقية عند الإنسان. وبهذا المعنى، وبقدرٍ كبير من العدالة نطبق التعبيرات، "دفء النفس"، و"اتقاد الخيال"، و"نار العبقرية"، الخ.[50]

وهذا هو العنصر الناري المنتشر بجرعات مختلفة، وموزع بنسبٍ مختلفة عند أفراد الجنس البشري، والذي يحرك الإنسان ويمنحه النشاط، ويزوده بالحرارة الحيوانية التي إذا سُمح لنا بالتعبير عنها، تجعله حياً إلى حد ما. وتتبدد هذه المادة النارية والنشطة للغاية، والرقيقة جداً من تلقاء ذاتها بسهولةٍ كبيرة، ثم يُفترض إعادة وضعها في نظامه عن طريق الأغذية التي تحتوي عليها، والتي تصبح بالتالي مناسبة لاستعادة عضويته، وإضفاء دفء جديد على الدماغ، وتزويده بالمرونة اللازمة لكي يؤدي تلك الوظائف التي تسمى فكرية. وهذه المادة المتقدة، والمتضمنة في النبيذ، والمشروبات الكحولية القوية، هي التي تعطي حيويةً للإنسان الأكثر خبثاً، والبليد، والبطيء، وسيكون من دونها عاجزاً، وهي التي تحفّز أيضاً الجبان في المعركة. وعندما يكون هذا العنصر الناري وافراً جداً عند الإنسان الذي يعاني من أمراض معينة، فإنَّه يغرقه في الهذيان. وعندما يكون ضعيفاً جداً أو تكون بكمية صغيرة جداً، يُغمى عليه ويقع على الأرض. وتتضاءل هذه المادة النارية مع تقدمه في السن، وتتبدد كلياً عند وفاته.[51]

وإذا فحصتُ الملكات الفكرية عن الإنسان أو صفاته الأخلاقية وفقاً للمبادئ المنصوص عليها هنا، فيجب الاقتناع بالكامل بأنَّها تُنسب إلى عللٍ مادية، لها تأثيرٌ ملحوظ إلى حدٍ ما، إما مؤقت أو دائم على المنظومة الخاصة به. لكن من أين تنبثق هذه المنظومة إنْ لم يكن من الوالدين اللذين يتلقى منهما عناصره العضوية المماثلة بالضرورة لعناصرهم؟ ومن أين تنبثق الكمية الأكبر أو الأقل من المادة النارية أو الحرارة المفعمة بالحيوية، والتي تعطي انطباعاً عن صفاته العقلية؟ من الأم التي حملته في رحمها، وأوصلت له جزءاً من تلك النار التي أحيتها هي بحد ذاتها، وانتشرتْ في عروقها عبر دمها، ومن الغذاء الذي أمدّته به، والمناخ الذي يسكن فيه، ومن الجو المحيط به؛ لأنَّ كلّ هذه الأسباب لها تأثيرٌ على سوائله، وعلى العناصر الصلبة لديه، وتقرر ميوله الطبيعية. وسنكتشف عند فحص هذه الميول، من حيث اعتمادها على ملكاته، أنَّها ملموسة ومادية.

وأبرز هذه الميول عند الإنسان هي تلك الحساسية البدنية التي تنبع منها كلّ صفاته الفكرية أو الأخلاقية. ووفقاً لما قيل، فلكي يشعر ينبغي أن يتلقى تنبيهاً، ولكي يتحرك ينبغي أن يكون لديه وعيٌ بالتغييرات التي تجري على نظامه. وأن تكون لديه حساسية لا يعني سوى أن يتم تكوينه بحيث يشعر بسرعة، وبطريقة حيوية للغاية بانطباعات تلك الموضوعات التي تؤثر عليه. والنفس العاقلة هي أن يكون دماغ الإنسان في وضعٍ يسمحُ له بتلقي الحركة التي تُنقل إليه بسرعةٍ وسهولة من خلال إعطاءه تنبيهاً مباشراً للأعضاء. وهكذا، يُسمى الإنسان حساساً عند مشاهدته للبؤس وتأمله لرواية حكاية بائسة أو حزينة، أو مشاهدة كارثة مؤلمة، أو فكرةٍ عن مشهدٍ مروع يؤثر بطريقة فعالة للغاية تمكن الدماغ من تشغيل غدده الدمعية التي تجعله يذرف الدموع؛ وهي علامة ندرك من خلالها تأثير الألم الشديد على الإنسان. ويُقال: إنَّ الإنسان الذي تثير لديه الأصوات الموسيقية درجةً من المتعة أو تُحدث لديه تأثيرات رائعة للغاية، لديه أذنٌ حساسة أو رقيقة. وباختصار، عند إدراك تلك البلاغة، – جمال الفنون – تثير فيه الموضوعات المختلفة التي تمس حواسه مشاعرَ مفعمة بالحيوية، ويُقال إنَّه يمتلك نفساً مفعمة بالحساسية.(52)

(الذكاء) هو نتيجةٌ لهذه الحساسية البدنية، والذكاء في الواقع ليس سوى البراعة التي تمتلكها بعض الكائنات البشرية لتستوعب على وجه السرعة، وتطور بسرعةٍ الكل وعلاقاته المختلفة عموماً مع الأشياء الأخرى. أما (العبقرية) فهي البراعة التي يفهم بها بعض البشر هذا الكلّ وعلاقاته المختلفة، عندما يصعب معرفتها، مع أنَّها مفيدة لتقديم مشاريع عظيمة وهائلة. ويمكن مقارنة (الذكاء) بالعين الثاقبة التي تدركُ الأشياء بسرعة. و(العبقرية) هي العين التي تدركُ من نظرةٍ واحدة جميع نقاط الأفق الممتد، أو ما يُصطلح عليه بالفرنسية "coup d'oeil النظرة". و(الذكاء الحقيقي) هو ذلك الذي يدركُ الأشياء من خلال علاقاتها، كما لو كانت مكتملة بالفعل. أما (الذكاء الزائف) فهو الذي يفهم العلاقات التي لا تنطبق على الموضوع أو التي تنشأ من عيبٍ في المنظومة. ويشبه (الذكاء الحقيقي) المرشد.

و(الخيال) هو ملكة الجمع بين الأفكار أو الصور المنتظمة، ويتألف من القوة التي يمتلكها الإنسان لإعادة إحداث التعديلات التي تطرأ على دماغه بسهولة، ووصلها وربطها بالأشياء التي تناسبها. وعندما يفعل الخيال هذا ويمنح السرور، وتُستحسن

تخيلاته، ويزين الطبيعة، يكون دليلاً على سلامة العقل ويساعد على الوصول إلى الحقيقة، وعلى العكس من ذلك، عندما يجمع بين الأفكار التي لم تكون لترتبط مع بعضها بعض؛ أيّ عندما لا يرسم سوى الأشباح البغيضة، فإنَّه يثير الاشمئزاز. وهكذا يرضي الشعر، بقصد أن يجعل الطبيعة أكثر إثارة للشفقة، وأكثر ملامسة، عندما يزين الشيء الذي يصوره مع كلّ تلك الأشياء الجميلة التي يمكن أن ترتبط به بشكلٍ لائق. صحيح أنَّه يخلق كائنات مثالية فقط، ولكن لكونه يثيرنا بشكلٍ مقبول، فإنَّنا نغفر الأوهام التي يحملها بسبب المتعة التي جنيناها منه. في حين تثير كائنات الخرافة الوهمية القبيحة الاستياء؛ لأنَّها ليست أكثر من إنتاجات لخيال مشوش، ولا يمكن أن توقظ سوى الأحاسيس المؤلمة.

وعندما يهيمُ (الخيال) ينتج التعصب – الذعر الديني – الحماسة المتهورة – التوحش – أخطر الجرائم. وعندما يُنظم الخيال بشكلٍ جيد، فإنَّه يولد ميلاً قوياً للأشياء المفيدة – شغفٌ نشط للفضيلة – حبٌ حماسي لبلدنا – الصداقة الأكثر حماسة، وعادةً ما يكون الإنسان الذي حُرم من الخيال، شخصاً يهيمن بلغمه من حيث تكوينه الفاسد على تلك النار المقدسة، والتي هي المبدأ العظيم لحركته، ودفء عواطفه التي تحيي كلّ ملكاته الفكرية. ويجب أن يكون هناك تعصب للفضائل المتعالية وكذلك للجرائم الفظيعة. فالتعصب يضع النفس أو الدماغ في حالةٍ مماثلة لحالة السُكر. فكلاهما يثير لدى الإنسان سرعة الحركة التي يُصادق عليها عندما تكون النتائج جيدة، ولكنها تُسمى حماقةً، وهذياناً، وجريمةً، وغضبٌ، عندما لا ينتج عنها سوى الفوضى.

ويكون العقل خارج النظام، وغير قادر على الحكم بشكلٍ سليم، ويُنظِّم الخيال بشكلٍ سيء، عندما لا يتم تعديل منظومة الإنسان بحيث تؤدي وظائفها بدقة. ويكتسبُ الإنسان الخبرة في كلّ لحظةٍ من وجوده؛ حيث يقدّم كلّ إحساس لديه حقيقةً تقرر في دماغه فكرة، وتتذكرها ذاكرته بأمانة إلى حدٍ ما، وترتبط هذه الحقائق مع بعضها، وتتداعى هذه الأفكار، وتشكّل سلسلتها (الخبرة) و(العلم). أما المعرفة فهي ذلك الوعي الذي ينشأ من الخبرة المتكررة، التي نصنعها بدقة من الإحساسات والأفكار والآثار التي يمكن أن يحدثها كائن ما، سواء في أنفسنا أو عند الآخرين. وبناءً على ذلك يجب أن يؤسس كلّ العلم على الحقيقة. وتستند الحقيقة بحدّ ذاتها على العلاقة الثابتة والصادقة بين حواسنا. وهكذا فإنَّ الحقيقة هي ذلك التطابق أو التقارب الدائم الذي تكشفه حواس

الإنسان له عندما يتم تشكيلها جيداً وتكون مدعومة بالخبرة، بين الأشياء التي لديه معرفة بها والصفات التي يُلبسها لها. والحقيقة باختصار، ليست سوى تداعي عادل ودقيق لأفكاره. ولكن كيف يمكن أن يؤكد لنفسه دقة هذا التداعي من دون الخبرة؟ وكيف يقارن بينها إذا لم يكرر هذه الخبرة؟ وإذا كانت حواسه معطلة، فكيف يكون بإمكانها أن تمرر له وبدقة، الأحاسيس، والحقائق التي تُخزن بدماغه؟ ووحدها الخبرة المضاعفة، والمتنوعة، والمتكررة، هي التي تمكّنه من تصحيح أخطاء تصوراته الأولى.

ويخطئ الإنسان في كلّ مرة يكون في أعضائه عيب بالأصل من حيث طبيعتها أو أفسدتها التعديلات الدائمة أو المؤقتة التي تخضع لها، فتجعله غير قادر على الحكم بشكلٍ سليم على الأشياء. ويتكون الخطأ من تداعٍ زائف للأفكار التي تُنسب من خلاله الصفات إلى أشياء لا تمتلكها. ويُخطئ الإنسان عندما يفترض حقاً أنَّ تلك الكائنات لديها وجود، وليس لها موطنٌ خاص سوى في خياله، ويُخطئ عندما يربط فكرة السعادة بأشياءٍ يمكن أن تؤذيه، ولا يستطيع التنبؤ بالنتائج سواء أكانت مباشرة أو بعيدة.

ولكن كيف يمكنه أن يتنبأ بنتائج لم يعرف عنها شيئاً بعد؟ بمساعدة الخبرة. ويُعرف من خلال المساعدة التي توفرها هذه الخبرة أنَّ العلل المماثلة أو المتشابهة تُحدث معلولات مماثلة أو متشابهة، وتمكنه الذاكرة، من خلال تذكر هذه المعلولات، من الحكم على تلك التي قد يتوقعها، سواء كانت ناجمة عن العلل ذاتها أو عن عللٍ لها علاقة بتلك التي سبق له أن اختبر فعلها. وسيتضح من هذا أنَّ الحكمة والبصيرة عبارة عن ملكات تنبثق عن الخبرة. فإذا شعرَ أنَّ النار تثير في أعضائه إحساساً مؤلماً، فإنَّ هذه الخبرة تكفيه للتنبؤ بأنَّ استخدام النار على هذا النحو، سيثير في النهاية الإحساسات ذاتها. وإذا اكتشف أنَّ بعض الأفعال من جانبهِ قد أثارت الكراهية، وأثارت احتقار الآخرين، فإنَّ هذه الخبرة تمكّنه بشكلٍ كافٍ من توقع أن يتصرف في كلّ مرة بطريقةٍ مماثلة، وسيكون إما مكروهاً أو محتقراً.

والملكة التي يجمع بها الإنسان الخبرة، وتذكره بها، وتتنبأ بالنتائج التي تمكنه من تجنب كلّ ما قد يكون لديه القدرة على إيذائه أو الحصول على ما قد يكون مفيداً للحفاظ على وجودهِ وسعادته، والذي هو الغاية الوحيدة لجميع أفعاله، سواء كانت جسدية أم عقلية، تشكّل ما نعبّر عنه بكلمة واحدة بـ (العقل). وقد تكون المشاعر والخيال والمزاج

قادرة على تضليله، وقد تكون لها القدرة على خداعه، لكن الخبرة والتأمل سوف يجعلانه يسير مرة أخرى على الطريق الصحيح، ويعلّمانه ما يمكن أن يقوده حقاً إلى السعادة. وسيتضح من هذا أنَّ العقل هو الطبيعة المعدّلة للإنسان من خلال الخبرة، والمصممة من خلال الحكم، والمنظمة من خلال التأمل. ويُفترض في الواقع مزاجاً رصيناً، وعقلاً سليماً، وخيالاً منظماً جيداً، ومعرفةً للحقيقة تستند إلى الخبرة المرهفة والحكمة والبصيرة. وهذا يثبت أنَّه على الرغم من عدم وجود شيء مشترك سوى التأكيد على أنَّ الإنسان كائناً معقولاً، إلا أنَّه لا يوجد سوى عدد قليل جداً من الأفراد الذين يؤلفون الجنس البشري الذي يتمتع حقاً بملكة العقل أو من يجمع بين الميول والخبرة التي يتكون من خلالها.

ولا ينبغي أن نندهش إذن من أنَّ أفراد الجنس البشري الذين يمتلكون القدرة على صنع خبرة حقيقية هم قليلون جداً. ذلك أنَّ الإنسان يجلب معه منذ ولادته أعضاء عرضة لتلقي التنبيه وجمع الخبرة، ولكن نتيجةً لنقص في نظامه أو عيب في منظومته أو الأسباب التي أدّت إلى تعديلها، فإنَّ خبرته تكون زائفة، وتكون أفكاره مشوشة، وصوره مترابطة بشكلٍ سيء، وحكمه خاطئ، ويكون دماغه مشبعاً بأنظمةٍ شريرة تؤثر بالضرورة على سلوكه، وتربك عقله باستمرار.

وكما اتضح فإنَّ حواس الإنسان هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنه أن يتأكد من خلالها مما إذا كانت آراؤه صحيحة أم خاطئة، وما إذا كان سلوكه مفيداً له، وإن كان لصالحة أم غير مؤاتٍ له. ولكن لكي تكون حواسه مؤهلة لإقامة علاقة أمينة أو أن تكون قادرة على إثارة الأفكار الحقيقية في دماغه، فمن الضروري أن تكون واضحة؛ أيّ في حالةٍ تحافظ بالضرورة على وجوده ضمن ترتيب يتناسب مع الحفاظ عليه وتحقيق سعادة دائمة له. كما أنَّه لا غنى عن أن يكون دماغه ذاته سليماً، أو في حالة مناسبة تمكّنه من أداء وظائفه بدقة وممارسة ملكاته بحيوية. ومن الضروري أن تسترجع الذاكرة بأمانة إحساساتها وأفكارها السابقة، والغاية من ذلك هي أن يكون مؤهلاً للحكم أو التنبؤ بالنتائج التي قد يرجوها أو يخشاها من تلك الأفعال التي قد يحددها بإرادته. وإذا كانت أعضاؤه الداخلية أو الخارجية يشوبها عيب، سواء بسبب تكوينها الطبيعي أو من تلك العلل التي تنظمها، فإنَّه يشعر ولكن بشكلٍ غير كامل وبطريقة أقل تميّزاً مما هو مُفترض، وتكون أفكاره إما خاطئة مثيرة للريبة؛ فيسيء الحكم ويكون مشتتاً أو في حالة فساد تمنعه

من إدراك العلاقة الحقيقية بين الأشياء. وباختصار، إذا كانت ذاكرته يشوبها عيب ما، وإذا خانته، فسيكون تفكيره باطلاً ويقوده خياله إلى الضلال، ويخدعه عقله. في حين أنَّ حساسية أعضائه التي يهاجمها في الوقت ذاته حشدٌ من الانطباعات، تجعله يصطدم بالحكمة والبصيرة وممارسة عقله. ومن ناحية أخرى، إذا كان تقرير أعضائه، كما يحدث مع ذو المزاج البلغمي أو البارد، لا يسمح له بالتحرك إلا بطريقة ضعيفة وبليدة، فإنَّ خبرته تكون بطيئة وغالباً ما تكون غير مجدية. فالسلحفاة والفراشة على سبيل المثال لا يمكنهما على حدٍ سواء مقاومة هلاكهما. والرجل الغبي والمخمور يكونان في حالة تجعلهما غير قادرين على بلوغ الهدف الذي يصبوان إليه.

ولكن ما هو هدفُ الإنسان في المجال الذي يشغله؟ إنَّه الحفاظ على ذاته وإسعاد وجوده. ومن ثم يصبح من الأهمية بمكانٍ أن يفهم الوسائل الحقيقية التي يشيرُ إليها العقل، ويتعلم استخدامها بحيطة حتى يتمكن دائماً وبكلّ تأكيد من الوصول إلى الغاية التي يرجوها لنفسه. وهذه هي ملكاته الطبيعية، وعقله، ومواهبه، وصناعته، وأفعاله التي تحددها تلك المشاعر التي تعتري طبيعته وتعطي نشاطاً إلى حدٍ ما لإرادته. وتُظهر له الخبرة والعقل مرةً أخرى أنَّ البشر الذين يرتبط بهم، ضروريون بالنسبة له – قادرون على المساهمة في سعادته وملذاته، ومؤهلون لمساعدته بتلك الملكات الخاصة بهم، وتعلمه الخبرة الطريقة التي يجب أن يتبنّاها لحثهم على الاتفاق معه في مخططاته – وتحديدهم حسب مشيئته والتصرف لصالحه. وهذا يوضح له الأفعال التي يوافقون عليها – تلك التي تزعجهم – السلوك الذي يجذبهم – ما يصدّهم – الحكم الذي يصدرونه – المزايا التي يتمتعون بها، وما يحدث له من آثار ضارة ناجمة عن أنماطٍ مختلفة لوجودهم وطريقة تصرفهم. وتزوده هذه الخبرة بأفكارٍ عن الفضيلة والرذيلة – العدالة والظلم – الخير والشر – الحشمة والفساد – الاستقامة والإخلاص. ويتعلم باختصار أن يكون حكَماً على البشر، وتقدير أفعالهم – للتمييز بين مختلف المشاعر المثارة فيهم بحسب تنوع النتائج التي يختبرها. إنَّ التنوع الضروري لهذه النتائج هو أساس التمييز بين الخير والشر – بين الفضيلة والرذيلة؛ أي الفروق التي لا تستند، كما يعتقد بعض المفكرين، على الاتفاقيات المبرمة بين الناس والتي لا تزال تتفق على الأقل مع الإرادة الوهمية لكائنٍ خارق للطبيعة، بل على العلاقات الأبدية الثابتة بين بشر يجتمعون معاً ويعيشون في المجتمع – العلاقات التي سيكون لها وجود طالما بقي الإنسان وطالما بقي المجتمع موجوداً.

وهكذا تكون (الفضيلة) كلّ شيء مفيد حقاً ودائماً لأفراد الجنس البشري الذين يعيشون معاً في المجتمع؛ وتكون (الرذيلة) كلّ ما يضرهم. وأعظم الفضائل هي تلك التي تجلب للإنسان أكثر المزايا ديمومةً وثباتاً، وأعظم الرذائل هي أكثر ما يؤرّق ميله إلى السعادة، وأكثر ما يعارض النظام الضروري للمجتمع. والفاضل هو الذي تميل أفعاله بشكلٍ موحد إلى رفاهية أقرانه. والطالح هو الذي ينحو سلوكه إلى بؤس من يعيش معهم، والذي ينتج عنه بؤسه الأعم. وكلّ ما يوفر للإنسان سعادةً حقيقية ودائمة هو أمرٌ معقول، وكلّ ما يؤرق سعادة الفرد أو سعادة الكائنات الضرورية لسعادته، يكون حماقة أو غير معقول. ويكون الإنسان الذي يؤذي الآخرين شريراً — فالإنسان الذي يضره كائن غير حكيم، ليس لديه معرفة بالعقل ولا بمصالحه الخاصة ولا بالحقيقة.

وتكون واجبات الإنسان بمثابة وسائل ترشده بفضل الخبرة والعقل، ويصلُ من خلالها إلى هذا الهدف الذي يفترضه لنفسه، وتنجم هذه الواجبات بالضرورة عن العلاقات القائمة بين البشر الذين يرغبون في السعادة بقدر ما هم قلقون فيما يخص الحفاظ على وجودهم. وحين يُقال: إنَّ هذه الواجبات مفروضة عليه فلا يعني ذلك سوى أنَّه لم يستطع الوصول إلى الغاية التي افترضتها طبيعته له من دون اتخاذ هذه الوسائل. وبالتالي فإنَّ الالتزام الأخلاقي هو ضرورة استخدام الوسائل الطبيعية لإسعاد الكائنات التي يعيش معها، والغاية التي قد يحددها لها بدوره لتسهم في سعادته الفردية، والتزامه تجاه نفسه هو الضرورة التي يأخذ في ظلها تلك الوسائل التي لن يتمكن من دونها من الحفاظ على نفسه، وإسعاد وجوده بقوة. وتُبنى الأخلاق مثل الكون على الضرورة أو على العلاقة الأبدية بين لأشياء.

و(السعادة) هي نمطٌ من الوجود يرغب الإنسان عادةً البقاء فيه، أو يريد الاستمرار فيه. وتقاس بمدتها وحيويتها. وأعظمُ سعادةٍ هي التي تستمر لفترة أطول، وتُسمى السعادة العابرة أو تلك التي لها مدةٌ قصيرة فقط باسم اللذة، وكلّما كانت أكثر حيويةً، كلّما كانت قصيرة الأجل؛ لأنَّ حواس الإنسان لا تتأثر إلا بقدرٍ معين من الحركة. وعندما تتجاوز اللذة هذه الكمية المعطاة تتحول إلى معاناة أو إلى ذلك الوضع المؤلم من الوجود الذي يرغب بشدة في التوقف عنه، وهذا هو السبب في أنَّ اللذة والألم كثيراً ما يقاربان بعضهما البعض إلى حدٍ يصعب التمييز بينهما. وتكون اللذة المفرطة نذيراً على الندم ويخلفها الملل

والتعب، وتنتهي بالاشمئزاز، وغالباً ما تتحول السعادة العابرة بحد ذاتها إلى مصيبةٍ دائمة. وسيتبين وفقاً لهذه المبادئ أنَّ من واجب الإنسان الذي يسعى بالضرورة في كلّ لحظة من بقائهِ وراء السعادة، أن ينظم ملذاته إن كان عاقلاً، ويرفض بحد ذاته كلّ تلك الكياسة التي سيتبعها الندم أو الألم، بينما يجب أن يسعى إلى توفيرٍ أكبر قدرٍ ممكن من السرور الدائم لنفسه.

ولا يمكن أن تكون السعادة واحدة بالنسبة لجميع الكائنات والجنس البشري؛ لا يمكن أن تؤثر الملذات ذاتها على البشر الذين يختلف تقريرهم لها ويتنوع تعديلهم. وهذا بلا شك، هو السبب الحقيقي الذي يجعل العدد الأكبر من الفلاسفة الأخلاقيين ينسجمون قليلاً جداً مع تلك الأشياء التي جعلوا سعادة الإنسان متضمنة فيها، وكذلك الوسائل التي يمكن من خلالها الحصول عليها. ومع ذلك يبدو أنَّ السعادة بشكلٍ عام سواء كانت مؤقتة أو دائمة، هي حالة يرضخ إليها الإنسان بسهولة؛ لأنَّه يجدها متوافقة مع كيانه. وتنتج هذه الحالة عن الاتفاق الموجود بينه وبين تلك الظروف التي وضِع فيها بطبيعته أو إذا كانت مفضلة، فإنَّ السعادة هي انسجام الإنسان مع ما يحفزه من أسباب.

ولا تعتمد الأفكار التي يشكّلها الإنسان لنفسه عن السعادة على مزاجه فقط وعلى تكوينه الفردي، بل أيضاً على العادات التي تناغمَ معها. وتكون العادة عند الإنسان نمطاً من الوجود – التفكير – ومن الفعل، الذي تتناغم فيه أعضائه، سواء الداخلية أو الخارجية، من خلال التكرار الدائم للحركة ذاتها، ومن هنا تنتج ملكة أداء هذه الأعمال بسرعةٍ وبراعة.

وعندما نأخذ المادة بالاعتبار، سوف يتبين أنَّ سلوك الإنسان كلّه تقريباً، ونظام أفعاله بالكامل، ومشاغله، وعلاقاته، ودراساته، وملهياته، وأعرافه، وعاداته، وملابسه ذاتها، وحتى طعامه ناجمة عن العادة. ويدين بالقدر ذاته إلى العادة بالبراعة التي يمارسُ بها ملكاته العقلية من تفكير، وحكم، وذكاء، وعقل، وذوق، وإلخ. ويرجع إلى العادة الجزء الأكبر من ميوله، ورغباته، وآرائه، وتحيزاته، والأفكار التي يكونها لنفسه عن رفاهيته سواء كانت صحيحة أم خاطئة. وباختصار، إنَّها العادة المكرسة بمرور الوقت، التي يُرجع إليها تلك الأخطاء في كلّ شيء يسعى إليه بتهوره، ويمنعه من تحرير نفسه. والعادة هي من يربطه بالفضيلة أو الرذيلة.(53)

ويتعدل الإنسان كثيراً عن طريق العادة، التي تندمج مع التكرار بطبيعته، من هنا تنتج، كما سنرى حالياً، تلك الآراء أو الأفكار التي وصفها بالفطرية؛ لأنه لم يكن راغباً في العودة إلى المصدر الذي انبثقت منه، والذي حدده، إذا جاز التعبير، بدماغه. ومع ذلك ربما يتمسّك بقوةٍ كبيرة بالارتباط بكلّ تلك الأشياء التي اعتادَ عليها، ويعاني عقله من نوعٍ من العنف أو الاشمئزاز المزعج عند سعيه إلى تغيير مسار أفكاره، وغالباً ما يُعيده الميل المحتم إلى المسار القديم على الرغم من العقل.

ويمكن من خلال آلية محضة شرح مظاهر العادة البدنية والأخلاقية على حدٍ سواء، ويتم تعديل النفس بغض النظر عن روحانيتها المزعومة، بالطريقة ذاتها تماماً كالجسد. وتجعل العادة أعضاء الإنسان الصوتية تتعلم طريقة التعبير بسرعة عن الأفكار المرسلة إلى دماغه عن طريق حركة معينة، ويكتسب لسانه خلال طفولته قوة التنفيذ بسهولة، وما إنْ اعتاد لسانه على أن يتحرك بطريقة معينة، يجد صعوبةً كبيرة في أن يتحرك بعد وضع آخر؛ فالحلق يستسلم بصعوبة لتلك التغيرات في مقام الصوت التي تفرضها لغة مغايرة للغة التي اعتاد عليها. وينطبق الشيء ذاته على أفكاره، فدماغه؛ أيّ عضوه الداخلي ونفسه، معتاداً على طريقة معينة من التعديل، ومعتاداً على ربط أفكار معينة بمواضيع معينة، طالما استُخدمت لتشكّل بحدّ ذاتها نظاماً مرتبطاً بآراء معينة، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، ويشعر بألم كلما تعهد بإعطائها تنبيهاً جديداً أو تغيير اتجاه حركتها المعتادة. ويكاد يكون من الصعب جعله يغير آرائه مثل لغته.[54]

هذا هو إذن السبب بلا شك لهذا الارتباط المتين تقريباً الذي يظهره الإنسان بتلك العادات، وتلك التحيزات والمؤسسات التي لا جدوى منها، والتي يثبت له العقل، والخبرة، والحس السليم، عدم الاستفادة منها أو حتى خطورتها. وتتعارض العادة مع أوضح الإثباتات ولا يمكن أن تفيد هذه شيئاً مقابل المشاعر والرذائل التي يرسخها لديه الزمن – ضد أكثر الأنظمة سخافة – ضد أغرب العادات – خاصةً عندما تعلّم أن يعلق عليها أفكار المنفعة – والمصلحة المشتركة – ورفاهية المجتمع. وهذا هو مصدر هذا العناد الذي يظهره الإنسان لأجل دينه – ولأجل الأعراف القديمة – والعادات غير المعقولة – ولأجل القوانين التي يتوافق قليلٌ جداً منها مع العدالة – ولأجل الإساءات التي كثيراً ما تجعله يعاني – لأجل التحيزات التي يعترف أحياناً بعبثيتها، على الرغم من عدم استعداده

للتخلي عنها بنفسه. وهذا هو السبب الذي يجعل الأمم تفكر في المستجدات الأكثر فائدةً باعتبارها ابتكارات مؤذية، وتعتقد أنَّها ستفقد إذا ما عالجت تلك الشرور التي تعلّموا اعتبارها ضرورية لراحتهم، وتعلموا النظر إليها على أنَّها خطيرة.(55)

و(التربية) هي الفن الوحيد الذي جعل الإنسان يتعاقد في بداية حياته؛ أيّ يتبنى عندما تكون أعضائه مرنة للغاية، العادات والأفكار والأنماط الموجودة في المجتمع الذي وُضع فيه. ويتم توظيف اللحظات الأولى من طفولته في جمعِ الخبرة؛ حيث يعلمه أولئك المكلفون برعاية تربيته كيفية تطبيقها، وهم الذين يطورون عقله، وعادةً ما يقرر أول دافع يقدموه له حالته، وعواطفه، والأفكار التي يكوّنها بذاته عن السعادة، والوسائل التي يستخدمها للحصول عليها – عن فضائله ورذائله. ويكتسب الطفل برعاية مدرسيه أفكاراً ويتعلم الربط بينها – أن يفكر بطريقة معينة – أن يحكم بشكلٍ جيد أو سيئ. ويشيرون إليه بأشياءٍ مختلفة، ويعودوه إما على محبتها أو كرهها، والرغبة بها أو الابتعاد عنها، واحترامها أو ازدراءها. وبالتالي تنتقل الأفكار من الآباء والأمهات والمربيات والمدرسين إلى الإنسان منذ طفولته. ومن ثم يتشبع عقله بالحقيقة تدريجياً أو يملأه بالضلال، وكلاهما ينظم سلوكه، فإما أن يجعلاه سعيداً أو بائساً، وفاضلاً أو شريراً، ومحترماً أو بغيضاً. وهكذا يصبح إما راضياً عن مصيرِهِ أو غير راضٍ عنه، بحسب الأشياء التي وجّهت عاطفته، ووهبت الطاقات لعقله؛ أيّ التي ظهرَ اهتمامه بها أو علّمته أن يصنع سعادته، ونتيجة لذلك فهو يحب ويتبع بعد ذلك من علّمه الاحترام، وجعل موضوع بحثه: تلك الأذواق، والميول، والأوهام التي ينغمس بها طوال حياته، ويتوق إلى إشباعها بما يتناسب مع النشاط الذي أثارته فيه، والقدرة التي زودته بها الطبيعة.

ويجب أن تكون (السياسة) فن تنظيم عواطف الإنسان وتوجيهها نحو رفاهية المجتمع، ولكن في كثير من الأحيان، لا يعدو الأمر أكثر من الفن المقيت المتمثل في تجييشِ مشاعر أعضاء المجتمع المختلفين ضد بعضهم البعض، وتدمير بعضهم بعض، وإثارة العداوات الحاقدة المرتبطة بها، والتي يجب أن يستمد منها الإنسان سعادته، إذا ما تمّت إدارتها بشكلٍ صحيح. وعادةً ما يكون المجتمع شريراً للغاية؛ لأنَّه غير مبني على الطبيعة أو الخبرة أو المنفعة العامة، بل على العكس من ذلك، على العواطف والنزوات والمصالح الخاصة بمن يحكمه.

ولكي تكون السياسة مفيدة، يجب أن تعتمد مبادئها على الطبيعة؛ وهذا يعني أن تتوافق مع ماهية الإنسان ومع الغاية الكبرى للمجتمع، ذلك أنَّ كيان المجتمع ككل، والمكون من اتحادِ عددٍ كبير من العائلات أو الأفراد، يتركب من مبدأ المعاملة بالمثل؛ ولذلك قد يرضون بمزيدٍ من التسهيل لرغباتهم المتبادلة، ويحصلون على المزايا التي يرغبون فيها، وحتى يتمكنوا من الحصول على عونٍ متبادل، قد يكتسبوا في البداية ملكةَ التمتع بتأمين المزايا التي قد توفرها لهم الطبيعة والصناعة؛ ويترتب على ذلك بالطبع، أنَّ من واجب السياسة، التي تهدف إلى الحفاظ على المجتمع، أن تتدخل في آراءه، وتسهّل الوسائل التي تمنحها له، وتزيل بجدارة كلّ تلك العوائق التي تنحو ضد نية الإنسان في الاقتران بجماعة ما.

وعندما يتقرب الإنسان من أخيه الإنسان للعيش معه في المجتمع، يكون قد قطع عهداً إما رسمياً أو ضمنياً، يلتزم بموجبه بتقديم خدمات متبادلة، وألا يفعل ما يمكن أن يضرّ بجاره. ولكن بما أنَّ طبيعة كلّ فرد تدفعه باستمرارٍ إلى السعي وراء رفاهيته التي أخطأ في اعتبار أنَّها تكمن في إشباع عواطفه، والانغماس في نزواته العابرة، من دون أيّ اعتبارٍ لراحة أقرانه، كانت هناك حاجة إلى قوة ترجعه إلى واجبه، وإلزامه بالتوفيق بين التزاماته، وتذكيره بالارتباطات التي كثيراً ما تجعله عواطفه ينساها بسرعة. وهذه القوة هي (القانون)، وهو المجموع الكلي لإرادة المجتمع الذي أُعيدَ توحيده لإصلاح سلوك أعضائه، وتوجيه عملهم بطريقةٍ قد تتفق مع الغاية الكبرى لجماعاتهم.

ولكن بما أنَّ المجتمع لا يمكن أن يتركب إلا بصعوبةٍ كبيرة وخاصةً عندما يكون عدده كبير جداً، فهو ملزمٌ من دون أن تكشف الاضطرابات عن مقاصده باختيار المواطنين الذين يثق بهم؛ والذين يترجمون إرادته؛ ويشكلون أولئك المؤتمنين على السلطة اللازمة لتنفيذه. وهذا هو أصل كلّ (حكومة)، والتي لا يمكن أن تكون شرعية إلا بتأسيسها على القبولِ الحر للمجتمع – ومن دونها يكون العنف والاغتصاب والسرقة. وأولئك المكلفون برعاية الحكم، يطلقون على أنفسهم اسم ذو السيادة، والرؤساء، والمشرّعين، بحسب الشكل الذي يرغب المجتمع بمنحه لحكومته، ويُطلق على ذو السيادة اسم الملوك، والقضاة، والنواب، وما إلى ذلك. وتستعير الحكومة سلطتها من المجتمع وحده، وكونها ليست مؤسسة على غرضٍ آخر غير رفاهيتها، فمن الواضح أنَّ المجتمع يمكنه إلغاء هذه

السلطة متى كانت مصلحته تفرض - تغيير شكل حكومته - توسيع أو تقييد السلطة التي عهدَ بها إلى رؤسائه، الذين يقع على عاتقهم بموجب قوانين الطبيعة الثابتة، الحفاظ دائماً على سلطة عليا؛ لأنَّ هذه القوانين تنص على أن يظل الجزء خاضعاً للكل.

وهكذا فإنَّ أصحاب السيادة هم كهنة المجتمع — المترجمين له — المؤتمنين إلى حدٍ ما على جزء من سلطته، لكنهم ليسوا سادةً مطلقين، ولا هم مالكين للأمم. وبموجب ميثاق صريحٍ أو ضمني، يلتزمون بمراقبة الحفاظ على المجتمع، والانشغال برفاهيته؛ وبهذه الشروط يوافق المجتمع على طاعتهم. ويكون ثمن الطاعة هو الحماية.[56] ولكن لم يكن هناك أيّ مجتمعٍ على وجه الأرض مستعداً أو مؤهلاً لأنْ يمنح زعماءه على نحوٍ لا رجعة فيه حق إلحاق الأذى به. وستُلغي الطبيعة مثل هذا الاتفاق؛ لأنَّها تريد أن يتجه كلّ مجتمع مثل كلّ فرد من الجنس البشري إلى الحفاظ عليها؛ ولا يمتلك بالتالي القدرة على الموافقة على بؤسه الدائم. ولكي تكون القوانين عادلة، يجب أن تكون دائماً من أجل المصلحة العامة للمجتمع؛ وهذا يعني أن تضمن لأكبر عدد من المواطنين تلك المزايا التي ارتبط بها الإنسان في الأساس. وهذه المزايا هي (الحرية والملكية والأمن).

وتمثل (الحرية)، بالنسبة للإنسان، القدرة على العمل من أجل سعادته الخاصة، وكلّ ما لا يضر أو يقلل من سعادة جماعته، ويتخلى كلّ فرد عند ارتباطه بها عن ممارسة جزءٍ من حريته الطبيعية، والتي من الممكن أن تمسّ أو تضر بحرية أقرانه. وتُسمى ممارسة تلك الحرية التي تضر المجتمع بـ(الاستهتار). أما (الملكية) فهي القدرة على التمتع بتلك المزايا التي تنبع من العمل — تلك الفوائد التي جنتها الصناعة أو الموهبة لكلّ عضو في المجتمع. و(الأمن) هو بالتأكيد ما يجب أن يتمتع به كلّ فرد، بشخصه وملكيته، بحماية القوانين، طالما أنَّه يؤدي التزاماته أمام المجتمع بأمانة. ويضمن (العدل) لجميع أعضاء المجتمع حيازة الامتيازات أو الحقوق التي تخصهم. ويتضح من هذا أنَّ المجتمع من دون عدالة، لا يكون في وضعٍ يسمح له بالحصول على سعادة أيّ إنسان. ويُطلق على العدالة أيضاً اسم (الإنصاف)؛ لأنَّها ترجع بمساعدة القوانين التي وضِعتْ بأمرِ الكل، جميع أعضائها إلى حالة من المساواة؛ أي أنَّها تمنعهم من أن يتغلب أحدهم على الآخر بسبب عدم المساواة التي قد تخلقها الطبيعة أو الصناعة بين سلطاتهم الخاصة. أما (الحقوق) فهي كلّ ما يتيح به المجتمع، بموجب قوانين منصفة، لكلّ فرد أن يعمل من أجل سعادته الخاصة. ومن

الواضح أنَّ هذه الحقوق مقيّدة بغايةٍ ثابتة لكلّ الجماعات؛ فالمجتمع يمتلك من جانبه حقوقاً على جميع أعضائه، بفضل المزايا التي يوفرها لهم، ويحقُّ لجميع أعضائه بدورهم أن يطالبوا المجتمع أو يضمنوا من كهنته تلك المزايا في سبيل الوصول إلى ما اتفقوا عليه، والتخلي عن جزءٍ من حريتهم الطبيعية. ومن الواضح أنَّ المجتمع الذي لا يوفر فيه رؤساءه بمساعدة القوانين، أيّ خير لأعضائه، يفقد حقه عليهم ويفقد هؤلاء الزعماء الذين يضرون بالمجتمع حق القيادة. وليست بلادنا تلك التي لا تضمن رفاهية سكانها، ولا يحتوي مجتمعٌ بلا مساواة سوى على أعداء؛ فالمجتمع المضطهد لا يحتوي إلا على الطغاة والعبيد، وأولئك غير قادرين على أن يكونوا مواطنين؛ ذلك أنَّ الحرية - الملكية - الأمن هي التي تجعل بلادنا عزيزة علينا؛ فالحب الحقيقي لوطنه هو الذي يصنع مفهوم المواطن.(57)

وبسبب عدم وجود معرفة مناسبة بهذه الحقائق أو لعدم تطبيقها عندما تكون معروفة، أصبحت بعض الأمم غير سعيدة - لم تحوِ سوى كومة خسيسة من العبيد، منفصلة عن بعضها البعض، ومنفصلة عن المجتمع الذي لا يوفر لأيّ منهم أيّ خير ولا يؤمّن لهم أيّ ميزة. ونتيجة لغبن بعض الأمم، أو الحرفة، والدهاء، وعنف أولئك الذين أسندوا إليهم سلطة سن القوانين، وتنفيذها، جعل أسيادها من أنفسهم سادة المجتمع المطلق. وهؤلاء مخطئون بشأن المصدر الحقيقي لسلطتهم، ويدّعون أنَّهم امتلكوها من السماء؛ ليكونوا مسؤولين عن أفعالهم أمام الله وحده، ولا يدينون بشيءٍ للمجتمع، وبعبارة أخرى، أنَّهم آلهة على الأرض، ويمتلكون الحق في الحكم بشكلٍ تعسفي، مثل الله أو الآلهة السماوية. ومن هنا أصبحت السياسة فاسدة، وكانوا محطاً للسخرية فحسب. ولم تجرؤ هذه الأمم التي تعرضت للعار والازدراء على مقاومة إرادة رؤسائها - لم تكن قوانينها سوى تعبيراً عن نزوة هؤلاء الرؤساء، الذين تضحوا بالرفاهية العامة لمصالحهم الخاصة - انقلبت قوة المجتمع ضد نفسها - انسحب أعضاؤه ليرتبطوا بظالميهم ومن طغى عليهم؛ وهؤلاء بإغوائهم، سمحوا لهم بإيذائه مع الإفلات من العقاب، والاستفادة من مصائبه. وهكذا استُبعدت الحرية والعدالة والأمن والفضيلة من العديد من الأمم - لم تعد السياسة أكثر من فن الاستفادة من قوى الشعب ومن كنز المجتمع، وتقسيمه بحسب الموضوع الذي يخص مصلحته لكي تخضعه من تلقاء ذاته، وجعلتهم العادة الغبية والميكانيكية

يحبون دائماً قيودهم. وعندما لا يكون لدى الإنسان ما يخشاه يصبح شريراً على نحوٍ مؤقت، ومنْ يعتقد أنَّه لا علاقة له بقرينه، يقنع نفسه أنَّه قد يتَّبع ميول قلبه من دون حذرٍ أو حيطة. وبالتالي فإنَّ الخوف هو العقبةُ الوحيدة التي يمكن للمجتمع أن يتصدى لها بشكلٍ فعال أمام اهتمامات رؤسائه، وبدونه سوف يفسدون بسرعة، ولن يترددوا في الاستفادة من الوسائل التي وضعها المجتمع في أيديهم لجعلهم شركاءَ في إثمهم. ولمنع هذه الانتهاكات، من الضروري أنْ يضع المجتمع حدوداً لثقته؛ ينبغي أن يحدّ من السلطة التي يفوضها لرؤسائه، وعليه أن يحتفظ لنفسه بجزءٍ كافٍ من السلطة لمنعهم من إلحاق الضرر به، وأن يجري اختبارات حكيمة، ويجب أن يقسّم بحذرٍ السلطات التي يمنحها؛ ولكونه متّحداً فسيكون معصوماً عن الخطأ. وسيؤدي أدنى تفكير إلى جعل البشر يشعرون أنَّ عبء الحكم ثقيلاً جداً بحيث لا يتحمله الفرد – وأنَّ نطاق واجباته المتعددة يجب أن تجعله مهملاً دائماً – أنَّ نطاق سلطته يمتلك دائماً ميلاً لإلحاق الأذى به. وباختصار، ستقنع خبرة جميع الأجيال الأمم بأنَّ الإنسان يتعرض باستمرار لإساءة السلطة، وبالتالي يجب أن يخضع صاحب السيادة للقانون، وليس القانون لصاحب السيادة.

وللحكومة بالضرورة تأثيرٌ على الفلسفة وعلى أخلاقيات الأمم على حد سواء. وبالطريقة ذاتها التي ينتج عنها عند رعايتها العمل والنشاط والوفرة والرفاهية والعدالة، يؤدي إهمالها إلى البطالة والكسل والإحباط والفقر والعدوى والظلم والرذائل والجرائم. ويعتمد الأمرُ على الحكومة سواء من حيث رعاية الصناعة أو إنضاج العبقرية، وإطلاق المواهب أو خنقها. والحكومة في الواقع، هي موزعُ الكرامات والثروات والمكافآت والعقوبات – سيدة تلك الأشياء التي تعلّم الإنسان أن يصنع منها سعادته منذ طفولته – تكتسب تأثيراً ضرورياً على سلوكه، وتوقد عواطفه، فتمنحه التوجيه، وتجعله فعالاً أياً كان الهدف الذي تنشده، وتعدّله؛ تحدد أخلاقه، وهي عند شعب بأكمله، كما هو الحال عند الفرد، ليست أكثر من سلوكٍ أو نظام عام للإرادات والأفعال التي تنتج بالضرورة عن تعليمه، وحكومته، وقوانينه، وآرائه الدينية، ومؤسساته، سواء كانت عقلانية أو غير عقلانية. وباختصار، الأخلاق هي عادات الناس، وهذه تكون جيدة عندما يستمد المجتمع منها سعادةً حقيقية وراسخة، وتكون مكروهة من منظور العقل، عندما لا تنبثق عنها سعادة المجتمع، وعندما لا يكون لديهم ما هو بمصلحتهم سوى حق الاقتراع أو

تشجيع التحيز الذي نادراً ما يستشير الخبرة والحسَ السليم. وإذا استُشيرت الخبرة، فسوف يتبين أنَّه لا يوجد عمل مهما كان بغيضاً، لم يلقَ استحساناً عند بعض الناس. ومثال ذلك قتل الأبوين – التضحية بالأطفال – السرقة – الاغتصاب – القسوة – التعصب – الدعارة، كلّها بدورها أفعالاً مسموحاً بها، واعتُبرت أفعالاً جديرة بالثناء وجديرة بالتقدير عند بعض الأمم على الأرض. وكرّس الدين بادئ الأمر أكثر العادات غير المعقولة والأكثر إثارة للاشمئزاز.

إنَّ اعتماد عواطف الإنسان على حركة الجذب والتنافر التي تجعله الطبيعة يتأثر بها، تمكّنه، بفضل ماهيته الخاصة، من الانجذاب إلى تلك الأشياء التي تبدو مفيدةً له، ونبذ تلك التي يعتبرها ضارة. ويترتب على ذلك أنَّ الحكومة، لديها القدرة على تقييدهم من خلال امتلاكها قوة الجذب أو منحهم اتجاهاً إيجابياً أو غير مواتٍ. وتكون كلّ عواطفه مقيدة باستمرار بالحب أو الكراهية – سعي أو تجنب – رغبةً أو خوف. وتنجم هذه العواطف الضرورية جداً للحفاظ على الإنسان عن منظومته، وتكشف بحد ذاتها عن طاقتها إلى حدٍ ما وفقاً لمزاجه، وتطورها التربية والعادة، وتوجهها الحكومة نحو تلك الأشياء التي تعتقد أنَّها مهمة لجعلها مرغوبة عند رعاياها. وترتبط الأسماء المختلفة التي أُعطيت لهذه العواطف بالأشياء المختلفة التي تثيرها، مثل اللذة – العظمة – الثروات التي تنتج الشهوانية – الطموح – الغرور – الجشع. وإذا فُحصَ مصدر تلك العواطف السائدة عند الأمم بعناية، فسيتم العثور عليها عموماً عند حكوماتها. والدافع الذي يتلقوه من رؤسائهم يجعلهم في بعض الأحيان محاربين – أحياناً يؤمنون بالخرافات – أحياناً يطمحون وراء المجد – أحياناً الجشع في السعي وراء الثروة – أحياناً عقلانيين – أحياناً غير عقلانيين. وإذا كان أصحاب السيادة يوظفون من أجل تنوير وإسعاد نفوذهم، عُشر النفقات الهائلة التي يبذلونها، وجزءاً فقط من الآلام التي يستخدمونها لإغوائهم – وخداعهم – وإلحاق الأذى بهم، فسيكون رعاياهم في الوقت الحاضر حكماء وسعداء، كما هو الحال الآن؛ لكونهم عميان وجاهلين وبائسين.

فلنتخلى عن المشروع الباطل في نزعِ العواطف من قلب الإنسان، ولنبذل جهداً لتوجيهه نحو الأشياء التي قد تكون مفيدة له ولجماعاته. دعْ التربية، والحكومة، والقوانين، تعوّدهُ على كبح جُماح عواطفه ضمن تلك الحدود التي تفرضها التجربة والعقل وحدهما.

وليكن للطموحين أوسمةً وألقاباً وامتيازات وسلطة عندما يخدمون بلادهم بشكلٍ مفيد، ولتُعطى الثروات لمن يطمع بهم عندما يتوجب عليهم جعل أنفسهم ضروريين لمواطنيهم، ودع كلمات التأبين تشجع أولئك الذين سيحفزهم حب المجد. وباختصار، اترك لعواطف الإنسان مساراً حراً، متى نتج عن ممارستها مزايا حقيقية ودائمة للمجتمع. ولتوقد التربية فقط ما هو مفيد حقاً للجنس البشري، ودعها تفضل فقط أولئك الذين هم ضروريون حقاً للحفاظ على المجتمع. وتكون عواطف الإنسان خطيرة فقط بسبب تضافر جميع الأشياء التي تعطيها اتجاهاً شريراً.

ولا تجعل الطبيعة الإنسان صالحاً أو طالحاً؛[58] بل تجمع بين آلات نشطة إلى حدٍ ما، ومتحركة وحيوية وتزوده بالأعضاء، ومزاجه، وينجم عنها بالضرورة عواطفه المتهورة إلى حدٍ ما، وتسعده هذه العواطف دائماً بحسب موضوعها؛ لذلك فهي مشروعة وطبيعية، ولا يمكن وصفها بالشر أو الخير، إلا بحسب تأثيرها على أفراد جنسه. وتمنح الطبيعة الإنسان أرجل مناسبة لتحمل وزنه، وضرورية لنقله من مكانٍ إلى آخر، وتقوى برعاية أولئك الذين يربونه، ويعودوه على الاستفادة منها بطريقةٍ جيدة أو سيئة. ولا يكون الذراع الذي أخذه من الطبيعة خيراً أو شريراً بحد ذاته؛ فهو ضروري لعددٍ كبير من أعمال الحياة، ومع ذلك، يصبح استخدام هذه الذراع جانياً إذا اعتاد على استخدامه في السرقة أو الاغتيال، بهدف الحصول على المال الذي تعلم الرغبة به منذ طفولته، ويجعله المجتمع الذي يعيش فيه ضرورياً بالنسبة له، ولكن صناعته ستمكنه من الحصول عليه من دون الإضرار بأخيه الإنسان.

وقلب الإنسان هو التربة التي جعلتها الطبيعة مناسبة لإنتاج العُليق أو الحبوب المفيدة على حدٍ سواء — ويكون السم ضاراً أو الفاكهة منعشة بحسب البذور التي زُرعت بموجبها – بفضل الرعاية التي نعّم بها. ويشير إلى هذه الأشياء منذ طفولته بتقدّيرها أو ازدرائها — يسعى إليها أو يتجنبها – يحبها أو يكرهها. ويجعله والديه ومعلموه إما فاضلاً أو شريراً – حكيماً أو غير عاقل – مجتهداً أو مشتتاً – رصيناً أو تافهاً – متيناً أو مبتذلاً. ويغيّره نموذجهم وخطابهم طوال حياته، ويعلمونه ما هي الأشياء التي يجب أن يرغب فيها أو يتجنبها، ونتيجة لذلك، يرغب بها ويفرض على نفسه مهمة الحصول عليها بحسب طاقة مزاجه الذي يحدد دائماً قوة عواطفه. وهكذا تمنحه التربية، من خلال إلهامه بآراء وأفكار

سواء كانت صحيحة أو خاطئة، تلك الدوافع البدائية التي يتصرف بموجبها بطريقة مفيدة أو ضارة، سواء بالنسبة له أو للآخرين. فالإنسان لا يجلب معه عند ولادته إلى العالم سوى ضرورة الحفاظ على نفسه وإسعاد وجوده، ويقدم له التعليم، والقدوة، وتقاليد العالم، الوسائل الحقيقية أو الخيالية لتحقيق ذلك، حيث توفر العادة له سهولة استخدام هذه الوسائل، ويرتبط بقوةٍ بمن يحكم عليهم على أفضل وجه أنّهم من يضمن له امتلاك تلك الأشياء التي تعلّم أن يرغب فيها باعتبارها الخير المفضل المرتبط بوجوده. ومهما كانت تربيته، والنماذج التي قُدمت له، والوسائل التي أتيحت له، معتمدةً على العقل وناجمة عن الخبرة، فإنَّ كلّ شيء متفق على جعله فاضلاً. وتقوي العادة لديه هذه الميول، ويصبح نتيجةً لذلك عضواً مفيداً في المجتمع، ولصالح جميع الأشياء التي يجب أن تثبت له أنَّ رفاهه الدائم هو الحليف بالضرورة. وإذا كانت تربيته مغايرة لذلك – مؤسساته – النماذج المعروضة أمامه – الآراء التي تُقترح عليه منذ طفولته، ومن طبيعة تُظهر لذهنه أنَّ الفضيلة عديمة الجدوى وبغيضة، والرذيلة مفيدة ومتوافقة مع سعادته الفردية، فسيصبح فاسداً، وسوف يعتقد أنَّه مهتم بإيذاءِ المجتمع؛ وسيجرفه التيار العام، وسوف يتخلى عن الفضيلة التي لن تكون بالنسبة له أكثر من صنمٍ باطل، ومن دون عوامل جذبٍ تدفعه إلى اتباعها، ومن دون مفاتن تغري عشقه لها؛ لأنَّها ستُظهر أنَّه يجب أن يضحى عند ضريحه بكلّ تلك الأشياء التي تعلّم اعتبارها باستمرار على أنَّها أعز ما يملك وأنَّها فوائد أكثر استحساناً.

ولكي يصبح الإنسان فاضلاً، من الضروري تماماً أن تكون له مصلحة أو أن يجد مزايا في ممارسة الفضيلة. ولهذه الغاية، من الضروري أن تزرع فيه التربية أفكاراً معقولة، ويجب أن ينحو بها الرأي العام إلى الفضيلة باعتبارها أكثر خير مرغوبٍ فيه، وكان لابدّ من الإشارة إلى هذا النموذج على أنَّه شيء يستحق التقدير، وكان لابدّ من مكافئة الحكومة بإخلاص، وكان لابدّ من أن يصاحب هذا الشرف دائماً ممارسته، وكان لابدّ من ازدراء هذه الرذيلة والجريمة ومعاقبتهم على الدوام. ولكن هل الفضيلة على هذا النحو عند البشر؟ وهل يغرسُ تعليم الإنسان فيه أفكاراً عن السعادة؛ ومفاهيم صحيحة عن الفضيلة، وتصرفات مواتية حقاً للكائنات التي يعيش معها؟ وهل النماذج المنتشرة قبله مناسبة لتبرئة الأعراف؟ وهل يُعتقد أنَّها تجعله يحترم الحشمة – تجعله يحب الاستقامة – يمارس الصدق – يقدّر حسن النية – يقدّر الإنصاف – ويحترم الولاء الزوجي – ويراعي الدقة في أداء

واجباته؟ وهل يجعله الدين الذي يدّعي أنّه وحده ينظم أعرافه اجتماعياً – هل يجعله مسالماً – هل يعلّمه أن يكون بشراً؟ وهل حكام المجتمع مخلصون في إثابة من خدم وطنهم أفضل، وفي معاقبة من نهبه وقسّمه وخربه؟ وهل تحمل العدالة موازينها بكفة متساوية بين جميع مواطني الدولة؟ ألا تدعم القوانين القوي ضد الضعيف، وتفضل الغني على الفقير، وتؤيّد السعادة على البؤس؟ وباختصار، أليس مشهداً غير مألوف أنْ نرى الجريمة مبررة في كثيرٍ من الأحيان أو تتوّج بالنجاح، وتنتصر بوقاحة على تلك الميزة التي تحتقرها، وعلى تلك الفضيلة التي تسيء إليها؟ حسناً، لا يمكن سماع الفضيلة إذن عند المجتمعات التي تشكّلت على هذا النحو، إلا من قبل عدد قليل جداً من المواطنين المسالمين الذين يعرفون كيفية تقدير قيمتها، والذين يتمتعون بها في الخفاء. وهي بالنسبة للآخرين، مجردُ شيء مثيراً للاشمئزاز؛ لأنّهم لا يرون فيها سوى العدو المفترض لسعادتهم أو المسؤولة عن سلوكهم الفردي. وإذا كان الإنسان مضطراً، بحسب طبيعته إلى الرغبة في رفاهيته، فهو ملزمٌ بالقدر ذاته بالاعتزاز بالوسائل التي يعتقد أنَّ الحصول عليها لن يكون مفيداً، وربما من الظلم أن نطالب الإنسان بأن يكون فاضلاً، إذ لا يمكن أن يكون كذلك من دون أن يجعل نفسه بائساً. وكلّما كان يعتقد أنَّ الرذيلة تجعله سعيداً، وعليه بالضرورة أن يحب الرذيلة؛ كلّما نظر إلى عدم المنفعة أو الجريمة على أنّها مكافأةٌ وتكريماً، وما الفائدة التي سيجنيها عند انشغاله بسعادة أقرانه، أو كبح جُماح عواطفه؟ حسناً، كلّما كان عقله مشبعاً بالأفكار الخاطئة والآراء الخطيرة، فهذا يعني بالطبع أنَّ سلوكه بالكامل لن يكون سوى سلسلة طويلة من الأخطاء، وسلسلة من الأفعال الفاسدة.

نعلم أنَّ البرابرة، من أجل تسطيح رؤوس أطفالهم، يضغطون عليها بين لوحين، مما يمنعهم من أن يتخذوا لها الشكل الذي صممته الطبيعة لهم. وهي لعبةٌ بارعة تقريباً بين مؤسسات الإنسان التي تتعاون عادةً لمواجهة الطبيعة – وتقيّد – وتحوّل – وتمحو الدافع الذي أعطته إياه الطبيعة، ليحل محل الآخرين الذين هم مصدراً لكلّ مصائبه. ويكون الإنسان محروماً من الحقيقة عند جميع بلدان الأرض تقريباً، ويتغذى على الأكاذيب، ويستمتع بالأوهام الرائعة، ويُعامل مثل هؤلاء الأطفال الذين تُلف أعضاؤهم برعاية مربياتهم المتهورات، بشباكٍ صغيرة مربوطة بكرات تحرمهم من الاستخدام الحر لأطرافهم، وتعوق نموهم وتحرمهم من نشاطهم وتعارض صحتهم.

ولا يكون هدف معظم الآراء الدينية عند الإنسان سوى إظهار سعادته الفائقة في تلك الأوهام التي تؤجج عواطفه، ولكن بما أنَّه لا يمكن النظر إلى الأطياف التي تُعرض لخياله في الوضوح ذاته من قبل كلّ من يفكر بها، لذلك فهو في نزاع دائم مع ما يتعلق بهذه الأهداف؛ يكره جاره ويضطهدهُ – ويضطهدهُ جاره بدوره – يؤمن أنَّ ما يفعله حسنٌ، وأنَّه عندما يرتكب أكبر الجرائم للحفاظ على آرائه فهو يتصرف بشكلٍ صحيح. وهكذا فإنَّ الدين يفتن الإنسان منذ طفولته، ويملأه بالغرور والتعصب، وإذا كان لديه خيالٌ متقد، فذلك يدفعه إلى الغضب الشديد، وإذا كان لديه نشاط، فذلك يجعله مجنوناً، وغالباً ما يكون قاسياً على نفسه، ويكون أيضاً خطيراً وغير مريح للآخرين، وعلى العكس من ذلك، إذا كان بليداً أو معتاداً على الكسل، فإنَّه يصبح حزيناً وغير نافع للمجتمع.

ويقدّم الرأي العام في كلّ لحظة لتفكير الإنسان أفكاراً خاطئة عن الشرف ومفاهيم خاطئة عن المجد، ويربط تقديره ليس فقط بالمزايا العبثية، بل أيضاً بالأفعال المؤذية والضارة التي يصرّح بها القدوة – التي يكرسها التحيز – تمنعه العادة من النظر إليها باشمئزاز، ومن رؤية الرعب الذي تثيره. وتعرّف العادة عقله بالفعل بالأفكار الأكثر سخافةً – التقاليد الأكثر تهوراً – والأفعال التي يقع عليها اللوم أكثر – والتحيزات الأكثر تعارضاً مع مصالحه الخاصة، والأكثر ضرراً للمجتمع الذي يعيش فيه. ولا يجد شيئاً غريباً، ولا شيئاً منفرداً، ولا شيئاً حقيراً، ولا شيئاً مثيراً للسخرية، إلا تلك الآراء والأشياء التي لم يعتدْ عليها هو نفسه. وهناك بُلدان تبدو فيها الأعمال الجديرة أكثر بالثناء موضع لوم شديد ومثيرة للسخرية للغاية، في حين تمرر أبشع الأعمال وأكثرها شيطانية بأمانةٍ شديدة وعقلانية تامة.(59)

وتعتقد (السلطة) عموماً أنَّ مهمتها الحفاظ على الآراء التي تتلقاها، ودعم تلك التحيزات والأخطاء التي تعتبرها ضرورية للحفاظ على سلطتها بقوة، وهو أمرٌ غير عقلاني أبداً. إنَّ الأمراء المفعمين بصورٍ خادعة عن السعادة، ومفاهيم خاطئة عن السلطة؛ وآراء خاطئة عن العظمة، وأفكاراً زائفة عن المجد، محاطون بحاشية ممتنين ومهتمين بمواكبة أوهام أسيادهم، وقد اكتسب هؤلاء البشر التافهين فكرةً عن الفضيلة فقط لانتهاكها، ويفسدون تدريجياً هؤلاء الناس ليصبحوا منحرفين، ويعبرون أنفسهم إلى فجورهم، والديوث إلى رذائل العظماء، ويجعلوا بعد ذلك ميزة تقليدهم في مخالفاتم. والمحكمة هي المحور الحقيقي لفساد الناس.

وهذا هو المصدر الحقيقي للشر الأخلاقي الذي تتضافر فيه بالتالي جميع الأشياء على جعل الإنسان شريراً، ومنحه دافعاً مقدراً له، ومن هنا تنتج الفوضى العامة في المجتمع الذي يصبح تعيساً نتيجة بؤس كلّ عضوٍ من أعضائه تقريباً. وتشغيل القوى الدافعة الأقوى لإلهام الإنسان بالشغف للأشياء غير الجدية أو اللامبالية التي تجعله يشكّل خطراً على أخيه الإنسان من خلال الوسائل التي يضطر لاستخدامها من أجل الحصول عليها. ويمنعه أولئك الذين يتولون مسؤولية توجيه خطواته، إما المحتالون بحد ذاتهم أو المخدوعين بتحيزاتهم، من الاستماع إلى العقل، ويجعلون الحقيقة تبدو خطرة بالنسبة له، ويظهرون أنّ الخطأ ضروري لرفاهيته، ليس فقط في هذا العالم ولكن في العالم الآخر. وبعبارة أخرى تربطه العادة بشدة بآرائه غير المنطقية - بميوله المحفوفة بالمخاطر - بشغفه الأعمى بالأشياء سواء كانت عديمة الفائدة أو خطيرة. وهذا هو السبب في أنَّ الإنسان يجد نفسه في أغلب الأحيان مصمماً بالضرورة على الشر؛ السبب الذي يجعل الأهواء المتأصلة في طبيعته والضرورية للحفاظ عليه، تصبح أدوات لهلاكه، ولعنةً على ذلك المجتمع الذي يتوجب عليهم الحفاظ عليه. وهنا يكمن السبب إذن في تحول المجتمع إلى حالة حرب، والسبب في جعله لا يفعل شيئاً سوى تجميع الأعداء الذين يحسدون بعضهم البعض ويتنافسون دائماً للحصول على الجائزة. وإذا وجدَ بعض الفاضلون في هذه المجتمعات، فيجب البحث عنهم في عددٍ صغير جداً من أولئك الذين ولدوا بمزاج بارد ولديهم عواطف معتدلة، وبالتالي لا يرغبون على الإطلاق أو يرغبون قليلاً بتلك الأشياء التي تشغلُ بها جماعاتهم دوماً.

وتُحدد طبيعة الإنسان المهذبة بشكلٍ متنوع بناءً على ملكاته المادية والفكرية - وصفاته الأخلاقية والمادية. ويجب أن يكون لدى الإنسان ذو المزاج الدموي والقوي عواطفَ قوية بالضرورة؛ فالذي يتمتع بعادة الحزن والكآبة، سيمتلك بالضرورة عواطف خيالية وكئيبة، وسيمتلك الإنسان غريب الأطوار، وصاحب الخيال المفعم بالحيوية، عواطف مرحة، في حين سيمتلك الإنسان البلغمي، عواطف دمثة أو عواطف ذو درجة قليلة جداً من العنف. ويبدو بناءً على ذلك أنَّ توازن الأمزجة يعتمد على حالة الإنسان الذي يُدعى فاضلاً، والذي يبدو أنَّ مزاجه ناجمٌ عن المركب الذي نوازن فيه بين العناصر أو المبادئ بمثل هذه الدقة، بحيث لا تسود أيّ عاطفة على أخرى أو تُحدث في عضويته

اضطراباً أكثر من جاره. وكما رأينا فإنَّ العادة، تُعدل طبيعة الإنسان، وتوفر هذه الأخير المادة؛ أي التربية والقدوة المحلية والأخلاق الوطنية، وتمنحها شكلاً، وهذه تعمل بحسب مزاجه، وتجعله عقلانياً أو غير عقلاني، ومستنيراً أو غبياً، ومتعصباً أو بطلاً، ومتحمساً للصالح العام أو مجرماً جامحاً، وحكيماً مغرماً بمزايا الفضيلة أو متحرراً منغمساً في كلّ أنواع الرذيلة. وتعتمد كلّ ضروب الإنسان الأخلاقي على تنوعِ أفكاره. والتي يتم ترتيبها وتركيبها في دماغه من خلال تدخل حواسه. ويشكّل مزاجه الناجم عن جواهر مادية، عادات ناجمة عن التعديلات المادية؛ وليست الآراء سواء كانت جيدة أو سيئة، ضارة أو مفيدة، صحيحة أو خاطئة، والتي تتشكل بحد ذاتها في عقله، سوى النتيجة الناجمة عن تلك المنبهات المادية التي يتلقاها الدماغ بوساطة الحواس.

الفصل العاشر
لا تستمد النفس أفكارها من ذاتها، ولا تمتلك أفكاراً فطرية

يكفي ما سبق لإثبات أنَّ العضو الداخلي للإنسان، والذي يُسمى النفس، هو ماديٌ بحت. وسيتمكّن من إقناع نفسه بهذه الحقيقة، وبالطريقة التي يكتسب بها أفكاره من تلك الانطباعات التي تحدثها الأشياء المادية على التوالي على أعضائه، والتي من المسلم بها أنَّها مادية. وقد رأينا أنَّ الملكات التي تُسمى (فكرية)، تُنسب إلى ملكة الشعور، وشرحت الصفات المختلفة لتلك الملكات التي تسمى أخلاقية، بموجب القوانين الضرورية لكلّ عضوية بسيطة: يبقى الآن الرد على أولئك الذين ما زالوا مصرين بعناد على جعل النفس جوهراً متميزاً عن الجسد أو الذين يصرون على منحها ماهيةً متميزة تماماً. ويبدو أنَّهم وجدوا تميزهم بناءً على أنَّ هذا العضو الداخلي لديه القدرة على تحديد أفكاره من ذاته، وسيكون لديهم فكرةٌ عن أنَّ الإنسان يجلب معه عند ولادته إلى العالم أفكاراً أطلقوا عليها وفقاً لهذه الفكرة الرائعة، اسم (الفطرية).(60) وبالتالي اعتقدوا أنَّ للنفس ميزةً خاصة، تربط بين كلّ شيء في الطبيعة، وتتمتع بملكةِ تحريك ذاتها من دون تلقي أيّ تنبيه، وتخلقُ أفكارها بذاتها، وتفكّر في موضوع ما من دون أن تكون عازمة على مثل هذا الفعل من قبل أيّ كائن خارجي، والذي كان ينبغي من خلال تحريك أعضائه أن تزوده بصورة عن موضوعِ أفكارها. ونتيجة لهذه الافتراضات غير المبررة، والتي من الضروري الإفصاح عنها فقط من أجل التأمل، فإنَّ بعض المرتابين المتمكنين للغاية، والذين تفادوا تحيزاتهم الخرافية، وغامروا بالامتداد للتأكيد على أنَّه من دون نموذج، ومن دون نمطٍ أولي تعمل عليه الحواس، تكون النفس مؤهلة لأن تصف بذاتها كلّ الكون وكلّ الكائنات التي يحتويها. وأكد لنا **ديكارت** وتلاميذه أنَّ الجسد لا قيمة له بالمطلق من دون

الإحساسات أو فكرة النفس، وأنَّه يمكن أن يشعر – يمكنه أن يدرك ويفهم ويتذوق ويلمس، حتى وإنْ لم يكن هناك شيء ملموس أو مادي خارج ذواتنا.

ولكن ماذا سيُقال عن بيركلي الذي سعى ليثبت للإنسان أنَّ كلّ شيء في هذا العالم ليس سوى وهمٌ خيالي، وأنَّ الكون لا يوجد في أيّ مكان إلا في داخله، وأنَّه لا هوية له إلا في خياله، والذي جعل وجود كلّ الأشياء معقداً بمساعدة المغالطات التي لا حل لها حتى عند أولئك الذين يحافظون على عقيدة روحانية النفس.(61)

ويؤكدون لتبرير مثل هذه الآراء الوحشية أنَّ الأفكار ليست سوى موضوعات للفكر. لكن لا يمكن وفقاً للتحليل الأخير لهذه الأفكار أن تصل إلى الإنسان إلا من الأشياء الخارجية التي تعطي تنبيهاً لحواسه، وتعدّل دماغه أو من الكائنات المادية الموجودة داخل عضويته، والتي تجعل بعض أجزاء جسده تختبر تلك الإحساسات التي يدركها، وتزوده بالأفكار التي يربطها بأمانة أو بطريقة أخرى بالعلة التي تحركه. وكلّ فكرة تكون معلولة، ولكن قد يكون من الصعب رغم ذلك اللجوء ثانية إلى العلّة، فهل يمكننا أن نفترض أنَّه لا يمكن عزوها إلى علّة؟ وإذا كان بإمكاننا فقط تكوين أفكار عن جواهر مادية، فكيف يمكننا أن نفترض أنَّ أفكارنا يمكن أن تكون غير مادية؟ والقول: إنَّ الإنسان مؤهل لتشكيل أفكار عن الكون، من دون مساعدة الأشياء الخارجية ومن دون تدخل حواسه، هو لتأكيد أنَّ الرجل الأعمى قادر على تكوين فكرة حقيقية عن صورة تمثل حقيقة لم يسمع أحداً يتحدث عنها.

ومن السهل جداً إدراك مصدر تلك الأخطاء التي وقع فيها البشر، إنْ لم تكن عميقة للغاية ونيّرة جداً، متى كانت هناك رغبةٌ في التحدث عن النفس وعملياتها. وقد يضطرون بسبب تحيزاتهم الخاصة أو الخوف من محاربة آراء اللاهوت المتسلط، إلى التصريح بالمبدأ القائل: إنَّ النفس روحاً نقية، وهي جوهرٌ غير مادي، وذات ماهيةٍ مختلفة تماماً عن ماهية الجسد أو عن كلّ ما نعتقده، ولم يرغبوا بتأكيدهم هذا أن يتصوروا الطريقة التي يمكن أن تعمل بها للأشياء المادية أو بأيّ طريقة تمكّنت الأعضاء الجسدية والملموسة من العمل وفق جوهرٍ ليس له أيّ نوع من التناظر معها، وكيف تمكّنت من تعديله عبر إيصال أفكارها، وأدركوا في الوقت ذاته عند استحالة شرح هذه الظاهرة، أنَّ النفس تمتلك أفكاراً

واستنتجوا أنّها تستمدها من ذاتها، وليس من تلك الكينونات العاجزة عن العمل بناءً عليها وفقاً لفرضياتهم الخاصة؛ ولذلك تصوروا أنَّ كلّ تحولات هذه النفس التي نشأت من طاقة خاصة بها، طُبعت عليها منذ تكوينها الأول من قبلِ خالق الطبيعة - كائن غير مادي قائم بذاته؛ وأنَّ هذا لم يعتمد بأيّ طريقة على الكائنات التي لدينا معرفةٌ بها أو التي تؤثر عليها بوساطة حواسنا البارعة.

ومع ذلك يبدو أنَّ بعض الظواهر التي تُعتبر سطحية، تدعم رأي هؤلاء الفلاسفة، وتعلن عن ملكةٍ في النفس البشرية منتجة للأفكار من داخلها، من دون أيّ مساعدةٍ خارجية، وهذه هي الأحلام التي لا يتوقف فيها العضو الداخلي للإنسان والمحروم من أشياء تحركه بوضوح، عن امتلاك أفكارٍ وتعيينها بفاعلية، وتعديلها بطريقة معقولة بما يكفي للتأثير على جسده. ولكن لو تأملنا قليلاً، فسنجد حلاً لهذه المعضلة، وسندرك أنّه حتى أثناء النوم، يُزود دماغه بالعديد من الأفكار التي خزنها في الليل أو في وقت سابق؛ ونُقلت هذه الأفكار إليه عن طريق الأشياء الخارجية والملموسة وتعدلت بواسطته، وسيجد أنَّ هذه التعديلات تتجدد بحد ذاتها، ليس بأيّ حركة تلقائية أو طوعية من جانبها، بل بسلسلة من الحركات اللاإرادية التي تحدث في عضويته، وتجدد أو تثير تلك التي تحفز الدماغ، وتتجدد هذه التعديلات بحدّ ذاتها بأمانةٍ إلى حدٍ ما، وبدرجة من المطابقة إلى حدٍّ ما مع تلك التي اختبرها سابقاً. ويمتلك في الحلم في بعض الأحيان ذاكرةً، ثم يعيد إلى نفسه الأشياء التي صادفها بأمانة؛ وفي أوقات أخرى تتجدد هذه التعديلات من تلقاء ذاتها من دون ترتيب ومن دون ترابط أو بشكلٍ مختلف تماماً عن تلك التي أثارتها الأشياء الحقيقية من قبل في عضوه الداخلي. وإذا كان يعتقد في الحلم أنّه يرى صديقاً، فإنَّ دماغه يجدد فيه التعديلات أو الأفكار التي أثارها هذا الصديق سابقاً، وبالترتيب ذاته الذي رُتبت فيه عندما نظرَ إليه من خلال عينيه حقاً؛ وهذا لا ينجم سوى عن الذاكرة. وإذا تخيّل في حلمه أنّه يرى وحشاً ليس له نموذج في الطبيعة، فإنَّ دماغه يتعدل بالطريقة ذاتها التي كان عليها من خلال الأفكار الخاصة أو المنفصلة التي لا تفعل بعد ذلك سوى تكوين نموذج كامل، فيجمع ويربط بين الأفكار المبعثرة التي حفظها بعد ذلك بطريقة سخيفة في حلمٍ تخيله.

وتنجم تلك الأحلام التي تكون مزعجة أو متهورة أو غريبة الأطوار، أو غير مترابطة، عموماً عن فوضى ما في عضويته؛ مثل عسر الهضم المؤلم، والدم المحموم، والتخمر الضار...الخ. - وتتسبب هذه المواد في إثارة حركة غير منتظمة في جسمه، مما يمنعُ الدماغ من التعديل بالطريقة ذاتها التي كان عليها في اليوم السابق، ونتيجة لهذه الحركة غير المنتظمة يضطربُ الدماغ، ولا يمثل إلا أفكاراً مشوشة تفتقر إلى الترابط. وعندما يعتقد في المنام أنَّه يرى أبو الهول،[62] فإما أنَّه رأى تمثيلاً لشخص ما عندما كان مستيقظاً أو أنَّ الحركة غير المنتظمة للدماغ تجعله يجمع بين الأفكار، ويربط بين الأجزاء التي ينتج عنها الكل من دون نموذج، والذي لم تتشكل أجزائه لتوحده. ويجمع دماغه بعد ذلك رأس المرأة التي لديه فكرة عنها بالفعل مع جسد اللبؤة الذي يمتلك صورةً له أيضاً. وبهذا يعمل رأسه بالطريقة ذاتها التي يعمل بها خياله المضطرب؛ بسبب خللٍ ما في العضو الداخلي، ويرسم له بعض الأشياء على الرغم من أنَّه يقظ. وكثيراً ما يحلم من دون أن ينام: ولا تنتج أحلامه أبداً شيئاً غريباً جداً، بل تشبه إلى حدٍ ما الأشياء التي أثّرت في حواسه مسبقاً أو نقلت الأفكار بالفعل إلى دماغه. وبناءً عليه قام اللاهوتيون الماهرون في أوقاتِ فراغهم وفي ساعات يقظتهم، بتأليف تلك الأشباح التي استغلوها بحدّ ذاتها لإرهاب الإنسان، ولم يفعلوا شيئاً سوى جمع الصفات المتناثرة التي وجدوها عند أفظع الكائنات من جنسهم؛ وشكلوا من خلال المبالغة في السلطات والحقوق التي يطالب بها الطغاة، آلهة يرتعش أمامها الإنسان.

وهكذا نرى أنَّ الأحلام، بعيداً عن إثبات أنَّ النفس تعمل من خلال طاقة خاصة بها، أو تستمد أفكارها من الخبايا الخاصة بها، تثبتُ عكس ذلك، أنَّها سلبية تماماً عند النوم، ولا تجدد تعديلاتها إلا وفقاً للفوضى اللاإرادية التي تُحدثها العلل المادية في الجسد، الذي يميل كلّ شيء به إلى إظهار الهوية والتوافق مع النفس. وما يبدو أنَّه قادَ هؤلاء إلى الخطأ، بتأكيدهم على أنَّ النفس استمدتْ أفكارها من ذاتها، هو أنَّهم فكروا في هذه الأفكار كما لو كانت كائنات حقيقية، في حين أنَّها في الواقع ليست سوى تعديلات تنتج في دماغ الإنسان عن طريق أشياء يكون هذا الدماغ غريباً عنها؛ وهذه الأشياء هي النماذج الحقيقية أو الأنماط الأصلية التي من الضروري تكرارها، وهنا مصدر أخطاءهم.

ولا تعمل النفس عند الفرد الذي يحلم من تلقاء ذاتها أكثر مما تعمله عند الرجل المخمور؛ أيّ الذي تعدّله الخمور الروحية أو مما يحدث للمريض عندما يكون مصاباً بالهذيان؛ أي عندما يتم تعديله من خلال تلك العلل المادية التي تربك عضويته عند أداء وظائفها؛ أو مما تفعله عند الشخص الذي يعاني دماغه من اضطراب، ولا تعلن الأحلام، كما في هذه الحالات المختلفة، سوى عن فوضى مادية في العضوية البشرية، يتوقف الدماغ تحت تأثيرها عن العمل بطريقة دقيقة ومنتظمة: وقد يُعزى هذا الاضطراب إلى علّل مادية، مثل التغذية، والأخلاط، والتوليفات، والتخمير، التي لا تناظر سوى قليلاً الحالة الصحية للإنسان الذي سيظهر من خلالها أنَّ دماغه يضطرب بالضرورة كلّما هاج جسده بطريقة غير عادية.

لذلك لا تدعه يعتقد أنَّ نفسه تعمل من تلقاء ذاتها أو من دون سبب، فهي تخضع في أيّ لحظة من وجوده إلى جانب الجسد، لتنبيه الأشياء التي تؤثر عليه بالضرورة بحسب خصائصها المختلفة. فالنبيذ بكميات كبيرة جداً، على سبيل المثال، يربك بالضرورة أفكاره، ويسبب تشويشاً في وظائفه الجسدية ويُحدث اضطراباً في ملكاته العقلية.

ولو كان هناك بالفعل كائناً في الطبيعة لديه القدرة على تحريك نفسه من خلال طاقات خاصة به؛ أي قادرٌ على إحداث حركة مستقلة عن جميع العلل الأخرى، لكان لمثل هذا الكائن القدرة على إيقاف ذاته أو تعطيل حركة الكون، والتي هي ليست أكثر من سلسلة هائلة من العلل المرتبطة ببعضها البعض، وتعمل وتتفاعل من خلال قوانين ضرورية وغير قابلة للتغيير، ولا يمكن تغييرها أو تعطيلها إلا إذا تم تغيير ماهية كلّ شيء فيه – لا بل تدميره. ولا يمكنه من حيث النظام العام للعالم، أن يُدرك شيئاً سوى سلسلة طويلة من الحركات التي تستقبلها وتنقلها على التوالي كائنات قادرة على تنبيه بعضها البعض: وهكذا يتحرك كلّ جسم عن طريق اصطدام جسم ما بآخر. وعندما تُنسب حركة نفسه غير مرئية إلى عللٍ مخفية في داخله، يعتقد أنَّها تتحرك من تلقاء ذاتها؛ لأنَّه لا يرى المصادر التي حركته أو لأنَّه يتصور أنَّ تلك القوى الدافعة غير قادرة على إحداث التأثيرات التي يتعجب منها كثيراً، ولكن هل يتصور بشكلٍ أوضح كيف يمكن لشرارةٍ عند انفجار البارود أن تحدث الآثار الرهيبة التي يشهدها؟ ومن هذا ينشأ مصدر أخطائه، حيث يعتبر جسده فظاً وخاملاً، في حين أنَّ هذا الجسد آلةٌ محسوسة لها وعيٌ مباشر

بالضرورة في اللحظة التي يتلقى فيها انطباعاً، وتعي وجودها من خلال تذكر الانطباعات التي اختُبِرتْ على التوالي؛ فالذاكرة عن طريق إنعاش الانطباع الذي تلقته من قبل أو عن طريق اشتقاقه أو بسبب الاحتفاظ به ومن ثم ربطه بآخر ثم ثالث، تمنح كلّ ذلك آلية الاستدلال.

وتُشغِّل الفكرة التي هي مجرد تعديل غير مُدرك للدماغ، عضو النطق، الذي يُظهر نفسه من خلال الحركة التي يثيرها اللسان، وهذا بدوره يولد الأفكار والخواطر والعواطف عند تلك الكائنات المزودة بأعضاء حساسة لتلقي حركة مماثلة؛ فتتأثر نتيجة لذلك إرادات عدد كبير من البشر الذين يحدثون عبر تضافر جهودهم ثورةً في الدولة، أو يكون لهم تأثيرٌ على العالم بأسره. وهكذا قرر **الإسكندر Alexander** مصير آسيا، وهكذا غيّر **محمد** (ص) وجه الأرض، ومن ثم فإنَّ العلل غير المدركة تُحدث نتائج أفظع وأوسع من خلال سلسلة من الحركات الضرورية المطبوعة على دماغ الإنسان.

إنَّ صعوبة فهم التأثيرات الناتجة عن نفس الإنسان جعلته ينسب إليها تلك الصفات الغامضة التي درسها. ويبدو أنَّ هذه النفس تتخلى بمساعدة الخيال وقوة التفكير عن جسدها، لتنقل ذاتها بسهولةٍ كبيرة نحو الأشياء البعيدة، فتتخطى كلّ النقاط في الكون وتقرّب بينها في غمضة عين؛ لذلك يعتقد أنَّ الكينونة التي تتعرض لمثل هذه الحركة السريعة، يجب أن تكون ذو طبيعة مميزة جداً عن غيرها؛ فأقنع نفسه أنَّ هذه النفس تسافر في الواقع، وأنَّها تنطلق فعلاً فوق المساحة الهائلة اللازمة لمقابلة هذه الأشياء المختلفة؛ ولم يدرك أنهَّ للقيام بذلك في لحظة ما، كان عليه فقط أن يتجاوزها، ويقارب بين الأفكار المستلمة عن طريق الحواس لحفظها.

ولن تصبح تلك الكائنات معروفة بالفعل للإنسان بأيّة وسيلة أخرى غير حواسه أو تزويده بالأفكار التي ليست سوى نتيجة التنبيه المعطى لجسده، والتي تعدل دماغه أو تجعل نفسه تفكر وتريد وتعمل. وإذا كان، كما أكد **أرسطو** منذ أكثر من ألفي عام، "لا شيء يدخل عقل الإنسان إلا بوساطة حواسه"، لترتب على ذلك، أنَّ كلّ شيء يصدر عنه لابدّ أن يجد شيئاً محسوساً يمكن أن يربط أفكاره به، سواء بشكلٍ مباشر، كإنسان، أو شجرة، أو طائر، وما إلى ذلك، أو في التحليل النهائي أو الانحلال، مثل اللذة، والسعادة، والرذيلة، والفضيلة، والخ.[63] لذلك كلّما كانت الكلمة أو فكرتها غير متصلة

يجد ذاتها ببعض الأشياء المحسوسة التي يمكن أن ترتبط بها، كلّما كانت هذه الكلمة أو هذه الفكرة لا معنى لها، وخالية من المعنى، وكان من الأفضل للإنسان أنْ ينحي الفكرة من عقله ويُخرجها من لغته. وهذا المبدأ مضاداً فحسب لبديهية **أرسطو**، وإذا كان الأمر واضحاً، فيجب أن يكون الضد بالمثل.

كيف حدث أن استبدل **لوك Lockes** العظيم، في إهانة كبيرة للميتافيزيقيين، مبدأ **أرسطو** هذا بوجهة نظر أوضح، وكيف لم يستخلص كلّ أولئك الذين أدركوا مثله عبثية نظام الأفكار الفطرية، النتائج المباشرة والضرورية؟ وكيف حدث ذلك، ولم تكن لديهم الشجاعة الكافية ليطبقوا مبدأ واضحاً إلى هذا الحد على كلّ تلك المخلوقات الخيالية التي كان العقل البشري مشغولاً بها طوال هذه الفترة من الزمن؟ ألم يدركوا أنَّ مبدأهم استنزف أسس ذلك اللاهوت الذي لا يشغل الإنسان أبداً سوى بتلك الأشياء التي يتعذر الوصول إليها بحواسه، وبالتالي لا يمكنه أبداً أن يشكّل لنفسه أيّ فكرة دقيقة عنها؟ لكن التحيز، خاصةً عندما يكون مقدساً، يمنعه من رؤية أبسط تطبيق للمبادئ الأوضح على الأمور الدينية، وغالباً لا يكون أعظم البشر سوى أطفال غير قادرين على التنبؤ أو استنتاج نتائج من معطياتهم الخاصة.

ويتوجب على **لوك**، وكذلك كلّ أولئك الذين تبنوا نظامه الواضح جداً، أو بديهية **أرسطو** الواضحة جداً، أن يستخلصوا منها أنَّ كلّ تلك الأشياء الرائعة التي يعزّي بها اللاهوتيون أنفسهم، هي مجرد كائنات خرافية، وأنَّ الروح أو الجوهر غير المادي، بلا امتداد، وبلا أجزاء، ليس أكثر من غياب للأفكار؛ وباختصار، كان عليهم أن يشعروا أنَّ الذكاء الذي لا يوصف والذي من المفترض أن يترأسوا به عند قيادة العالم، ليس أكثر من كينونة من صنع خيالهم، ومن المستحيل أن تثبت حواسهم وجوده أو صفاته.

ويجب أن يستنتج الفلاسفة الأخلاقيين لهذا السبب بالذات أنَّ ما يُسمى المشاعر الأخلاقية، والغريزة الأخلاقية؛ أيّ الأفكار الفطرية عن الفضيلة، والسابقة على كلّ خبرة بالنتائج الجيدة أو السيئة الناجمة عن ممارستها، هي مجرد مفاهيم خرافية ولا تمتلك كغيرها من المفاهيم الكثيرة من أجل ضمانها وأساسها سوى تخمينات لاهوتية.[64] وقبل أن يتمكن الإنسان من الحكم يجب أن يشعر، وقبل أن يميز بين الخير والشر يجب أن يقارن.

ولتحريره من الأوهام المتعلقة بالأفكار أو التعديلات الفطرية التي طُبعت على نفسه منذ لحظة ولادته، من الضروري ببساطة العودة إلى مصدرها، وسيرى بعد ذلك أنَّ تلك التي تآلف معها والتي تحددتْ إذا جاز التعبير، بحد ذاتها مع وجوده، قد أتت إليه جميعها من خلال بعض حواسه؛ وتُحفر في بعض الأحيان على دماغه بصعوبةٍ كبيرة، وأنَّها لن تدوم أبداً، وتتفاوت فيه بشكلٍ دائم، وسيرى أنَّ هذه الأفكار المتأصلة في نفسه ناجمة عن التربية، والقدوة، والعادة التي علّمت دماغه من خلال الحركة المتكررة بادئ الأمر، أن يربط بين أفكاره بطريقة مشوشة أو واضحة ليتعرّف على الأنظمة، سواء كانت منطقية أو سخيفة. وبعبارة أخرى، باعتباره لهذه الأفكار على أنَّها أفكاراً فطرية ونسيانه لأصلها؛ لم يعد يتذكر بذاته العصر المحدد أو الظروف المتتالية عندما أرسلت هذه الأفكار لأول مرة إلى دماغه، وعند وصوله إلى سن معينة يعتقد أنَّه كان يمتلك دائماً المفاهيم ذاتها، ولن تعد ذاكرته المزدحمة بالخبرة وكثرة الحقائق قادرة على التمييز بين الظروف الخاصة التي ساهمت في منح دماغه تعديلاته الحالية، وطريقة تفكيره اللحظية، وآرائه الفعلية. وعلى سبيل المثال، لا يتذكر أحد من عِرقه، المرة الأولى التي مسّت فيها كلمة الله أذنيه، والأفكار الأولى التي شكّلتها لديه، والاعتقادات الأولى التي أحدثتها لديه؛ ومع ذلك فمن المؤكد أنَّه بحث منذ ذلك الحين عن كائنٍ ما لربطه بالفكرة التي شكّلتها له أو التي اقتُرحت له، واعتاد على سماع كلمة الله تتردد باستمرار، واعتبر هذه الفكرة المتعلقة بالجوانب الأخرى الأكثر استنارة، كما لو أنَّها غُرست في طبيعته، في حين من الواضح أنَّها تُنسب إلى تلك المخططات التي وضعها له والديه أو معلموه، والتي عدّلها بعد ذلك وفقاً لمنظومته الخاصة، والظروف التي وضِع فيها، حيث يشكل كلّ فرد لنفسه إلهاً يكون بحد ذاته قدوةً له أو يقوم بتعديله وفقاً لأسلوبه الخاص.(65)

إنَّ أفكاره عن الأخلاق، على الرغم من كونها أكثر واقعية من أفكاره عن الميتافيزيقيا، ليست فطرية؛ حيث تُبنى المشاعر الأخلاقية التي يشكلها عن الإرادة أو الحكم الذي يصدره على أفعال الإنسان على الخبرة التي تمكنه لوحدها من التمييز بين ما هو مفيد أو ضار، وفاضل أو شرير، وأمين أو غير أمين، ويستحق تقديره أو يستحق استهجانه. وتكون مشاعره الأخلاقية ثمرةً للعديد من الخبرات التي غالباً ما تكون طويلة جداً ومعقدة للغاية. ويجمعها بمرور الوقت، وتكون أمينة إلى حدٍ ما بسبب منظومته

الخاصة والأسباب التي يعدلها من خلالها، ويطبق هذه الخبرة في نهاية المطاف بسهولة إلى حدٍ ما، وهذا يعتمد على عادتهِ في الحكم. والسرعة التي يطبق بها خبرته عندما يحكم على الأفعال الأخلاقية لأخيه الإنسان، هي ما أطلق عليه اسم (الفطرة الأخلاقية).

إنَّ ما يسمى في الفلسفة الطبيعية بالفطرة، هو مجرد نتيجة لحاجة ما بالجسد، ونتيجة لانجذاب ما أو بعض النفور عند الإنسان أو الحيوان. فعندما يرضع الطفل المولود حديثاً لأول مرة، توضع حلمة الثدي في فمه، حيث إنَّ التناظر الطبيعي الموجود بين الغدد المتكتلة التي تبطن فمه والحليب الذي يتدفق من صدر المرضعة بوساطة الحلمة، يدفع الطفل إلى الضغط عليه بفمه ولكي يعبّر عن السائل المناسب لتغذية سنه الصغيرة؛ فيكتسب الطفل من كل ذلك الخبرة. وترتبط الأفكار المتعلقة بالحلمة وبالحليب، بالمتعة بحد ذاتها تدريجياً في دماغه، وفي كلّ مرة يرى الحلمة يمسكها وينقلها على الفور إلى فمه، ويطبق ذلك بحسب الاستخدام الذي صُممت من أجله.

وسنتمكن بناءً على ما قيل من الحكم على تلك المشاعر السريعة والمفاجئة التي وصفت بأنَّها (قوة الدم). فمشاعر الحب الموجودة لدى الآباء والأمهات تجاه أبنائهم؛ ومشاعر المودة التي يشعر بها الأطفال من ذوي الميول الحسنة تجاه والديْهم، ليست بأيّ حال من الأحوال مشاعر فطرية؛ وليست سوى نتيجة للخبرة، والتأمل، والعادة، عند النفوس الحساسة. ولا توجد هذه المشاعر أيضاً عند عدد كبيرٍ من البشر. فنحن نشهدُ في كثير من الأحيان آباء مستبدين، ومنشغلين بصنع أعداء لأطفالهم، ويبدو أنَّهم قد تشكلوا ليكونوا ضحايا نزواتهم غير العقلانية.

ومن اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان حتى تلك التي يكفّ فيها عن الوجود، يشعر أنَّه يتحرك إما بشكلٍ مقبول أو غير سار، فيجمع الحقائق ويجمع الخبرة التي تنتج أفكاراً مبهجة أو قاتمة في دماغه. ولا يوجد فرد واحد لديه هذه الخبرة بذاكرته في الآن ذاته، ولا تقدم له أبداً فكرةً كاملةً مرة واحدة؛ لكن هذه الخبرة التي توجهه ميكانيكياً ومن دون علمه في جميع أفعاله، كانت تحدد السرعة التي طبق بها هذه الخبرة والتي يفقد هو ذاته الارتباط بها مراراً وتكراراً، مما يجعله محتاراً غالباً في تفسيره لدرجة أنَّه تخيل كلمة (فطرة)، ويبدو أنَّها ناجمة عن قوةٍ سحرية وخارقة للطبيعة عند عدد هائل من الأفراد، لكنها كلمة خالية من المعنى بالنسبة للكثيرين. ومع ذلك فهي ناجمةٌ بالنسبة للفيلسوف عن شعورٍ

حيوي للغاية، يتمثل بالنسبة له في القدرة على الجمع السريع بين عدد من الخبرات وسلسلة طويلة ومتعددة من الأفكار المعقدة للغاية. والحاجة هي التي تسبب الفطرة غير القابلة للتفسير والتي نراها عند الحيوانات المحرومة من الأنفس الخالية من العقل؛ في حين أنَّها تقوم بما لا نهاية له من الأفعال التي تثبت أنَّها تفكر وتحكم، ولديها ذاكرة، وقادرة على تحصيل الخبرة، ويمكنها الجمع بين الأفكار ويمكنها تطبيقها بسهولة كبيرة إلى حدٍ ما لتلبية الاحتياجات التي تولدها منظومتها الخاصة بها، وهذا يثبت باختصار أنَّ لديها عواطف وأنَّ هذه العواطف قابلة للتعديل.(66)

إنَّ العقبات التي ألقتها الحيوانات في طريق أنصار عقيدة الروحانية معروفة جيداً؛ حيث كانوا يخشون، إذا أتاحوا لها امتلاك نفس روحية، الارتقاء بها إلى مرتبة المخلوقات البشرية؛ وعند عدم سماحهم لها من ناحية أخرى بامتلاك نفس، منحوا خصومهم السلطة لإنكارها بالطريقة ذاتها على الإنسان الذي يجد ذاته بالتالي منحطاً بالنسبة للحالة الحيوانية. ولم يعرف اللاهوتيون أبداً كيف يتخلصون من هذه الصعوبة. وتخيل **ديكارت** أنَّه حلها بالقول: إنَّ الوحوش ليس لها أنفس وهي مجرد آلات. ولا شيء يمكن أن يكون أقرب إلى السطحية من عبثية هذا المبدأ. وكلّ من يفكر في الطبيعة من دون تحيز، سوف يعترف بسهولة أنَّه لا يوجد فرق آخر بين الإنسان والوحش غير ذلك الذي يُنسب إلى تنوع منظومته.

ويمكن رؤية الفطرة عند بعض أفراد الجنس البشري الذين يبدو أنَّهم يتمتعون بحساسية الأعضاء أكثر من غيرهم، وبمساعدة الفطرة يحكمون على الفور على التصرفات الخفية لأقرانهم، وببساطة عن طريق فحص سمات وجوههم. وأولئك الذين يُطلق عليهم اسم علماء الأعضاء هم مجرد بشر ذو مشاعر حادة جداً، وعاجزين تماماً عن اكتساب خبرة بأعضاء الآخرين، سواء عن خشونة أعضائهم أو من الانتباه قليلاً إليها أو من عيب ما في حواسهم، وهؤلاء أخيراً لا يؤمنون بالفراسة التي تبدو لهم مثالية للغاية. ومع ذلك، فمن المؤكد أنَّ عمل هذه النفس الذي أصبح روحياً، يترك انطباعات واضحة للغاية على السطح الخارجي للجسد، وتتكرر هذه الانطباعات باستمرار وتبقى صورتها: وهكذا، ترتسم العواطف المعتادة عند الإنسان بحد ذاتها على مُحياه، ويتمكن من خلالها المراقب اليقظ الذي يتمتع بشعورٍ حاد، من أن يحكم بسرعةٍ كبيرة على نمط وجوده، وأن يتوقع

أيضاً أفعاله، وميوله، ورغباته، ومشاعره السائدة...الخ. وعلى الرغم من أنَّ علم الفراسة يبدو خيالياً بالنسبة لعددٍ كبير من الأشخاص، إلا أنَّ هناك القليل ممن ليس لديهم فكرةٌ واضحة عن نظرة حنونة أو عين حادة أو مظهرٍ صارم، أو نظرة كاذبة ومخيفة، وطلةٌ بهية...الخ. ولا شك أنَّ النظرات الحادة والخبيرة تكتسب قدرةً على اختراق الحركة الخفية للنفس من خلال الآثار المرئية التي تتركها على السمات التي تتغير باستمرار. وتتغير في البداية عيون الإنسان بسرعةٍ كبيرة وفقاً للحركة التي تُثار لديه: وتتغير هذه الأعضاء الحساسة بشكلٍ واضح بأقل صدمة تصل إلى دماغه. فتعلن عيون صافية عن نفس هادئة، وتشير عيون جامحة إلى عقلٍ مضطرب. وتصور العيون النارية مزاج سريع الانفعال ودموي؛ وتفسح العيون المتحولة أو المتقلبة مجالاً للشك في نفسٍ مروعة أو مخيفة. إنَّ دراسة هذا التنوع من الظلال هي التي تجعل الإنسان خبيراً وفطناً، وعند اكتشافه يجمع بين عددٍ كبير من الخبرات المكتسبة من أجل تشكيل حكمه على الشخص الذي يراه. ولا يشرك بحكمه شيئاً مما هو خارق للطبيعة أو عجيب، ويتميز مثل هذا الإنسان فقط بنقاءِ أعضائه، وبالسرعة التي يؤدي بها دماغه وظائفه.

والشيء ذاته عند بعض أفراد الجنس البشري الذين يمكن اكتشاف حكمة غير عادية لديهم، وتبدو لغير المطلعين أنَّها إلهية وعجيبة.[67] ونرى في الواقع، بشراً قادرين على تقدير عددٍ كبير من الظروف في غمضة عين. ويمتلكون أحياناً القدرة على توقع الأحداث الأبعد، ومع ذلك فإنَّ هذا النوع من المواهب التنبؤية ليس فيه ما هو خارق للطبيعة؛ فلا يشير إلى أكثر من خبرة رائعة ومنظومة حساسة للغاية، يستمدون منها ملكة الحكم بسهولة قصوى على الأسباب، والتنبؤ بنتائجها البعيدة جداً. وتوجد هذه الملكة أيضاً عند الحيوانات التي تتوقع بشكلٍ أفضل بكثير من الإنسان تغيرات الغلاف الجوي والتغيرات المختلفة للطقس. ولطالما كانت الطيور أنبياء وحتى مرشدة للعديد من الدول التي تدّعي أنَّها مستنيرة للغاية.

ومن ثم، يجب أن تُنسب منظومتها التي تدربت بطريقة معينة إلى تلك الملكات الرائعة التي تميّز بعض الكائنات. ولا يعني امتلاك الفطرة سوى الحكم بسرعة من دون الحاجة إلى التفكير ملياً في الموضوع. فأفكار الإنسان حول الرذيلة والفضيلة ليست فطرية بأيّ حال من الأحوال، بل يكتسبها كغيره، ويُبنى الحكم الذي يصدره على الخبرة، سواء

أكان صحيحاً أم خاطئاً: وهذا يعتمد على تكوينه والعادات التي عدّلته. وليس لدى الرضيع أيّ أفكارٍ عن اللاهوت أو الفضيلة، ويتلقى هذه الأفكار من أولئك الذين يرشدونه ويستخدمها بشكلٍ أو بآخر وفقاً لمنظومته الطبيعية أو الأفعال التي يمارسها إلى حدٍ ما. وتعطي الطبيعة للإنسان أرجلاً، وتعلّمه المربية استخدامها، وتعتمد خفة حركته على شكلهما الطبيعي والطريقة التي يتدرب فيها عليهما. ويُنسب ما يسمى بالذوق في الفنون الجميلة بالطريقة ذاتها فقط إلى دقة أعضاء الإنسان التي تمارسها عادة الرؤية، وإلى المقارنة والحكم على أشياء معينة. ومن هنا تنتج عند بعض أبناء جنسه ملكة الحكم بسرعةٍ كبيرة أو في طرفة عين على الكل وعلاقاته المختلفة. ومن خلال قوة الرؤية، والشعور، والخبرة بالأشياء، وحصوله على معرفةٍ بها؛ ونتيجة تكرار هذه الخبرة، يكتسب القوة وعادة الحكم بسرعة. لكن هذه الخبرة ليست فطرية بأيّ حال من الأحوال؛ لأنَّه لم يكنْ يمتلكها قبل ولادته، ولم يكن قادراً على التفكير، (ليحكم بأنَّ لديه أفكار قبل أن يشعر، ولا أنَّ لديه القدرة على الحب ولا الكراهية، والإطراء أو اللوم)، قبل أن تحصل استثارته بشكلٍ مقبول أو غير مقبول. ولكن هذا ما يجب أن يفترضه أولئك الذين يرغبون في جعل الإنسان يعترف بالفطرة أو الأفكار أو الآراء التي تغرسها الطبيعة، سواء في الأخلاق أو اللاهوت أو في أيّ علّم. وما كان لعقله أن يمتلك ملكة التفكير لولا انشغاله بموضوعٍ ما، إذ يُفترض أن يكون على دراية بصفاته؛ وتكون لديه معرفة بهذه الصفات، ومن الضروري أنْ تمسها بعض حواسه، لذلك فإنَّ تلك الأشياء لا يعلم أيّ من صفاتها باطلة أو على الأقل لا وجود لها بالنسبة له.

وسوف يؤكدون ربما على أنَّ الاقتناع الكلي للإنسان بافتراضات معينة، مثل الكل أكبر من أجزائه وبجميع المبرهنات الهندسية، يبدو أنَّه يبرر افتراض بعض المفاهيم الأولية الفطرية أو غير المكتسبة. ويمكن الرد أنَّ هذه المفاهيم تكون دائماً مكتسبة، وأنَّها ثمرة خبرة سريعة إلى حدٍ ما، وأنَّه يُفترض مقارنة الكل بأجزائه قبل أن يؤدي الاقتناع إلى أنَّ الكل هو أكبر من الاثنين. إذ لا يحمل الإنسان عند ولادته معه فكرة أنَّ اثنين زائد اثنين يساوي أربعة؛ بل يقتنع سريعاً بحقيقتها. ومن الضروري للغاية قبل تكوين أيّ حكم مهما كان المقارنة بين الحقائق.

ومن الواضح أنَّ أولئك الذين لديهم أفكاراً فطرية مفترضة من دون مبرر أو مفاهيم متأصلة في الإنسان، قد خلطوا بين منظومته أو أفعاله الطبيعية، والعادة التي يتعدل من خلالها، وقدرته على إجراء التجارب بدرجةٍ ما وتطبيقها في حكمه. حيث جلب الإنسان الذي لديه ذوقٌ في الرسم، معه إلى العالم بلا شك عيونٌ أكثر حدةً وتبصراً من الآخر؛ لكن هذه العيون لن تمكنه بأيّ حال من الأحوال من الحكم بسرعة إذا لم تكن لديه فرصة لتدرّب عليها، على الأقل في بعض النواحي التي يمكن أن نعتبر بها تلك الميول التي تُسمى طبيعية على أنَّها فطرية. ولم يكن عمر الإنسان عشرين عاماً مثلما كان عندما أتى إلى العالم؛ فالعلل المادية التي تؤثر عليه باستمرار لها تأثير بالضرورة على منظومته، وبالتالي تعديلها بحيث لا تكون ميوله الطبيعية هي ذاتها في فترة ما كما في فترة أخرى.(68) ويمكننا أن نرى باستمرار الأطفال الذين يُظهرون إلى سن معينة قدراً كبيراً من البراعة، والاستعداد القوي للعلوم وينتهون إلى الوقوع في الغباء. ويمكن ملاحظة الآخرين الذين أظهروا خلال طفولتهم ميولاً بالكاد يمكن تحسينها، ولكنهم طوروا أنفسهم في النهاية، وأدهشونا بإظهار تلك الصفات التي حكمنا عليها أنَّها ناقصة، وهنا تأتي اللحظة التي يجعلنا فيها العقل نستفيد من عددٍ كبير من الخبرات التي جمعها من دون أن يتم إدراكها، وإذا جاز لي التعبير، من دون معرفتها.

وبالتالي، لا يمكن التكرار في كثير من الأحيان، أنَّ كلّ الأفكار وكلّ المفاهيم وكلّ أنماط الوجود وكلّ أفكار الإنسان تكون مكتسبة. ولا يستطيع عقله أن يعمل وأن يدرب نفسه إلا على أساس ما لديه معرفة به، ويمكنه أن يفهم جيداً أو سيئاً فقط تلك الأشياء التي شعر بها سابقاً. وأفكاره التي لا تفترض شيئاً مادياً خارجياً كنموذجٍ لها، أو أحد الأشياء التي يمكنه ربطها بها والتي تسمى بالتالي أفكاراً مجردة، ليست سوى أنماطٍ يأخذ فيها عضوه الداخلي تعديلات خاصة به بالاعتبار، ويختار بعضها من دون النظر إلى غيرها. والكلمات التي يستخدمها لتسمية هذه الأفكار: مثل المكافأة، والجمال، والنظام، والذكاء، والفضيلة وما إلى ذلك، لا تقدم أيّ معنى إذا لم يربطها بها أو إذا لم يشرحها من خلال تلك الموضوعات التي أظهرتْ له حواسه أنَّها تتأثر سريعاً بتلك الصفات أو أنماط الوجود والفعل المعروفة لديه. وما الذي تشير إليه فكرة (الجمال) الغامضة، إذا لم يقم

بربطها بشيء ما مس حواسه بطريقة معينة، وينسبُ إليه بالتالي هذه الخاصية؟ ما الذي تمثّله كلمة (ذكاء)، إذا لم يربطها بنمطٍ معين من الوجود والفعل؟ وهل تحدد كلمة (نظام) أيّ شيء، إذا لم يربطها بسلسلة من الأفعال وبسلسلة من الحركات التي يتأثر بها بطريقة معينة؟ أليستْ كلمة (الفضيلة) خالية من المعنى، إذا لم يطبقها على ميول أقرانه التي تُحدث نتائج معروفة تختلف عن تلك الناتجة عن ميول معاكسة؟ وما الذي تقدّمه كلمات الألم والسرور لعقله في اللحظة التي لا تتألم فيها أعضائه ولا يستمتع بها، إذا لم تكن هي الأنماطُ التي تأثّر بها، والتي يحتفظ دماغه بذكرى أو انطباعات عنها، وتظهر أيّ خبرة له أنّها مفيدة أو ضارة؟ ولكن عندما يسمعُ كلمات مثل الروحانية، واللامادية، وغير الملموسة، والألوهية وما إلى ذلك، لا تفيده حواسه ولا ذاكرته ولا تزوده بأيّ وسيلة يمكنه من خلالها تكوين فكرة عن صفاتها، ولا عن الأشياء التي يجب أن يطبقها عليها، ولا يمكنه أن يرى فيما ليس بمادة سوى الخواء والفراغ اللتين لا يمكن أن ننسب لهما أيّ صفة.

وتتأسس جميع الأخطاء وكلّ نزاعات البشر على هذا: أنّهم تخلوا عن الخبرة ودليل حواسهم لكي يستسلموا لتوجيه الأفكار التي اعتقدوا أنّها مغروسة فيهم أو فطرية، رغم أنّها لا تنجمّ في الواقع سوى عن الخيال المشوش، والتحيزات التي تعلموها منذ طفولتهم، والعادة التي تآلفوا معها، والسلطة التي أجبرتهم على الحفاظ عليها. وتمتلئ اللغات بكلمات مجردة مرتبطة بأفكارٍ مشوشة وغامضة؛ والتي لا يمكننا العثور عند فحصها على نموذج لها في الطبيعة، ولا يوجد كائن يمكن أن ترتبط به. وعندما يكلّف الإنسان نفسه عناء تحليل الأشياء، يتفاجأ تماماً لاكتشافه أنّ تلك الكلمات التي لا تزال في أفواه الناس، لا تقدم أبداً أيّ فكرة ثابتة ومحددة، فهو يسمعهم يتحدثون بلا توقف عن الأرواح - النفس وملكاتها - الله وصفاته - البقاء - المكان - الاتساع - اللاتناهي - الكمال - الفضيلة - العقل - العاطفة - الفطرة - الذوق...الخ، من دون أن يكون قادراً على الحديث بدقةٍ عمّا فهمه بهذه الكلمات. ومع ذلك يبدو أنّ اختراع الكلمات لم يكن إلا بهدف تمثيل صور الأشياء أو لكي يرسم بمساعدة الحواس تلك الأشياء المعروفة التي يستطيع العقل التأمل فيها، والتي يكون مؤهلاً لتقديرها ومقارنتها والحكم عليها.

ولكي يفكر الإنسان فيما لا يؤثر على أيٍّ من حواسه، يجب أن يفكر بناءً على الكلمات، والحلم بالأصوات، والبحث في مخيلته عن أشياءٍ يمكن أن يربط بها أفكاره الشاردة. وتحديد صفات لهذه الأشياء يضاعف بلا شك تهوره. وتمثّل الكلمة المخصصة له شيئاً ليس له القدرة على التأثير على أيٍّ من أعضائه، وبالتالي يستحيل عليه إثبات وجوده أو صفاته، ومع ذلك سوف يزوده خياله إلى حدٍ ما بفضل تخزينها بالأفكار التي يريدها، ويؤلف نوعاً ما من الصور والأيقونات أو الألوان التي يضطر دائماً إلى استعارتها من تلك الأشياء التي لديه معرفةٌ بها، وهكذا تم تمثيل الإله بشخصية رجل عجوز مهيب أو بشخصية ملك ساكن...الخ. ورغم ذلك من الواضح أنَّ الإنسان قد أفاد من خلال بعض صفاته كنموذج عن هذه الصورة. ولكن إذا علِم أنَّ هذا الإله روحاً مجردة، وليس له جسم ولا امتداد، وغير موجود في مكان، ومفارق للطبيعة، فإنَّه يغرق هنا في الفراغ ولم يعد لدى عقله أيّة أفكار. ولم يعد يعرف ما الذي يتأمله. وهذا، كما سنرى لاحقاً، هو مصدرُ تلك المفاهيم غير المعروفة التي شكّلها البشر عن الإله، وهم أنفسهم يدمرونه بجمعهم لصفات غير متوافقة ومتناقضة.(69) ويجعلونه إنساناً بإعطائه صفات أخلاقية ومعروفة. وعندما ينسبون له صفات اللاهوت السلبية، يدمرون كلّ الأفكار السابقة؛ ويجعلوه عدماً محضاً —كائناً خرافياً. ويتّضح من هذا أنَّ تلك العلوم السامية التي تُسمى (اللاهوت، وعلم النفس، والميتافيزيقا)، كانت مجرد علوم للكلمات؛ فأصبحت الأعمال الأخلاقية والسياسة التي غالباً ما يفسدونها نتيجةً لذلك، ألغازاً لا يمكن تفسيرها ولن يمكننا من شرحها سوى قليل من دراسة الطبيعة. ويمتلك الإنسان سبباً للحقيقة التي تكمن في معرفة العلاقات الصحيحة المرتبطة بأشياءٍ يمكن أن يكون لها تأثيرٌ على رفاهيته؛ وتُعرف هذه العلاقات فقط من خلال الخبرة، ولا يمكن أن يكون هناك عقل من دون خبرة، ويكون الإنسان من دون عقل مجرد مخلوقٍ أعمى يتصرف من خلال الصدفة. ولكن كيف يكتسبُ خبرةً في الموضوعات المثالية التي لا تمكّنه حواسه من معرفتها أو فحصها؟ كيف يطمئن نفسه على وجود وخصائص الكائنات التي لا يستطيع أنْ يشعر بها؟ وكيف يحكم فيما إذا كانت هذه الأشياء مواتية له أو مضرة له؟ كيف يعرفُ ما يجب أن يحبه، وما الذي يجب أن يكرهه، وما الذي يبحث عنه، وما الذي يتجنبه، وما يفعله، وما يتجنب فعله؟ إنَّ ذلك مبنيٌ على هذه المعرفة التي هي شرطٌ لبقائه في هذا العالم -

العالم الوحيد الذي يعرف عنه كلّ شيء؛ وعلى هذه المعرفة تأسست الأخلاق. ومن هنا يمكن رؤية أنَّه من خلال دمجه بين المفاهيم اللاهوتية الغامضة والأخلاق، أو علم العلاقات المؤكدة والثابتة القائمة بين البشر، أو عن طريق تأسيسها بشكلٍ ضعيف على كائنات خرافية لا وجود لها إلا في خياله، يصبح هذا العلم، الذي تعتمد عليه رفاهية المجتمع كثيراً، غير مؤكد وتعسفي ويتم التخلي عنه لنزوات الهوى، ولا يتم تحديده على أيّ أساسٍ متين.

ومن هنا فإنَّ الكائنات المختلفة جوهرياً من حيث منظومتها الطبيعية، والتعديلات التي تطرأ عليها، والعادات التي اعتادت عليها، والآراء التي تكتسبها، لابدَّ أن تفكر بالضرورة بشكلٍ مختلف. ويقرّر مزاجه، كما رأينا، الصفات العقلية للإنسان؛ فيتعدل هذا المزاج بشكلٍ مختلف لديه، وينتج عن هذا بالتالي أنَّ خياله لا يمكن أن يكون هو ذاته، ولا يمكنه أيضاً أن يخلق له الصور ذاتها. فكلّ فردٍ هو كلّ متصل، وكلّ أجزائه متطابقة بالضرورة. إذ يجب أن ترى العيون المختلفة بشكلٍ مختلف، وتعطي أفكاراً متنوعة للغاية عن الأشياء التي يتأملونها، حتى عندما تكون هذه الأشياء حقيقية. لماذا إذن تتنوع هذه الأفكار إذا كانت الأشياء التي يتأملونها لا تؤثر على الحواس؟ يمتلك أفراد الجنس البشري تقريباً الأفكار ذاتها، وتلك المواد التي تؤثر عموماً على أعضائهم بحيوية؛ وينسجمون بما فيه الكفاية مع بعض الصفات التي يفكرون فيها بالطريقة ذاتها تقريباً، وأقول تقريباً؛ لأنَّ الذكاء والفكرة والقناعة في أيّ فرضية، مهما كانت بسيطة، ومهما كانت واضحة، ومهما كان واضحاً ما تفترضه، ليست ولا يمكن أن تكون هي ذاتها تماماً عند أيّ اثنين من البشر. وفي الواقع، لا يمكن لإنسان واحد أن يكون إنساناً آخر، فالأول لا يستطيع، على سبيل المثال، أن يمتلك مفهوم الوحدة ذاته بشكلٍ منتظم ورياضي مثل الثاني، ويرى أنَّ النتيجة المماثلة لا يمكن أن تكون ناجمة عن سببين مختلفين. وهكذا عندما يتفق البشر من حيث أفكارهم، وأنماط تفكيرهم، وحكمهم، وعواطفهم، ورغباتهم، وأذواقهم، لا تنشأ موافقتهم من رؤيتهم أو الشعور بالأشياء ذاتها بدقة وبالطريقة ذاتها إلى حدٍ كبير؛ لأنَّ اللغة ليست ولا يمكن أن تكون وافرة بما يكفي لتحديد التنوع الكبير للظلال، وتعدد الاختلافات غير المحسوسة التي يمكن العثور عليها في أنماط الرؤية والتفكير. ويمكنني القول: إنَّ لكلّ إنسان لغةً خاصةً به وحده، وهذه اللغة لا يمكن إيصالها للآخرين. ما هو إذن الانسجام الذي يمكن أن يوجد بينهما عندما يتحدثان مع بعضهما البعض حول

أشياءٍ لا يعرفها سوى خيالهما؟ هل يمكن أن يكون هذا الخيال عند فرد ما هو ذاته عند فرد آخر؟ كيف يمكن أن يفهما بعضهما البعض عندما يخصصان لهذه الأشياء صفات لا يمكن أن تُنسب إلا إلى الطريقة الخاصة التي يتأثر بها دماغهما.

فعندما يطلب أحدهم من شخصٍ آخر أن يفكر مثله، ينبغي أن يؤكد على وجوب تنظّيمه بدقة بالطريقة ذاتها، وأن يُعدل بالطريقة ذاتها تماماً في كلّ لحظة من وجوده، ويجب أن يكون قد تلقى المزاج ذاته، والتغذية ذاتها، والتعليم ذاته، وبعبارة أخرى، يجب أن يطلب من الآخر أن يكون هو ذاته. لماذا ينبغي ألا يكون لكلّ البشر السمات ذاتها؟ هل الإنسان هو المتحكم الأكبر بآرائه؟ أليست آرائه هي النتيجة الضرورية لطبيعته، وتلك الظروف الخاصة التي أثّرت بالضرورة منذ طفولته على طريقة تفكيره وطريقة تصرفه؟ وإذا كان الإنسان كلّاً مترابطاً، وإن اختلفت سمة واحدة عن تلك الخاصة به، فيجب ألا يستنتج أنّه من غير الممكن أن يفكر دماغه أو يربط الأفكار أو يتخيلها أو يحلم بها بالطريقة ذاتها تماماً التي يفكر فيها الآخرون. إنَّ التنوع في مزاج الإنسان هو المصدر الطبيعي والضروري لتنوع عواطفه، وذوقه، وأفكاره عن السعادة، وآرائه من كلّ نوع. وبالتالي، سيكون التنوع ذاته مصدراً محتوماً لنزاعاته، وكراهيته، وظلمه، في كلّ مرةٍ يفكر فيها في أشياءٍ مجهولة، إلا إذا علق عليها أهمية كبرى. ولن يفهم أبداً نفسه أو الآخرين عند حديثه عن نفسٍ روحية أو عن إله غير مادي متميز عن الطبيعة، وسيكف منذ تلك اللحظة عن التحدث باللغة ذاتها، ولن يربط أبداً الأفكار ذاتها بالكلمات ذاتها. ومن هنا، ماذا ينبغي أن يكون المعيار المشترك الذي سيقرر من هو الإنسان الذي يفكر بشكلٍ صحيح؟ وما هو المقياس الذي يمكن من خلاله قياس من لديه أفضل خيال منظم؟ وما هو التوازن الذي يجب العثور عليه بشكلٍ دقيق بما يكفي لتحديد معرفته الأكثر تأكيداً عند طرحه للموضوعات التي لا يمكنه فحصها من خلال الخبرة، وتفلت من كلّ حواسه، وليس لها نموذج، وتتعالى على العقل؟ لقد شكّل كلّ فرد، وكلّ مشرّع، وكلّ متأمل، وكلّ أمة، لنفسه أفكاراً مختلفة عن هذه الأشياء، ويؤمن كلٌّ منهم أنّه يجب تفضيل التبجيلات الخاصة به على تلك الخاصة بجيرانه، والتي تبدو له دائماً على أنّها سخيفة، ومضحكة، ومزيفة كما يمكن أن تبدو لقرينه. ويتشبثُ كلّ منهم برأيه؛ لأنَّ كلّ واحد يحتفظ بنمطٍ خاص به في الوجود، ويعتقد أنَّ سعادته تعتمد على ارتباطه بتحيزاته التي لا يتبناها أبداً

سوى لأنَّه يعتقد أنَّها مفيدة لرفاهيته. اقترحْ على إنسانٍ أن يغير دينه لدينك، فسيعتقد أنكَ مجنون، ولن تثير سوى سخطه وازدرائه، وسوف يقترح عليك بدوره أنْ تتبنى آراءه الخاصة، وبعد الكثير من التفكير، سوف تتعاملان مع بعضكما البعض على أنَّكما كائنان سخيفان، ومنفتحان بشكلٍ يبعث على السخرية وعنيدان؛ وسيبدو من سيخضع أولاً أقل حماقة. ولكن إذا اشتد الخلاف بين الخصوم، وهو الأمرُ الذي يحدث دائماً عندما يفترضون أنَّ الأمر مهم أو عندما يدافعون عن سبب حبهم لأنفسهم، فإنَّ عواطفهم تحتد ويزدادون غضباً، وتُثار المشاجرات، ويكره كلٌّ منهم الآخر، وتنتهي بالضرر المتبادل. وهكذا، بالنسبة للآراء التي لا يستطيع أنْ يبرهن عليها إنسان، نرى البراهمة منبوذاً، والمحمدي مكروهاً. وتتم السخرية من الوثني، ويضطهدون ويزدرون بعضهم بعضاً بأشد العداء، ويحرق المسيحي اليهودي؛ لأنَّه يتمسك بإيمان آبائه. ويحكم الرومي الكاثوليكي على البروتستانتي بالحرق ويؤمنون بقتله بدم بارد. وهذا يرد بدوره، ومرة أخرى تجمعت طوائف مختلفة من المسيحيين معاً ضد الشكاك وعلّقت للحظة نزاعاتها الدموية، حتى تتمكن من تأديب أعدائها، وبعد أن أخمدت انتقامها، عادت بغضبٍ مضاعف لتثير مرة أخرى ثأرها المحتد على بعضها البعض.

ولو كانت خيالات البشر هي ذاتها، لكانت الكائنات الخرافية التي يأتون بها هي ذاتها في كلّ مكان؛ ولما كان هناك خلافات بينهم حول هذا الموضوع لو كانوا يحلمون جميعاً بالطريقة ذاتها؛ ولتم انقاذ أعدادٍ كبيرة من البشر، لو استخدم الإنسان عقله بأشياء يمكن معرفتها، وثَبت وجودها، وكان مؤهلاً لاكتشاف الصفات الحقيقية لها من خلال الخبرة المؤكدة والمتكررة. ولا تتنازع أنساقٌ من الفلسفة إلا عندما لا يُبرهن على مبادئها بشكلٍ كافٍ، وتوضح الخبرة تدريجياً الحقيقة، وتنتهي هذه الخلافات. فلا يوجد اختلاف بين المهندسين من حيث مبادئ علّمهم، ولا ينشأ إلا عندما تكون افتراضاتهم خاطئة أو عندما تكون موضوعاتهم معقدة للغاية. ويجد اللاهوتيون صعوبةً كبيرة في الاتفاق فيما بينهم؛ لأنَّهم ينقسمون ببساطة في صراعاتهم من دون توقف، ولا يعرفون الفرضيات ولا يفحصونها، بل التحيزات التي اشبعوا بها في شبابهم، وفي المدارس، وفي كتبهم...الخ. ويفكرون دائماً، ليس بالأشياء الحقيقية التي بُرهن على وجودها، بل بأنظمة خيالية لم يفحصوها في الواقع أبداً، ووجدوا هذه الخلافات ليس على أساس الخبرة المؤكدة ولا على

الحقائق الثابتة، بل على فرضيات لا مبرر لها، والتي يسعى بها كلّ منهم لإقناع الآخر من دون تعصبٍ. وعند العثور على هذه الأفكار طويلة الأمد، والتي يرفض قلّة من الناس الاعتراف بها، فإنَّهم يعتبرونها حقائق لا تقبل الجدل، ويجب قبولها بمجرد وجودها؛ فيعلنون، أياً كان من يعلقون عليهم أهمية كبيرة، أنَّهم منزعجين من جسارةِ أولئك الذين لديهم الجرأة على الشك أو حتى فحصهم.

وسيكتشفون إذا وضعوا التحيز جانباً، أنَّ العديد من تلك الأشياء التي ولدت بينهم الخلافات الأكثر إثارةً للصدمة والأكثر دموية، كانت مجرد أشباح وستبدو عند قليل من الفحص أنَّها غير جديرة بالملاحظة. وسيظهر التأمل الأكثر تفاهةً للإنسان ضرورة هذا التنوع في مفاهيمه، وهذا التناقض في خياله، والذي يعتمد على تكوينه الطبيعي المعدل بشكلٍ متنوع، والذي يؤثر بالضرورة على أفكاره، وإرادته، وأفعاله. وبعبارة أخرى، لو استشار الأخلاق والعقل، لأثبت له كلّ شيء أنَّ الكائنات التي تسمي ذاتها بالعاقلة، تم إجبارها على التفكير على نحوٍ مغاير، وتوقفت من دون مبرر عن العيش بسلام مع بعضها البعض وحب بعضها البعض، ومدّ يد العون لبعضها البعض، حتى وإنْ كان من المستحيل معرفة آرائها حول الموضوعات أو التفكير فيها من وجهة النظر ذاتها؛ إلا أنَّ كلّ شيء سيشارك في الأدلة لإقناعه بالاستبداد غير المعقول، والعنف الظالم، والقسوة غير المجدية عند أولئك البشر الدمويين الذين يضطهدون الجنس البشري حتى يتمكنوا من تشكيل الآخرين وفقاً لآرائهم الخاصة؛ وسيقود كلّ شيء البشر إلى الوداعة والغفران والتسامح، ولا شك أنَّ الفضائل ذات أهمية حقيقية لرفاهية المجتمع أكثر من التأملات الرائعة التي ينقسم بها، ويتم الحث عليها في كثير من الأحيان للتضحية بالأعداء المزعومين لهذه الآراء الموقرة.

ويجب أن يتضح من هذا ما هي أهمية الأخلاق في فحص الأفكار التي تم الاتفاق على إيلائها قيمةً كبيرة، والتي يضحي لها الإنسان باستمرار، في ظل القيادة غير العقلانية للمرشدين المتعصبين والمتصلبين، بسعادة وطمأنينة الأمم. دعه يعود إلى الخبرة والطبيعة والعقل، وليستشير تلك الأشياء الحقيقية والمفيدة لسعادته الدائمة، ودعه يدرس قوانين الطبيعة، ويدرس ذاته، ويستشير الروابط التي توحده مع أقرانه من البشر، ودعه يمزق الروابط الوهمية التي تربطه بمجرد شبح. وإذا كان ينبغي على خياله دائماً أن يغذي نفسه

بالأوهام، وإذا ظل حازماً في آرائه الخاصة، وإذا كانت تحيزاته عزيزة عليه، فدعه على الأقل يسمح للآخرين بالتجول على طريقتهم الخاصة أو البحث عن الحقيقة على أفضل وجه وبما يتناسب مع ميولهم، لكن دعه يتذكر دائماً أنَّ كلَّ الآراء، وكلّ الأفكار، وجميع الأنظمة، وكلّ الإرادات، وكلّ تصرفات الإنسان، ناجمة بالضرورة عن طبيعته، ومزاجه، ومنظومته، وعن تلك العلل المؤقتة أو الثابتة التي تعدله؛ وباختصار، إنَّ هذا الإنسان ليس فاعلاً حراً يفكر أكثر مما يفعل، وسيُبرهن على هذه الحقيقة مرة أخرى في الفصل التالي.

الفصل الحادي عشر
نظام القدرة الحرة عند الإنسان

أولئك الذين أظهروا أنَّ النفس متميزة عن الجسد، وغير مادية، وتستمد أفكارها من مصدر خاص بها، وتؤثر من خلال طاقة خاصة بها، ومن دون مساعدة أيّ كائن خارجي، أعتقوها نتيجة نسقٍ خاص بهم من تلك القوانين الفيزيائية التي تلزم جميع الكائنات التي نعرفها بالعمل بموجبها. واعتقدوا أنَّ النفس هي المتحكم بسلوكها، وقادرة على تنظيم عملياتها الخاصة بها، ولديها القدرة على تحديد إرادتها من خلال طاقتها الطبيعية، وأظهروا باختصار أنَّ الإنسان (فاعلاً حراً).

وأثبتنا بما فيه الكفاية بالفعل أنَّ النفس ليست سوى الجسد مع الأخذ بالاعتبار ما يتعلق ببعض وظائفها المخفية أكثر من الجسد؛ وظهر أنَّ هذه النفس تتعدل باستمرار مع الجسد، حتى وإن افتُرض أنَّها غير مادية، وتخضع لكلّ حركاته، وأنَّه من دونها سيبقى خاملاً وميتاً؛ أيّ أنَّها تخضع بالتالي لتأثير تلك العلل المادية والجسمية التي تنبه الجسد الذي يعتمد نمط وجوده، سواء كان اعتيادياً أو عابراً، على العناصر المادية التي تحيط به، وتشكّل نسيجه، وتكوّن مزاجه، وتدخل إليه عن طريق العناصر الغذائية، وتخترقه ببراعتها. وقد شُرحت الملكات التي تُسمى فكرية، والصفات التي تصنَّف على أنَّها أخلاقية، بطريقةٍ مادية وطبيعية بحتة. وأثبتنا أخيراً أنَّ كلّ الأفكار وكلّ الأنظمة، وكلّ المشاعر، وكلّ الآراء التي يشكلها الإنسان لنفسه سواء كانت صحيحة أو خاطئة، يجب أن تُنسب إلى حواسه المادية والجسمية. وهكذا فإنَّ الإنسان كائنٌ مادي بحت، أيّاً كانت الطريقة التي يُنظر إليه بها، وهو مرتبط بالطبيعة الكلية، ويخضع لقوانين ضرورية وثابتة تفرضها الطبيعة على جميع الكائنات التي تحتويها، بحسب ماهياتها أو خصائصها، وتمنحها من دون أن استشارتها لكلّ نوعٍ على حدا. إنَّ حياة الإنسان عبارة عن خطٍ تأمره الطبيعة برسمه على سطح الأرض، من دون تمكينه من الانحراف عنه ولو للحظة. حيث ولد من دون رضاه وتعتمد

منظومته بالمطلق عليه، وتأتي أفكاره إليه قسراً، وتكون عاداته تحت سلطة أولئك الذين جعلوه يتعاقد معهم؛ ويتم تعديله باستمرار لأسباب لا يتحكم فيها، سواء كانت مرئية أو مخفية إلا أنَّها تنظم بالضرورة نمط وجوده، وتعطي صبغة لطريقة تفكيره، وتحدد طريقة تصرفه. فيكون جيداً أو سيئاً، وسعيداً أو بائساً، وحكيماً أو أحمقاً، وعاقلاً أو مجنوناً، من دون أن تكون له إرادة بأيّ من هذه الحالات المختلفة. وعلى الرغم من القيود التي تكبله، إلا أنَّها تُظهر بأنَّه فاعلاً حراً أو أنَّه يحدد إرادته وينظم أموره بغض النظر عن الأسباب التي يتحرك بها. ورغم ضعف أساس هذا الرأي، والذي ينبغي أن يشير كلّ شيء فيه على أنَّه خاطئ، إلا أنَّه موجود اليوم ويقود إلى حقيقة لا تقبل الجدل عند عددٍ كبير من الناس، إلا إن كانوا مستنيرين للغاية، بأنَّ أساس الدين، إذا ما افترضنا وجود علاقات بين الإنسان والكائن المجهول الذي رفعه فوق الطبيعة، كان عاجزاً عن تخيل كيف يمكن أن يستحق الإنسان الثواب أو ينال العقاب من هذا الكائن لو لم يكن فاعلاً حراً. وقد اعتقد المجتمع المهتم بهذا النظام؛ نظراً لاتساع الفكرة، أنَّه إذا تم التفكير في جميع أفعال الإنسان حسب الضرورة، فلن يعد الحق في معاقبة أولئك الذين يؤذون جماعاتهم موجوداً. وقد تكيف الغرور البشري مطولاً مع فرضية تُظهر له بلا شك تميز الإنسان عن جميع الكائنات المادية الأخرى، من خلال منحه ميزةً خاصة تتمثل في الاستقلال التام عن جميع العلل الأخرى، ولكن سيظهر له بقليل من التأمل أنَّها مستحيلة.

إنَّ الإنسان كجزء تابع للكل العظيم، ملزمٌ باختبار تأثيره. وكان من الضروري لكي يكون فاعلاً حراً، أن يتمتع كلّ فرد بقوةٍ أكبر من الطبيعة بأكملها أو أنَّه كان خارج عن هذه الطبيعة التي يعمل بموجبها دائماً، ويلزم جميع الكائنات التي تحتضنها أن تعمل وتتوافق مع حركتها العامة؛ أو كما قيل في موضعٍ آخر، أن تحافظ على وجودها الفعال من خلال الحركة التي تحدثها جميع الكائنات نتيجة طاقات خاصة بها، وتخضع لقوانين ثابتة وأبدية وغير قابلة للتغيير. ولكي يكون الإنسان فاعلاً حراً، كان من الضروري أن تفقد جميع الكائنات ماهيتها، وسيكون من الضروري بالقدر ذاته ألا يتمتع هو ذاته بحساسية بدنية؛ أي لا يعرف الخير ولا الشر، ولا اللذة ولا الألم. ولكن لو كان هذا هو الحال، لما كان منذ تلك اللحظة في حالة يحافظ بها على ذاته أو يسعد وجوده، وستصبح كلّ الكائنات غير مكترثة به، ولن يعد له أيّ خيار آخر، وسيكّف عن معرفة ما يجب أن

يحبه، وما هو الحق الذي يجب أن يخشاه، ولن تكون له أيُّ دراية بما يجب عليه السعي وراءه أو بما يجب عليه تجنبه. وسيكون الإنسان باختصار كائناً غير طبيعي، وغير قادر تماماً على التصرف بالطريقة التي نراها. ذلك أنَّ الماهية الفعلية للإنسان هي أن يميل إلى تحقيق رفاهيته أو الرغبة في الحفاظ على وجوده؛ فإذا كانت كلّ حركة بعضويته تنبثق كنتيجة لازمة عن هذا الدافع الأولي، وإذا حذّره الألم مما يجب عليه تجنبه، وإذا أعلن له السرور ما يرغب به، وإذا كانت ماهيته أن يحب ما يثير البهجة أو ذلك الذي يتوقع منه أحاسيس مقبولة، وأن يكره ما يجعله يخاف من الانطباعات المضادة أو ما يصيبه بالضيق؛ فيجب أن ينجذب بالضرورة إلى ما يراهُ مفيداً، وينبغي أن تحدد إرادته تلك الأشياء التي يحكم عليها بأنَّها مفيدة، والتي سيقاوم بها تلك الكائنات التي يعتقد أنَّها مضرّة لعادته أو لنمط وجوده المؤقت. ويكتسب الإنسان بمساعدة الخبرة ملكة فهم ما يجب أن يحبه أو يخشاه فحسب. ولكن هل أعضائه سليمة؟ وإن كانت غير سليمة فهل ستكون خبرته صحيحة؟ ستكون زائفة. حيث سيكون لديه في الحالة الأولى عقلٌ وحصافة وبصيرة، وكثيراً ما يتوقع نتائج بعيدة جداً؛ أي سيعرف أنَّ ما يعتقده خيراً أحياناً، قد يصبح شراً من خلال نتائجه الضرورية أو المحتملة، وأنَّ ما يجب أن يكون بالنسبة له شراً عابراً، قد تكسبه نتيجته خيراً ثابتاً ودائماً. ومن ثم تمكّنه الخبرة من توقع أنَّ بتر أحد الأطراف سيسبب له إحساساً مؤلماً، وبالتالي فهو مضطر للخوف من هذه العملية، ويسعى لتجنب الألم، ولكن إذا أظهرت الخبرة له أيضاً أنَّ الألم العابر الذي يسببه هذا البتر قد يكون وسيلة لإنقاذ حياته، فسيكون الحفاظ على وجوده ضرورة عزيزة عليه، ويضطر لإخضاع نفسه للألم المؤقت، بهدف الحصول على خيرٍ دائم يحقق له التوازن.

فالإرادة، كما قلنا في موضع آخر، هي تعديلٌ للدماغ الذي يميل من خلالها للعمل أو يكون مؤهلاً لتشغيل الأعضاء. وتتحدد هذه الإرادة بالضرورة من خلال الصفات الجيدة أو السيئة، والمقبولة أو المؤلمة للشيء أو الدافع الذي يؤثر على حواسه أو الذي تظل فكرته معه وينعش ذاكرته. ويتصرف بالضرورة نتيجةً لذلك، ويكون عمله ناجماً عن التنبيه الذي يتلقاه من الدافع ومن شيءٍ ما أو من الفكرة التي عدّلت دماغه أو استبعدت إرادته. وعندما لا يتصرف وفقاً لهذا التنبيه، فذلك لأنَّ هناك سبباً جديداً وحافزاً جديداً، وفكرةً جديدة تعدّل دماغه بطريقة مختلفة، وتمنحه تنبيهاً جديداً، وتحدد إرادته بطريقةٍ

أخرى يتوقف بموجبها عمل التنبيه السابق. ومن هنا تُحتم رؤية شيء مقبول أو فكرته على إرادته العمل على تحقيقه، ولكن إذا جذبه شيئاً جديداً أو فكرة جديدة بشكلٍ أقوى، فإنّها تعطي اتجاهاً جديداً لإرادته وتستبعد النتيجة السابقة، وتمنع الفعل الذي كان من المقرر أن يجري من خلالها. وهذا هو الوضع الذي يبطل فيه التأمل، والخبرة، والعقل، بالضرورة أو يُعلّق عمل الإرادة عند الإنسان، والا لكان اتبع من دون ذلك بالضرورة التنبيه السابق الذي دفعه بعد ذلك نحوِ موضوع مرغوب فيه. وفي كلّ هذا يتصرف دائماً وفقاً للقوانين الضرورية التي لا يملك وسيلةً لتحرير نفسه منها.

فإذا كان يعاني من العطش الشديد، ويتخيل لنفسه فكرةً أو يدرك حقاً نافورة قد تؤدي تياراتها الشفافة إلى تهدئة رغباته المحمومة، فهل يتحكم بنفسه بما يكفي ليرغب أو لا يرغب في الشيء الذي يريد به إشباع حاجة حيوية للغاية؟ سوف يعترف بلا شك بأنّه من المستحيل ألا يكون راغباً في إشباعها؛ ولكن سيقال – إذا أُعلن له في هذه اللحظة أنَّ الماء الذي يرغب به بشدة مسموم، فسوف يمتنع عن شربه على الرغم من عطشه الشديد، ويُستنتج بالتالي خطأً أنّه فاعلاً حراً. ولكن الدافع في الحقيقة في كلتا الحالتين هو ذاته تماماً، وهو الحفاظ على ذاته. وبناءً على هذا فالضرورة ذاتها التي فرضت عليه أن يشرب قبل أن يعرف أنَّ الماء كان ضاراً، فرضت عليه اكتشافاً جديداً بالقدر ذاته وهو ألا يشرب؛ وتبطل الرغبة في الحفاظ على ذاته أو توقف المنبه السابق؛ إذ يصبح الدافع الثاني أقوى من السابق؛ أيّ أنَّ الخوف من الموت أو الرغبة في الحفاظ على ذاته، تهيمن بالضرورة على الإحساس المؤلم الذي يسببه حرصه على الشرب، ولكن سيُقال إن كان العطش شديداً: إنَّ الرجل المتهور سيجازف من دون مراعاةٍ لخطورة ابتلاع الماء. ولا تكتسب هذه الملاحظة شيئاً، وفي هذه الحالة، يستعيد المنبه السابق سطوته فقط، ويقتنع بأنَّ الحياة قد تدوم لفترة أطول أو أنّه سيحقق نفعاً أكبر من خلال شرب الماء المسموم بدلاً من تحمّل العذاب الذي يهدده في رأيه بالانحلال الفوري، وبالتالي يصبح الأول هو الأقوى ويحثّه بالضرورة على العمل. ولكن في كلتا الحالتين، سواء كان يتناول الماء أم لا، سوف يكون الإجراءان ضروريان أيضاً، وسينجمان عن ذلك الدافع الذي نجده أكثر تأثيراً، ويعمل بالتالي بطريقةٍ أكثر قسراً على إرادته.

وسيفيد هذا المثال في شرحِ الظواهر الكاملة للإرادة البشرية. وتجد هذه الإرادة أو بالأحرى الدماغ نفسه في الموقف ذاته ككرةٍ على الرغم من تلقيها دفعاً يدفعها إلى الأمام في خطٍ مستقيم، إلا أنَّها تختل في مسارها كلما أجبرتها قوة متفوقة على الأولى أن تغير اتجاهها. والإنسان الذي يشرب الماء المسموم يبدو مجنوناً، لكن أفعال الحمقى ضرورية مثل أفعال الأفراد الأكثر حكمةً. وتكون الدوافع التي تحتّم على الشهواني والفاسق المخاطرة بصحتهما قوية، وتكون أفعالهما ضرورية، كتلك التي يقرر أن يديرها الإنسان الحكيم. ولكن سيتم التأكيد على أنَّه يمكن أن يتغلب الفاسق على تغيير سلوكه، وهذا لا يعني أنَّه فاعلاً حراً، بل يمكن اكتشاف أنَّ هذه الدوافع قوية بما يكفي للقضاء على تأثير تلك التي مورست عليه سابقاً، ثم تحدد هذه الدوافع الجديدة إرادته بأسلوب السلوك الجديد الذي قد يتبناه بالضرورة كما فعل السابق بالأسلوب القديم.

ويُقال عن الإنسان إنّه (متروي) عندما يتم تعليق عمل الإرادة، ويحدث هذا عندما يتناوب عليه دافعان متعاكسان. ويكون التروي بالكراهية والحب على التوالي؛ أي يجب أن ينجذب ويصد بالتناوب، فيحركه أحياناً دافع وأحياناً آخر. ولا يتحرر الإنسان إلا عندما لا يفهم بوضوح نوعية الأشياء التي يستقبل منها التنبيه أو عندما لا تعلّمه الخبرة بشكلٍ كافٍ عن النتائج التي ستنتجها أفعاله بشكلٍ أو بآخر. كأن يريد على سبيل المثال أن يستنشق الهواء، ولكن الطقس غير مواتٍ، فيتروى نتيجة لذلك ويوازن بين الدوافع المختلفة التي تحثّه على الخروج أو البقاء في المنزل؛ فيفرض عليه بشكلٍ مطول الدافع الأكثر ترجيحاً، وهذا يزيل تردده ويحسم إرادته بالضرورة، إما البقاء في الداخل أو الخروج، وهذا الدافع هو دائماً الميزة الفورية أو النهائية التي يجدها أو يعتقد أنَّه يجدها في الفعل الذي يقتنع به.

وكثيراً ما تتقلب إرادة الإنسان بين شيئين، فيحركه وجودهما أو الأفكار المتعلقة بهما بالتناوب، وينتظر حتى يفكرّ في الأشياء أو الأفكار التي يتركانها في دماغه الذي يحثّه على أفعال مختلفة؛ ثم يقارن بين هذه الأشياء أو الأفكار، ولكن حتى في وقت التروي وأثناء المقارنة وحتى تعقب بدائل الحب والكراهية بعضها البعض، وأحياناً بأقصى سرعة، لا يكون فاعلاً حراً للحظة واحدة؛ فالخير أو الشر الذي يعتقد أنَّه يجدهما على التوالي في الأشياء، هما الدافعان الضروريان لهذه الإرادات اللحظية، والحركة السريعة للرغبة أو الخوف

الذي يختبره طالما استمر الارتياب. وسيتّضح من هذا أنَّ كلّ من التروي والارتياب ضروريان، وأنَّه أيّاً كان الجانب الذي سيتخذه نتيجة لهذا التروي، فسيظل دائماً هو الجانب الذي حكم عليه بالضرورة، سواء كان جيداً أو سيئاً، ومن المحتمل أن يتحول أكثر لمصلحته.

وعندما يهاجم النفس دافعان يؤثران عليها بالتناوب أو يعدلانها تباعاً، فإنَّها تتروى؛ حيث يكون الدماغ في حالة من التوازن ومصحوباً بتذبذبات دائمة، أحياناً تجاه كائن واحد وأحياناً تجاه الآخر، وحتى أكثرها قسراً يحمل هدفاً، وبالتالي يخرجه من حالة القلق هذه التي تكون فيها إرادته مترددة. ولكن عندما يتعرّض الدماغ للهجوم في الآن ذاته لعللٍ قوية تحركه بالقدر ذاته في اتجاهات متعاكسة، فإنَّه يتوافق مع القانون العام لجميع الأجسام عندما تمسّها بالقدر ذاته قوى معاكسة، ويتوقف ويكون مجهداً؛ أي لا يستطيع أن يعمل ولا يريد ذلك، وينتظر حتى تحصل إحدى العلتين على القوة الكافية للتغلب على الأخرى؛ فيحدد إرادته ويجذبها بطريقة قد تتغلب على جهود العلل الأخرى.

وتكفي هذه الآلية البسيطة جداً والطبيعية للغاية، لتوضيح سبب كون الارتياب مؤلماً، ولماذا يكون القلق دائماً حالة عنيفة بالنسبة للإنسان. فعندما يتعرض الدماغ، وهو عضوٌ حساس جداً ومتحول للغاية، لهذه التعديلات السريعة التي تجعله يشعر بالإرهاق أو عندما يُدفع في اتجاهات معاكسة نتيجة علل متساوية من حيث القوة، فإنَّه يعاني من نوعٍ من الضغط الذي يعوق النشاط المناسب الذي يحافظ على الكل، ويكون ضرورياً للقيام بما هو مفيد لوجوده. وستشرح هذه الآلية أيضاً عدم انتظام الإنسان وتردده وعدم ثباته، وتفسر ذلك السلوك الذي غالباً ما يبدو لغزاً يتعذر تفسيره، ويكون في الواقع نتيجةً للأنظمة التي يتلقاها. وعند استشارة الخبرة، سنكتشف أنَّ النفس تخضع تماماً للقوانين الفيزيائية مثل الجسم المادي. وإذا تحرّكت إرادة كلّ فرد خلال فترة زمنية معينة بدافعٍ أو عاطفة ما، فلن يكن من السهل توقع أفعاله، نظراً لوجود قوى مضادة ودوافع متعارضة تهاجمُ في كثيرٍ من الأحيان عاطفته، وتؤثر عليها في وقت واحد أو على التوالي، ومن ثم فقد يتعب دماغه الذي انجذب في اتجاهين متعاكسين أو يُرهَق بسبب حالة الضغط التي حرمته من الفاعلية. ويكون في بعض الأحيان في حالة من الخمود الطفيف، وأحياناً يكون غير مبالٍ بالصدمات المتناوبة التي يتعرّض لها. وهذه بلا شك هي الحالة التي يجد فيها

الإنسان ذاته عندما تغريه العاطفة الحية بارتكاب جريمة، بينما ينبهه الخوف من الخطر الذي يتحضّر له، وهذه أيضاً حالة تنمّ عن ندمه الذي يمنعه بسبب العمل الدؤوب لنفسه المشتتة، من الاستمتاع بالأشياء التي حصل عليها جنائياً.

وإذا أثّرت القوى أو العلل، سواء كانت خارجية أو داخلية، على عقل الإنسان، وحرفته نحو غايات معاكسة، فإنَّ نفسه وكذلك جميع الأجسام الأخرى، ستأخذ اتجاهاً متوسطاً بين الاثنين، ونتيجة للعنف الذي تحته نفسه عليه يصبح أحياناً في حالة مؤلمة جداً ويكون وجوده مزعجاً؛ ولم يعد لديه ميلٌ للحفظ على ذاته؛ ويسعى وراء الموت كملاذٍ مضاد له، وكعلاج وحيد ليأسه، وهكذا نرى البشر، بائسين وساخطين، ويدمرون أنفسهم طواعيةً كلّما أصبحت الحياة لا تُطاق. ولا يمكن للإنسان أن يتعلق بوجوده لفترة أطول مما تحمله الحياة له من مفاتن، وعندما يتعرض لإحساسات مؤلمة أو تجتذبه دوافع معاكسة، ويكون ميله الطبيعي مشوشاً، عليه أن يسلك بالضرورة طريقاً جديداً، وهذا يوصله إلى غايته التي تظهر له أيضاً على أنَّها أقصى خيرٍ مرغوب فيه. وبهذه الطريقة يمكن شرح سلوك تلك الكائنات الحزينة التي يفرض عليها أحياناً مزاجها الشرير وضمائرها المعذبة وحزنها وسخطها، أن تتخلي عن الحياة.(70)

وتكون القوى المختلفة والمعقدة في كثيرٍ من الأحيان، والتي تعمل بالتناوب أو بشكلٍ متزامن على دماغ الإنسان، وتعدله بشكلٍ متنوع في فترات مختلفة من وجوده، هي الأسباب الحقيقية لذلك الغموض في الأخلاق، وتلك الصعوبة التي يجدها عند رغبته في كشفِ المصادر الخفية لسلوكه الغامض. إنَّ عاطفة الإنسان عبارة عن متاهة؛ لأنَّه نادراً ما نمتلك فقط الموهبة اللازمة للحكم عليها، من هنا سيظهر أنَّ ظروفه وحيرته وسلوكه، سواء كانت سخيفة أو غير متوقعة، إنّما هي النتائج الضرورية للتغييرات التي طرأت عليه؛ وهي ليست سوى نتيجة للدوافع التي تحدّدْ إرادته بشكلٍ متناوب، وتعتمد على التقلبات المتكررة التي اختبرتها عضويته. ولا يكون للدوافع ذاتها دائماً وفقاً لهذه التقلبات التأثير ذاته على إرادته؛ فالأشياء ذاتها لم تعدْ تتمتع بقدرة على إرضائه، فيتغير مزاجه على نحوٍ مؤقت أو دائم، وسوف يتغير نتيجة لذلك ذوقه ورغباته وعواطفه، ولا يمكن أن يكون هناك نوعاً من التوحيد في سلوكه، ولا أيّ يقينٍ في النتائج المتوقعة.

ولا يثبت الاختيار بأيّ حال من الأحوال القدرة الحرة عند الإنسان: فهو يتروى فقط عندما لا يعرف ما يختاره من بين الأشياء العديدة التي تحركه، وعندئذ يكون في حالة ارتباك لا تنتهي حتى تقرر إرادته أعظم الفوائد التي سيجدها في الشيء الذي يختاره أو الإجراء الذي يقوم به. ومن هنا يمكن رؤية أنَّ الاختيار ضروري؛ لأنَّه لن يحدد شيئاً أو عملاً، إذا لم يعتقد أنَّه سيجد فيه بعض الفوائد المباشرة. ويجب أن يتمتع هذا الإنسان بالقدرة الحرة ولابد أن يكون قادراً على أن يريد أو يختار من دون دافع أو أن يتمكن من منع الدوافع المفروضة على إرادته. وينجم العمل دائماً عن إرادته بمجرد تحديده، وبما أنَّه لا يمكن تحديد إرادته إلا من خلال دافعٍ ليس تحت سلطته، فهذا يعني أنَّه لم يكن أبداً متحكماً بتحديد إرادته، وبالتالي فهو لا يتصرف أبداً كفاعلٍ حر. ومن هنا كان يُعتقد أنَّ الإنسان فاعلاً حراً؛ لأنَّ لديه إرادة تتمتع بالقدرة على الاختيار، لكن لم يلتفت أحد إلى حقيقة أنَّه حتى إرادته تحركها أسباب مستقلة عنه، وترجع إلى ما هو متأصل في منظومته أو ينتمي إلى طبيعة الكائنات التي تؤثر عليه. [71] ولكن هل يتحكم بالرغبة في عدم سحب يده من النار عندما يخشى أن تحترق؟ أو أليست لديه القدرة على أن يسلب من النار الخاصية التي تجعله يخاف منها؟ وهل يتحكم بعدم اختيار طبق من اللحم، وهو يعرف أنَّه مقبول أو مناسب لذوقه، وعدم تفضيله لما يعلم أنَّه بغيض أو خطير؟ وهو دائماً يحكم على الأشياء وفقاً لأحاسيسه أو خبرته الخاصة أو افتراضاته، سواء أكانت جيدة أم سيئة، ولكن مهما كان حكمه، فهو يعتمد بالضرورة على نمط شعوره، سواء كان عادياً أو عرضياً، وعلى الصفات التي يجد أنَّها من بين الأسباب التي تحركه وتوجد رغماً عنه.

ويجب أن تؤثر عليه جميع العلل التي تعمل إرادته بموجبها بطريقةٍ محددة بما يكفي لمنحه إحساساً ما، وإدراكاً ما، وفكرة ما، سواء أكانت كاملة أو غير كاملة، وصحيحة أو خاطئة، وبمجرد تحديد إرادته، يجب أن يشعر بقوة أو بضعف، ولو لم يكن الأمر كذلك لقرّر من دون دافع. وبالتالي، يمكن القول بشكلٍ صحيح: لا توجد علل غير مكترثة بالكامل بالإرادة، مهما كان التنبيه الذي يتلقاه ضعيفاً، سواء على جزء من الأشياء ذاتها، أو على جزء من صورها أو أفكارها، وبمجرد أن تؤثر إرادته، يتم التفكير بالدافع الذي حدده. وعندما ينجم دافع طفيف أو ضعيف، تكون الإرادة ضعيفة، ويسمى هذا الضعف في إرادته بـ(اللامبالاة). ويدرك دماغه الإحساس الذي تلقاه بصعوبة، ويعمل

بالتالي بقوةٍ أقل، إما للحصول على الشيء أو الفكرة التي أدّت إلى تعديله أو استبعادها. وإذا كان التنبيه قوياً فستكون الإرادة قوية، ويجعلها تؤثر بقوةٍ للحصول على الشيء الذي يبدو له مقبولاً للغاية أو غير ملائماً للغاية أو استبعاده.

واعتقدوا أنَّ الإنسان فاعلاً حراً؛ لأنَّهم تصوروا أنَّ نفسه يمكن أن تتذكر جيداً الأفكار التي تكفي أحياناً لفحص رغباته الأكثر جموحاً.[72] وهكذا، كثيراً ما تمنعه فكرة الشر البعيد من الاستمتاع بالخير الحالي والفعلي؛ ذلك أنَّ التذكّر الذي هو تقريباً تعديل طفيف أو غير محسوس لدماغه، يقضي في كلّ لحظة على الأشياء الحقيقية التي تؤثر على إرادته. لكنه لا يتحكم في استدعاء أفكاره بنفسه بسرور، فتداعيها مستقلاً عنه، وتكون مرتّبة في دماغه رغماً عنه ومن دون معرفته، حيث تخلق انطباعاً عميقاً إلى حدٍ ما، وتعتمد ذاكرته بحدّ ذاتها على منظومته. وتعتمد أمانتها على الحالة المعتادة أو المؤقتة التي يجد نفسه فيها، وعندما تُقرر إرادته بقوة شيئاً ما أو فكرة تثير عاطفة حيوية جداً لديه، فإنَّ تلك الأشياء أو الأفكار التي ستكون قادرة على إيقاف عمله، لم تعد تظهر لذهنه، وفي تلك اللحظات يغفل عن الأخطار التي تهدده، والفكرة التي يجب أن تجعله يتسامح؛ فيسير إلى الأمام بتهورٍ نحو شيء تجعله صورته يُسرع إليه، ولا يمكن أن يؤثر تأمله بأيّ حال من الأحوال، ولا يرى سوى موضوع رغباته، وتختفي الأفكار المفيدة التي قد تكون قادرة على إيقاف تقدمه أو تظهر أيضاً بشكلٍ ضعيف أو متأخر للغاية لتمنع تصرفه. وهذا هو الحال مع كلّ أولئك الذين أعمتهم عاطفةٌ ما قوية؛ ولم يكونوا في حالةٍ تسمح لهم بالتمسك بتلك الدوافع، وكانت تكفي فكرة لوحدها وفي اللحظات الباردة لردعهم عن المضي قدماً، فيمنعهم الاضطراب الذي هم فيه من الحكم السليم، ويجعلهم غير قادرين على التنبؤ بعواقب أفعالهم، ويبعدهم عن تطبيق خبرتهم، واستخدام عقولهم، والعمليات الطبيعية التي تفترض العدل في طريقة ربط أفكارهم، ولكن دماغهم ليس أكثر كفاءةً، نتيجة للهذيان اللحظي الذي يعاني منه، من كتابة يدهم أثناء قيامهم بتمرين عنيف.

إنَّ طريقة تفكير الإنسان تحددها بالضرورة طريقة وجوده، لذلك يجب أن يعتمد على منظومته الطبيعية، والتعديل الذي يتلقاه نظامه بشكلٍ مستقل عن إرادته. ومن هذا المنطلق، علينا أن نستنتج أنَّ أفكاره وتأملاته وطريقة رؤيته للأشياء والشعور والحكم والجمع بين الأفكار ليست إرادية ولا حرة. وبعبارةٍ أخرى، لا تتحكم نفسه بالحركة المُثارة

فيها، ولا تظهر بذاتها وكما تشاء، تلك الصور أو الأفكار القادرة على مضاهاة التنبيه الذي تتلقاه. وهذا هو السبب الذي يجعل الإنسان يتوقف عن التفكير عندما يكون في حالة شغف، وفي تلك اللحظة يستحيل سماع العقل، وكذلك الحال أثناء النشوة أو في نوبة السكر. وليس الأشرار سوى بشر سكارى أو مجانين؛ وإن فكروا فلن يتم إعادة الهدوء إلى عضويتهم، ومن هنا، وليس حتى ذلك الحين، فإنَّ الأفكار المتأخرة التي تطرح نفسها على أذهانهم تمكنهم من رؤية عواقب أفعالهم، وتولد أفكاراً تجلب لهم تلك المتاعب التي تُسمى بالعار والأسف والندم.

وبناءً عليه نشأت أخطاء الفلاسفة المتعلقة بالقدرة الحرة عند الإنسان من نظرتهم إلى إرادته على أنَّها محرك أول والدافع الأصلي لأفعاله؛ ولم يدركوا بسبب عدم التكرار الأسباب المعقدة والكثيرة التي تمنح الحركة للإرادة ذاتها بشكلٍ مستقل عنه أو تهيئ دماغه وتعدّله بينما هو ذاته سلبي تماماً فيما يتعلق بالحركة التي يتلقاها. فهل يتحكم بالرغبة أو عدم الرغبة في شيءٍ يبدو مرغوباً بالنسبة له؟ لا شك أنَّ الرد على هذا السؤال سيكون: بـ(لا)، ذلك أنَّه يتحكم بمقاومة رغبته، إذا تأمل في العواقب. وهنا أسأل: هل هو قادرٌ على التفكير في هذه العواقب عندما تحثّه عاطفةٌ حيويةٌ للغاية، وتعتمد كلياً على منظومته الطبيعية، وعلى الأسباب التي تغيره؟ وهل بوسعه أن يضفي على هذه العواقب كلَّ الأهمية اللازمة لمقابلتها مع رغبته؟ وهل يتحكم بمنع الصفات التي تجعل الشيء مرغوباً فيه من أن تكون كامنة فيه؟ وهنا ينبغي أن أقول: كان يجب أن يتعلم مقاومة أهوائه، وأن يعتاد على وضع حدٍ لرغباته. وأنا أتفق مع ذلك من دون أيّ صعوبة، ولكن عند الرد اسأل مرة أخرى: هل الطبيعة عرضة لهذا التعديل؟ وهل يسمح له انفعاله، وخياله الجامح، والسائل الناري الذي يتدفق في عروقه، بعمل يمكّنه من تطبيق الخبرة الحقيقية في اللحظة التي يريدها؟ وحتى إن عزز مزاجه قدراته، فهل كان تعليمه والأمثلة المعروضة أمامه، والأفكار التي أُلهمت له في بداية حياته، مناسبة لجعله يعتاد على قمع رغباته؟ ألم تسهم كلّ هذه الأشياء بالأحرى في حثّه على البحث بحيوية، وجعله يرغب بالفعل في تلك الأشياء التي يدّعون بضرورة مقاومتها.

ويصرخ الإنسان الطموح، ستجعلني أقاوم عاطفتي ولكن ألم يردّدوا لي من دون توقف أنَّ الرتبة، والأوسمة، والقوة، هي أكثر المزايا المرغوبة في الحياة؟ ألم أر رفاقي المواطنين يحسدوهم، ويضحي النبلاء في بلدي بكلّ شيء للحصول عليها؟ أنا لست مضطراً في المجتمع الذي أعيش فيه، لأن أشعر بأنَّه إذا حُرمت من هذه المزايا، يجب أن أتوقع أن أضعف أمام الازدراء، وأن أنكمش تحت صولجان الظلم؟

ويقول البخيل: حرمتني من حب المال، والبحث عن أسباب اقتنائه، واحسرتاه! ألا يخبرني كلّ شيء أنَّ المال هو أعظمُ نعمة في هذا العالم، وأنَّه يكفي لإسعادي؟ ألستُ أرى في البلد الذي أسكن فيه، كلّ رفاقي المواطنين يطمعون بالثروات؟ ولكن ألا أشهد أيضاً أنَّهم ضعفاء فيما يتعلق بوسائل الحصول على الثروة؟ وحالما يتم إثراؤهم بالوسائل التي تدينهم، ألا يكونوا موضع اعتزازٍ وتبجيل واحترام؟ أيّ سلطة تحميني إذن من تكديس الثروة؟ وما الحق الذي يخولك منعي من استخدام الوسائل التي أراها مستحسنة من قبل ذو السيادة، على الرغم من أنَّك تسميها دنيئة وإجرامية؟ هل تريدني أن أتخلى عن سعادتي؟

ويقول الشهواني: أنت تميل مسبقاً إلى القول: إنَّني يجب أن أقاوم رغباتي، ولكن هل كنتُ أنا الخالق لطبعي الخاص بي، والذي يدعوني بلا انقطاعٍ إلى اللذة؟ أنت تسمي ملذاتي عاراً، لكن في البلد الذي أعيشُ فيه، ألا أشهد البشرَ الأكثر تشتتاً يتمتعون بالمكانةِ الأكثر تميزاً؟ ألا أرى أنَّ لا أحد يخجل من الزنا إلا الزوج الذي اغتاظ منه؟ ألا أرى بشراً يحصدون جوائز من فجورهم، ويفتخرون بفسادهم، ويكافَئون بالتصفيق؟

ويصرخُ الإنسان سيءُ المزاج: أنت تنصحني بأنْ أضع حداً لعواطفي، وأقاوم الرغبة في الانتقام لنفسي: ولكن هل يمكنني التغلب على طبيعتي؟ وهل يمكنني تغيير الآراء التي أتلقَّاها من العالم؟ ألنْ تلحقني وصمةُ عارٍ إلى الأبد، والعار معصومٌ من الخطأ في المجتمع، إذا لم أغسل بدماء صديقي الجروح التي تعرضتُ لها؟

ويهتفُ الأصولي المتعصب: أتحثّني على اللطف وتنصحني بالتسامح، وأن أغفر لآراء أقراني من البشر، ولكن أليس مزاجي عنيفاً؟ ألا أحب إلهي بشدة؟ ألا تؤكّدون لي أنَّ التعصب يرضيه، وأنَّ المضطهدين الدمويين اللاإنسانيين أصبحوا أصدقائه؟ وبما أنَّني أرغب في أن أجعل نفسي مقبولاً في نظره، فإنِّي اعتمد الوسائل ذاتها.

وباختصار، أفعال الإنسان ليست حرة أبداً؛ فهي دائماً نتيجة ضرورية لمزاجه وللأفكار المقبولة والمفاهيم، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، التي كونها لنفسه عن السعادة، ومن آرائه المعززة بالقدوة والتربية والخبرة اليومية. ولا نشهد الكثير من الجرائم على الأرض إلا لأنَّ كلّ شيء يتعاون لجعل الإنسان شريراً ومجرماً؛ ويقوده الدين الذي تبنّاه وحكومته وتربيته والنماذج المقدّمة له بشكلٍ لا يقاوم إلى الشر، وتبشره الأخلاق في ظل هذه الظروف بغيث الفضيلة. وفي تلك المجتمعات التي تُقدِّر فيها الرذيلة، تتوّج الجريمة ويتم تعويض الفساد باستمرار، ولا يُعاقب على أفظع الاضطرابات إلا من هم أضعف من التمتع بامتياز ارتكابها والعقاب عليها، ولا تُعتبر ممارسة الفضيلة سوى تضحية مؤلمة بالسعادة. وتعاقب مثل هذه المجتمعات في الأنظمة الأدنى على تلك التجاوزات التي تحترمها في الأنظمة العليا، وكثيراً ما يكون الظلم بإدانة أولئك الذين يواجهون عقوبة الإعدام، والذين جعلتهم تحيزاتهم العامة التي يحملونها على سبيل المثال، مجرمين.

وبذلك لا يكون الإنسان فاعلاً حراً في أيّ لحظة من حياته، ويسترشد بالضرورة في كلّ خطوة بتلك المزايا الحقيقية أو الخيالية التي يربطها بأشياء تثير مشاعره، وهذه المشاعر ذاتها ضرورية عند كائن يميلُ بلا توقف نحو سعادته، وتكون طاقته ضرورية، وبما أنَّها تعتمد على مزاجه؛ فمزاجه ضروري كونه يعتمد على العناصر الفيزيائية التي تدخل في تكوينه، ويكون تعديل هذا المزاج ضروري كونه النتيجة المعصومة والحتمية للدافع الذي يتلقاه من العمل المتواصل لأشياء معنوية ومادية.

وعلى الرغم من أنَّ هذه البراهين على افتقار الإنسان للقدرة الحرة واضحة جداً للعقول النزيهة، وربما سيتم الإصرار عليها من دون شعورٍ ضئيل بالانتصار، لكن إذا طلبت من أيّ شخص أن يحرك يده أو عدم تحريكها، وهو فعل يجريه عددٌ من أولئك الذين ندعوهم بـ غير المبالين، فسيبدو بشكلٍ واضح أنَّه المتحكم بالاختيار الذي نستنتج منه ذلك الدليل الذي تمّ تقديمه على قدرته الحرة. والجواب، وهذا المثال بسيط للغاية، هو أنَّ الإنسان عند أدائه لفعل ما يقرر القيام به، لا يثبت بأيّ حال من الأحوال قدرته الحرة، وتصبح الرغبة ذاتها في عرض هذه الخاصية المثيرة للخلاف، دافعاً ضرورياً يحتم على إرادته القيام بفعل أو آخر من هذه الأفعال، وما يضلله في هذه الحالة أو ما يؤكد له أنَّه فاعلاً حراً في هذه اللحظة، هو أنَّه لا يميز الدافع الحقيقي الذي يدفعه إلى الفعل؛ أيّ

الرغبة في إقناع خصمه. وإذا أصرّ في خضم النزاع وسأل: "ألستُ المتحكم برمي نفسي من النافذة؟" أجيبه: لا. وعندما يحافظ على رأيه بأنّه لا يوجد احتمال بأن تكون هناك رغبة في إثبات قدرته الحرة، تصبح الإرادةُ دافعاً قوياً بما يكفي لجعله يحاول أن يضحي بحياته، ولو ثبت أنّه فاعلاً حراً على الرغم من ذلك، وكان لابدّ له في الواقع من أن يدفع بنفسه من النافذة، فلا يضمن ذلك أن نستنتج بشكلٍ كافٍ أنّه تصرف بحرية، بل إنَّ عنف مزاجه بالأحرى هو الذي دفعه إلى هذه الحماقة؛ ذلك أنَّ الجنون حالة تعتمد على حرارة الدم لا على الإرادة. ويتحدى المتعصب أو البطل الموت بالضرورة بقدر الإنسان الأكثر بروداً أو الجبان الذي يفرُّ منه.(73)

ويُقال: إنَّ القدرة الحرة هي غياب تلك العقبات القادرة على معارضة أفعال الإنسان أو ممارسة ملكاته. ويُقال إنّه فاعلاً حراً كلّما استغل هذه الملكات، ويُحدث النتيجة التي اقتضاها لنفسه. ويكفي كردٍ على هذا الاستدلال، اعتبار أنّه أصبح الآن يعتمد على نفسه في وضع أو إزالة العقبات التي تجبره أو تعوقه؛ وأنَّ الدافع الذي يتسبب في فعله ليس أكثر قوة فيه من العقبة التي تعوقه، وسواء كانت هذه العقبة أو الدافع داخل عضويته أو خارج كيانه، فهو لا يتحكم بالتفكير الموجود بعقله والذي يحدد إرادته، وما يثير هذا التفكير هو علّة مستقلة عنه. ولكي يتحرر الإنسان من الأوهام المتعلقة بنظام قدرته الحرة، يتعين عليه ببساطة أن يلجأ إلى الدافع الذي يحدد إرادته، وسيجد دائماً أنَّ هذا الدافع خارج عن سيطرته. ويُقال نتيجة للفكرة التي يولدها العقل: إنَّ الإنسان يتصرف بحرية إذا لم يواجه أيّ عقبة. ولكن السؤال هو: ما الذي يولد هذه الفكرة في دماغه؟ وهل كان المتحكم بمنعها من الظهور أو تجديدها في دماغه؟ ألا تعتمد هذه الفكرة على الأشياء التي تمسّه ظاهرياً ورغماً عن أنفه أو على أسباب تؤثر من دون معرفته داخله وتعدّل دماغه؟ وهل يستطيع أن يمنع عينيه، ومن دون التصميم على أيّ شيء أيّاً كان، من إعطائه فكرةً عن هذا الشيء ومن تحريك دماغه؟ أليس أكثر سيطرة على العقبات الناجمة بالضرورة عن عللٍ داخلية أو خارجية، تؤثر دائماً بحسب خصائصها المحددة. فعندما يهين الإنسان جباناً على سبيل المثال، فإنَّ هذا يزعجه بالضرورة مقابل إهانته، ولكن لا يمكن لإرادته التغلب على العقبة التي يضعها الجبن أمام موضوع رغبته؛ لأنَّ تكوينه الطبيعي المستقل عنه يمنعه من الشجاعة. وفي هذه الحالة يُهان الجبان رغماً عنه؛ ويُجبر ضد إرادته على تحمل الإهانة التي تلقاها بصبرٍ.

ويبدو أنَّ أنصار نظام القدرة الحرة قد أربكهم القيد بالضرورة. حيث يعتقد الإنسان أنَّه يتصرف كفاعلٍ حر في كلّ مرة لا يرى فيها أيّ شيء يقف عقبة أمام أفعاله، ولا يدرك أنَّ الدافع الذي يجعله يريد هو دائماً ضروري ومستقل عنه. فالسجين المكبّل بالسلاسل مجبرٌ على البقاء في السجن لكنه ليس فاعلاً حراً عند رغبته في تحرير نفسه؛ حيث تمنعه قيوده من العمل لكنها لا تمنعه من أن يريد، ولأنقذَ نفسه لو أنَّه فك أغلاله، لكنه لن يخلص نفسه كفاعلٍ حر، وسيكون الخوف أو فكرة العقاب دافعاً كافياً لعمله.

ولذلك، يمكن للإنسان أن يكفّ عن أن يكون مقيداً لهذا السبب، من دون أن يصبح فاعلاً حراً، وأيّ طريقةٍ يتصرف بها سوف يتصرف بالضرورة وفقاً للدوافع التي سيقرر بموجبها. ويمكن مقارنته بجسمٍ ثقيلٍ يجد نفسه مكبلاً عند انحداره بأيّ عقبة مهما كانت، وعند إزالة هذه العقبة سينجذب أو سيستمر بالسقوط، ولكن من يقول: إنَّ هذا الجسم الكثيف حر في السقوط أم لا؟ أليس انحداره نتيجةً ضرورية لجذب خاص به؟ حيث خضع **سقراط** الفاضل لقوانين بلده رغم أنَّها كانت غير عادلة. ومع أنَّ أبواب السجن تُركت مفتوحةً له إلا أنَّه لم يخلّص نفسه. ولكنه لم يتصرف في هذا كفاعلٍ حر، حيث أبقته في سجنه سلاسلٌ من الآراء غير المرئية والحب السري للذوق، والاحترام الداخلي للقوانين وإنْ كانت جائرة، إلا أنَّ الخوف من تلطيخ مجده، والحفاظ على كيانه، كانت دوافع قوية بما فيه الكفاية لهذا التعصب للفضيلة، وتحمله على انتظار الموت بطمأنينة، ولم يكن في مقدوره أن ينقذ نفسه؛ لأنَّه لم يجد دافعاً كامناً يدفعه للابتعاد ولو للحظة عن تلك المبادئ التي اعتادَ عليها عقله.

ويُقال: كثيراً ما يتصرف الإنسان ضد ميله، ومن هنا يُستنتج خطأً أنَّه فاعلاً حراً، ولكن ما إن يبدو أنَّه يتصرف على عكس ميله، فإنَّه يقرر دائماً ذلك بدافع ما فعال بما يكفي لقهر هذا الميل. ويصلُ الإنسانُ المريض بقصد علاجه، إلى التغلب على نفوره من أكثر العلاجات إثارةً للاشمئزاز، ويصبح عندئذ الخوف من الألم أو الخوف من الموت دوافع ضرورية، وبالتالي لا يمكن القول: إنَّ هذا الإنسان المريض يتصرف بحرية.

وعندما يُقال: إنَّ الإنسان ليس فاعلاً حراً، لا يُقصد مقارنته بجسم يتحرك لمجرد سبب متهور بسيط؛ فهو يحتوي في داخله على أسبابٍ متأصلة في وجوده، ويحركه عضوٌ داخلي له قوانينه الخاصة، ويتحدد بالضرورة نتيجةً للأفكار التي تشكّلت من الادراكات

الناتجة عن الأحاسيس التي يتلقاها من الأشياء الخارجية. كما أنَّ آلية هذه الإحساسات والمدركات والطريقة التي تُنقش بها الأفكار في دماغ الإنسان غير معروفة بالنسبة له؛ لأنَّه عاجزٌ عن كشف كلّ هذه الحركات، ولكونه لا يستطيع أن يدرك سلسلة من العمليات في نفسه أو المبدأ الدافع الذي يعمل بداخله، فهو يفترض نفسه فاعلاً حراً؛ مما يفسّر ويدل حرفياً على أنَّه يتحرك بنفسه ويقرر بنفسه من دون سبب، وعندها يجب القول: إنَّه يجهل لماذا أو كيف يتصرف بالطريقة التي يعمل بها. صحيح أنَّ النفس تتمتع بفاعليةٍ خاصة بها، ولكن من المؤكد أيضاً أنَّ هذه الفاعلية لن تظهر أبداً، إذا لم يدخلها دافعٌ ما أو علة ما في حالة تمارسها من تلقاء ذاتها، ولن يُزعم على الأقل أنَّ النفس قادرة على أن تحب أو تكره من دون أن تتحرك، ومن دون أن تعرف الأشياء ومن دون أن تكون لديها فكرة عن صفاتها. ولا شكّ أنَّ للبارود فاعلية معينة، ولكن هذه الفاعلية لن تظهر بحدّ ذاتها أبداً ما لم يُطلق عليه النار، ومع ذلك يحركه هذا على الفور...فالتعقيد الكبير للحركة عند الإنسان وتنوع فعله وتعدد الأسباب التي تحركه، سواء في وقتٍ واحد أو في تتابع مستمر، هو ما يقنعه بأنَّه فاعلاً حراً. فإذا كانت كلّ حركاته بسيطة، وإذا لم تختلط العلل التي تحركه مع بعضها بعض، وإذا كانت متميزة، وإذا كانت العضوية أقل تعقيداً، فسوف يدركُ أنَّ جميع أفعاله كانت ضرورية؛ لأنَّه سيتمكن على الفور من تكرارِ الأسباب التي دفعته إلى الفعل. والإنسان الذي يجب أن يكون دائماً ملزماً بالاتجاه نحو الغرب، سيذهب دائماً في هذا الجانب، لكنه سيشعر عند قيامه بذلك أنَّه لم يكن فاعلاً حراً. وإذا كان لديه إحساسٌ آخر، كأفعاله أو حركته؛ أي مدعوماً بالحاسة السادسة، فستكون أكثر تنوعاً وأكثر تعقيداً، وسيصدق بنفسه أنَّه فاعلاً حراً أكثر مما يفعل بحواسه الخمس.

وبالتالي بسبب عدم تكرار الأسباب التي تحركه، وبسبب عدم قدرته على تحليلها، وكونه غير مؤهل لإفساد الحركة المعقدة لعضويته، يعتقد الإنسان أنَّه فاعلاً حراً، ولمجرد جهله يجد الفكرة العميقة والمخادعة لديه عن قدرته الحرة؛ فيبني تلك الآراء التي يقدمها كدليلٍ صارخٍ على ادعائه بحرية الفعل. ولو رغب كلّ إنسان ولفترة قصيرة، بفحص أفعاله الخاصة، والبحث عن دوافعها الحقيقية لاكتشف تسلسلها ولظلّ مقتنعاً بأنَّ الشعور الذي يملكه عن مقدرته الطبيعية الحرة، هو وهمٌ سرعان ما تدمره الخبرة.

ومع ذلك، يجب الاعتراف بأنَّ تنوع وتعدد العلل التي تتعاقب باستمرار على الإنسان، وفي كثيرٍ من الأحيان من دون علمه، تجعل من المستحيل أو على الأقل من الصعب للغاية بالنسبة له أن يكرر المبادئ الحقيقية لأفعاله الخاصة ناهيك عن أفعال الآخرين. وغالباً ما تعتمد على عللٍ قصيرة الأمد جداً، ومنفصلة جداً عن نتائجها، والتي إذا تم فحصها بشكلٍ سطحي، سيظهر أنّها تحتوي على تشابهٍ قليل جداً، وعلاقة ضئيلة للغاية بها، مما يتطلب دهاءً فردياً لإبرازها. وهذا ما يجعل دراسة الإنسان الأخلاقي مهمةً بهذه الصعوبة؛ وهذا هو سبب كون عاطفته هاوية يستحيل عليه في كثيرٍ من الأحيان سبر أغوارها. فيضطر بالتالي إلى الاكتفاء بمعرفة القوانين العامة والضرورية التي تنظم عاطفة الإنسان. وهذه القوانين هي ذاتها تقريباً عند أفراد جنسه، وتختلف فقط نتيجة المنظومة الخاصة بكلّ منهم، وبالتعديل الذي تخضع له، ومع ذلك لا يمكن أن تكون هي ذاتها بشكلٍ دقيق عند أيّ اثنين. ويكفي أن نعرف أنَّ الإنسان يميل من حيث ماهيته إلى الحفاظ على ذاته، ويسعد وجوده، وهذا ما يؤكد أنَّه لا يمكن أن ينخدع أبداً فيما يتعلق بدوافعه، مهما كانت أفعاله إذا ما عاد إلى هذا المبدأ الأول وهذا الاتجاه العام والضروري له. وغالباً ما يخدعُ الإنسان نفسه بوسائل الوصول إلى هذه الغاية بسبب افتقاره إلى العقل والخبرة، وفي بعض الأحيان تكون الوسائل التي يستخدمها غير سارة لجماعاته؛ لأنَّها تضرّ بمصالحهم أو تبدو تلك الصالحة له غير عقلانية؛ لكونها تبعده عن الغاية التي يريد بلوغها، ولكن مهما كانت هذه الوسائل، فإنَّها تهدف دائماً بالضرورة وبشكلٍ ثابت إلى سعادةٍ موجودة أو خيالية، وموجهة للحفاظ على ذاته في حالةٍ مماثلة لنمط وجوده وطريقة شعوره وطريقة تفكيره، سواء كانت دائمة أو مؤقتة. ومن الخطأ أمام هذه الحقيقة أن يخلق العدد الأكبر من الفلاسفة الأخلاقيين تاريخاً رومانسياً بدلاً من تاريخ الوجدان البشري، وينسبوا أفعال الإنسان لعلل وهمية، ولا يبحثوا على الأقل عن الدوافع اللازمة لسلوكه. وكان السياسيون والمشرّعون في حالة الجهل ذاتها، أو وجد المحتالون أيضاً أنَّ استخدام قوى دافعة خيالية، أضئل بكثيرٍ من تلك التي لها وجود بالفعل. واختاروا أن يجعلوه يرتعش من الأشباح غير الملائمة، بدلاً من توجيهه إلى الفضيلة من خلال الطريق المباشر إلى السعادة، على الرغم من أنَّ الأخيرة مطابقة لرغبات وجدانه الطبيعي. ولكن قد يرى الإنسان أو يعتقد أنَّه يرى بوضوحٍ الرابطة الضرورية بين المعلولات وعللها في الفلسفة الطبيعية أكثر

بكثير مما هي عليه في وجدان الإنسان. ويرى على الأقل أنَّ العلل المعقولة السابقة التي تُحدث باستمرار معلولات مدركة، هي ذاتها عندما تتشابه الظروف. ولا يتردد بعد ذلك في النظر إلى المعلولات المادية على أنَّها ضرورية، في حين يرفض الاعتراف بالضرورة بأفعال الإرادة البشرية. وينسبها من دون أيّ أساس عادل إلى قوةٍ دافعة تعمل بشكلٍ مستقل من خلال طاقة خاصة بها، والتي تكون قادرة على تعديل ذاتها من دون توافق العلل الخارجية التي يتميز بها عن كلّ الكائنات المادية أو الجسمية. فالزراعة ترتكز على الري، وعند توفر الخبرة تُحرث تلك الأرض وتُنثر البذور بها بطريقة معينة، وعندما يكون لها غير تلك الصفات المطلوبة، ستوفر الحبوب والفاكهة والزهور الضرورية للعيش أو إمتاع الحواس. وإذا نظرنا في الأمور من دون تحيز، فسوف ندرك أنَّ التربية من حيث الأخلاق ليست سوى تهذيبٌ للعقل الذي يشبه الأرض بسبب ميله الطبيعي والثقافة الممنوحة له والبذور التي تُبذر به، والمراحل الملائمة التي تقوده إلى حدٍ ما إلى النضج، وقد نتأكد من أنَّ النفس ستنتج إما الفضيلة أو الرذيلة – ثمرة أخلاقية، ستكون صالحة للإنسان أو مقيتة للمجتمع. والأخلاق هي علمُ العلاقات القائمة بين العقول والإرادات وأفعال البشر بالطريقة ذاتها التي تعتبر بها الهندسة علمُ العلاقات القائمة بين الأجسام الموجودة. وستكون الأخلاق مجرد وهم ولن يكن لها مبادئ معينة، إذا لم يتم تأسيسها على معرفة الدوافع التي يجب أن يكون لها بالضرورة تأثيرٌ على الإرادة البشرية، والتي يجب أن تقرر بالضرورة تصرفات البشر.

وإذا ترتب بالضرورة على سبب الفعل المتواصل في العالم الأخلاقي كما في العالم المادي، نتيجةً معينة وتنبثق بشكلٍ متسلسل عن تلك التربية المعقولة والمطعمة بالحقيقة والمبنية على قوانين حكيمة، وتلك المبادئ الصادقة المغروسة في شبابه، وما تحتويه من نماذج فاضلة باستمرار، فإنَّ التقدير يرتبط بالأفعال المميزة والخيّرة لا غير، ويجلب الازدراء والعار والتوبيخ بانتظام الرذيلة والباطل والجريمة، وهي أسبابٌ من شأنَّها أن تؤثر بالضرورة على إرادة الإنسان التي ستقرر العدد الأكبر من هذه الأنواع لإظهار الفضيلة. ولكن على العكس من ذلك، إذا كان الدين والسياسة والقدوة والرأي العام وكلّ عملٍ يؤيد الشر ويدرب الإنسان بشراسة، وإذا كان يخنق المبادئ الصالحة بدلاً من تأجيج الفضيلة، وإذا كان يجعل تربيته عديمة الفائدة أو عديمة الجدوى بدلاً من توجيه دراساته لصالحه، وإذا كانت هذه التربية تجد ذاتها تلحق به الرذيلة فحسب بدلاً من تأسيسه على الفضيلة، وإذا

كانت تشبعه بالتحيّز بدلاً من تهذيب العقل؛ وإذا كانت تمدّه بمفاهيم خاطئة وآراء خطيرة بدلاً من جعله مفتوناً بالحقيقة، وإذا كانت توقدُ في صدره فقط تلك المشاعر التي لا تلائمه وتؤذي الآخرين بدلاً من رعاية الاعتدال والحِلْم، فسيتوجب على ذلك بالضرورة أن يقرر الشر إرادة العدد الأكبر منهم.[74] وهنا يكمن من دون شك المصدر الحقيقي الذي ينبثق منه ذلك الفساد الكلّي الذي يتذمر منه الأخلاقيون بعدالةٍ عظيمة، وبصوتٍ عالٍ، ولكن من دون الإشارة إلى أسبابِ الشر هذه، والتي هي صحيحة بقدر ما هي ضرورية. ويبحثون عنها بدلاً من ذلك في الطبيعة البشرية، ويدّعون أنّها فاسدة،[75] ويلومون المحب لنفسه، ويوصمونه بالسعي وراء سعادته، والإصرار على أنّه يجب أن يحصل على مساعدة خارقة للطبيعة تمكّنه من أن يصبح خيّراً؛ ومع ذلك وبغض النظر عن المقدرة الحرة المفترضة للإنسان، يصرّون على أنّه ليس سوى خالقٍ لطبيعته ذاتها، ومن الضروري تدمير رغبات وجدانه الشريرة، ولكن يا للأسف! وجد أنَّ هذا الفاعل القوي نفسه غير فعال في السيطرة على تلك النزعات التعيسة، والتي تغرس باستمرار كما لوحظ من قبل، البنية المقدّرة للأشياء والدوافع الأكثر قوةً في إرادة الإنسان. فهو يُحث بالفعل باستمرار على مقاومةِ هذه العواطف؛ وكبتها واستئصالها من وجدانه، لكن أليس من الواضح أنّها ضرورية لرفاهه ومتأصلة في طبيعته؟ ألا تثبت الخبرة أنّها مفيدة للحفاظ عليه، بما أنَّ الغرض منها فقط هو تجنب ما قد يكون ضاراً والحصول على ما قد يكون مفيداً؟ وباختصار، أليس من السهل أن نرى أنَّ هذه العواطف موجهةٌ بشكلٍ جيد؛ أي أنّها تحمله نحو أشياء مفيدة حقاً وتثير اهتمامه حقاً، وتشمل سعادة الآخرين، وستساهم بالضرورة بالرفاهية الأساسية والدائمة للمجتمع؟ إنَّ عواطف الإنسان كالنار، فهي ضرورية في الوقت ذاته لاحتياجات الحياة، وقادرةٌ بالقدر ذاته على إحداث أفظع الويلات.[76]

وكلّ شيء يصبح منبهاً للإرادة، وكلمة واحدة تكفي في كثيرٍ من الأحيان لتعديل الإنسان طيلة حياته لكي يقرر نزعاته إلى الأبد، حيث يُحذّر الرضيع الذي أحترق بسبب اقترابه من لهب شمعة مضاءة، بأنَّ عليه الامتناع عن الانغماس في إغراءٍ مماثل، ولا يميل غالباً الإنسان الذي عوقب واحتُقر ذات مرة لارتكابه عملاً غير شريف إلى الاستمرار في ذلك الاتجاه غير المرغوب فيه. وأياً كانت وجهة النظر التي يأخذ بها الإنسان، لا يتصرف أبداً إلا بعد تنبيه إرادته، سواء أكان بإرادة الآخرين أو لأسباب جسدية أكثر وضوحاً.

وتقرر منظومة معينة طبيعة التنبيه، وتعمل النفوس بموجب نفوسٍ مماثلة، وتؤثر الخيالات المتقدة بسهولةٍ على عواطف قوية وعلى خيالات من السهل أن تتأجج، ويكون التقدم المفاجئ للتعصب، والتكاثر الموروث للخرافة، وانتقال الأخطاء الدينية من عرقٍ إلى آخر، والحماسة المفرطة التي يفهم بها الإنسان المعجزات، نتائج ضرورية مثل تلك التي تنتج عن فعل ورد فعل الأجسام.

وعلى الرغم من الأفكار غير المبررة التي شكّلها الإنسان لنفسه عن قدرته الحرة المزعومة، فقد تحدى أوهام هذا الحس الحميمي المفترض، والذي يقنعه في خضم خبرته، بأنَّه المتحكم بإرادته، وتكون جميع مؤسساته قائمة بالفعل على الضرورة: وبناءً على ذلك كما هو الحال في العديد من الأحداث الأخرى، ترمي الممارسة التخمين جانباً. وإذا لم يكن يعتقد بالفعل أنَّ بعض الدوافع شملتْ القوة اللازمة لتحديد إرادة الإنسان، ووقف تقدم عواطفه، وتوجيهها نحو الغاية وتعديله، فما فائدة ملكة الكلام؟ وما الفائدة التي يمكن أن نجنيها من التربية والتشريع والأخلاق وحتى من الدين ذاته؟ وما الذي تحققه التربية، سوى منح التنبيه الأول للإرادة البشرية، وجعل الإنسان يتعاقد على عادات تجبره على المثابرة عليها؛ وتمده بدوافع سواء كانت صحيحة أم خاطئة للتصرف بطريقة معينة؟ وعندما يهدد الأب ابنه بالعقاب أو يعده بمكافأة، ألا يقتنع بأنَّ هذه الأشياء ستعمل وفقاً لإرادته؟ وما الذي يحاول التشريع تقديمه لمواطني الدولة سوى تلك الدوافع التي يُفترض أنَّها ضرورية لحثهم على القيام ببعض الأعمال التي تُعتبر جديرة، والامتناع عن ارتكاب أخرى يُنظر إليها على أنَّها غير جديرة؟ وما هو هدف الأخلاق، إذا لم تُظهر للإنسان أنَّ مصلحته تتطلب أن يقمع الانفعال المؤقت لعواطفه بهدف تعزيز سعادة أكثر تأكيداً، ورفاهية أكثر ديمومة، مما يمكن أن ينتج عن إشباع رغباته العابرة؟ ألا يفترض دين جميع البلدان أنَّ الجنس البشري والطبيعة بالكامل يخضعان لإرادة كائن شديد الإغواء بالضرورة ينظم أوضاعهم بموجب القوانين الأبدية للحكمة الثابتة؟ أليس هذا الإله الذي يعبده الإنسان هو المتحكم المطلق بمصيرهم؟ أليس هذا الكائن الإلهي هو الذي يختار ويرفض؟ أليست اللعنات التي شجبها الدين والوعود التي يبرمها، مبنية على فكرة الآثار التي تتركها هذه الكائنات الخرافية بالضرورة على الجهلة والخجولين؟ ألم يأتِ الإنسان إلى الوجود من خلال هذا النوع من الألوهية من دون معرفته؟ ألا يُفرض عليه أن يلعب دوراً

ضد إرادته؟ ألا تتوقف سعادته أو بؤسه على الدور الذي يلعبه؟[77] وحيث تظهر التربية بالضرورة للأطفال فحسب، ويظهر التشريع بالضرورة لأعضاء الجسم السياسي، تكون الأخلاق ضرورية للعلاقات القائمة بين البشر وتظهر للكائنات المعقولة: وباختصار، يمنح الإنسان الضرورة لكلّ شيء يعتقد أنَّ لديه بعض الخبرة السديدة عنه، وتلك التي لا يفهم فيها الارتباط الضروري بين العلل ومعلولاتها يدعي أنَّها احتمالية، ولن يتصرف كما يفعل، إذا لم يكن مقتنعاً أو على الأقل، إذا لم يفترض أنَّ بعض النتائج ستنجم بالضرورة عن أفعاله. ويعظُ الأخلاقي بالعقل؛ لأنَّه يعتقد أنَّه ضروري للإنسان، ويكتب الفيلسوف؛ لأنَّه يعتقد أنَّ الحقيقة يجب أن تسود عاجلاً أم آجلاً على الباطل، ويكره اللاهوتيون والطغاة بالضرورة الحقيقة ويحتقرون العقل؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّهما يضران بمصالحهم، والحاكم الذي يسعى إلى ردع الجريمة بقسوة قوانينه ولكنه يجعلها مع ذلك مفيدة في كثيرٍ من الأحيان وحتى ضرورية لأغراضه، يفترض أنَّ الدوافع التي يستخدمها ستكون كافية لإبقاء رعاياه ضمن الحدود. ويؤخذ الجميع بالاعتبار على حدٍ سواء بحسب القوة أو ضرورة الدوافع التي يستفيدون منها، ويخدع كلّ فرد نفسه بسبب أو من دون سبب، بأنَّ هذه الدوافع سيكون لها تأثير على سلوك البشرية. وبالتالي، فإنَّ تربية الإنسان عادةً ما تكون معيبة أو غير فعالة؛ لمجرد أنَّ التحيز ينظمه، حتى وإن كانت هذه التربية جيدة، إلا أنَّها تواجه في كثيرٍ من الأحيان بسرعة ويتم تدمير كلّ شيء يحدث في المجتمع. وغالباً ما تكون التشريعات والسياسة ظالمة، ولا تفيد بهدفٍ أفضل من تأجيج المشاعر في صدر الإنسان، وما أن تظهر لن يعد بإمكانه كبح جماحها. ويجب أن يشير الفن العظيم عند الأخلاقي للإنسان ولأولئك المهتمين بمركز تنظيم إرادته، إلى أنَّ مصالحهم محددة، وأنَّ سعادتهم المتبادلة تعتمد على الانسجام بين عواطفهم، وأنَّ سلامة وقوة وأجل الإمبراطوريات، يعتمد بالضرورة على الحس السليم المنتشر بين الأعضاء، وعلى حقيقة المفاهيم المغروسة في ذهن المواطنين، وعلى الخير الأخلاقي المنثور في قلوبهم، وعلى الفضائل المزروعة في صدورهم. ولا ينبغي قبول الدين إلا إذا قام بتحصين هذه الدوافع وتقويتها حقاً، وإن كان من الممكن للباطل تقديم مساعدة واقعية للحقيقة. ولكن في الحالة البائسة التي أغرق فيها الضلال قسماً كبيراً من الجنس البشري، يجب أن يكون الإنسان في الغالب شريراً أو يؤذي مخلوقاً قرينٌ له، وتحفزه أقوى الدوافع على ارتكاب الشر. ويجعله الدين كائناً عديم الفائدة،

ويجعله عبداً حقيراً، ويجعله يرتعش رعباً منه أو يحوله إلى متعصب محتد، وقاسٍ وغير متسامح وغير إنساني في الآنِ ذاته، وتسحقه القوة التعسفية وتجبره على أن يصبح متذمراً وشريراً، ولا يعاقب القانون على الجريمة إلا أولئك الذين هم أضعف من أن يعارضوا مساره، أو عندما يصبح غير قادر على كبح التجاوزات العنيفة التي تولدها حكومة سيئة. وباختصار، يعتمد التعليم المُهمَل والمحتقر على الكهنة والمحتالين أو على الوالدين الذين لا يفهمون ويكونون بلا أخلاق، والذين يثيرون في ذهن طلابهم تلك الرذائل التي يعذبون بها، وينقلون لهم الآراء الخاطئة التي لديهم مصلحة في تبنّيها.

ويثبت كلّ ذلك ضرورة العودة إلى المصدر البدائي لضلال الإنسان، إذا كان بقصد تزويده حقاً بالعلاجات المناسبة. ومن غير المجدي أن نحلم بتصحيح أخطائه، حتى تُكتشف الأسباب الحقيقية التي تحرك إرادته، أو تُستبدل الدوافع الأكثر واقعية، والأكثر فائدةً، والأكثر يقيناً بتلك التي وجد أنّها غير فعالة وخطيرة للغاية على كلّ من المجتمع ونفسه. وينبغي أن يبحث أولئك الذين يوجهون الإرادة البشرية وينظمون حالة الأمم، عن هذه الدوافع التي سيزودهم بها العقل بسهولة، وقد يصبح الكتاب الجيد الذي يلامس قلب أمير عظيم، سبباً قوياً للغاية وله بالضرورة تأثيرٌ على سلوكِ شعبٍ بأسره، وسيقرر سعادة قسم من الجنس البشري.

وينتج عن ذلك وعن كلّ ما قدمناه في هذا الفصل، أنّه لا يوجد إنسان يكون فاعلاً حراً في لحظة واحدة من وجوده. ولم يكن مهندساً من حيث تكوينه الذي يحمله من الطبيعة، وليس لديه أيّ سيطرةٍ على أفكاره أو على تعديل دماغه؛ وهذه ناتجة عن أسبابٍ تؤثر عليه رغماً عنه، ومن دون علمه وبلا توقف، ولا يتحكم بعدمِ حب أو اشتهاء ما يراه وديّاً أو مرغوباً، ولا يكون قادراً على رفض التروي عندما يكون غير متأكد من النتائج التي ستحدثها أشياء معينة عليه، ولا يستطيع تجنب اختيار ما يعتقد أنّه سيكون أكثر فائدةً له، وفي اللحظة التي تقرر فيها إرادته باختياره، لا يكون مؤهلاً للتصرف بخلاف ما يفعله. ولكن ما هي الحالة التي يكون فيها متحكماً بأفعاله؟ وفي أيّ لحظة يكون فاعلاً حراً؟[78]

وتكون الخطة التي يوشك على القيام بها دائماً نتيجة لما كان – لما هو عليه – لما فعله حتى لحظة الفعل، ويحتوي وجوده الكلي والفعلي في ظل كلّ ظروفه المحتملة على مجموع كلّ دوافع الفعل الذي يوشك على القيام به، وهذا مبدأ لا يستطيع أيّ كائنٍ مفكر أن يرفض اعتماده؛ فحياته عبارة عن سلسلة من اللحظات الضرورية، وسلوكه سواء أكان جيداً أم سيئاً، وفاضلاً أم شريراً، ومفيداً أو ضاراً، وسواء تجاه نفسه أو الآخرين، هو سلسلة من الأفعال الضرورية مثل كلّ لحظات وجوده. فلكي يعيش، يجب أن يكون في وضع ضروري خلال نقاط تلك المدة التي تخلف بعضها عن بعض بالضرورة، والإرادة هي الإذعان أو عدم البقاء كما هو، ولكي يكون حراً، ينبغي الاستسلام للدوافع الضرورية التي يحملها بداخله.

وإذا فهم دور أعضائه، وكان قادراً على أن يتذكر بنفسه كلّ التنبيهات التي تلقتها، وجميع التعديلات التي خضعت لها، وجميع التأثيرات التي أحدثتها، فسوف يدركُ أنَّ جميع أفعاله تخضع لذلك القدر الذي ينظم نظامه الخاص ونظام الكون بأكمله. ولا يحدث لديه ولا في الطبيعة انطباعٌ من تلقاء ذاته وبالصدفة، فهذه كما أثبتنا من قبل كلمة خالية من المعنى. وكلّ ما يمر به وكلّ ما يحدث له، وكذلك كلّ ما يحدث في الطبيعة أو ما ينسب إليها، مشتقٌّ من أسبابٍ ضرورية تعمل وفقاً للقوانين اللازمة التي تحدث النتائج الضرورية التي ينتج عنها أخرى بالضرورة. والقدر هو النظام الأبدي والثابت والضروري الذي يُبرهن عليه في الطبيعة أو الارتباط الذي لا غنى عنه بين العلل التي تحدث والمعلولات المترتبة عليها. ووفقاً لهذا الترتيب، تسقط الأجسام الثقيلة وترتفع الأجسام الخفيفة، وما هو متشابه من حيث المادة ينجذب بشكلٍ متبادل، وما هو غير متجانس ينفر بشكلٍ متبادل، ويجتمع الإنسان في المجتمع ويغير كلّ رفاقه؛ فيصبح إما فاضلاً أو شريراً، إما أن يساهم في سعادته المتبادلة أو يبادله بؤسه، إما أن يحب قرينه أو يكره بالضرورة، حسب طريقة تصرف كلّ منهما مع الآخر. ومن هنا يمكن أن نرى أنَّ الضرورة ذاتها التي تنظم العالم المادي، تنظم أيضاً العالم الأخلاقي، حيث يخضع كلّ شيء نتيجة لذلك للقدر. فالإنسان عندما يتخطى في كثيرٍ من الأحيان من دون معرفته وغالباً رغماً عنه، الطريق الذي حددته الطبيعة له، يشبه السبّاح الذي يتعين عليه اتباع التيار الذي يجرفه، فهو يعتقد أنَّه فاعلاً حراً؛ لأنَّه يقبل أحياناً ولا يقبل أحياناً أخرى الانزلاق مع التيار الذي

يدفعه دائماً على الرغم من ذلك إلى الأمام، ويعتقد أنَّه المتحكم بحالته؛ لكونه مضطرٌ لاستخدام ذراعيه خوفاً من الغرق.

ستجد أنَّ القدر لا يرغب بذلك.

سينيكا Seneca (*)

وبالتالي تتأسس الأفكار الخاطئة التي شكّلها لنفسه عن القدرة الحرة، بشكلٍ عام على هذا النحو: هناك أحداثٌ معينة يرى أنَّها ضرورية، إما لأنَّه يرى أنَّها معلولات مرتبطة بشكلٍ دائم وثابت بعللٍ معينة لا يبدو أنَّ هناك شيئاً يمنعها، أو لأنَّه يعتقد أنَّه اكتشف سلسلة من العلل والمعلولات التي وضعَت لتقديم تلك الأحداث، في حين أنَّه يفكر في أحداثٍ ممكنة أخرى يجهل عللها، ولا يعرف طريقة عملها. ولكن في الطبيعة، حيث يرتبط كلّ شيء برباط مشترك واحد، لا يوجد معلول من دون علة. وكلّ شيء يحدث في العالم الأخلاقي وفي العالم المادي، ناجم بالضرورة عن عللٍ، سواء كانت مرئية أو مخفية، وملزماً بالضرورة بالتصرف وفقاً لماهيته الخاصة. وليست القدرة الحرة عند الإنسان سوى ضرورةٌ متضمنةٌ فيه.

* - لوكيوس سينيكا: (4ق.م-65م) فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني، كتب أعماله باللغة اللاتينية.(المترجم) للمزيد أنظر [الموسوعة العربية | سينيكا (لوكيوس أنايوس-) (إنسانية) (arab-ency.com.sy)]

الفصل الثاني عشر
فحص الرأي الذي يُظهر أنَّ نظام القدرية خطير

لا غنى عن الخبرة بالنسبة لكائنٍ تفرض عليه ماهيته أن يمتلك ميلاً ثابتاً لحفظه وإسعاد ذاته، ومن دونها لا يستطيع اكتشاف الحقيقة، وكما قيل سابقاً فهي ليست سوى معرفة العلاقات الثابتة بين الإنسان والأشياء التي تؤثر عليه؛ ويسمي بحسب خبرته أولئك الذين يساهمون في رفاهه الدائم، بالنافعين والمفيدين؛ ويصفُ أولئك الذين يجلبون له اللذة الدائمة إلى حدّ ما بالمقبولين. ولا تصبح الحقيقة ذاتها موضوعاً لرغباته إلا عندما يعتقد أنّها مفيدة، ويخشاها كلّما افترض أنّها ستؤذيه. ولكن هل تمتلك الحقيقة القدرة على إيذائه؟ وهل من الممكن أن ينتج شر الإنسان عن الفهم الصحيح للعلاقات التي تربطه بكائنات أخرى؟ أليس صحيحاً أنّه يمكن أن يتأذى من خلال معرفته لتلك الأشياء التي يهتم بامتلاك معرفة عنها من أجل سعادته؟ لا! لا ريب أنَّ الحقيقة تؤسس قيمتها وحقوقها بناءً على فائدتها، وقد تكون في بعض الأحيان غير مقبولة عند الأفراد، بل وقد تبدو مناقضة لمصالحهم؛ ولكنها ستكون مفيدة دائماً للجنس البشري بأكمله، إذ يجب أن تبقى مصالحه مختلفة دائماً عن مصالح البشر الذين خدعتهم عواطفهم الخاصة، ويعتقدون أنَّ مصلحتهم تكمن في إيقاع الآخرين في الخطأ.

ومن هنا تعدُّ المنفعة محكّاً لأنظمة الإنسان وآرائه وأفعاله. وهي معيارٌ للتقدير والحب الذين يدين بهما للحقيقة ذاتها؛ فالحقائق الأكثر فائدة هي الأكثر تقديراً، لذلك يسمي تلك الحقائق الأكثر إثارةً للاهتمام بالنسبة لجنسه، باسم البارزة، أما تلك الحقائق التي تقتصر منفعتها على تسلية بعض الأفراد الذين ليس لديهم أفكاراً متطابقة، وأنماط شعور متشابهة، وتفتقر لتناظر مع أفكاره، فإنّه يحتقرها أو يسميها عقيمة.

ووفقاً لهذا المعيار يجب الحكم على المبادئ المنصوص عليها في هذا العمل. وسوف يعترف أولئك المدركين للسلسلة الهائلة من الأذى الحاصل على الأرض بفعل أنظمة الخرافة الخاطئة، بأهمية معارضتهم لأنظمة أكثر توافقاً مع الحقيقة، ومستمدة من الطبيعة، وقائمة

على الخبرة. وسوف يفكر أولئك الذين يهتمون أو يعتقدون أنهم مهتمون بالحفاظ على الأخطاء الراسخة، برعبٍ من الحقائق المقدمة لهم هنا، وباختصار، سوف يعتبر هؤلاء البشر المفتونين والذين لا يشعرون إلا بضعفٍ شديد من عبء البؤس الهائل الذي يلحق بالبشرية بسبب التحيزات اللاهوتية، أنَّ جميع مبادئنا عديمة الفائدة أو أنَّها حقائق عقيمة إلى حدّ ما وتؤخذ بالحسبان لتسلية ساعات الخمول عند قلة من المتأملين.

لذلك، لا داعي للاندهاش من الأحكام المختلفة التي يصدرها الإنسان؛ فمصالحه لم تكن بحد ذاتها سوى مفاهيمه عن المنفعة، لكونه يدين أو يحتقر كلّ شيء لا يتوافق مع أفكاره الخاصة. ولتأكيد هذا دعونا نفحص ما إذا كان مذهب القدرية مفيداً أم خطيراً في نظرِ الإنسان النزيه غير المتورط في التحيز، والذي يدرك سعادة جنسه؟ ودعونا نرى ما إذا كانت عبارة عن تكهنات عقيمة وليس لها أيّ تأثير على سعادة الجنس البشري؟ وقد ظهر بالفعل أنَّها ستوفر للأخلاق حججاً فعّالة، ودوافع حقيقية لتحديد الإرادة، وتزويد السياسة بالمستوى الحقيقي لانبثاق النشاط المناسب في عقل الإنسان. وسيتبين أيضاً أنَّها تفيدُ في شرحِ آلية أفعال الإنسان، والظواهر الأهم في قلب الإنسان بطريقة مبسّطة. وإذا لم ينجم عن أفكاره من ناحية أخرى سوى تكهنات غير مثمرة، فلا يمكن أن يهتم بسعادة الجنس البشري. وسواء كان يؤمن بأنَّه فاعلاً حراً أو كان يعترف بضرورة الأشياء، فإنَّه يتّبع دائماً الرغبات المطبوعة على نفسه. إنَّ التربية العقلانية، والعادات الصادقة، والأنظمة الحكيمة، والقوانين المنصفة، والمكافآت الموزعة بإنصاف، وإنزال العقوبات بعدل، ستجعل الإنسان فاضلاً؛ بينما يمكن أن يكون للتكهنات الشائكة والمليئة بالصعوبات في كثير من الأحيان تأثيرٌ فقط على الأشخاص الذين اعتادوا على التفكير.

وسيكون من السهل جداً بعد هذه التأملات، أن نزيل الصعوبات التي تعارض بلا توقف نظام القدرية، الذي يرغب الكثير من الأشخاص الذين أعمتهم أنظمتهم الدينية في اعتباره خطيراً ويستوجب العقوبة، وأُخِذَ بالحسبان لزعزعة الهدوء العام، والميل إلى فك القيود عن المشاعر وتشويش الأفكار المتعلقة بالرذيلة والفضيلة.

ويقول المعارضون للضرورة: إذا كانت كلّ تصرفات الإنسان ضرورية، فليس هناك حق مهما كان في معاقبة الأشرار أو حتى الغضب من مرتكبيها؛ ويجب ألا يُنسب إليهم شيء، وستكون القوانين ظالمة إذا فرضت عقوبات على الأفعال الضرورية. وباختصار، لا يمكن أن يمتلك الإنسان في ظل هذا النظام أيّ ميزةٍ أو عيب. وقد يُقال رداً على ذلك،

إنَّ إسناد فعل ما إلى أيّ شخص، يعني إسناد ذلك الفعل إليه – اعترافه بأنَّه الخالق له، وهكذا، حتى وإنْ افترض أنَّ الفعل ناجمٌ عن فاعل، وأنَّه فاعلاً بالضرورة، فإنَّ الإسناد سيظل زائفاً؛ وتكون الجدارة أو النقص المنسوبان إلى فعل ما عبارة عن أفكارٍ ناجمة عن آثار قد تكون مواتية أو ضارة، وناجمة عن أولئك الذين يختبرون تطبيقها؛ ولذلك ينبغي عندها الاعتراف بأنَّ الفاعل كان مضطراً، ولا يكون فعله بالتأكيد خيراً أو شراً، وجديراً بالتقدير أو الازدراء بالنسبة لأولئك الذين شعروا بتأثيره، وباختصار، سيكون قادراً على إثارة حبهم أو إثارة غضبهم. ويمكن اعتبار الحب والغضب نمطان من أنماط الوجود الملائمة لتعديل أفراد الجنس البشري؛ لذلك عندما يزعج الإنسان قرينه، فهو ينوي إثارة خوفه أو حتى معاقبته. ويكون غضبه علاوة على ذلك ضروري، وناجمٌ عن طبيعته ومزاجه. ولا يكون الإحساس المؤلم الناتج عن سقوطِ الحجر على الذراع مزعجاً أقل من ذلك؛ لأنَّه يأتي من سببٍ يفتقد للإرادة، ويعمل بحسب ضرورة طبيعته. وعندما نفكر في أنَّ الإنسان يتصرف حسب الضرورة، فمن المستحيل تجنب التمييز بين طريقة الفعل أو الكينونة المقبولة التي تثير الاستحسان، وبين تلك التي تثير حزنه وتزعجه، وتلومه الطبيعة عليها وتمنعها. ومن هنا يتبين أنَّ نظام القدرية لا يغير بأيّ شكل من الأشكال الحالة الفعلية للأشياء، ولا يؤخذ بالحسبان بأيّ حال من الأحوال لتشويش أفكار الإنسان عن الفضيلة والرذيلة.(79)

من هنا توضع القوانين بهدف الحفاظ على المجتمع، ومنع الإنسان المرتبط بها من إيذاء جاره، وهي مهيأة بالتالي لمعاقبة أولئك الذين يعكرون انسجامه أو الذين يرتكبون أفعالاً تضر بأقرانهم، وسواء كانت تلك الجماعات فاعلة بالضرورة أو فاعلين أحرار، فيكفي أن نعرف أنَّهم قابلين للتعديل، وبالتالي يخضعون لتطبيق القانون. وقوانين العقوبات هي تلك الدوافع التي أظهرت الخبرة أنَّها قادرة على كبح جماح المشاعر المثيرة لإرادة الإنسان أو القضاء عليها؛ وقد يستمد الإنسان هذه المشاعر من أيّ سبب ضروري، ويقترح المشرّع إيقاف تأثيرها، ويتخذ عندها الوسائل المناسبة التي يكون متأكداً من نجاحها. ولا يفعل المحامي شيئاً حيال الجريمة، والمشنقة، والتعذيب، أو أيّ تأديب آخر، أكثر مما يفعله المهندس المعماري الذي يضع مزاريب عند بناء منزل ليقيه من المطر، ويمنعه من إضعاف الأساس.

ومهما كان السبب الذي يُلزم الإنسان بالتصرف، فإنَّ المجتمع له الحق في احباط النتائج، بقدر ما يجب على الإنسان الذي سيدمر أرضه نهر أن يسد مياهه بالركام، أو أن يكون قادراً أيضاً على تحويل مساره. وبموجب هذا الحق، يتمتع المجتمع بسلطةِ ترهيب ومعاقبة أولئك الذين قد يميلون إلى إلحاق الأذى بقصد الحفاظ عليه أو أولئك الذين يرتكبون أفعالاً يُعترف حقاً أنَّها تقلق طمأنينته أو تهدد أمنه، أو تبغض سعادته.

وربما سيُقال إنَّ المجتمع لا يعاقب عادةً على تلك الأخطاء التي لا نصيب للإرادة فيها، بل يعاقب بموجب الإرادة وحدها، وهي من يقرر طبيعة الجريمة، ودرجة فظاعتها؛ فلا يجب معاقبته إن لم تكن الإرادة حرة. وأجيبُ إنَّ المجتمع عبارة عن مجموعة من كائنات حساسة سريعة التأثّر بالعقل وترغب في تحقيق رفاهيتها، وتخشى الشر وتبحث عن الخير. ويمكن لهذه التصرفات أن تعدّل إرادتهم أو تحددها، بحيث تكون قادرة على تحمّل مثل هذا السلوك الذي سيؤدي إلى الغاية التي ينظرون إليها. والتربية، والقوانين، والرأي العام، والقدوة، والعادة، والخوف، هي الأسباب التي يجب أن تعدّل الإنسان المقترن بها، وتؤثر على إرادته، وتنظّم عواطفه، وتكبح أفعال من يمكنه إلحاق الضرر بالغاية من اقترانه، وتجعله يوافق بالتالي على السعادة العامة. وهذه الأسباب ذات طبيعة تؤثر على كلّ إنسان تمكنه منظومته وماهيته من التعاقد مع العادات وأنماط التفكير وطريقة التصرف التي يكون المجتمع على استعداد لإلهامه بها. وجميع أفراد الجنس البشري عرضة للخوف؛ ويترتب على ذلك كنتيجة طبيعية، أنَّ خوفهم من العقاب أو حرمانهم من السعادة التي يرغبون فيها، هي دوافع يجب بالضرورة أن تؤثر بشكلٍ أو بآخر على إراداتهم وتنظّم أفعالهم. فإذا عُثر على الإنسان الذي تكوَّن بشكلٍ سيء بحيث يقاوم تلك الدوافع التي تؤثر على جميع أقرانه أو لا يشعر بها، فلن يتأقلم مع العيش في المجتمع وسيعارض الغاية من اقترانه بهم، وسيكون عدواً لهم. وسيضع عقبات أمام اتجاهه الطبيعي، وتصرفه المتمرد، وإرادته غير المنضبطة، ولن يتعرض لذلك التعديل الذي يناسب مصالحه الحقيقية ومصالح مواطنيه، وسيتحد هؤلاء بحد ذاتهم لمواجهة هذا العدو، وسوف يحكم القانون الذي هو تعبيرٌ عن الإرادة العامة، بالعقاب الشديد على ذلك الفرد العنيد الذي لم يكن يتوقع أن يكون للدوافع التي قدمها له المجتمع أيّ تأثير. ونتيجة لذلك، سيتم تأديب مثل هذا الإنسان غير

المنضبط، وسيصبح بائساً، وسيتم إقصاؤه عن المجتمع بحسب طبيعة جريمته، ككائن قليلاً ما يأخذ بالحسبان التوافق بين آرائه.

وإذا كان للمجتمع الحق في الحفاظ على نفسه، فلديه أيضاً الحق في اتخاذ الوسائل؛ وهذه الوسائل هي القوانين التي تقدم لإرادة الإنسان تلك الدوافع الأنسب لردعه عن ارتكاب أعمالٍ ضارة. وإذا فشلتْ هذه الدوافع في إحداث التأثير الصحيح؛ أي إنْ كانت غير قادرة على التأثير عليه، فإنَّ المجتمع ملزم من أجل مصلحته الخاصة، بأن ينتزع منه القدرة على إحداث ضررٍ أكبر. وأيّاً كان المصدر الذي تنشأ عنه أفعاله، سواء كانت ناجمة عن مقدرته الحرة أو عن الضرورة، فإنَّ المجتمع يفرضها عليه، وإذا زوده بدوافع قوية بما يكفي للتأثير على الكائنات الحساسة، فسيدرك أنَّ هذه الدوافع لم تكن مهيأة لقهر طبيعته الفاسدة. ويعاقبه بالعدل عندما تكون الأفعال التي يثنيه عنها ضارة حقاً بالمجتمع، وله حق لا جدال فيه في معاقبته عندما يأمر أو يدافع فقط عن تلك الأشياء التي تتوافق مع الغاية التي اقترحها الإنسان عند اقترانه به. ولكن لا يُعطى للقانون على الرغم من ذلك الحق في معاقبته، إذا فشل في منحه الدوافع اللازمة للتأثير على إرادته، وليس له الحق في أن يُفرض عليه، إذا كان إهمال المجتمع قد حرمه من وسائل العيش وممارسة مواهبه، وممارسة صناعته، والعمل من أجل رفاهيته. وتكون القوانين ظالمة عندما تعاقب أولئك الذين لم يتلقوا تعليماً ولا مبادئ نزيهة، والذين لا يمكّنهم التعاقد على عادات ضرورية للحفاظ على المجتمع، وهي ظالمة عندما تعاقبهم على أخطاء جعلتها حاجاتهم الطبيعية أو دستور المجتمع ضرورية لهم. وتكون ظالمة وغير عقلانية كلما وبختّهم بسبب اتباعهم لتلك الميول التي يتضافر كلّ من القدوة، والرأي العام، والمؤسسات والمجتمع بحد ذاته لمنحه إياها. وباختصار، يكون القانون معيباً عندما لا يتناسب حجم العقوبة مع الشر الحقيقي الذي يتكبده المجتمع. ويصل الظلم والحماقة إلى أقصى حد عندما يكون المجتمع أعمى لدرجة معاقبته للمواطنين الذين خدموا مصلحته.

وهكذا عندما تُظهر قوانين العقوبات أشياءً مرعبة لإنسان يُفترض أنّه تعرض للخوف، تقدم له دوافع بقصد التأثير على إرادته. وتكون فكرة الألم، والحرمان من الحرية، والخوف من الموت بالنسبة لكائنٍ جيد التكوين من حيث التمتع الكامل بملكاته، عقبات شديدة للغاية تعارض بقوة بحد ذاتها تأثير رغباته الجامحة، والتي تفشل عندما لا تفرضها

إرادته في إيقاف تقدمه، فيصبح كائناً غير عاقل، ومجنون، وكائن منظم بشكلٍ سيء، ويحق للمجتمع بالمقابل أن يصون نفسه وأن يتخذ تدابير من أجل أمنه. ويُعتبر الجنون بلا شك حالة لا إرادية وضرورية، ومع ذلك، لا يشعر أحد أنَّه من الظلم حرمان المجانين من حريتهم، على الرغم من أنَّ أفعالهم لا يمكن أن تُنسب إلا إلى اضطراب دماغهم. في حين أنَّ الأشرار بشرٌ ذو دماغ مضطرب بشكلٍ دائم أو عابر، ولا يزال يتعين معاقبتهم بسبب الشر الذي يرتكبونه، ويجب وضعهم دائماً في حالة يستحيل معها إيذاء المجتمع، فإذا لم يبقَ أمل في إعادتهم إلى السلوك المعقول، واعتماد طريقة عمل تتوافق مع الغاية العظيمة لاقترانهم، فلابدّ من حرمانهم إلى الأبد من منافعه.

ولن يكون من الضروري أن نبحث هنا في مدى تنفيذ العقوبات التي يفرضها المجتمع بشكلٍ معقول على أولئك الذين يسيئون إليه. ويبدو أنَّ العقل لابدَّ أنْ يشير إلى أنَّ القانون يجب أن يبدي تساهلاً، فيما يتعلق بجرائم الإنسان الضرورية، مع كلّ ما يتوافق مع الحفاظ على المجتمع. وكما رأينا لا يترك نظام القدرية الجريمة بلا عقاب، بل يأخذها بالحسبان على الأقل لتهدئة الهمجية التي يعاقب بها عدد من الأمم الضحايا على انفعالهم. وتصبح هذه القسوة أكثر سخافةً عندما تُظهر الخبرة عدم جدواها، وتجعل عادة مشاهدة العقوبات الشرسة المجرمين يتآلفون مع الفكرة. فإن صَدُق أنَّ المجتمع يمتلك الحق في سلب حياة أعضائه، وإذاكان صحيحاً من الآن فصاعداً أنَّ موت المجرم الذي لا طائل منه حقاً من الممكن أن يكون مفيداً للمجتمع، (والذي سيكون من الضروري دراسته) فالإنسانية تفرض على الأقل أنَّ هذا الموت لا ينبغي أن يكون مصحوباً بعذابٍ لا طائل منه، ولا يُظهر سوى ابتهاج القوانين كثيراً في التغلب على ضحيتها. وتحبط هذه القسوة غايتها؛ لأنَّها لا تؤدي سوى إلى جعل الجاني الذي وقع ضحية الثأر العام، يعاني من دون أيّ ميزة للمجتمع. وهي تثير شفقة المتفرج واهتمامه لصالح الجاني البائس الذي يأنُّ تحت ثقله، ولا تبهر الشرير بشيء عندما يوجّه مشهد تلك الأعمال الوحشية إليه سوى أنَّها تجعله في كثير من الأحيان أكثر شراسةً وأكثر قسوةً، وأكثر عداءً لأقرانه، ولو كان مثال الموت أقل شدةً، حتى من دون أن يكون مصحوباً بالتعذيب لكان أكثر تأثيراً.[80]

ماذا يمكن أن يُقال عن القسوةِ الظالمة عند بعض الأمم الّتي تُظهر أنَّ القانون الذي كان هدفه مصلحة الكل، قد وضع فقط لصالح الأقوى ولا تتناسب بموجبه العقوبات مع الجريمة، ويقضي بلا رحمة على حياة البشر الذين أجبرتهم الضرورة الملحة على اقتراف الجريمة؟ وهكذا توضع حياة المواطن في عددٍ كبيرٍ من الدول المتحضرة في الموازين ذاتها مع المال، فهل يُعدم ذلك البائس التعيس الذي يهلك من الجوع والبؤس؛ لأنَّه أخذ قسماً هائلاً من فائض شخص يراه محفوفاً بالوفرة؟ هذا هو ما يسمى في العديد من المجتمعات المستنيرة للغاية بالعدالة أو جعل العقوبة تتناسب مع الجريمة.

ويصبح هذا الإثم الفظيع أكثر شناعةً عندما تقضي القوانين بأقصى أشكال التعذيب على الجرائم التي ولدّتها العادات غير العقلانية؛ أيّ المؤسسات السيئة المتعددة. فالإنسان لا يميل إلى تكرار الشر كثيراً لو لم يبدو كلّ شيء يحثه على ارتكابه، ويُظهر له بشكلٍ متكرر أنَّ الرذيلة منتصرة وأنَّ تعليمه باطل في معظم الحالات، ولا يتلقى من المجتمع أيّ مبادئ أخرى باستثناء مبادئ الدين المبهم الذي يشكّل حاجزاً ضعيفاً ضد نزعاته، وعبثاً يصرخ له القانون: "كف يدك عن خيرات جارك"؛ وتعلن له رغباته الأقوى بصوتٍ عالٍ أنَّه يتوجب عليه العيش على حساب مجتمع لم يقدم له شيئاً، ويحكم عليه أن يئن في البؤس والعوز، ويُحرم في كثيرٍ من الأحيان من الضروريات العامة، ويعوض نقصه عن طريق السرقة والاغتيال، وتصبح مهنته النهب وتجارته القتل، ويسعى على حساب حياته لإشباع تلك الرغبات التي يتضافر كلّ شيء من حوله على ولادتها سواء كانت حقيقية أو خيالية. ولكونه حُرم من التعليم ولم يتعلّم كيف يسيطر على غضبه، ليس لديه أفكار عن الحشمة ومفتقرٌ إلى المبادئ الحقيقية للشرف، ومنخرط في ملاحقات إجرامية تضر ببلده، ولم يمتلك في مراهقته شيئاً سوى زوجة أبيه. ولا ينتظره عندما ينتابه الغضب غير المشنقة، حيث أصبحت رغباته الجامحة قويةً للغاية، وأعطت ثباتاً لعاداته التي منعته من تغييرها، وجعله الكسل خائباً وجعله اليأس أعمى، فاندفع الى الموت. ويعاقبه المجتمع بشدة على تلك التصرفات المقدّرة والضرورية التي ولّدها هو نفسه في قلبه أو أنَّه لم يأخذ بالحسبان اقتلاع الآلام الموسمية على الأقل ومعارضتها بدوافع تمنحه مبادئ صادقة. وهكذا يعاقب المجتمع في كثيرٍ من الأحيان على تلك النزعات التي أنشأها هو بحد ذاته أو التي سمح إهماله لها بتكوينها في عقل الإنسان. ويتصرف مثل هؤلاء الآباء الظالمين الذين

يوبخون أبنائهم على رذائل اقترفوها هم أنفسهم. ومهما كان هذا السلوك ظالماً وغير معقول أو يبدو كذلك، فهو ليس أقل ضرورة؛ لأنَّ المجتمع مهما كان فساده ومهما كانت الرذائل التي قد تنتشر في مؤسساته، يميل مثل كلّ شيء آخر في الطبيعة إلى البقاء والحفاظ على نفسه. وهو ملزمٌ نتيجة لذلك بالمعاقبة على تلك التجاوزات التي أنتجها دستوره الشرير. وعلى الرغم من تحيزاته ورذائله الخاصة به، فإنَّه يشعر وعن قناعة بمطالبهِ الأمنية المباشرة التي ينبغي أن تحبط مؤامرات هؤلاء الذين يشنون حرباً على طمأنينته، وإذا أدّت هذه المؤامرات التي تشجعها النزعات الضرورية إلى اقلاق راحته وإلحاق الضرر بمصالحه، فسيترتب على هذا وجود القانون الطبيعي الذي يلزمه العمل من أجل الحفاظ عليه وإزاحتها من طريقه، ومعاقبتهم بصرامة إلى حدٍ ما، بحسب الأشياء التي يعلق عليها الأهمية الأكبر أو التي يفترض أنَّها الأنسب لتعزيز رفاهيته الخاصة، ويخدع ذاته بلا شك في كثيرٍ من الأحيان، لكنه يخدع نفسه بالضرورة لعدم وجود المعرفة التي تؤخذ بالحسبان لتلقي الضوء على ما يتعلق بمصالحه الحقيقية أو لعدم وجود أولئك الذين ينظمون تحركاته، ويمتلكون اليقظة الملائمة، والمواهب المناسبة، والفضيلة المطلوبة. ومن هنا يتضح أنَّ ظلم المجتمع الذي تشكّل بشكلٍ سيئ، وأعمته تحيزاته، لا يقل أهمية عن جرائم أولئك الذين يتعرضون لهجوم عدواني وتشتيت الذهن.(81) ولا يمكن للجسم السياسي أن يتصرف في حالة الجنون مع العقل بشكلٍ أكثر تماسكاً من أحد أعضائه الذي شوش الجنون دماغه.

وسيُقال عند إخضاع كلّ شيء للضرورة: يجب أن تربك هذه الأقوال المأثورة أو حتى تُبطل المفاهيم التي شكّلها الإنسان عن العدالة والظلم، والخير والشر، والتفوق والنقص. وأنا أنكرُ ذلك على الرغم من أنَّ الإنسان يؤثر بالضرورة في كلّ شيء يفعله، وتكون أفعاله خيرة وعادلة وجديرة بالتقدير في كلّ مرة تميل إلى تحقيق منفعة حقيقية لأقرانه وللمجتمع الذي يشارك فيه، وتكون متميزة بالضرورة عن تلك التي تضرُ حقاً برفاهية جماعاته. ويكون المجتمع عادلاً وخيّراً ويستحق تبجيلنا عندما يحقق لجميع أعضائه رغباتهم المادية، ويوفر لهم الحماية ويؤمن حريتهم ويتيح لهم امتلاك حقوقهم الطبيعية. وفي هذا تكمن كلّ السعادة التي يدين بها للميثاق الاجتماعي. ولا يستحق المجتمع الظالم تقديرنا عندما يكون منحازاً للقلة، وقاسياً مع العدد الأكبر؛ حيث يضاعف عندئذٍ أعداءه، ويلزمهم بالانتقام لأنفسهم باقترافهم أعمال إجرامية من الضروري معاقبتهم عليها. ولا

تعتمد نزوات المجتمع السياسي على المفاهيم الحقيقية عن العدالة والظلم، والأفكار الصحيحة عن الخير والشر الأخلاقيين، والتقدير العادل للتفوق والنقص، بل على المنفعة - على ضرورة الأشياء - التي تجبر الإنسان دائماً على الشعور بوجود نمط من الفعل يلتزم بتبجيله والموافقة عليه أمام أقرانه أو المجتمع، في حين أنَّ هناك نمطاً آخر يكرهه بطبعه وتجبره مشاعره على إدانته. ويؤسس الإنسان بحسب ماهيته أفكاره عن اللذة والألم، والصواب والخطأ، والرذيلة والفضيلة؛ والفرق الوحيد بينها هو أنَّ اللذة والألم يشعر بهما دماغه مباشرة، في حين لا تظهر الفوائد التي تعود عليه من العدالة والفضيلة في كثيرٍ من الأحيان إلا بعد سلسلة طويلة من التأملات وبعد خبرات متعددة، يمنعه الكثير منها من تأديتها أو القيام بها بشكلٍ صحيح على الأقل؛ بسبب خلل في تكوينها أو خاصية تتعلق بالظروف التي تظهر فيها.

والنتيجة اللازمة عن هذه الحقيقة البديهية، أنَّ نظام القدرية على الرغم من اتهامه مراراً وتكراراً، لا يميل إلى تشجيع الإنسان على ارتكاب الجريمة، وإبعاد تأنيب الضمير عن ذهنه. حيث تنسب نزعاته إلى طبيعته، ويعتمد استخدامه لعواطفه على عاداته وآرائه وعلى الأفكار التي تلقاها في تربيته، والنماذج التي يقدمها له المجتمع الذي يعيش فيه. وهذه الأشياء هي التي تحدد بالضرورة سلوكه. وهكذا عندما يعرّضه مزاجه لمشاعر قوية، يصبح عنيفاً من حيث رغباته مهما كانت تخميناته.

ويعتبر (تأنيب الضمير) شعوراً مؤلماً يثيره في داخله الأسف الناجم عن تأثير أهوائه المباشرة أو المحتملة في المستقبل، فإذا كانت هذه النتائج مفيدة له دائماً، فلن يشعر بتأنيب الضمير، ولكن بمجرد التأكّد من أنَّ أفعاله تجعله بغيضاً أو تافهاً أو بمجرد خوفه من أن يُعاقب بطريقة أو بأخرى، فقد يصبح مضطرباً وغير راضٍ عن نفسه. ويوبخ نفسه على سلوكه ويشعر بالخجل، ويخشى من حكم أولئك الذين تعلّم أن يحترم عاطفتهم، ويهتم بعمق بحسن نيتهم التي يجد فيها تعزيةً له. وتثبت له خبرته أنَّ الإنسان الشرير بغيضٌ بالنسبة لكلّ أولئك الذين تؤثر أفعاله عليهم؛ فإذا اختفت هذه الأفعال في الوقت الحالي، يعلم أنَّه نادراً ما يحدث أن تظل كذلك إلى الأبد. ويقنعه أبسط تأمل أنَّه لا يوجد إنسان شرير لا يخجل من سلوكه ويكون راضياً عن نفسه حقاً، ولا يحسد حال الإنسان الصالح، وليس ملزماً بالاعتراف أنَّه دفع ثمناً باهظاً مقابل تلك المزايا التي لا يستطيع التمتع بها من

دون أن يوجه أشد اللوم إلى نفسه. ومن ثم فهو يشعر بالخجل ويحتقر نفسه ويكرهها، ويصبح ضميره مذعوراً ويتبع ذلك سلسلة من تأنيب الضمير. وللاقتناع بصحة هذا المبدأ من الضروري أن نلقي نظرةً فحسب على الاحتياطات القصوى التي يتخذها الطغاة والأشرار، الذين يتمتعون من ناحية أخرى بالقوة الكافية لعدم خوفهم من عقاب الإنسان ومنعهم من التعرض له. ولكن إلى أيّ مدى يدفعون بوحشيتهم ضد بعضهم، وبأيّ حقّ ينجرفون وراء الآخرين، ونحو أولئك القادرين على جعلهم موضعاً للسخرية عموماً، أليس لديهم إذن وعيٌ بآثامهم؟ ألا يعلمون أنّهم مكروهين ومنبوذين؟ ألم يندموا؟ هل هم سعداء؟ إنَّ الأشخاص ذو التنشئة الجيدة يكتسبون هذه المشاعر من حيث تربيتهم التي يقويها أو يضعفها الرأي العام والعادة والنماذج المعروضة أمامهم. ويكون تأنيب الضمير في مجتمع فاسد غير موجود أو يختفي في الوقت الحاضر؛ لأنَّ الإنسان يكون ملزماً بالضرورة في كلّ أفعاله دائماً بمراعاة أخيه الإنسان. ولم يشعر أبداً بالخزي أو تأنيب الضمير على الأفعال التي يراها مقبولة ويمارسها العالمَ بأسره. وفي ظل الحكومات الفاسدة، والنفوس الفاسدة، لا تحمّر الكائنات الجشعة والأفراد المرتزقة، خجلاً من الخسة أو السرقة أو الاغتصاب عندما يُصرّح بذلك على سبيل المثال؛ حيث لا يستحي أحد من الزنا في الأمم الفاسدة، ولا يستحي الإنسان أن يغتال زميله بسبب آرائه في البلاد التي تؤمن بالخرافة. ومن هنا سيكون من الواضح أنَّ تأنيب ضميره وكذلك الأفكار التي يمتلكها الإنسان عن الحشمة والفضيلة والعدالة وما إلى ذلك سواء كانت صحيحة أو خاطئة، تنجم بالضرورة عن مزاجه الذي عدّله المجتمع الذي يعيش فيه؛ فعندما يعيش القتلة واللصوص مع بعضهم لا يكون لديهم خجلاً ولا ندماً.

وهكذا أكرر أنَّ كلّ أفعال الإنسان الضرورية، وتلك التي تكون مفيدة دائماً وتساهم باستمرار في الواقع، وتميل إلى السعادة الدائمة لجنسه، يُطلق عليها اسم (الفضائل) التي ترضي بالضرورة كلّ من يختبر تأثيرها – على الأقل إذا لم تلزمهم عواطفهم أو آرائهم الخاطئة بالحكم بطريقة لا تتوافق إلا قليلاً مع طبيعة الأشياء؛ فكلّ إنسان يتصرف، وكلّ فرد يحكم بالضرورة وفقاً لطريقة وجوده الخاص، وبحسب الأفكار التي كوّنها مراعاةً لسعادته سواء كانت صحيحة أو خاطئة. وهناك أفعال ضرورية يجب على الإنسان استحسانها، وأخرى مجبراً رغماً عنه على استهجانها، وهي التي تنتج عنها فكرة العار،

عندما يتيح له ذهنه التفكير بها كما تفكر بها جماعاته. فالإنسان الفاضل والشرير يتصرفان بموجب دوافع ضرورية على حدٍ سواء، ويختلفان ببساطة من حيث منظومتهما، والأفكار التي يشكلانها لأنفسهما عن السعادة، ونحن نحب أحدهما بالضرورة ونبغض الآخر للضرورة ذاتها. ونرى أنَّ قانون طبيعة الإنسان الذي ينبغي أن تعمل الكينونة الحساسة باستمرار على الحفاظ عليه، لم يترك له القدرة على الاختيار أو القدرة الحرة على تفضيل الألم على المتعة، والرذيلة على المنفعة، والجريمة على الفضيلة. ومن ثم فإنَّ ماهية الإنسان ذاته هي التي تلزمه بالتمييز بين الأفعال التي تعود عليه بالنفع وتلك الأفعال الضارة.

ويوجد هذا التمييز حتى في أكثر المجتمعات فساداً، والتي تظل أفكار الفضيلة فيها كما هي في أذهانها على الرغم من محوها تماماً من سلوكها. ولنفترض أنَّ رجلاً قرّر بشكلٍ قاطع أن يقترف شراً، وكان لابدّ أن يقول لنفسه: "من الحماقة أن تكون فاضلاً في مجتمع فاسد، وفي جماعة فاسقة". ولنفترض أيضاً أنَّ لديه براعة كافية وحظاً جيداً ليهرب من اللوم أو العقوبة على مدار سلسلة طويلة من السنين، وأقول على الرغم من كلّ هذه الظروف التي يبدو أنّها مفيدة جداً له: لم يكن هذا الإنسان سعيداً ولم يكن راضياً عن سلوكه، وكانت لديه آلام مستمرة، ويعيش دائماً في حالة حرب مع أفعاله، وفي حالة هياج مستمر. ولكن ما مقدار الألم والقلق الذي لا يتحمّله في هذا الصراع الدائم مع ذاته؟ وكم هي التحفظات وما العمل المفرط وما هو القلق الدائم الذي لم يضطر إلى توظيفه في هذا الكفاح المستمر؛ وكم من إحراج وكم من هموم لم يختبرها في هذه الصراع الأبدي مع جماعاته التي يخشى ترهيبها؟ وعند سؤاله عمّا يعتقده عن ذاته، سيتهرب من السؤال. اقتربْ إلى جانب سرير هذا الوغد في اللحظة التي يحتضر فيها، واسأله عمّا إذا كان يرغب بإعادة الحياة بالفتنة ذاتها وبالقيمة ذاتها؟ وسيعترف إنْ كان عبقرياً بأنّه لم يذق طعم الراحة ولا السعادة؛ وأنَّ كلّ جريمة ملأته بالقلق، ومنعه التفكير فيها من النوم، وأنَّ العالَم كان بالنسبة له مشهداً واحداً متواصلاً من الذعر والقلق الذهني الدائم، وأنَّ العيش بسلام على الخبز والماء يبدو بالنسبة له أكثر سعادة، وحالةً أسهل من امتلاك الثروات، والشرف، والسمعة، والأوسمة، وبالمصطلحات ذاتها التي اكتسبها هو نفسه. وإن وجد هذا الوغد أنَّ حالته بائسة للغاية رغمَ كلّ نجاحاته، فما الذي يجب أن نعتقده حول مشاعر أولئك الذين ليس لديهم الموارد ذاتها ولا المزايا ذاتها لينجحوا في مشاريعهم الإجرامية؟

وبالتالي، فإنَّ نظام الضرورة ليس عبارة عن حقيقة مبنية على خبرة معينة فحسب، بل يعيد تأسيس الأخلاق على أساسٍ ثابت. ولا يقوض أسس الفضيلة بل يشير إلى ضرورتها، ويُظهر بوضوح المشاعر الثابتة التي يجب أن تثيرها – المشاعر الضرورية جداً والقوية جداً لدرجة أنَّ جميع التحيزات وجميع رذائل المؤسسات البشرية، لم تكن قادرة أبداً على اجتثاثها تماماً من عقله. وعندما يخطئ في مزايا الفضيلة، فلابدّ أن يُنسب ذلك إلى الأخطاء التي تغلغلت فيه وإلى لاعقلانية مؤسساته. وتكون كلّ ضلالاته نتائج مقدّرة ولازمة عن الخطأ والأحكام المسبقة التي تحددت بحدّ ذاتها مع وجوده. ولذلك لا يُنسب شره بعد الآن إلى طبيعته، بل إلى تلك الآراء البغيضة التي شربها من حليب أمه الذي جعله طموحاً، وجشعاً، وحسوداً، ومتغطرساً، ومتعجرفاً، وفاسقاً، وغير متسامح، وعنيداً، ومتحيزاً، وغير متأقلم مع زملائه، ومؤذٍ لنفسه. إنَّما التربية التي تحمل إلى نظامه بذرة تلك الرذائل التي تعذبه بالضرورة طيلةَ حياته.

وبناءً عليه تُلام (القدرية) على تثبيط عزيمة الإنسان، وإخماد حماسة نفسه، وإغراقه في اللامبالاة، وتدمير الروابط التي يجب أنْ تربطه بالمجتمع. ويقول معارضوها: "إذا كان كلّ شيء ضروري، فيجب أن نترك الأمور تسير ولا نتزعج من أيّ شيء". ولكن هل يعتمد ذلك على أن يكون الإنسان عاقلاً أم لا؟ هل يتحكم بشعوره أم لا يشعر بالألم؟ وإذا كانت الطبيعة قد وهبته نفساً إنسانية وحنونة، فهل من الممكن ألا يهتم بحدّ ذاته بطريقة فعالة للغاية برفاهية الكائنات التي يعرف أنَّها ضرورية لإسعاده؟ إنَّ مشاعره ضرورية وتعتمد على طبيعته الخاصة التي تنميها التربية. في حين أنَّ خياله الذي يدفعه إلى الاهتمام بإسعاد عرقه، يرهق قلبه عند رؤية تلك الشرور التي تلزم أقرانه بتحملها؛ فيجعل نفسه ترتعش عند تأمل البؤس الناشئ عن الاستبداد الذي يسحقه، وعن الخرافة التي تضّله، والأهواء التي تشتت انتباهه، والحماقات التي تضعه على الدوام في حالة حربٍ ضد جاره. وعلى الرغم من أنَّه يعرف أنَّ الموت هو الفترة المقدّرة والضرورية لشكل جميع الكائنات، إلا أنَّ نفسه لا تتأثر بطريقة حيوية إلا قليلاً عند فقدان الزوجة المحبوبة – يعتبر الميراث للطفل تعزية لشيخوخته – عند الانفصال النهائي عن الصديق الموقّر الذي أصبح عزيزاً على قلبه. وعلى الرغم من أنَّه لا يجهل أنَّ ماهية النار هي الحريق، إلا أنَّه لا يعتقد أنَّه معفى من بذل قصارى جهده لوقف تقدّم الحريق الهائل. وعلى الرغم من اقتناعه التام بأنَّ الشرور

التي يشهدها ما هي إلا نتيجة ضرورية عن الأخطاء البدائية التي تشرّبها أقرانه اللاحقين له، لكنه يشعر أنَّ من واجبه إظهار الحقيقة لهم، (إذا أعطته الطبيعة الشجاعة اللازمة) في ظل اقتناعه أنّهم إذا استمعوا إليها فستصبح تدريجياً علاجاً معيناً لمعاناتهم - سيقدم ذلك النتائج الضرورية التي من ماهيتها أنّها تعمل.

وإن عدّلت تخمينات الإنسان سلوكه وغيّرت مزاجه، فيجب ألا يشك فيما سيجره عليه نظام الضرورة من نفع أكثر، ليس لأنّه مناسب لتهدئة الجزء الأكبر من استفساره فحسب، بل لأنّه سيسهم أيضاً في إلهامه بإذعان نافع، واستسلام عقلاني لقرارات المصير التي كثيراً ما تجعله حساسيته الشديدة مقهوراً بسببها. وستكون هذه اللامبالاة السارة مرغوبة بلا شك لأولئك الذين يتحملون بسبب أنفسهم الرقيقة جداً عدم المساواة في الحياة، وتكون في كثيرٍ من الأحيان مجازفةً مؤسفة بمصيرهم أو تكون أعضائهم أضعف من أن تقاوم تقلبات الحظ، وتكشف لهم باستمرار أنّها تتحطم إلى أشلاء تحت ضربات الشدائد العنيفة.

ولكن الجنس البشري سيتمكن من استخلاص جميع المزايا الهامة من عقيدة القدرية إذا طبقها الإنسان على سلوكه، ولن يكون هناك شيئاً أكبر، ولا نتيجة أكثر إسعاداً، ولا شيئاً من شأنه أنْ يؤكد سعادته بشكلٍ أكثر فعالية من ذلك الغفران العام، وذلك التسامح الكلي الذي يجب أن ينتج بالضرورة عن الرأي القائل: إنَّ كلّ شيء ضروري. ونتيجة لتبني هذا المبدأ، سيتأسف القدري إذا كانت لديه نفسٌ عاقلة على تحيزات أخيه الإنسان، وسوف يندب على ضلالاته، وسوف يسعى إلى التحرر من أوهامه من دون أن يزعجه ضعفه أبداً — من دون أن يهينه بؤسه. فهل لنا الحق بالفعل في أن نكره الإنسان أو نحتقره بسبب آرائه؟ أليس جهله، وتحيزاته، وحماقته، ورذائله، وعواطفه، وضعفه، نتيجةً حتمية للمؤسسات الخبيثة؟ ألا يُعاقب بما فيه الكفاية بكثرة الشرور التي تصيبه من كلّ حدب وصوب؟ ألا يقع دائماً هؤلاء الطغاة الذين يسحقونه بصولجان حديدي، ضحيةً أرقهم ويكونوا عبيداً دائماً لشكوكهم؟ ألا يتمتع الشرير بسعادةٍ حقيقية نقية وخالصة؟ ألا تعاني الأمم بلا انقطاع من بلهائها؟ ألا ينخدعون دائماً بتحيزاتهم؟ ألا يعاقب جهل الرؤساء، وسوء نواياهم تجاه العقل وكرههم للحقيقة ومعاقبة مواطنيهم بحماقة، وخراب الدول التي يحكمونها؟ وباختصار، سيحزن القدري إن شاهد الضرورة تمارس في كلّ لحظة

قراراتها القاسية على البشر الذين يجهلون قوتها أو الذين يشعرون بنفيها، ومن دون أن يكون مستعداً للاعتراف من أين ينطلق سوف يدرك أنَّ الجهل ضروري، وأنَّ السذاجة هي النتيجة الضرورية للجهل، وأنَّ العبودية والاستعباد نتائجَ ضرورية لسذاجة الجهلة، وأنَّ فساد الأخلاق ينجمُ بالضرورة عن العبودية، وأنَّ بؤس المجتمع وأفراده ينتج بالضرورة عن هذا الفساد.

ولن يكون القدري نتيجةً لهذه الأفكار، كارهاً عبوساً ولا مواطناً خطيراً. وسيغفر لإخوانه تلك الضلالات التي أفسدتْ طبيعتهم بآلاف الأسباب ويقدم لهم العزاء. وسوف يسعى إلى إلهامهم بشجاعة، وسوف يواظب على تحريرهم من مفاهيمهم الفارغة، وأفكارهم الوهمية، لكنه لن يُظهر لهم أبداً تلك العداوة الحاقدة الملائمة لجعلهم يثورون على عقائده أكثر من جذبهم إلى العقل. ولن يُقلق راحة المجتمع، ولن يوقظ الناس ليتمردوا على السلطة السيادية. وسيشعر على العكس من ذلك، أنَّ العمى والانحراف البائسين عند العديد من المرشدين من الناس ما هي إلا نتيجةً ضرورية لذلك الإطراء الممنوح لهم في طفولتهم، والحقد البغيض لمن حولهم، ولمن يفسدونهم شراً ويستفيدوا من حماقتهم، وبعبارة أخرى، هذه الأشياء هي النتيجة الحتمية لذلك الجهل العميق بمصلحتهم الحقيقية، والتي يسعى كلّ شيء فيها للحفاظ عليهم.

وليس للقدري الحق في أنْ يتجاهل مواهبه الخاصة أو فضائله؛ فهو يعرف أنَّ هذه الصفات ليست سوى نتيجة لمنظومته الطبيعية، وعدّلتها الظروف التي يعتمد عليها في الوقت الحاضر. ولن تكون لديه كراهية ولن يشعر بالازدراء تجاه أولئك الذين لم تجعلهم طبيعتهم وظروفهم مفضلين بطريقة مماثلة. ولكن أليس من الضروري أنْ يعترف القدري الذي يجب أن يكون ذليلاً ومتواضعاً من حيث المبدأ بأنَّه لا يملك شيئاً لم يتلقاه من قبل؟

وسيؤدي كلّ شيء في الواقع إلى التسامح مع القدري الذي أقنعته الخبرة بضرورة الأشياء. وسيرى بألم أنَّ من ماهية المجتمع سيئ التكوين، أن يكون محكوماً بطريقةٍ غير حكيمة، وعبداً للتحيز، ومرتبطاً بعادات غير معقولة، وخاضعاً لقوانين غير عقلانية، ومنحطاً في ظل الاستبداد، وأفسدته الرفاهية، ومخموراً بآراء كاذبة، ومليءٌ بأعضاء تافهين، ويتكون من مواطنين شرسين، ومزيّن بعبيدٍ مرتدين يفتخرون بقيودهم، ومن بشرٍ طموحين

ليس لديهم أفكارٌ عن المجد الحقيقي، ومن بخلاء ومبذرين، ومن متعصبين ومتحررين! ولن يتفاجأ عند اقتناعه بالرابطة الضرورية بين الأشياء، عندما يرى أنَّ جلال رؤسائه يحمل في طياته الوهن لبلدهم أو أنَّ نفوذ حكامه يثير حروباً دموية يفرغها من سكانها، ويتسبب في نفقات غير مجدية لزيادة إمبراطوريتهم؛ وأنَّ كلّ هذه التجاوزات متحدة هي السبب في أنَّ العديد من الأمم لا تحتوي إلا على بشرٍ يريدون السعادة، وخالين من الأخلاق، ويفتقرون إلى الفضيلة. ولن يفكر في كلّ هذا سوى بالفعل ورد الفعل الضروريان للمادي على الأخلاقي، والأخلاقي على المادي. وباختصار، سيبقى كلّ من يعترف بالقدر مقتنعاً بأنَّ الأمة التي تحكمها إدارة سيئة تشكّلُ تربةً وافرة جداً بالنباتات السامة، وأنَّ هؤلاء الذين لديهم مثل هذا النمو الغزير يزاحمون بعضهم بعضاً ويخنقون أنفسهم. وأنَّه في بلد تثقف على أيادي **ليكرغوس Lycurgus**،(*) سيشهد ولادة مواطنين شجعان، وأفراد نبلاء، وبشر نزيهون، وغرباء عن الملذات الشاذة. وفي بلد ثقفه **تيبيريوس Tiberius**،(**) لن يجد شيئاً سوى الأوغاد، وذو القلوب الفاسدة، وبشرٌ ذو نفوس خسيسة، ومخبرين جديرون بالازدراء، وخونة بغيضين. ذلك أنَّ التربة والظروف التي يجد الإنسان نفسه فيها هي التي تجعله كائناً مفيداً أو كائناً ضاراً، والإنسان الحكيم يتجنب هذا الكائن مثلما سيفعل مع تلك الزواحف الخطرة التي من طبيعتها اللدغ وإيصال سمها القاتل، فيربط نفسه بالآخر، ويحترمه، ويحبّه، كما يفعل مع تلك الفواكه اللذيذة التي ترضي ذوقه بنضجها الثري، ويجد نفسه منتعشاً بعصائرها الباردة، وينظر إلى الشر من دون غيظ، ويرعى الخير بسرورٍ ويسعد بالوفرة، ويعرف جيداً أنَّ الشجرة التي تذبل من دون رعاية في الصحراء القاحلة الرملية، وتوهن بسبب نقص الاهتمام وتفقد أوراقها لعدم وجود الرطوبة، وتعوج من الإهمال

* - ليكرغوس: رغم الروايات العديدة التي تدور حول شخصيته، غير أنَّ أغلب المؤرخين يرجعون شخصيته إلى 820 قبل الميلاد، وأنَّه شخصية تاريخية واقعية، أسس إصلاحات مجتمعية وعسكرية وأبرزها الريترا العظيمة التي حولت المجتمع الإسبرطي. (المترجم)، وللمزيد راجع [Lycurgus / Spartan lawgiver / Britannica]

** - تيبريوس قيصر: الإمبراطور الروماني الثاني (14م-37م)، ولد عام 42 ق.م، تميز حكمه في بدايته بالاعتدال والحكمة، لكنها لم تكن خالية من مظاهر القوة والعنف، والسعي للحفاظ على سلطته. للمزيد أنظر [Death | Britannica & ،Tiberius / Biography, Accomplishments, Facts]

وتصبح جرداء من نقص التربة الخصبة، ربما كان من الممكن أن تمتد أغصانها الخضراء للقاصي والداني، وتعطي ثماراً لذيذة، وتوفّر ملاذاً منعشاً ظليلاً، إذا كانت بذورها قد زرعت لحسن الحظ في تربة أكثر خصوبة أو إذا كانت قد تلقت رعاية تبناها مزارعٌ ماهر.

من هنا لا تدعونا نقول: إنَّه من المهين للإنسان أن يختزل وظائفه إلى آلة محضة، ومن المخزي التقليل من قيمته ومقارنته بشجرة – بنباتات خسيسة. ولا يفهم الفيلسوف الخالي من التحيز هذه اللغة التي اخترعها أولئك الذين يجهلون ما يشكّل الكرامة الحقيقية للإنسان. فالشجرة من حيث وضعها هي شيء يجمع بين المفيد والمقبول، وتستحق استحساننا عندما تنتج ثماراً حلوة وممتعة وعندما توفر ظلاً مناسباً. وجميع الآلات ثمينة متى كانت مفيدة حقاً، وعندما تؤدي بأمانة الوظائف التي صُممت من أجلها. أجل أنا أتحدث بشجاعةٍ عن الإنسان النزيه عندما تكون لديه مواهب ويمتلك فضيلة، ويكون بالنسبة لكائنات جنسه شجرة تزودهم بثمارٍ لذيذة وتوفر لهم ملاذاً منعشاً، والإنسان النزيه آلة تتكيف فيها النوابض لتؤدي وظائفها بطريقةٍ ترضي توقعات جميع أقرانه. ولكن يجب ألا أخجل من أن أكون آلةً من هذا النوع؛ وسيقفز قلبي من الفرح إذا أمكنني التوقع أنَّ ثمرة تأملاتي ستكون ذات يوم مفيدة ومُعزّية لقريني الإنسان.

أليست الطبيعة ذاتها آلةً ضخمة، وليس الجنس البشري فيها سوى نابضٌ ضعيف جداً فيها؟ لا أرى أيّ شيء مستهجن سواء فيها أو في إنتاجها؛ فكلّ الكائنات التي تخرج من يديها طيبة، ونبيلة، وسامية، عندما تتعاون على إنتاج النظام، والحفاظ على الانسجام في المجال الذي يجب أن تعمل فيه. ومهما كانت طبيعة النفس، سواء كانت فانية أو خالدة؛ وسواء اعتبرناها روحاً أم جزءاً من الجسد؛ سيُكتشف أنَّها نبيلة وعظيمة وسامية، عند **سقراط**، و سوف يُنظر إليها عند **أريستيدس Aristides**،(*) و**كاتو Cato**؛(**) على

* – **أريستيدس**: (حوالي 530–468) فيلسوف وسياسي وقائد أثيني. (المترجم) وللمزيد راجع: [Aristides / Athenian philosopher / Britannica]

– **ماركوس بورسيوس كاتو أوتيسينسيس: (95 ق.م – 46 ق.م)، المعروف باسم كاتو الأصغر (كاتو مينور) لتمييزه عن جده الأكبر (كاتو الأكبر)، رجل دولة في أواخر الجمهورية الرومانية، وأتباع الفلسفة الرواقية. (المترجم) أنظر: ماركوس بورسيوس كاتو أوتيسينسيس (سياسة) – Mimir موسوعة (mimirbook.com)

أنَّها خسيسة، وسوف يُنظر إليها على أنَّها تافهة وفاسدة عند **كلوديوس Claudius**،(*) وعند **سيجانوس Sejanus**،(**) وعند **نيرون Nero**،(***) وستحظى طاقاتها بإعجاب **شكسبير Shakspeare**،(****) و**كورنيل Corneille**، (*****) ونيوتن، وعند **مونتسكيو Montesquieu**، (******) سوف نندب على دناءتها عندما نرى بشراً دنيئين أثنوا على الطغيان أو تذللوا بخشوع تحت أقدام الخرافة.

ويثبت كلّ ما قيل في سياق هذا الكتاب بوضوح أنَّ كلّ شيء ضروري، وأنَّ كلّ شيء متناسق دائماً مع الطبيعة، حيث لا تفعل جميع الكائنات شيئاً سوى اتباع القوانين المفروضة على الأصناف الخاصة بها. وجزءاً من خطتها أن تنتج أجزاءً معينة من الأرض ثماراً لذيذة، في حين ستقدم أجزاءً أخرى فقط العُليق والخضروات الضارة، وكانت على استعداد أن تنتج في بعض المجتمعات حكماءً وأبطالاً عظماء، وأن تلد في أخرى فقط بشراً محتقرين، وبلا طاقة، ومحرومين من الفضيلة. وتكون الرياح، والعواصف، والأعاصير، والبراكين، والحروب، والأوبئة، والمجاعة، والأمراض، والموت، ضرورية لمسيرتها الأبدية مثل حرارة الشمس، وهدوء الغلاف الجوي، وأمطار الربيع اللطيفة، وسنوات الوفرة، والسلام،

* - كلوديوس: (54 ق.م) إمبراطور روماني، أسهم في توسيع الإمبراطورية الرومانية إلى شمال أفريقيا(المترجم) للمزيد راجع: [Britannica.com/biography/Claudius-Roman-emperor]

** - سيجانوس: (20 ق.م) سياسي وقائد عسكري روماني (المترجم) للمزيد راجع: [Britannica.com/biography/Lucius-Aelius-Sejanus]

*** - نيرون: (27 ق.م- 68م) إمبراطور روماني، دعا إلى الحكم المطلق. (المترجم) للمزيد أنظر: [Britannica.com/biography/Nero- Roman - emperor]

**** - وليم شكسبير: (1564-1616) شاعر وكاتب مسرحي وممثل إنجليزي، سمي بشاعر الوطنية وشاعر أفون الملحمي. (المترجم) للمزيد راجع: [Britannica.com/biography/William - Shakespear]

*****- بيير كورنيل: (1606- 1684) شاعر وكاتب مسرحي فرنسي، ويعتبر مبدع الفن المسرحي الكلاسيكي في فرنسا. (المترجم) للمزيد راجع: [larousse.fr/encyclopedie/personage/Pierre-Cornelle]

******- مونتسكيو: (1689- 1755) قاضي وأديب وفيلسوف سياسي فرنسي، وهو صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده حالياً العديد من الدساتير عبر العالم. (المترجم) للمزيد أنظر: [Britannica.com/biography/Montesquieu]

والصحة، والانسجام، والحياة، كذلك الرذيلة والفضيلة، والظلام والنور، والجهل والعلم، كلّها ضرورية ولا يمثل أحدها منافعاً، ولا الأخرى شروراً، باستثناء تلك الكائنات التي تتأثر سعادتها بتفضيل نمط وجودها الخاص أو تعكيره. ولا يمكن أن يكون الكلّ بائساً، لكنه قد يحتوي على أفراد تعساء.

وبالتالي تنقسم الطبيعة باليد ذاتها إلى ما يسمى بالنظام وما يسمى بالفوضى، وما يسمى اللذة وما يسمى الألم؛ أي توزع بضرورة وجودها، الخير والشر في العالم الذي نعيش فيه. ولذلك لا تدع الإنسان يتهمها بالسخاء أو يعاقبها بسوء، ولا يتخيل أنَّ صيحاته أو دعواته يمكن أن تستحوذ على قوتها الهائلة، وتعمل دائماً وفقاً لقوانين ثابتة. دعه يخضع لحالته بصمت، عندما يتألم، ولا يسعى للحصول على علاج بتكراره للوهم الذي أوجده خياله المختل، ودعه يستمد من مخازن الطبيعة ذاتها العلاجات التي تقدمها للشر الذي تجلبه عليه؛ فإذا أرسلت إليه الأمراض، فليبحث في حضنها عن تلك المنتجات المفيدة التي ولدت من أجله. وإذا جعلته يخطئ، فإنَّها تزوده أيضاً بالخبرة والحقيقة لمواجهة وتدمير نتائجها المقدرة. وإذا سمحت للإنسان أن يتأوه تحت ضغط سيئاته، ووطأة حماقاته، فإنَّها تُظهر له أيضاً فضيلة العلاج الأكيد لأسقامه، وإذا كانت الشرور التي تعاني منها بعض المجتمعات ضرورية، فمتى تصبح غير ملائمة للغاية، ستضطر بشكلٍ لا مفر منه إلى البحث عن تلك العلاجات التي ستشير إليها الطبيعة دائماً. وإذا جعلت هذه الطبيعة الوجود لا يُطاق بالنسبة لبعض الكائنات التعيسة التي قد يبدو أنَّها اختارتها كضحايا لها؛ فسيبقى الموت الباب الذي سيُفتح بالتأكيد لهم، وسوف ينقذهم من مآسيهم رغم أنَّها تُعتبر مستحيلة العلاج.

فلا تدع إذن الإنسان يتهم الطبيعة بأنَّها لا ترحمه؛ لأنَّه لا يوجد شر إلا وقدمت علاجه لأولئك الذين لديهم الشجاعة للبحث عنه وتطبيقه. وإذا كانت الطبيعة تتّبع القوانين العامة والضرورية في جميع عملياتها؛ فلا يجب أن يُعزى الشر الجسدي والأخلاقي إلى افتقارها للشفقة، بل إلى ضرورة الأشياء. ويكون الابتلاء البدني تشويشٌ ناتجٌ في أعضاء الإنسان عن عللٍ مادية يلحظُ تأثيرها. ويكون الشر الأخلاقي تشويشٌ ناتجٌ عن عللٍ مادية يكون فعلها خفياً عنه. وتنتهي هذه العلل دائماً بإحداث نتائج ملموسة قادرة على أن تمس حواسه؛ ولا تظهر أفكار الإنسان ولا إرادته ذاتها أبداً إلا من خلال النتائج

الملحوظة التي تحدثها لديه أو على تلك الكائنات التي جعلتها طبيعتها عرضة للشعور بتأثيرها. وهو يتألم؛ لأنَّ من ماهية بعض الكائنات أن تعطل تدبير آليته التي يتمتع بها، ولأنَّ خصائص بعض الكائنات مماثلة لنمط وجوده الذي وُلِد به، ولأنَّه من طبيعة مادة ما أن تتحد في شكلٍ محدد، يعيش فيه ويعمل ويفكر، ولأنَّه من ماهيةٍ ذات تركيبات معينة تحافظ على وجوده لفترة وبعدها يموت؛ لأنَّ القانون الضروري ينصّ على أنَّ جميع المركبات المتشكلة يجب تدميرها أو تحللها بحد ذاتها. وينتج عن كلّ هذا أنَّ الطبيعة محايدة بالنسبة لجميع منتجاتها. وتُخضع الإنسان، مثل جميع الكائنات الأخرى، لتلك القوانين الأبدية التي لم يكن قادراً على التنصل منها؛ وإذا عطلنا هذه القوانين ولو للحظة، فسيسود من تلك اللحظة الاضطراب في نظامها وسيضطرب انسجامها.

وينبغي أن يسترشد أولئك الذين يرغبون في دراسة الطبيعة بالخبرة؛ فهي التي تمكنهم من الغوص في أسرارها، والكشف تدريجياً عن النسيج غير المحسوس في كثيرٍ من الأحيان لتلك العلل الوضيعة التي تستغلها لإنجاز أعظم الظواهر؛ ويكتشف الإنسان بمساعدة الخبرة في كثيرٍ من الأحيان خصائص جديدة، ويدركُ أساليب عمل لم تكن معروفة تماماً للعصور التي سبقته، وتصبح تلك النتائج التي اعتقد أجداده أنَّها عجائب واعتبروها جهوداً خارقة للطبيعة، ونظروا إليها على أنَّها معجزات، مألوفة بالنسبة له في يومنا هذا، ويُعتقد في هذه اللحظة أنَّها نتائج بسيطة وطبيعية يفهم بها العضوية والعلّة. إذ توصل الإنسان من حيث طبيعته المذهلة، إلى اكتشاف الأسباب الحقيقية للزلازل، والحركة الدورية للبحر، والحرائق الهائلة في باطن الأرض، والنيازك، والسيال الكهربائي، التي اعتبرها أسلافه جميعهم وما زال كذلك الجاهلين على أنَّها علامات لا تقبل الشك على غضب السماء. وسوف تذهب ذريته عندما تتّبع مساره وتصحح الخبرة التي حصلت بالفعل، إلى أبعد من ذلك وتكتشف النتائج والأسباب المحجوبة تماماً عن أعين الحاضرين. وسوف تتغلغل الجهود الموحدة للجنس البشري في يوم من الأيام حتى إلى محراب الطبيعة، وتسلطُ الضوء على العديد من تلك الألغاز التي يبدو أنَّها استعصت حتى الوقت الحاضر على جميع أبحاثه.

وعند تأمل الإنسان في جانبه الحقيقي، ويتخلى عن السلطة لمتابعة الخبرة، وينحي الخطأ جانباً لاستشارة العقل، ويخضع كلّ شيء للقوانين الفيزيائية التي بذل خياله ما بوسعه لينصرف عنها من دون جدوى، سوف يتبين أنَّ ظواهر العالم الأخلاقي تتبع

القواعد العامة ذاتها تماماً مثل تلك الموجودة في الظواهر المادية، وأنَّ الجزء الأكبر من تلك النتائج المدهشة التي يدعمها الجهل بتحيزاته، ويعتبرها غير قابلة للتوضيح وعجيبة، هي نتائج طبيعية تنجم عن أسباب بسيطة. وسيجد أنَّ ثوران بركان وولادة **تيمورلنك** هما الشيء ذاته بالطبع، وعند تكرار الأسباب الأولية لتلك الأحداث المدهشة التي يراها بذهول، وتلك الثورات الرهيبة، والاضطرابات المرعبة التي تحيّر البشرية، وتهدر أروع أعمال الطبيعة وتدمر الأمم، سيجد أنَّ الإرادات التي تكتنف التغييرات الأكثر إثارةً للدهشة، والتي تُجري التحولات الأكثر شمولاً في وضع الأشياء، دفعتها عللٌ مادية جعله نفيه لها يعاملها على أنَّها تافهة، وغير قادرة تماماً على إحداث الظواهر التي ينذهل ويندهش من حجمها.

وإذا كان الإنسان سيحكم على العلل من خلال معلولاتها، فلن تكون هناك عللاً صغيرة في الكون. وليس هناك من ذرة في الطبيعة التي يتصل كلّ شيء فيها، ويعمل كلّ شيء ويتفاعل، ويتحرك ويتغير، ويؤلف ويتحلل، ويشكل ويدمر، إلا وتلعب دوراً مهماً وضرورياً، وليس هناك من جسيم غير محسوس مهما كان دقيقاً، إلا ويُحدث إن وضِع في ظروف ملائمة أعظم النتائج. وإذا كان الإنسان قادراً على اتباع السلسلة الأبدية، وتتبع الروابط المتسلسلة التي ترتبط بعللها جميع المعلولات التي يشهدها من دون إغفال أيٍّ من حلقاتها، وإذا كان بإمكانه كشف غايات تلك الأعصاب غير المحسوسة التي تعطي تنبيهاً للأفكار والقرار للإرادة، والتوجيه لمشاعر أولئك البشر الذين يطلق عليهم جبابرة بحسب أفعالهم، سيجد أنَّهم ذرات حقيقية تستخدمها الطبيعة لتحريك العالَم الأخلاقي الذي يشكل نقطة الاتصال غير المتوقعة ولكنها ضرورية لهذه الجسيمات غير المدركة من المادة، وأنَّ تجميعها، وتركيبها، ونسبتها، وتخمرها الذي يعدل الفرد تدريجياً رغماً عنه، وفي كثيرٍ من الأحيان من دون علمه، تجعله يفكر ويريد ويتصرف بطريقة محددة ولكنها ضرورية. وإذا كان لإرادة هذا الفرد وأفعاله تأثيرٌ على عددٍ كبيرٍ من البشر الآخرين، فسيكون العالم الأخلاقي في حالة احتراق أعظم. فالحدة الشديدة في صفراء المتعصب، والدم الثائر جداً في قلب المنتصر، وعسر الهضم المؤلم في بطن الملك، والنزوة العابرة في عقل المرأة، تكون أحياناً أسباباً كافية لإحداث الحرب وإرسال ملايين البشر إلى المذبحة، واجتثاث شعب بأكمله، وإسقاط الأسوار وتحويل المدن إلى رماد، وإغراق الأمم في العبودية ووضع شعبٍ

بأكمله في حالة حداد، وتوليد المجاعة على الأرض، وإحداث الأوبئة ونشر الكارثة، وامتداد البؤس، ونشر الخراب على نطاقٍ واسع من سطح كوكبنا على امتداد سلسلة طويلة من العصور.

وتصل العاطفة السائدة لدى فرد من الجنس البشري، عندما يتخلص من عواطف كثيرين آخرين، إلى توحيد إرادتهم وجهودهم، وتقرر بالتالي حالة الإنسان. وعلى هذا النحو أعطى عربيٌ طموح وماكر وشهواني لأبناء وطنه دافعاً، كانت نتيجته استعباداً وخراباً لدولٍ شاسعة في آسيا وأفريقيا وأوروبا؛ وكان لنتائجه القوة الكافية لمنحِ نظامٍ ديني جديد لملايين البشر، وباختصار قلب مذابح آلهتهم السابقة وغيّر الآراء وغيّر عادات جزء كبير من سكان الأرض. ولكن عند فحص المصادر البدائية لهذه الثورة الغريبة، نسأل: ما هي الأسباب الخفية التي كان لها تأثير على هذا الإنسان وأثارت عواطفه وغيرت مزاجه؟ يا تُرى ما هذا المركب الذي ينجم عنه إنساناً ماكراً وطموحاً ومتحمساً وبليغاً؛ أي، شخصٌ مؤهل للتطفل على مخلوقات مماثلة له، وقادرٌ على جعلهم يتفقون مع آرائه، مع الأخذ بالاعتبار الجسيمات غير المحسوسة في دمه، والملمس غير المدرك لأليافه، والأملاح اللاذعة إلى حدٍ ما التي تنبه أعصابه، ونسبة السائل الناري المنتشر في نظامه، فمن أين جاءت هذه العناصر؟ كانت من رحم أمه ومن الغذاء الذي يغذيه، ومن المناخ الذي وُلِدَ فيه، ومن الأفكار التي تلقاها ومن الهواء الذي يستنشقه، ويعدله من دون أن يحسب ألف سبب غير بارز وعابر للحالة المعطاة، وهي التي حددت اهتمامات هذا الكائن المهم الذي اكتسب بالتالي القدرة على تغيير وجه هذا العالم الدنيوي.

وإذا حدث ضعفٌ كبير في مبادئهم إن واجهتها أدنى عقبة في الأصل، فلن تتحقق أبداً هذه الأحداث العجيبة التي أذهلت الإنسان. وربما كانت نوبة القشعريرة الناجمة عن الصفراء الملتهبة إلى أقصى درجة، كافية لإفشال كلّ المشاريع الضخمة التي قام بها المشرّع للمسلمين. وقد تكون الحمية الإضافية، وكوب من الماء، والغائط الدموي، كافية في بعض الأحيان لإنقاذ الممالك.

وسيتبين بالتالي أنَّ حالة الجنس البشري، وكذلك حالة كلّ فرد من أفراده، تعتمد في كلّ لحظة على علل غير محسوسة، وتحدث في ظل ظروف قصيرة الأجل في أغلب الأحيان، وتتطور هذه الفرصة، وتوضع موضع التنفيذ في الوقت المناسب، وينسب

الإنسان نتائجها إلى الصدفة في حين أنَّ هذه العلل تعمل بحسب الضرورة وتتصرف وفقاً لقواعد ثابتة، ولا يمتلك في كثيرٍ من الأحيان الحكمة ولا النزاهة للرجوع إلى مبادئها الحقيقية، ويزدري هذه الدوافع الضعيفة؛ لأنَّه تعلّم أن يعتبرها غير قادرة على إحداث مثل هذه الظواهر الهائلة. ولكن تكفي هذه الدوافع التي تبدو ضعيفة، والنتائج المثيرة للشفقة في عينيه بحسب قوانينها الضرورية، في أيدي الطبيعة لتحريك الكون. إذ لا تحتوي فتوحات جنكيز خان **Gengiskhan** فيها على ما هو أكثر غرابةً لعين الفيلسوف من انفجار لغمٍ ناجمٍ عن شرارة ضعيفة تبدأ بإشعال النار في حبةٍ رماد واحدة ثم تنتقل حالاً إلى ملايين الحبوب الأخرى المتجاورة، وتنتهي بقوى موحدة ومتعددة إلى تفجير الجبال أو إسقاط التحصينات أو تحويل المدن المكتظة بالسكان إلى أكوام من الخراب.

وبالتالي، كثيراً ما يقرر مصير الإنسان عللٌ غير مدركة كامنة في حضن الطبيعة حتى لحظة ظهور فعلها. وترتبط السعادة أو التعاسة، والرخاء أو بؤس كلّ فرد، وكذلك الأمم بأكملها، بقوى يستحيل عليه توقعها وتقديرها أو إيقاف العمل بها. وربما تتراكم الذرات في هذه اللحظة، وتتحد الجزيئات غير المحسوسة، وتشكّل بمجموعها ملكاً، ويكون إما بلاءً أو منقذاً لإمبراطورية عظيمة.(82) ولا يمكن للإنسان الردّ على مصيره للحظة واحدة، وليس لديه علمٌ بما يجري في داخله، ويجهل العلل التي تؤثر داخل عضويته، ولا يعرف شيئاً عن الظروف التي ستمنحها النشاط وتطور طاقتها، ومع ذلك تعتمد استحالة كشفه لهذه العلل على حالته في الحياة. حيث يولد لقاءٌ غير متوقع في كثير من الأحيان عاطفةً في نفسه وتؤثر نتائجها بالضرورة على سعادته. وهكذا قد يصبح الإنسان الأكثر فضيلة، بسبب تركيبة غريبة من الانفتاح على الظروف على سبيل المثال أكثر إجراماً بين أبناء جنسه.

وسيكتشف أنَّ هذه الحقيقة مخيفة ومرعبة بلا شك، لكن ما الذي يجعلها في الأساس أكثر إثارة للاشمئزاز من تلك التي تعلّمه أنَّ عدداً لا نهاية له من الحوادث، على الرغم من أنَّها غير متوقعة، قد تنتزع منه تلك الحياة التي يرتبط بها بشدة؟ إنَّ القدرية تروضُ الإنسان الصالح بسهولة على الموت، وتجعله يتأمله كوسيلة معينة لتصرفِه عن الشر، ويُظهر هذا النظام الموت حتى للإنسان السعيد نفسه، على أنَّه وسيط بينه وبين تلك المصائب التي غالباً ما تنتهي بتسميم سعادته وبإشباع الوجود الأكثر حظاً.

دع الإنسان يخضع إذن للضرورة، وستدفعه دائماً إلى الأمام رغماً عنه، ودعه يستسلم للطبيعة ويقبل الخير الذي تقدمه له، ودعه يقاوم الشر الضروري الذي تجعله يعاينه، وتلك العلاجات الضرورية التي توافق على تقديمها له، ولا يزعج عقله بقلقٍ لا طائل منه، ودعه يستمتع باعتدال؛ لأنَّه سيجد أنَّ الألم قرينٌ ضروري للإفراط، ودعه يسلك دروب الفضيلة؛ لأنَّ كلّ شيء سيثبت له، حتى في عالم الانحراف هذا، أنَّه من الضروري للغاية جعله مقدراً في نظر الآخرين وراضياً عن نفسه.

أيّها الفاني الضعيف والعبثي، أنت تدّعي بأنَّك فاعلاً حراً، ولكن يا للأسف، ألا ترى كلّ الحبال التي تربطك؟ ألا تدرك أنَّ تلك الذرات التي تكوّنك وتلك الذرات التي تحرّكك، والظروف المستقلة عنك تغير كينونتك وتتحكم بمصيرك؟ ألا تدّعي من حيث الطبيعة الفاتنة التي تحيط بك، بأنَّك الكائن الوحيد القادر على مقاومة قوتها؟ هل تعتقد حقاً أنَّ صلواتك الضعيفة ستدفعها للتوقف عن سيرها الأبدي أو تغير مسارها الأبدي؟

الفصل الثالث عشر

خلود النفس - عقيدة الحال المقبلة؛ - الخوف من الموت

تميل التأملات المقدمة للقارئ في هذا الكتاب إلى إظهار ما يجب أن نفكر به حول النفس البشرية، بالإضافة إلى عملياتها وملكاتها: فكلّ شيء يثبت بطريقة أكثر اقناعاً، أنّها تتصرف وتتحرك وفقاً لقوانين مماثلة لتلك المقررة عند كائنات الطبيعة الأخرى، وأنّه لا يمكن تمييزها عن الجسد الذي ولدت معه، وتنمو معه، وتتعدل في مجرى التقدم ذاته، وباختصار، لابدّ أن يجعل كلّ شيء الإنسان يستنتج أنّها تملك معه. وتمرّ هذه النفس وكذلك الجسد بحالةٍ من الضعف والطفولة، وتتعرض في هذه المرحلة من وجودها لعددٍ من التعديلات والأفكار التي تتلقاها من الأشياء الخارجية عن طريق الأعضاء؛ التي تكدس الحقائق وتجمع الخبرة، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، وتشكّل نظاماً لسلوكها وتفكر وتعمل وفقاً له، ومن هنا تنتج سعادتها أو بؤسها، ورشدها أو هذيانها، أو فضائلها أو رذائلها، وتبلغُ مع الجسد كامل قوتها، وبعد أن تصل إلى مرحلة النضج لا تتوقف للحظة واحدة عن المشاركة في أحاسيسه، سواء كانت مقبولة أو غير مقبولة؛ ونتيجة لذلك فإنّها تستحسن أو لا تستحسن حالته، وتكون سليمة مثله أو مريضة، ونشطة أو ضعيفة، ومستيقظة أو نائمة. ويخمد الإنسان عند الشيخوخة تماماً وتصبح أليافه صلبة، وتفقد أعصابه مرونتها وتكون حواسه متضخمة، فيضعف بصره ويفقد سمعه، وتصبح أفكاره غير مترابطة، وتفشل ذاكرته ويبرد خياله؛ فما مصير نفسه إذن؟ واحسرتاه! تغرق مع الجسد، وتتخدر؛ لأنَّ هذا يفقدها الشعور به، وتصبح بطيئة مع انحلال نشاطه؛ وعندما يضعف مع مرّ السنين، فإنّها تؤدي مثله وظائفها بألم، ويخضع هذا الجوهر الذي يُعتبر روحياً أو غير مادي، للانفعالات ذاتها، ويعاني من التقلبات ذاتها التي يتعرض لها الجسد بحدّ ذاته.

وعلى الرغم من هذا الدليل المقنع على مادية النفس وهويتها مع الجسد، افترض بعض المفكرين أنَّ الأخير رغم أنَّه قابل للفناء، إلا أنَّ الأولى لا تموت، ويتمتع هذا الجزء من الإنسان بخاصية الخلود؛ كونه مستثنى من الانحلال وخالٍ من تغيرات الشكل التي تخضع لها جميع الكائنات في الطبيعة، ونتيجة لذلك أقنع الإنسان نفسه أنَّ هذه النفس المتميزة لا تموت. ويظهر في البداية أنَّ خلودها غير قابل للشكِ بالنسبة لأولئك الذين يفترضون أنَّها روحانية بعد أن اعتبروها كائناً بسيطاً، ولا امتداد له، ولا يتجزأ، ومختلف تماماً عن أيِّ شيء لديهم معرفة به، وزعموا أنَّها لا تخضع لقوانين التحلل المشترك بين جميع الكائنات والذي هو عملية مستمرة كما توضح لهم الخبرة.

واعتقد الإنسان الذي يشعر في داخله بقوةٍ خفية تحدث الفعل بشكلٍ غير محسوس، وتوجه بشكلٍ غير مدرك حركة عضويته، أنَّ الطبيعة بأكملها، والتي يجهل طاقاتها ولا يعرف أنماط تأثيرها، تدينُ بحركتها إلى فاعلٍ مماثل لنفسه، أثّر على الكون العظيم بالطريقة ذاتها التي أثّرت بها هذه النفس على جسده. وبعد أن افترض الإنسان أنَّه ثنائياً، جعل الطبيعة ثنائية أيضاً وميزها عن القدرة الخاصة به، وفصلها تدريجياً عن محركها الذي جعله روحياً. وهكذا اعتُبرت هذه الكينونة المتميزة عن الطبيعة بمثابة نفس للعالم، واعتُبرت نفس الإنسان أجزاءً منبثقة من هذه النفس الكلية. إنَّ هذه الفكرة عن أصل النفس قديمة جداً، وكانت موجودة عند المصريين، والكلدانيين، والعبرانيين، وعند عددٍ كبير من حكماء الشرق.[83] ووضعت في هذه المدارس التي تضمنت **فيريسيدس Pherecydes**،(*) **وفيثاغورس**، **وأفلاطون**، عقيدةً مبهجة جداً لغرور الطبيعة البشرية – مُرضية جداً لخيال البشر. وهكذا اعتقد الإنسان أنَّه جزءاً من الإله، وأنَّه خالداً ويشبه الربوبية في جزءٍ منه، ومع ذلك تخلت الأديان المبتكرة لاحقاً عن هذه المزايا التي حكمتْ عليها بأنَّها غير متوافقة مع الأجزاء الأخرى من أنظمتها، وأكدت أنَّ سيد الطبيعة أو مخترعها لم تكن نفس الإنسان، بل بفضل قدرته المطلقة، والذي خلق نفوساً بشرية مثلما أحدث الأجساد

* – فيريسيدس: (550ق.م) مفكر يوناني، ومؤلف علم الكون، ويعتبر حلقة وصل بين الفكر الأسطوري لهزيود وفلسفة ما قبل سقراط، وقد اعتبره أرسطو كاتب أسطوري في حين منحه بلوتارخ وآخرين لقب اللاهوتي. (المترجم)، وللمزيد أنظر: [Pherecydes of Syros / Greek writer /Britannica]

التي يجب أن تحيا بها، وعلّم أنَّ هذه النفوس عندما حدثت تمتعت بالخلود نتيجة القدرة المطلقة ذاتها.

ورغم هذه الاختلافات المتعلقة بأصل الأنفس، اعتقد أولئك الذين افترضوا أنَّها منبثقة من الإله، أنَّها تعود راضية مرضية إلى مصدرها الأول بعد موت الجسد الذي أفاد كغلاف لها. واضطر أولئك الذين أعجبوا بروحانية النفس وخلودها، من دون أن يتبنوا رأي الانبثاق الإلهي، إلى افتراض منطقة واكتشاف مسكنٍ لهذه الأنفس التي صورها خيال كلّ منهم حسب مخاوفه وآماله ورغباته وتحيزاته.

وليس هناك ما هو مألوف أكثر من عقيدة خلود النفس، ولا شائع بشكلٍ كلي أكثر من توقع حياة أخرى. فبعد أن ألهمت الطبيعة الإنسان بحبٍ شديد لوجوده، كانت رغبته في الحفاظ على نفسه إلى الأبد نتيجةً ضرورية، وتحولت هذه الرغبة الآن إلى يقين، وقدّم من تلك الرغبة في الوجود الأبدي التي زرعتها الطبيعة فيه، حجةً لإثبات أنَّ الإنسان لن يتوقف عن الوجود أبداً. يقول أبادي **Abbadie**:[*] "لا تمتلك نفسنا رغبات غير مجدية، وهي ترغب بطبيعتها بحياة أبدية". ويستنتج بمنطقٍ غريب جداً، أنَّ هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق.[84] ومع ذلك قد يُستبعد هذا الأمر بالقول: إنَّ الإنسان استمع باهتمام لأولئك الذين أعلنوا له أنظمةً تتوافق تماماً مع رغباته. ومع ذلك، يجب ألا يعتبر الرغبة في الوجود خارقةً للطبيعة، وأنَّها كانت دائماً وستظل دائماً من ماهية الإنسان، ولا ينبغي الاندهاش إذا ما استقبل بشغفٍ الفرضية التي أطّرت آماله، وأعطته وعداً بأنَّ رغبته سيتم إشباعها يوماً ما، ولكن ليحترس من كيفية استنتاجه بأنَّ هذه الرغبة بحد ذاتها دليلاً لا يقبل الشك على واقعية هذه الحياة المقبلة، والتي يبدو أنَّه مشغول بها كثيراً بسبب سعادته الحالية. إنَّ الشغف بالوجود عند الإنسان هو مجرد نتيجة طبيعية لميل كائن حساس تكون ماهيته مؤهلة لحفظه، ويترتب عليه عند الكائن البشري طاقة موجودة بنفسه أو تواكب قوة خياله المستعد دائماً لإدراك ما يرغب به بشدة. فإنْ كان يرغب في حياة الجسد، رغم احباط هذه الرغبة، فلماذا لا تُحبط الرغبة في حياة النفس مثل الجسد؟[85]

---

* - جاك أبادي: (1654–1727)، لاهوتي بروتستانتي فرنسي، من أهم مؤلفاته "رسالة في حقيقة الدين للمسيحي. (المترجم)، وللمزيد أنظر [Dictionary of National Biography, 1885-1900/Abbadie, Jacques - Wikisource, the free online library]

إنَّ أبسط تأمل في طبيعة نفس الإنسان يجب أن يقنعه أنَّ فكرة خلودها ما هي إلا وهمٌ من فعلِ الدماغ. وبالفعل ماذا تكون نفسه، لولا وجود مبدأ الإحساس؟ أليس التفكير، والتمتع، والمعاناة، شعوراً؟ أليست الحياة عبارة عن مجموعة من التعديلات ومجموعة من الحركات الخاصة بكائنٍ منظم؟ وهكذا، بمجرد أن يتوقف الجسد عن الحياة، لم يعد بإمكان إحساسه أن يعمل من تلقاء ذاته، ونتيجة لذلك لم يعدْ بإمكانه أن يمتلك لا أفكاراً ولا خواطر. فالأفكار، كما أثبتنا ذلك، لا يمكن أن تصل إلى الإنسان إلا من خلال حواسه، فكيف سيحصل عليها الآن، وهو بمجرد حرمانه من حواسه لم يعد قادراً على تلقي الإحساسات وامتلاك الإدراكات وتكوين الأفكار؟ وبما أنَّهم جعلوا نفس الإنسان كينونةً منفصلة عن الجسد المفعم بالحيوية، فلماذا لم يجعلوا الحياة كينونةً متميزة عن الجسد الحي؟ فالحياة في الجسد هي مجمل حركته، ويشكل الشعور والفكر جزءاً من هذه الحركة، وهكذا ستتوقف هذه الحركات عند الميت مثل كلّ الحركات الأخرى.

وبالفعل بأيّ استدلال سيتم إثبات أنَّ هذه النفس التي لا تستطيع الشعور والتفكير والإرادة أو التصرف من دون مساعدة أعضاء الإنسان، يمكن أن تعاني من الألم أو تكون عرضة للذة أو حتى لديها وعيٌ بوجودها عندما تتحلل أو تتلف الأعضاء التي يجب أن تحذرها من وجودها؟ أليس من الواضح أنَّ النفس تعتمد على ترتيب أجزاء الجسد المختلفة، وعلى النظام الذي تتعاون بموجبه هذه الأجزاء لأداء وظائفها أو حركاتها؟ وبالتالي هل من الممكن الشك أنَّه بمجرد تدمير البنية العضوية ستُدمر النفس أيضاً؟ ألا يُلاحظ أنَّه خلال مجرى الحياة البشرية بأكملها، يتم تحفيز هذه النفس وتغييرها، وتشويشها، وازعاجها من خلال كلّ التغييرات التي تطرأ على أعضاء الإنسان؟ ومع ذلك سيتم التأكيد على أنَّ هذه النفس تعمل، وتفكر، وتعيش، عندما تختفي هذه الأعضاء تماماً!

من هنا يمكن مقارنة الكائن المنظم بساعة، بمجرد كسرها لم تعد مناسبة للاستخدام الذي صُمم من أجلها. والقول: إنَّ النفس ستشعر، وستفكر، وستتمتع، وستعاني بعد موت الجسد، يماثل الادعاء بأنَّ الساعة التي تحطمت إلى ألف قطعة ستستمر في دق الساعة، وستكون لها ملكة الإشارة إلى تقدم الوقت. ومن الواضح أنَّ أولئك الذين يقولون: إنَّ نفس الإنسان قادرةٌ على البقاء على الرغم من تدمير الجسد، يدعمون الموقف

القائل: إنَّ تعديل الجسد سيمكّن من الحافظ عليه بعد تدمير الشخص، لكن هذا سخيف تماماً.

وسيُقال: إنَّ حفظ النفس بعد موت الجسد هو نتيجة القدرة الإلهية المطلقة: ولكن هذا يدعم العبثية بفرضية لا مبرر لها. ومن المؤكد أنّه لا يقصد بالقدرة الإلهية المطلقة، مهما كانت طبيعتها، أنَّ شيئاً ما يجب أن يكون موجوداً وغير موجود في الوقت ذاته، وأنَّ النفس ستشعر وتفكر من دون الوسطاء الضروريين للفكر.

ومن هنا دعهم يتغاضون على الأقل عن التأكيد أنَّ العقل لا يتأثر بعقيدة خلود النفس أو توقع الحياة في المستقبل. فهذه المفاهيم التي تشكّلت لإطراء الإنسان أو لإزعاج خيال الجهلاء الذين لا يفكرون، لا يمكن أن تبدو مقنعة أو محتملة بالنسبة للعقول المستنيرة. فالعقل المستبعد عن أوهام التحيز، يتأذى بلا شك بافتراض النفس التي تشعر، وتفكر، وتُبتلى وتفرح، ولديها أفكار، من دون امتلاك أعضاء؛ وهذا يعني أنَّه يفتقر إلى الوسائل المعروفة والطبيعية الوحيدة التي يمكن من خلالها أن يشعر بالأحاسيس أو تكون لديه تصورات أو يشكل أفكاراً. وإذا كان الرد بأنَّه يمكن أن توجد هذه الوسائل الأخرى، سواء كانت خارقة للطبيعة أو غير معروفة، فيمكن الإجابة بأنَّ وسائل نقل الأفكار هذه إلى النفس المنفصلة عن الجسد، ليست معروفة بشكلٍ أفضل أو في متناول أولئك الذين يفترضونها أكثر من غيرهم من البشر. ومن المؤكد على الأقل أنَّ كلّ أولئك الذين يرفضون نظام الأفكار الفطرية، لا يمكنهم من دون أن يناقضوا مبادئهم الخاصة أن يعترفوا بعقيدة خلود النفس التي لا أساس لها من الصحة.

وعند تحدى العزاء الذي يدّعي العديد من الأشخاص بأنَّهم يجدونه في فكرة الوجود الأبدي، وعلى الرغم من هذا الاقتناع الراسخ الذي يؤكد لنا عدد من البشر أنَّهم يمتلكونه حول أنَّ أنفسهم ستبقى حية مع أجسادهم، يبدو أنَّهم قلقون للغاية من تحلل هذا الجسد لدرجة أنَّهم لا يفكرون في نهايتهم التي ينبغي أن يرغبوا فيها باعتبارها فترة للمآسي المتعددة، ولكن بمزيد من القلق. وذلك صحيح لأنَّ الواقع وحتى الحاضر المصحوب بالألم له تأثيرٌ على البشرية أكثر بكثير من أجمل الكائنات الخرافية المقبلة التي لا يراها إلا من خلال غيوم الارتياب. وبالفعل على الرغم من اقتناع معظم البشر المتدينين بالأبدية المباركة، إلا أنَّهم لا يجدون في هذه الآمال المطلقة تعزيةً كافية لقمع مخاوفهم وارتعاشهم

عندما يفكرون في التحلل الضروري لأجسادهم. وكان الموت دائماً من أكثر وجهات النظر رعباً بالنسبة للبشر، واعتبروه ظاهرةً غريبة، ومعارضٌ لنظام الأشياء، ومضادٌ للطبيعة؛ أي كنتيجة للانتقام السماوي وكجزاءٍ على الخطيئة. وعلى الرغم من أنَّ كلّ شيء يثبت للإنسان أنَّ الموت أمرٌ حتمي، إلا أنَّه لا يستطيع أبداً التآلف مع فكرته، ولا يفكر فيه أبداً من دون أن يرتعش، ولا يؤكد امتلاك نفس خالدة، سوى لتعوضه بشكلٍ طفيف عن الحزن الذي يشعر به عند حرمانه من جسده الفاني. وهناك سببان يساهمان في تقوية وتغذية رعبه، والأول هو أنَّ هذا الموت المصحوب عادةً بالألم، ينتزع منه وجوداً يرضيه، ويعرفه، ويعتاد عليه، والسبب الآخر هو الارتياب من الحالة التي يجب أن تخلف وجوده الفعلي.

ومن هنا قال **بيكون** المعروف: إنَّ "البشر يخافون الموت للسبب ذاته الذي يخشى فيه الأطفال من أن يبقوا وحدهم في الظلام".(86) حيث يتحدى الإنسان بشكلٍ طبيعي كلّ ما يجهله، ويرغب في رؤيته بوضوحٍ حتى يتمكن من حماية نفسه من تلك الأشياء التي قد تهدد سلامته أو قد يتمكن من توفير ما يمكن أن يفيده. ولا يمكن للإنسان الموجود أن يشكّل لنفسه أيّ فكرةٍ عن عدم الوجود، بما أنَّ هذه الحالة تزعجه، ولكونه يفتقر للخبرة يشغل خياله، وهذا يلفت انتباهه إلى حالة الارتياب هذه سواء كانت جيدة أو سيئة؛ فاعتاد التفكير، والشعور، والحث على النشاط، وامتاع المجتمع، وتصورَ أنَّ أكبر مصيبة هي الانحلال الذي سيجرده من هذه الأشياء، ويحرمه من تلك الإحساسات التي جعلتها طبيعته الحالية ضرورية له، وسيمنع كيانه من تحذير وجوده، وينزع منه ملذاته لإغراقه في العدم. وبافتراض عدم وجود الألم، يتطلع دائماً إلى هذا العدم على أنَّه عزلةً مؤلمة، وكومةً من الظلام الدامس، ويرى نفسه في حالةِ دمارٍ شامل، ومحرومٌ من كلّ مساعدة، ويشعر بقسوة هذا الموقف المخيف. ولكن ألا يساعد النوم العميق في إعطائه فكرةً صحيحة عن هذا العدم؟ ألا يحرمه ذلك من كلّ شيء؟ ألا يبدو أنَّه يفني الكون له، ويفنيه للكون؟ وهل الموت أكثر من نوم عميق ودائم؟ وهل يخشى الإنسان الموت بسبب عدم قدرته على تكوين فكرة عنه؟، وهل سيتوقف عن الخوف منه إذا تمكن من رسم صورةٍ حقيقية له عن حالة الفناء هذه؟ ولكنه عاجزٌ عن تصور حالة لا يوجد فيها شعور؛ لذلك يعتقد أنَّه عندما لا يعود موجوداً، ستكون لديه المشاعر ذاتها والوعي ذاته بالأشياء التي تظهر لعقله

أثناء وجوده بهذه الألوان القاتمة؛ حيث يصور الخيال له موكب جنازته، والقبر الذي يحفرونه له والرثاء التي سيرافقه إلى مسكنه الأخير، فيقنع نفسه بأنَّ هذه الأشياء الكئيبة ستؤثر عليه بشكلٍ مؤلم حتى بعد وفاته كما هو الحال في حالته الراهنة التي يمتلك فيها كامل حواسه.[87]

ليضللك الخوف أيُّها الفاني! فبعد موتك لن تبصر عيناك، ولن تعد أذنيك تسمع، ولن تعد في أعماق قبركَ شاهداً بعد الآن على هذا المشهد الذي يمثله لك خيالك في الوقت الحاضر في ظل هذه الألوان الكئيبة، ولن تشترك بعد الآن فيما سيحدث في العالم، ولن تنشغل بما قد يصيب بقاياك الخامدة أكثر مما كنت عليه في اليوم السابق الذي كنت فيه بين كائنات من جنسك. فأنْ تموت يعني أن تكفّ عن التفكير والشعور والاستمتاع والمعاناة؛ فلا تتبعك أحزانك الى القبر الصامت. فكرْ في الموت، ليس لزيادة مخاوفك وتغذية حزنك، ولكن لتعويد نفسك على النظر إليه بعين مسالمة، ولتشجيعك على مواجهة تلك الفظائع الزائفة التي يقلق بها أعداؤك راحتك!

إنَّ أهوال الموت أوهامٌ لا طائل من ورائها، ويجب أن تختفي بمجرد أن نتعلم التفكير في هذا الحدث الضروري من وجهة نظر الإنسان الحقيقية. وقد عرّف الإنسان العظيم الفلسفة على أنَّها التأمل في الموت،[88] ولا يريد أن يفهم بذلك أنَّ الإنسان عليه الانشغال بنهايته بحزن، وبهدف تغذية مخاوفه، بل على العكس من ذلك، يرغب في دعوته إلى التعرّف على شيءٍ جعلته الطبيعة ضرورياً له، وتعويده على توقعه بمظهرٍ هادئ. وإذا كانت الحياة نافعة وكان من الضروري أن تحبها، فذلك لا يقلّ ضرورةً عن مغادرتها، ويجب أن يُعلّمه العقل التسليم الهادئ بقراراتِ القدر، حيث تتطلب رفاهيته أن يسلك عادةَ التأمل من دون أن يرهب الحدث الذي جعلته ماهيته مقدراً له، وتقتضي مصلحته ألا يغذي حياته بالرهبة المستمرة، والمفاتن التي يجب أن يدمرها حتماً، إن لم يستطع رؤية إجهاضها إلا من خلال الذعر. ويتفق العقل ومصلحته على طمأنته من تلك الأهوال الغامضة التي يلهمهُ بها خياله في هذا الصدد. وإذا كان يستحضرها لمساعدته، فستجعله يخضع لما يذهله لمجرد أنّه لا يملك معرفة به أو لأنَّه لا يظهر له إلا مع تلك المرفقات الشنيعة التي تشوبها الخرافة. دعه يسعى إذن إلى أن ينزع عن الموت هذه الأوهام الباطلة، وسيدرك أنَّه ليس سوى نومٌ للحياة؛ وأنَّ هذا النوم لن ينزع عنه الأحلام البغيضة، وأنَّ

الصحوة غير السارة لن تتبعه أبداً. فالموت يعني أن ينام، وهو إعادة الدخول في حالة عدم الإحساس التي كان فيها قبل ولادته، وقبل أن تكون لديه حواس، وقبل أن يدرك وجوده الفعلي. وستجعله القوانين الضرورية كتلك القوانين التي ولد بموجبها، يعود إلى رحم الطبيعة الذي انطلق منه، من أجل إعادة إنتاجه بعد ذلك في شكلٍ جديد، وسيكون من غير المجدي بالنسبة له أن يعرفه؛ حيث تضعه الطبيعة من دون استشارته لفترة في نظام الكائنات المنظمة، وتلزمه من دون موافقته بتركه ليشغل نظاماً آخر.

وبالتالي دعوه لا يتذمر من قسوةِ الطبيعة؛ فهي تجعله يخضع فقط لقانونٍ لا تستثني منه أيّ كائن موجود فيها.[89] فإذا ولِد الجميع وماتوا، وإذا تغير كلّ شيء وتعرّض للفناء، وإذا لم تكن ولادة كائن ما مجرد الخطوة الأولى نحو نهايته؛ فكيف يمكن أن نتوقع أنَّ الإنسان الذي كانت عضويته ضعيفة للغاية وأجزائها معقدة جداً، وتمتلك كلّها مثل هذا التحول المفرط، لابدّ من استثنائه من القانون العام الذي يقضي بأنَّ الأرض الصلبة التي يسكنها سيعتريها التبدل، وستخضع للتغيير - ربما تُدمر! يا لك من هالك فانٍ ضعيف! أنت تدعي أنَّك موجود إلى الأبد، هل تريد إذن أن تغير الطبيعة الأبدية لك وحدك مسارها الثابت؟ ألا ترى في تلك المذنبات اللامركزية التي تُذهَل بها عيناك أحياناً، أنَّ الكواكب بحد ذاتها عرضة للموت؟ عِش إذن بسلام، لفترة تسمح لك بها الطبيعة؛ وإن كان ذهنك مستنيراً بالعقل، فستموت بلا رعب!

وعلى الرغم من بساطة هذه التأملات، إلا أنَّه ليس من النادر أن نرى بشراً محصنين حقاً من مخاوف الموت، والإنسان الحكيم نفسه يصبح شاحباً عند اقترابه، ولديه فرصة ليستجمع كلّ قوة عقله لتوقعه بهدوء. وبالتالي لا يمكن أن نندهش إذا كانت فكرة الموت مقززة لعموم البشر؛ حيث ترعب الشباب، وتضاعف من استياء وحزن كبار السن الذين يعانون من الضعف، ويخشاهُ المسنون في الواقع على الرغم من ضعفهم بمرور الوقت أكثر بكثير من الشباب الذين هم في أوجِ حياتهم؛ فالإنسان ذو الامتيازات المتعددة يعتاد أكثر على العيش، وتضعف قوى عقله، وتقل طاقة، وتضنيه فترة المرض، ورغم أنَّ البائس التعيس ينغمس في المحنة، ويعاني وطأة التعذيب الشديد، إلا أنَّه لا يجرؤ على الإطلاق على التفكير في الموت الذي كان ينبغي أن يأخذه بالاعتبار طيلة فترة كربته.

وإذا بحثنا عن مصدر هذا الجبن، فسنجده موجوداً في طبيعته التي تعلقه بالحياة، وفي نقص الطاقة في نفسه التي لا يكاد أيُّ شيء يميل إلى إثباتها، غير أنَّ كلّ شيء يسعى إلى إضعافها وسحقها. وتتعاون كلّ المؤسسات البشرية، وكلّ آراء الإنسان لتزيد من مخاوفه، وتجعل أفكاره عن الموت أكثر فظاعة وتمرداً. وتشبعها الخرافة بحدّ ذاتها في الواقع عبر إظهارها للموت بأكثر الصفات رعباً، وعلى أنَّه لحظة مروعة لا تضع نهاية لمتعه فحسب، بل تجعله يستسلم من دون دفاعٍ لصرامة طاغية غريب لا يرحم، ولا يمكن أن يضعفه شيء. وبحسب هذه الخرافة، لا يتأكد الإنسان الأكثر فضيلةً أبداً من إرضائه؛ ولكن لديه سببٌ للارتعاش من قسوة احكامه، والخوف من العذابات المروعة والعقوبات اللامتناهية التي تنتظر ضحايا نزواته، ومن ضعف لا إرادي أو أخطاء ضرورية لحياة قصيرة الأجل. وسينتقم هذا الطاغية العنيد لنفسه من أسقام الإنسان، وجرائمه اللحظية، والميول التي غُرست في قلبه، ومن ضلالات عقله، والآراء التي تشرّبها من المجتمع الذي وِلدَ فيه من دون موافقته، والأفكار التي شكّلها، والعواطف التي انغمس فيها، ومن عدم قدرته في البداية على استيعاب الكائن المبهم، وكلّ العقائد المتطرفة المقدّمة لقبوله.(90)

هذه إذن هي المواضيع المؤلمة التي يُشغِل بها الدين أتباعه التعساء والساذجين، وهذه هي المخاوف التي يشير طاغية الأفكار البشرية إلى أنَّها مفيدة. وعند مواجهة منحى التأثير الذي تحدثه هذه المفاهيم على أكبر عدد من أولئك الذين يقولون: إنَّهم مقتنعون أو يعتقدون أنَّهم كذلك، ينظرون إليها على أنَّها أقوى حصن يمكن أن يقاوم شذوذات الإنسان. ومع ذلك، سوف نكتشف كما سنرى حالياً، أنَّ هذه الأنظمة أو بالأحرى هذه الكائنات الخرافية المروعة للغاية، تؤثر قليلاً أو لا تؤثر على الإطلاق على الجزء الأكبر من البشر الذين لا يفكرون فيها إلا نادراً، ولا تحثهم عليها العاطفة، والمنفعة، والمتعة أو القدوة في الوقت الراهن. وإذا كان لهذه المخاوف تأثيرٌ، فهي تؤثر عموماً على من لا يملكون سوى فرصةً قليلة للامتناع عن الشر، وتجعل القلوب الصادقة ترتجف، لكنها تفشل في التأثير على المنحرفين. وتعذب النفوس العاقلة، لكنها تترك أولئك المتصلبين في حالة سكينة، وتزعج العقول المرنة والمعتدلة، ولكنها لا تحدث أيّ مشكلةٍ للأرواح المتمردة، وبالتالي فهي لا ترعب سوى أولئك الذين هم بالفعل مذعورين بما فيه الكفاية وليست مفروضة إلا على أولئك الذين تم قمعهم.

ومن ثم فإنَّ هذه المفاهيم لا تثير إعجاب الأشرار عندما يتصرفون بناءً عليها عن طريق الصدفة، غير أنَّها تضاعف الشر في شخصيتهم الطبيعية، وتبرره في نظرهم، وتزودهم بالذرائع لممارسته من دون خوف، واتباعه من دون تردد. وأظهرت الخبرة عند عددٍ كبير من الأجيال بالفعل ما هو الانغماس بالشر وإلى أيّ مدى حملته عواطف الإنسان عندما أجازها الدين وحررها من قيوده، أو عندما تمكّن على الأقل من تغطية نفسه بعباءته. ولم يكن الإنسان أبداً أكثر طموحاً من أيّ وقت مضى، ولا أكثر طمعاً، ولا أكثر مكراً، ولا أكثر قسوة، ولا أكثر إثارة للفتنة، مما كان عليه عندما أقنع نفسه بأنَّ الدين سمح له أو أمره بذلك، وهكذا لم يفعل الدين شيئاً أكثر من إضفاء قوة لا تُقهر على عواطفه الطبيعية التي يمكنه أن يمارسها بلا عقاب ومن دون ندم في ظل رعايته المقدسة، والأكثر من ذلك هو أنَّ أعظم الأوغاد، اعتقدوا عند منحهم حرية التعبير عن النزعات البغيضة لشرهم الطبيعي، أنَّهم عندما يبدون تعصباً مفرطاً، يستحقون نعيم الجنة، واستثنوا أنفسهم من الجرائم التي يُعاقب عليها إلههم، والتي اعتقدوا أنَّ سلوكهم السابق كان يستحقها كثيراً.

هذه هي إذن التأثيرات التي تحدثها المفاهيم اللاهوتية المفيدة على البشر. وستوفر هذه التأملات إجابةً لأولئك الذين يقولون: "إذا كان الدين قد وعد الأشرار بالجنة على قدم المساواة مع الصالحين، فلن يكون هناك ما يثير الشك في حياةٍ أخرى". ونجيب أنَّ الدين يمنح بالفعل الجنة للأشرار؛ لأنَّه كثيراً ما يضع في هذا المسكن السعيد البشر الأكثر عقماً وأكثرهم فساداً.(91)

وهكذا فإنَّ الدين، يشحذ كما رأينا عواطف البشر الأشرار، من خلال إضفاء الشرعية على تلك الجرائم التي يخشون ارتكابها حتى من دون هذه العقوبة أو على الأقل سيشعرون بالعار والندم بسببها. وباختصار، يزود خُدام الدين البشر الأكثر فسقاً بوسائل تحيد عن رؤوسهم الوعيد الصاخب الذي كان ينبغي أن يقع على ذنوبهم، مع وعدٍ بسعادة لا تنضب أبداً.

وفيما يتعلق بالتذمر، فقد يكون بينهم بلا شك بشراً أشرار، وكذلك عند أكثرهم سذاجةً، لكن الريبة لا تفترض الشر أكثر مما تفترض السذاجة الاستقامة. وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الإنسان الذي يفكر ويتأمل، يعرف الدوافع الحقيقية للخير أفضل بكثير مما

يكابده عندما توجهه بشكلٍ أعمى دوافع ملتبسة أو مصلحة الآخرين. ويتمتع البشر العقلاء بأكبرِ ميزةٍ عند فحصهم للآراء التي يُزعم أنَّها لابدّ أن تؤثر على سعادتهم الأبدية: وإذا وجد أنَّها خاطئة أو ضارة بحياتهم الحالية، فلن يستنتجوا بالتالي أنَّهم لا يمتلكون حياة أخرى يخشونها أو يأملون بها، ويُسمح لهم بتسليم أنفسهم والإفلات من العقاب على الرذائل التي من شأنها أن تُلحق الأذى بهم، أو من شأنها أن تجلب لهم ازدراء المجتمع وغضبه؛ فالإنسان الذي لا يتوقع حياة أخرى، والأكثر اهتماماً بإطالة أمد وجوده فيها، وفي جعل نفسه عزيزاً على أقرانه في الحياة الوحيدة التي ليس لديه أيّ معرفة بها، قد خطى خطوةً كبيرة نحو السعادة عند فك ارتباطه بتلك الأهوال التي ابتُلي بها الآخرين.(92)

وتفتخر الخرافة في الواقع بجعل الإنسان كسولاً وساذجاً وجباناً! والأصل في ذلك أن تبتليه بها بشكلٍ متواصل، ولكي تضاعف عليه أهوال الموت وتمعن دائماً في تعذيبه، وسّعت تساؤلاته إلى ما وراء وجوده المعروف، وكلّما كان التخلص منه أكثر أماناً في هذا العالم، ابتكر كهنتها مناطق مستقبلية، واحتفظوا لأنفسهم بامتياز منح الثواب لأولئك الذين استسلموا ضمنياً لقوانينهم التعسفية، ولحكم إلههم بمعاقبة تلك الكائنات العنيدة التي تمردت على سلطتهم.(93)

وهكذا، بعيداً عن تقديم العزاء للبشر، وبعيداً عن تهذيب عقل الإنسان، وبصرف النظر عن تعليمه الاستسلام لمساعدات الضرورة، يسعى الدين إلى جعل الموت أكثر مرارةً له، وجعل نيره ثقيلاً، ويملأ موكبه بعددٍ كبيرٍ من الأشباح البشعة، ويجعل نهجه فظيعاً. وبهذه الوسيلة، اكتظ العالم بالمتعصبين الذين فتنتهم وعودٌ غامضة؛ وعبيداً تافهين يفرضون عليهم الخوف من الشرور الوهمية. وأقنعت الإنسان مطولاً أنَّ وجوده الفعلي ليس سوى رحلة سيصل من خلالها إلى حياةٍ أكثر أهمية. وتمنعه هذه العقيدة اللاعقلانية عن الحياة المقبلة من شغل نفسه بسعادتهِ الحقيقية، ومن التفكير في إصلاح مؤسساته، وتحسين قوانينه، والارتقاء بتقدم العلم، وكمال أخلاقه. وقد استحوذت الأفكار الباطلة والقاتمة على اهتمامه؛ فقبل أن يئن تحت وطأة الاستبداد الديني والسياسي، ويعيش في الضلال، ويعاني من سوء الحظ على أمل، عندما لا يكون يوماً ما أكثر سعادةً؛ أن يكون على ثقة راسخة في أنَّ مصائبه وصبره الغبي سيقودانه إلى سعادةٍ لا تنتهي، واعتقد أنَّه يخضع لإله قاسي يرغب في جعله يشتري رفاهه المقبل، على حساب كلّ شيء عزيز وأثمن لوجوده هنا

على الأرض؛ فصوروا إلههم على أنَّه غاضباً منه، ويميل لإرضاء نفسه من خلال معاقبته إلى الأبد على أيِّ جهودٍ قد يبذلها ليفلت من سلطتهم. ومن هنا كانت عقيدة الحياة المقبلة أكثر فتكاً بالجنس البشري، وأغرقت أمماً بأكملها في الكسل، وجعلتهم ضعيفين، وملأتهم باللامبالاة برفاهيتهم الحالية أو دفعتهم إلى التعصب الشديد الذي حثهم على تمزيق بعضهم البعض إلى أشلاء ليستحقوا الجنة.

وربما سيُسأل: أيُّ طريق سلك الإنسان ليشكل لنفسه هذه الأفكار الغريبة وغير المبررة عن عالمٍ آخر؟ وأجيب ليس لدى الإنسان في الحقيقة أيُّ فكرةٍ عن الحياة المقبلة غير تلك الموجودة لديه؛ حيث تزود أفكار الماضي والحاضر خياله بالمواد التي يبني منها صرح مناطق المستقبل، وهنا يقول هوبز: "نحن نؤمن أنَّ ما هو موجود سيبقى دائماً، وأنَّ الأسباب ذاتها ستكون لها النتائج ذاتها." إذ يمتلك الإنسان في حالته الفعلية نمطين من المشاعر، أحدهما يستحسنه والآخر يستهجنه، وهكذا اقتنع بأنَّ هذين النمطين من المشاعر يجب أن يرافقانه حتى بعد وجوده الحالي، ووضع في مناطق الخلود مسكنين متميزين، الأول مقدّر للسعادة والآخر للبؤس، ويضم الأول أصدقاء إلهه، والآخر سجن مقدر للانتقام من الهون Hun(*) على كلّ أولئك الذين لا يعتقدون بإخلاصٍ بالعقائد التي أصدرها الكهنة بشأن مجموعة متنوعة من الخرافات.(94)

وهذا هو أصل الأفكار المتعلقة بالحياة المقبلة السائدة جداً بين البشر. ويمكن أن نرى في كلّ مكان الفردوس والجحيم، والجنة والنار، وبعبارة أخرى، مسكنين متميزين، ومبنيان بحسب خيال المحتالين أو المتعصبين الذين ابتكروها، ووفقوا بينهما وبين التحيزات الخاصة، والآمال، والمخاوف عند الناس الذين يؤمنون بهما. ويعتبر الهندي أول هذه المساكن على أنَّه للكسل والراحة الدائمة؛ لكونه يسكن مناخاً حاراً وتعلّم التفكير في الراحة على أنَّها أقصى درجات السعادة: ويعدُ المسلم نفسه بملذات جسدية مماثلة لتلك التي تشكل في الواقع موضوع بحثه في هذه الحياة، ويأمل المسيحي في ملذات روحية لا توصف — أيّ أنَّه لا يمتلك أيُّ فكرةٍ عن السعادة.

---

* - الهون: شعب بدوي عاش في آسيا الوسطى، والقوقاز، وأوروبا الشرقية، بين القرنين الرابع والسادس الميلادي. (المترجم)، للمزيد راجع:

[https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english]

ومهما كانت طبيعة هذه الملذات، فقد أدرك الإنسان أنَّ الجسد كان ضرورياً لتتمكن نفسه من الاستمتاع بالملذات، أو اختبار الآلام التي يحفظها له اللاهوت، من هنا جاءت عقيدة القيامة. ولكن عندما رأى أنَّ هذا الجسد يتعفن، كما رآه يتحلل، وشهد أيضاً تحلله بعد الموت، فقد لجأ إلى القدرة الإلهية التي يعتقد الآن أنَّه سيتشكل من جديد بفضل تدخلها. ويُقال: إنَّ هذا الرأي الغامض تماماً، قد نشأ في بلاد فارس عند المجوس، ووجد عدداً كبيراً من الأتباع الذين لم يجروا فحصاً جاداً له أبداً.[95] واعتقد آخرون، غير قادرين على الارتقاء بأنفسهم إلى هذه المفاهيم السامية، أنَّ الإنسان أحيا تحت أشكال متنوعة، حيوانات مختلفة على التوالي ومن مختلف الأنواع، ولم يتوقف عن أن يكون ساكناً على الأرض، وكان هذا هو رأي أولئك الذين تبنوا عقيدة التناسخ Metempsychosis.

أما بالنسبة لمسكن النفوس البائسة، فقد سعى خيال المتعصبين الراغبين في حكم الشعب إلى جمع أبشع الصور لجعله أكثر فظاعةً. فالنار عند جميع الكائنات هي التي تحدث لدى الإنسان أحاسيس لاذعة؛ لذلك كان من المفترض أنَّ الله لا يستطيع أن يخترع أيّ شيء أكثر قسوة لمعاقبة أعدائه، فكانت النار هي الهدف الذي يجب أن يتوقف عنده خيالهم، وتم الاتفاق بشكلٍ عام على أنَّ النار ستنتقم ذات يوم للإله المهين،[96] وهكذا صوروا ضحايا غضبه على أنَّهم محتجزين في زنزانات نارية؛ ويتحدّون بشكلٍ دائم دوامة النيران القارية، وانغمسوا أيضاً في خلجان لم تُكتشف بعد من الكبريت السائل؛ فجعلوا الكهوف الجهنمية تدوي بأنينهم غير المجدي، وصرير أسنانهم الذي لا ينفع. ولكن ربما يُسأل كيف يمكن للإنسان أن يسوي خلافه مع الاعتقاد بوجودٍ يرافقه عذابٌ أبدي، وهل امتلك العديد من الأشخاص في البداية بحسب أنظمتهم الدينية سبباً للخوف على أنفسهم؟ وهنا اتفقت العديد من الأسباب على جعله يتبنى رأياً مثيراً للاشمئزاز. وفي المرتبة الأولى: صدّق قلةٌ قليلة من البشر المفكرين هذه العبثية عندما تكرّموا باستخدام عقلهم أو عندما أقروا ذلك، وقوبل هذا المفهوم دائماً بفكرةِ الخير وبالتعويل على الرحمة التي نسبوها إلى إلههم.[97]

وفي المرتبة الثانية: لم يقدم أولئك الذين أعمتهم مخاوفهم لأنفسهم أبداً أيّ تفسيرٍ لهذه المذاهب الغريبة التي تلقوها برهبةٍ من مشرّعيهم، أو التي نقلها إليهم آباؤهم. وفي المرتبة الثالثة: لا يرى كلّ شخص موضوع رعبه إلا على مسافة مناسبة، علاوة على أنَّ

الخرافة تعدّه بوسائل الهروب من الأهوال التي يعتقد أنَّه يستحقها. ومثل هؤلاء المرضى الذين نراهم يتشبثون بشغفٍ حتى بالحياة الأكثر إيلاماً، فضّل الإنسان على المدى الطويل فكرة الوجود التعيس وإن كان غير معروف، وفكرة عدم الوجود التي كان يُنظر إليها على أنَّها أفظع شرٍ يمكن أن يصيبه. إما لأنَّه لم يستطع تكوين فكرة عنه أو لأنَّ خياله صور له عدم الوجود هذا، وهذا العدم، على أنَّه تركيبٌ مشوش من كلّ الشرور. فالشر المعروف مهما كان حجمه في البداية يبقي لديه أملٌ في القدرة على تجنبه، ويرعبه أقل من شر لم يعرف عنه شيئاً، واستخدم فيه بالتالي خياله بشكلٍ مؤلم، ولكنه لم يعرف كيف يتجنبه.

وهكذا سيتبين أنَّ الخرافة، بعيداً عن كونها تواسي الإنسان بضرورة الموت، إلا أنَّها تضاعف فقط من أهواله بفعل الشرور التي تُظهر أنَّها ستتبع وفاته، وتكون هذه الأهوال قوية جداً لدرجة أنَّ البؤساء المغلوب عل أمرهم يؤمنون بهذه المذاهب الهائلة بشدة، ويقضون أيامهم في الضيق، ويذرفون الدموع المرّة. وماذا ينبغي أن يُقال عن الرأي المدمر للغاية للمجتمع، رغم تبني العديد من الأمم له، والذي يعلن لهم أنَّ إلهاً قاسياً قد يسلبهم في كلّ لحظة كلصٍ، وأنَّهم يتعرضون في كلّ لحظة لأشد الأحكام صرامةً؟ وما هي الفكرة التي يمكن أن تكون ملائمة لترويع الإنسان، وما الذي يحتمل أن يثبّط من عزيمته، وما الذي يؤخذ بالحسبان لإحباط الرغبة في تحسين حالته، أكثر من الأمل البائس بعالمٍ دائماً على وشك الانهيار، وإلهاً جالساً على أطلال الطبيعة، ومستعداً لإصدار الأحكام على الجنس البشري؟ ومع ذلك فإنَّ هذه الآراء المصيرية التي أُشبع بها عقل الأمم لآلاف السنين؛ خطيرة للغاية لدرجة أنَّه إذا لم يبعد عن سلوكه هذه الأفكار البائسة، بسبب رغبته السعيدة في الاستدلال التام، فسوف يقع في أشد أنواع الغباء. وكيف يمكن للإنسان أن يشغل نفسه بعالمٍ قابل للفساد، وقابل في كلّ لحظة لأن يتحلل إلى ذرات؟ كيف يفكر في إسعاد نفسه على الأرض، بينما هو مجرد رواق لمملكة أبدية؟ أليس من المدهش إذن أنَّ الخرافات التي تفيدها مثل هذه المذاهب كأساس، تشرّع لأتباعها انفصالاً تاماً عن الأشياء التالية: النبذ الكامل لأبسط الملذات التي ولدت الركود، والجبن، ودناءة النفس، والانعزالية التي تجعله عديم الفائدة لنفسه وخطراً على الآخرين؟ وإذا لم تجبر الضرورة الإنسان على الابتعاد من حيث ممارسته عن هذه الأنظمة اللاعقلانية؛ وإذا لم تُرجعه رغباته إلى العقل على الرغم من عقائده الدينية، فسيصبح العالمُ بأسره الآن صحراءً شاسعة، يسكنها

بعضُ المتوحشين المعزولين الذين لا يمتلكون حتى الشجاعة لمضاعفة أنفسهم. ولكن ما هو نوع المفاهيم التي يجب بالضرورة تنحيتها جانباً من أجل أن تستمر الرابطة البشرية؟

ومع ذلك، اعتبر عددٌ كبير من الأجيال عقيدة الحياة المقبلة المصحوبة بالثواب والعقاب، على أنَّها الدافع الأقوى أو حتى الوحيدة التي يمكن فرضها على عواطف الإنسان – باعتبارها الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تفرض عليه أن يكون فاضلاً. وأصبحت هذه العقيدة بالتدريج أساساً لجميع الأنظمة الدينية والسياسية تقريباً، لدرجة أنْ يُقال اليوم: إنَّه لا يمكن مهاجمة هذا التحيز من دون التفكيك المطلق لأواصر المجتمع. وقد استخدمه مؤسسو الأديان لحجز أتباعهم السُذّج، واعتبره المشرعون على أنَّه أفضل طريقة لتهذيب الجنس البشري. واعتقد العديد من الفلاسفة بحد ذاتهم عن حسن نية، أنَّ هذه العقيدة كانت ضرورية لترويع الإنسان من الجريمة، وبالتالي صرفه عنها.[98]

ويجب أن يتيح ذلك بالفعل القول: إنَّ هذه العقيدة كانت ذات فائدة عظيمة بالنسبة لأولئك الذين قدموا الأديان للأمم وجعلوا أنفسهم كهنة لها؛ فكانت أساساً لقوتهم، ومصدراً لثروتهم، والسبب الدائم لذلك الأساس الأعمى والمتين لتلك الأهوال التي كان من مصلحتهم تلقيمها للجنس البشري. ومن خلال هذه العقيدة، أصبح الكاهن أولاً منافساً ومن ثم متحكماً بالملوك، وبهذه العقيدة تمتلئ الأمم بالمتعصبين المخمورين بالدين، والميالين دائماً للاستماع إلى تهديداته أكثر من مشورات العقل، وأوامر ذو السيادة، وهتافات الطبيعة أو قوانين المجتمع. وكانت السياسة بحدّ ذاتها مستعبدة لنزوة الكاهن، وأُجبر السلطان المؤقت على الانحناء تحت نير السلطان الأبدي؛ حيث تخلص الأول فحسب من هذا العالم القابل للتلف، وقام الآخر بتوسيع سلطته إلى العالم الآتي، وهو أهمُ بكثيرٍ للإنسان من الأرض التي لا يكون عليها سوى حاج، ومجرد عابر سبيل. وهكذا وضعت عقيدة الحياة الأخرى الحكومة بحدّ ذاتها في حالة من التبعية للكاهن، ولم يكن السلطان أكثر من تابع أول له، ولم يُطاع أبداً، ولكن اتفق الاثنان عندها على قمع الجنس البشري. وصرخت الطبيعة عبثاً في وجه الإنسان لكي يحذر من سعادته الحالية. وأمره الكاهن أن يكون تعيساً وأن يتوقع السعادة في المستقبل. وحثّه العقل عبثاً على أنْ يكون مسالماً، ونفث الكاهن التعصب والغضب وأجبره على تعكير صفو الطمأنينة العامة، وفي كلّ مرة كان هناك تساؤلاً حول مصالح السلطان غير المرئي في حياة أخرى أو

المصالح الحقيقية لكهنته في هذه الحياة. وهذه هي الثمرة التي جنتها السياسة من عقيدة الحياة المقبلة، حيث مكّنت مناطق العالم الآتي الكهنوت من غزو العالم الحاضر، وتوقع السعادة السماوية، والخوف من أهوال المستقبل، ولم يعملوا إلا على منع الإنسان من البحث عن الوسائل التي تجعله سعيداً هنا على هذه الأرض. وبالتالي، مهما كان الخطأ فلن يكون أكثر من مصدرٍ شر للبشرية. وستحثهم عقيدة الحياة الأخرى عند تقديمها للسعادة المثالية للبشر، وتغرقهم بالمخاوف، وستخلق كائنات عديمة الفائدة، وتولد جبناء، وتشكّل بشراً ذو طبعٍ رديء أو محتدّين، وسيفقدون النظر إلى مسكنهم الحالي، ليشغلوا أنفسهم بالمناطق المتصورة عن عالمٍ مقبل، وبهذه الشرور المروعة التي يجب أن يخشوها بعد موتهم.

وإذا كان هناك إصرارٌ على أنَّ عقيدة الثواب والعقاب المقبلين هي أقوى قيد لكبح جماح عواطف الإنسان؛ فسنرد من خلال القول بالخبرة اليومية. وسنرى بمجرد النظر حولنا تناقض هذا التأكيد، وسنجد أن هذه التخمينات الرائعة لا تقلل بأيّ حال من الأحوال من عدد الأشرار؛ لأنهم غير قادرين على تغيير مزاج الإنسان، وإبادة تلك المشاعر التي تولدها رذائل المجتمع في قلبه. وقد يُشاهد في تلك الأمم التي تبدو مقتنعة بشكلٍ كامل بهذا العقاب المقبل، قتلة، ولصوص، ومخادعين، ومضطهدين، وزناة، ومشعوذين؛ وجميعهم يدّعون بأنّهم مقتنعون بشدة بحقيقة الآخرة؛ ومع ذلك، لم يشاهدوا ثانيةً في زوبعة التبديد، ودوامة اللذة، وغضب عواطفهم، هذا الوجود المقبل الهائل الذي لا يمتلك في تلك اللحظات أيّ نوعٍ من التأثير على سلوكهم الدنيوي.

وهكذا نرى في العديد من تلك البلدان حيث تكون عقيدة الحياة الأخرى راسخة لدرجة أن ينزعج كلّ فرد من أيّ شخص لديه الجرأة لمعارضة الرأي أو حتى الشك فيه، أنّها غير قادرة تماماً على التأثير في أيّ شيء على الحكّام الظالمين الذين تهاونوا في رفاهية شعوبهم الفاسقين، وعلى المحظيات ذوات العادات البذيئة، وعلى البخلاء الطامعين، وعلى المبتزين المتعنتين، والذين يغتصبون جوهر الأمة، وعلى النساء قليلات الحياء. وعلى عددٍ هائل من البشر السكارى والمتعطشين والأشرار، وعلى أعدادٍ كبيرة من هؤلاء الكهنة الذين تتمثل وظيفتهم في إعلان انتقام السماء. وإذا سألوهم، كيف يجرؤون على الاستسلام لمثل هذه الأعمال الفاضحة التي يجب أن يعرفوا أنّها ستؤدي بالتأكيد إلى عقابهم الأبدي؟ سوف يجيبون: إنَّ جنون عواطفهم، وقوة عاداتهم، وعدوى القدوة أو حتى

قوة الظروف، قد حثّتهم دائماً، وجعلتهم ينسون العواقب المروعة التي من المحتمل أن ينطوي عليها سلوكهم معهم. وسيقولون إلى جانب ذلك: إنَّ كنوز الرحمة الإلهية لا حصر لها، وأنَّ التوبة تكفي لمحو أبشع التجاوزات، والذنب الأكثر اسوداداً، وأكبر الجرائم.(99) وفي هذا الحشد من الكائنات البائسة التي تدمر المجتمع بممارساتها الإجرامية، وكلٌّ على طريقته الخاصة، ستجد عدداً صغيراً فقط من الذين ترعبهم مخاوف الآخرة البائسة إلى حدٍ ما، يعملون على مقاومة نزعاتهم الشريرة. ماذا قلتُ؟ هذه النزعات في حدّ ذاتها أضعف من أن تمضي بهم قدماً، وسيكون القانون والخوف من اللوم دافعين كافيين لمنعهم من أن يصبحوا مجرمين، ومن دون مساعدة عقيدة الحياة الأخرى.

وبالفعل تترك أهوال الحياة الأخرى على الأنفس الخائفة والخجولة، انطباعاً عميقاً؛ حيث يأتي بشرٌ من هذا النوع إلى العالم بعواطفٍ متّزنة، ومنظومةٍ ضعيفة، وخيالٍ رائع؛ لذلك ليس من المستغرب عند هؤلاء البشر المقيدين بالفعل بطبيعتهم أن يقترن الخوف من العقاب المقبل بالجهود الواهنة لعواطفهم الضعيفة، لكنه ليس ذاته بأيّ حال من الأحوال عند هؤلاء المجرمين المتشددين، وأولئك البشر الذين عادةً ما يكونوا فاسدين، ولا يمكن لأيّ شيء أن يوقف تجاوزاتهم غير اللائقة، والذين يغضون الطرف عن عنفهم، خوفاً من قوانين هذا العالم، والتي يحتقرونها أكثر من قوانين العالم الآخر.

ومع ذلك، فكم عددُ الأشخاص الذين يقولون بل ويعتقدون أنّهم مقيدون بمخاوف الحياة الآتية! فإما أنّهم يخدعوننا أو أنّهم مجبرين بسبب عزو هذه المخاوف إلى ما هو ناجمٌ فقط عن دوافع أقرب بكثير، مثل ضعف عضويتهم، ووداعة مزاجهم، وطاقة نفوسهم اللطيفة، وخجلهم الطبيعي، والأفكار التي تشربوها عند تربيتهم، والخوف من العواقب الناتجة مباشرة عن الأعمال الإجرامية، والشرور الجسدية المصاحبة للشذوذات الجامحة: هذه هي الدوافع الحقيقية التي تقيدهم، وليست مفاهيم عن حياة مقبلة ينساها بشرٌ يدّعون أنّهم مقتنعين بشدة بوجودها، كلما دفعتهم مصلحةٌ قوية إلى ارتكاب الخطيئة. ولو انتبه الإنسان لفترة من الزمن لِما يمر أمام ناظريه، لأدرك أنّه لا ينسب إلى الخوف من إلهه إلا ما هو ناجمٌ في الواقع عن ضعفه، وجبنه، ومصلحته الصغيرة في ارتكاب الشر، ولن يتصرف هؤلاء البشر بخلافِ ما يفعلون لو لم يكن هذا الخوف أمامهم؛ ولذلك لو تأمل لشعر أنّه من الضروري دائماً أن يجعل البشر يتصرفون كما يفعلون.

ولا يمكن تقييد الإنسان عندما لا يجد في نفسه دوافعاً قوية بما يكفي لترجعه إلى العقل. ولا يوجد ما يمكن أن يجعله فاضلاً، سواء في هذا العالم أو في العالم الآخر، عندما تدعوه منظومةٌ غير مواتية، وعقل تهذب على نحوٍ رديء، وخيال عنيف، وعادات راسخة، وقدوات مهلكة، ومصالح قوية من كلّ جهة لارتكاب الجريمة. وما من تخمينات قادرة على كبح جماح الإنسان الذي يتحدى الرأي العام، ويحتقر القانون، ويتجاهل لومه، ويصم آذانه عن صرخات الضمير التي تبعد قوته في هذا العالم عن أن يناله العقاب.[100] ولازال يخشى في عنف تحركاته من مستقبل بعيد المنال، وتتبدد فكرته دائماً قبل أن يعتقد بضرورة سعادته المباشرة والحاضرة. وتعمي كلّ المشاعر الحية الإنسان عن كلّ شيء لا يكون موضوعاً مباشراً له؛ فأهوال الحياة المقبلة التي تمتلك عواطفه دائماً سراً عنها تقلل من احتمالية حدوثها بالنسبة له، ولا يمكن أن تؤثر على الإنسان الشرير الذي لا يخشى حتى عقاب القانون الأقرب بكثير – الذي لا يضمر الكراهية المؤكدة لمن يحيطون به. وعندما يرتكب الإنسان بحد ذاته جريمةً، لا يرى شيئاً أكيداً سوى الميزة المفترضة التي ترافقها؛ ويبدو ما تبقى دائماً بالنسبة له إما خطأً أو معقداً.

ولو فتح الإنسان عينيه، لأدرك بوضوح أنَّ تأثير أيّ شيء على قلوب قست بفعل الجريمة، يجب ألا يعوّل على عقاب إله منتقم، والذي يظهره حب الذات الطبيعي للإنسان دائماً على أنَّه مسالماً على المدى الطويل. ومن توصل إلى إقناع نفسه بأنَّه لا يمكن أن يكون سعيداً من دون جريمة، فإنَّه يسلم نفسه دائماً بسهولة لها على الرغم من مخاطر الدين. وكلّ من كان أعمى بما فيه الكفاية، لا يقرأ عاره في قلبه، حتى يرى لومه في ملامح جماعاته، وإدانته في غضب أقرانه من البشر، وعدم جدارته من حيث سخط القضاة المكلفين بمعاقبته على الجرائم التي قد يرتكبها كإنسان. وأقول: لن أشعر أبداً بالانطباع الذي تتركه جرائمه على ملامح القاضي المخفي عن نظره أو الذي يفكر به عن بعد فحسب. فالطاغية الذي يستطيع بعيون ذابلة أن يسمع صرخات المنكوبين، ويستطيع بقلبه القاسي أن يرى دموع شعب بأسره تسبب هو ببؤسه، لن يرى الوجه الغاضب لسيدٍ أقوى. وعندما يدّعي سلطانٌ متغطرس ومتعجرف بأنَّه مسؤولاً عن أفعاله أمام اللاهوت وحده، فذلك لأنَّه يخشى أمته أكثر مما يخشى إلهه.

ألا يبطل الدين بحد ذاته من ناحية أخرى آثار تلك الأهوال التي يصرّح بأنَّها مفيدة؟ ألا يزود مريديه بوسائل تخلصهم من العقوبات التي كثيراً ما تعرضوا لها؟ ألا يخبرهم أنَّ التوبة العقيمة ستنزع الغضب السماوي حتى في لحظة الموت، وأنَّها ستطهر نفوس الآثمين القذرة؟ ألا يعطي حتى الكهنة في بعض الخرافات لأنفسهم حق الغفران للمحتضرين، وعقابهم على الجرائم التي ارتكبوها خلال حياة غير منظمة؟ وباختصار، ألا يقوم البشر الأكثر شذوذاً والذين شجعوا على الإثم والفجور والجريمة حتى اللحظة الأخيرة، بمساعدة الدين الذي يعدهم بوسائل معصومة باسترضاء إلههم الذي نالوا سخطه وتجنب عقوباته الصارمة؟

ونتيجة لهذه المفاهيم المواتية جداً للأشرار، والمناسبة جداً لتهدئة مخاوفهم، نرى أنَّ أمل التكفير السهل، بعيداً عن تصحيح الإنسان، يدفعه إلى الاستمرار حتى الموت في فوضى أكثر شناعةً. وعلى الرغم من المزايا الهائلة بالفعل والتي يكونون متأكدين من أنَّها تنبع من عقيدة الحياة المقبلة، وعند مواجهة تأثيراتها المزعومة لقمع عواطف الناس، ألا يتذمر الكهنة بحد ذاتهم كلّ يوم من قصورها، على الرغم من اهتمامهم الشديد بالحفاظ على هذا النظام؟ يعترفون بأنَّ البشر الذين تشرّبوا هذه الأفكار منذ طفولتهم، ليسوا أقل اندفاعاً إلى الأمام بسبب ميولهم الشريرة، وأقل غرقاً في دوامة الفجور، ناهيك عن أنَّهم عبيداً لملذاتهم، وأقل انجرافاً وراء العادات السيئة، وأقل انجرافاً مع مجرى العالم، وأقل إغواءً بمصلحتهم الحالية، مما يجعلهم ينسون بالقدر ذاته الثواب والعقاب في الوجود المقبل. وبعبارة أخرى، غالباً ما يسمح كهنة السماء لمريديهم بالتصرف في هذا العالم كما لو لم يكن لديهم ما يأملونه أو يخشونه في عالمٍ آخر.

لكن دعنا نفترض للحظة أنَّ عقيدة العقوبات الأبدية كانت مفيدة إلى حدٍ ما، وأنَّها قيدت حقاً عدداً صغيراً من الأفراد؛ فما هي هذه المزايا الضعيفة مقارنةً بالشرور الهائلة التي تنتج عنها؟ ونجد أنَّه مقابل إنسان واحد خجول تقيده هذه الفكرة، هناك الآلاف ممن لا تؤثر عليهم شيئاً؛ وهناك الملايين تجعلهم غير عقلانيين، وتجعلهم مضطهدين متوحشين؛ فتحولهم إلى متعصبين أشرار وعديمي الفائدة؛ وهناك الملايين الذين يزعجهم العقل ويصرفهم عن واجباتهم تجاه المجتمع، وهناك عدداً لامتناهٍ من الذين تبتليهم وتربكهم بشدة من دون أن ينتجوا أيّ خير حقيقي لجماعاتهم.(101)

الفصل الرابع عشر
تكفي التربية والأخلاق والقوانين لكبح جماح الإنسان. الرغبة في الخلود - الانتحار.

لا يوجد إذن عالماً مثالياً سوى في خيال الإنسان الذي كان لابدّ أن يسعى إلى جمع الدوافع المحسوبة التي تجعله يتصرف بشكلٍ صحيح نحو ذلك، حيث ستجد في العالم المرئي الأمور التي تحثه على الابتعاد عن الجريمة وإيقاظه على الفضيلة. وفي الحقيقة ينبغي أن يبحث ضمن الطبيعة وفي الخبرة عن علاجات لشرور أبناء جنسه، وعن الدوافع المناسبة لبث ميول العاطفة البشرية المفيدة حقاً للمجتمع. وإذا انتبهنا إلى ما قيل في سياق هذا الكتاب، فسوف نلاحظ بادئ ذي بدء أنَّ التربية هي من سيوفر أفضل الوسائل الحقيقية لتصحيح ضلالات البشرية. وهي ما يبدد البذور في قلبه، ويزرع براعم العطاء. ولكي يستفيد من تصرفاته، ينبغي أن يلجأ إلى تفسير تلك الملكات المعتمدة على منظومته التي يجب أن تعتز بنار خياله التي يوقدها من أجل الأشياء المفيدة، ويوهنها أو يخمدها من أجل الآخرين، وبعبارة اخرى، هذا ما ينبغي أن يجعل الأنفس العاقلة تتفق على عادات مفيدة للمجتمع ومفيدة للفرد. وبنشأة الإنسان على هذا النحو لن تكون لديه فرصة لعقوبات سماوية تعلّمه قيمة الفضيلة، ولن يحتاج إلى رؤية خلجان الكبريت المحترقة تحت قدميه، وإلى حثّه على الشعور بالرعب من الجريمة، وستعلّمه الطبيعة من دون هذه الخرافات، أفضل بكثير مما يدين به لنفسه، وسيوضح له القانون ما يدين به للجسد السياسي الذي هو عضو فيه. ومن ثم فإنَّ التربية ستشكل مواطنين ذو قيمة بالنسبة للدولة، حيث يميز أصحاب السلطة بين أولئك الذين كان من المفترض أن تشكّلهم التربية بسبب المزايا التي سيحصلون عليها ببلدهم، وسوف تعاقب من ألحق به الأذى، وستجعل المواطنين يرون أنَّ الوعود بالثواب الذي تقدمه التربية والأخلاق ليست عبثاً بأيّ حال من

الأحوال، وأنَّ الفضيلة، في حالة جيدة التكوين، هي الطريق الحقيقي والوحيد للسعادة، وأنَّ المواهب هي الطريق لكسب الاحترام، وأنَّ عدم النفع والجريمة يؤديان إلى الازدراء والشقاء.

وكان لابدّ لحكومةٍ عادلة، ومستنيرة، وفاضلة، ويقظة أن تقترح الخير العام بأمانة، وألا تترك أيَّ فرصةٍ للخرافات أو الأكاذيب لتحكم الرعايا العاقلين، وسيكون من المخجل أن تستخدم الشعوذة لخداع المواطنين الذين سيجدون عند الاسترشاد بواجباتهم أن من مصلحتهم الخضوع لقوانين عادلة، وسوف يكونوا قادرين على الشعور بالفائدة التي يتمتع بها من لديهم القدرة على منحها لهم، وستعترف أنَّ التقدير السياسي له سلطة على البشر أصحاب العقول السامية أكثر من رعب القوانين، وستشعر أنَّ هذه العادة كافية لإلهامهم بالرعب، حتى فيما يتعلق بتلك الجرائم المخفية التي تغفل عن أنظار المجتمع، وستفهم أنَّ العقوبات المرئية في هذا العالم مفروضة على الجاهل أكثر بكثير من تلك الموجودة في المستقبل البعيد والمشكوك به، وباختصار، سيتم التأكد من أنَّ الفوائد التي تزرع بشكلٍ مقبول داخل بوصلة السلطة السيادية، تمس خيال البشر بشدةٍ أكثر من تلك المكافآت الغامضة التي تُمنح لهم في وجودهم المقبل.

إنَّ الإنسان في كلّ مكان تقريباً شرير جداً، وفاسد جداً، ومتمرد جداً على العقل؛ لأنَّه غير محكوم وفقاً لطبيعته فحسب، ولا يتعلم بشكلٍ صحيح على قوانينها الضرورية، بل يُلقن في كلّ مكان عن كائنات خرافية عديمة الفائدة، ويخضع في كلّ مكان لأساتذة يهملون تعليمه أو يسعون فقط إلى خداعه. ولا نرى على سطح هذا العالم سوى الملوك الظالمين الذين يضعفهم الترف، ويتلفهم الإطراء، ويفسدهم الفجور، ويصبحون أشراراً بسبب الحصانة، وخالين من المواهب، وبلا أخلاق، ويفتقرون إلى الفضيلة، وغير قادرين على بذل أيّ طاقةٍ لمنفعة الدول التي يحكمونها، وبالتالي فهم لا يهتمون كثيراً برفاهية شعوبهم، ولا يبالون بواجباتهم التي غالباً ما يجهلونها بالفعل. وتدفعهم الرغبة في البحث المستمر عن وسائلٍ لإشباع طموحهم النهم، وينخرطون في حروبٍ غير مجدية وخالية من السكان، ولا يشغلون أذهانهم أبداً بتلك الأشياء التي تكون أكثر أهميةٍ لسعادة أمتهم. وباهتمامهم بالحفاظ على التحيزات المخفية، لا يرغبون أبداً في التفكير بوسائل علاجهم، أي أنَّهم حرموا أنفسهم من هذا الفهم الذي يعلّم الإنسان أنَّ من مصلحته أن يكون

لطيفاً وعادلاً وفاضلاً، ويكافئون عادةً فقط على تلك الجرائم التي جعلهم غباءهم يتخيلون أنّها مفيدة لهم، ويعاقبون بشكلٍ عام على تلك الفضائل التي تتعارض مع عواطفهم غير الحكيمة. وفي ظل هؤلاء المتحكمين، أليس من المستغرب أن يدمر المجتمع بشراً فاسدين يضاهون بعضهم بعضاً في قمع أعضائه وفي التضحية بمصالحهم العزيزة عليهم. وأنَّ يكون المجتمع في حال عداءٍ للملك ضد الكل، وكلُّ فرد من أعضائه ضد الآخر.[102] فالإنسان شرير، ليس لأنَّه ولد هكذا، ولكن لأنَّه أصبح كذلك، حيث يسحق العظيم والقوي بحصانته المحتاج والبائس، ويسعى هؤلاء المخاطرين بحياتهم إلى الرد بالمثل على الشر الذي تلقوه: يهاجمون علانية أو في الخفاء بلداً يكون بالنسبة لهم زوجة أب تعطي كلّ شيء لبعض أطفالها، وتحرم الآخرين من كلّ شيء؛ فيعاقبونها على تحيزها، ويظهرون بوضوحٍ أنَّ الدوافع المستعارة من الحياة الآخرة عاجزة عن إثارة تلك المشاعر التي ولّدتها إدارةٌ فاسدة في هذه الحياة، ذلك أنَّ رعب العقوبات في هذا العالم ضعيفٌ للغاية مقابل الضرورة، والعادات الإجرامية، ومقابل منظومة خطيرة لا تصححها التربية.

وتكون أخلاق الناس في كلّ البلدان مهملة، وتنشغل الحكومة فقط بجعلهم جبناء وبائسين. ويكون الإنسان عبداً في كلّ مكان تقريباً. ولابدّ أن ينتج عن ذلك بالضرورة أن يكون خسيساً، ومثيراً للانتباه، ومقيتاً، وبلا شرف، وباختصار، يمتلك رذائل الدولة التي هو مواطنٌ فيها. ويكون مخدوعاً في كلّ مكان ويُشجع على الجهل، ويمنع من تنمية عقله، وبالطبع يجب أن يكون غبياً في كلّ مكان وغير عقلاني وشرير، ويرى في كلّ مكان أنَّ الرذيلة والجريمة يُرحب بها وتُبجل، ومن ثم يستنتج أنَّ الرذيلة خير، والفضيلة ليست سوى تضحية غير مجدية بنفسه. ويكون بائساً في كلّ مكان، ولذلك يؤذي إخوانه من البشر لتخفيف آلامه، ومن العبث أن نريه السماء من أجل كبحه، والانحدار بآرائه الآن مرة أخرى إلى الأرض حيث يرغب في أن يكون سعيداً بأيّ ثمن؛ لذلك فإنَّ القوانين التي لم تنص على تعليماته وأخلاقه وسعادته تهدده بلا فائدة وتعاقبه على إهمال مشرعيّه الجائرين. ولو كانت السياسة الأكثر تنويراً، تشغل نفسها بجدية بتعليم الناس ورفاههم، ولو كانت القوانين أكثر إنصافاً، ولو كان كلّ مجتمع أقل تحيزاً لمنح لأعضائه الرعاية والتربية والمساعدة التي من حقهم توقعها منه، ولو كانت الحكومات أقل طمعاً وأكثر يقظةً، وكانت متحمسة لجعل رعاياها أكثر سعادةً، فلن نرى مثل هذه الأعداد من المجرمين،

واللصوص، والقتلة الذين يغزون المجتمع في كلّ مكان، ولن يكونوا ملزمين بتدمير الحياة من أجل معاقبة الشر الذي يُنسب عادةً إلى رذائل مؤسساتهم، ولن يكون من الضروري البحث في حياة أخرى عن كائنات خيالية، تثبت دائماً أنّها مُجهضة للمشاعر الغاضبة وضد الحاجات الحقيقية للإنسان. وبعبارة أخرى، لو كان الناس أفضل تعليماً وأكثر سعادةً، فلن تعد السياسة مختصرة على ضرورة خداعهم لكبح جماحهم، ولا تدمير الكثير من التعساء؛ لأنّهم اشتروا الضروريات على حساب مواطنيهم قساة القلب.

وإن كنت ترغب في تنوير الإنسان، فدعه يضع دائماً الحقيقة نصب عينيه. وبدلاً من تأجيج خياله بفكرة تلك الخيرات المزعومة التي تحفظها له الحالة المقبلة، دعه يعزّي نفسه ويخفف عنها أو على الأقل يُسمح له بالتمتع بثمار عمله، ولا تدع الضرائب القاسية تنهب أمواله منه. ودعه لا يكفّ عن العمل عندما يجد أنّ كلّ عمله غير كافٍ لدعم وجوده، ودعه لا ينقاد إلى ذلك الكسل الذي سيقوده بالتأكيد إلى الجريمة، ودعه يفكر في وجوده الحالي من دون نقل آرائه إلى ما قد يشهده بعد وفاته، ودع صناعته تحمسه، ويُكافأ على مواهبه. ودعه يصبح فعّالاً وكادحاً وصالحاً وفاضلاً في العالم الذي يسكنه، ودعه يظهر له أنّ أفعاله قادرة على التأثير على أقرانه من البشر، وليس على تلك الكائنات الخيالية الموجودة في عالم مثالي. ولا تعرّضه لخطر عذاب الله عندما لا يكون كذلك، ودعه يفهم المجتمع المسلح ضد من يؤرق مسكنه، ويرى نتيجة كراهية جماعاته، ودعه يتعلّم أن يشعر بقيمة عاطفته ويتعلم أن يحترم نفسه. دعه يفهم أنّه للحصول على تقدير الآخرين يجب أن تكون لديه فضيلة، وألا يكون لدى الفاضل في مجتمع حسن التكوين ما يخشاه في البداية سواء من أقرانه المواطنين أو من الآلهة.

وإن كنت ترغب في تكوين مواطنين أمناء، وشجعان، ومجتهدين، وقد يكونوا نافعين لبلدهم، فدعهم يحذرون من إثارة الإنسان منذ طفولته برهبة من الموت لا أساس لها — من إمتاع خياله بخرافات عجيبة — من أن يشغلوا ذهنه بمصيره في حياة مقبلة لا جدوى تماماً من معرفتها، ولا علاقة لها بسعادته الحقيقية. دعهم يتحدثون عن خلود النفوس الجريئة والنبيلة، ودعهم يظهرونها كما لو أنّها ثمرة جهود عقولهم النشطة، فالذين ينطلقون إلى الأمام خارج حدود وجودهم الفعلي، راضين قليلاً عن إثارة إعجاب معاصريهم واكتساب حبهم، ولكنهم مصممون أيضاً على انتزاع التكريم ليضمنوا تأثير

السلالات المقبلة. وفي الواقع، هناك خلود يحق قوله عن العبقرية والمواهب والفضيلة؛ لذلك لا تدعهم يستهجنون هذه العاطفة النبيلة عند الإنسان أو يسعوا إلى إخمادها؛ لأنَّها تقوم على طبيعته ويجني منها المجتمع أفضل الثمار.

إنَّ فكرة كائن مدفون في غياهب النسيان التام وعدم وجود علاقة له بعد موته بأفراد جنسه، وفقدان كلّ إمكانيةٍ للتأثير عليهم مرة أخرى، هي فكرةٌ مؤلمةٌ للغاية للإنسان، وتؤثر في البداية على أولئك الذين يمتلكون خيالاً متقداً. حيث كانت الرغبة في الخلود أو العيش في ذكرى أقرانه من البشر، دائماً شغفاً للنفوس العظيمة، وكانت الدافع وراء تصرفات كلّ أولئك الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ على الأرض. فالأبطال، سواء أكانوا فاضلين أم مجرمين، وفلاسفة وغزاة، وأناس عباقرة، وبشرٌ ذو مواهب، فهم شخصيات سامية كرّمت جنسها، وكذلك أولئك الأشرار اللامعين الذين حطّوا من قدرهم ودمروهم. ونظروا إلى الأجيال القادمة في جميع مشاريعهم، وأثنوا على أنفسهم على أمل التأثير على نفوس البشر، حتى عندما لا يعودوا هم أنفسهم موجودين. وإذا كان الإنسان بشكلٍ عام لا يحمل آرائه إلى الآن، فهو حساسٌ على الأقل لفكرة رؤيته يُبعث في أطفاله الذين يعرف أنَّه مقدرٌ لهم أن يبقوه على قيد الحياة، ويحملوا اسمه، ويحافظوا على ذكراه، ويمثلوه في المجتمع، ومن أجلهم أعاد بناء كوخه، ومن أجلهم يغرس الشجرة التي لن ترى عيناه رعايتها، والتي قد تجعلهم سعداء بما بذله من جهود فيها. في حين أنَّ الحزن الذي يملأ حياة هؤلاء البشر الأغنياء، وغالباً ما يكونوا عديمي الفائدة للعالم عندما يفقدون الأمل في استمرار سلالتهم، كان نابعاً من الخوف من نسيانهم تماماً؛ فيشعرون أنَّ الإنسان غير المجدي يموت تماماً. وأنَّ فكرة أن يكون اسمه في أفواه البشر، والتفكير في أنَّهم سيلفظون اسمه بحنوٍ، وسيذكرونه بلطفٍ، وأنَّه سيثير المشاعر الإيجابية في قلوبهم، هي عبارة عن وهمٍ مفيدٍ ومناسب لمجاملة حتى أولئك الذين يعرفون أنَّه لن ينتج عنها شيئاً. ويرضي الإنسان نفسه عندما يحلم أنَّه سيمتلك السلطة، وأنَّه سيتجاوز شيئاً ما في الكون حتى بعد فترةٍ من وجوده الإنساني، ويشارك عن طريق الخيال في المشاريع، والأعمال، ومناقشات العصور المقبلة، وسيكون تعيساً للغاية إذا كان يعتقد أنَّه مستبعد تماماً من مجتمعهم. وقد أدخلت القوانين في جميع البلدان هذه الآراء، وكانوا مستعدين لدرجة تعزية مواطنيهم بضرورة الموت من خلال منحهم وسائل لممارسة ما يشاؤون، حتى لفترة طويلة بعد وفاتهم، ويذهب هذا

التنازل إلى درجة القول: إنَّ الموتى كثيراً ما ينظمون أحوال معيشتهم على مدار سنينٍ طويلة.

وكلّ شيء يفيد في إثبات رغبة الإنسان في البقاء على قيد الحياة. فالأهرامات، والأضرحة، والآثار، والمرثيات، كلّها تُظهر استعداده لإطالة أمد وجوده حتى إلى ما بعد الموت. وليس غافلاً عن حكم الأجيال القادمة، والذي يكون من أجله، وكما يكتب الفيلسوف: من المثير للدهشة بالنسبة له أن يقيم الملك صروحاً فخمة، وأن يسمع صدى مدحه الرجل العظيم في أذنيه بالفعل، وبالنسبة له يناشد هذا المواطن الفاضل المعاصرين المتحيزين أو الظالمين. يا لها من كائنات خرافية سعيدة! ووهمٌ عذب! ندركها بخيالات متقدة صُممتْ لتلد وترعى تعصب العبقرية والشجاعة وعظمة النفس والموهبة، ويمكن لتأثيرها أحياناً أن يكبح تجاوزات أقوى البشر، والذين غالباً ما يكونوا قلقين جداً من الحكم على الأجيال القادمة، ومن الاقتناع بأنَّها ستنتقم عاجلاً أم آجلاً من عيش الظلم الفادح الذي عانت منه.

ولذلك لا يمكن لأيّ إنسان أن يوافق على محوه تماماً من ذكرى أقرانه، ولا يمتلك بعض البشر الجرأة على أن يتجاوزوا حكم الجنس البشري في المستقبل، ويحطوا من قدرهم في نظرهم. ولكن أين الكائن الذي يغفل عن الاستمتاع بإثارة دموع أولئك الذين سيبقونه على قيد الحياة، ويؤثّر مرةً أخرى عليهم، ويشغل أفكارهم مرةً أخرى، ويمارس سلطته عليهم، حتى في أعماق قبره؟ فلنفرض إذن الصمت الأبدي على أولئك البشر المؤمنين بالخرافات والكئيبين الذين ينتقدون شعوراً يستمد منه المجتمع الكثير من المزايا الحقيقية، ولا تدع الجنس البشري يستمع إلى هؤلاء الفلاسفة الشجعان المستعدين لإخماد هذا الانبثاق العظيم والنبيل لنفسه، ولا تدعوه يفتتن بسخرية أولئك الشهوانيون الذين يظهرون احتقاراً للخلود ويفتقرون إلى القدرة على المضي قدماً نحوه. وتمثل الرغبة في إرضاء الأجيال القادمة وجعل اسمه مقبولاً للأجيال القادمة دافعاً جديراً بالثناء عندما يدفعه إلى تولي تلك الأشياء التي قد يكون لفائدتها تأثيرٌ على البشر والأمم التي لم توجد بعد. ولا تدعوه يتعامل بلا عقلانية مع تعصب أولئك العباقرة المحسنين والأقوياء، والذين تنبأت أعينهم الثاقبة به حتى في زمنهم، وشغلوا أنفسهم به من أجل رفاهيته، ورغبوا في انتخابه وكتبوا له. وأثروه باكتشافاتهم، وعالجوه من ضلالاته. فليقدم لهم التحية التي توقعوها على يديه، ودعه يوقّر

على الأقل ذاكرتهم على الفوائد التي حصل عليها منهم، ودعه يتعامل مع رفاتهم العفنة باحترامٍ بسبب اللذة التي يتلقاها من أعمالهم، وليلقي على رمادهم تحيةً الذكرى للامتنان على السعادة التي كانوا مثابرين للحصول عليها. فليملأ بدموعه جِرار **سقراط وفوكيون Phocion**.(*) وليغسل الوصمة التي خلفها عقابهم على الجنس البشري، ودعه يكفّر بندمه عن جحود أثينا، ودعه يتعلّم من نماذجهم الرهبة من التعصب الديني والسياسي، ودعه يخشى من انتهاك الفضل والفضيلة عند اضطهاد أولئك الذين قد يختلفون عنه في تحيزاته.

ودعه ينثر الزهور فوق قبور **هوميروس Homer**، **وتاسو Tasso**، **وميلتون Milton**، ودعه يقدّس الظلال الخالدة لأولئك العباقرة السعداء، الذين تثير نظمهم المتناغمة في نفسه المشاعر الأكثر رقةً، وليبارك ذكرى كلّ أولئك المحسنين للناس الذين كانوا بهجةً للجنس البشري. ودعه يعشق فضائل **تيتوس Titus**، **وتراجان Trajan**، **وأنطونيوس Antoninus**، **ويوليان Julian**، وليستحق ضمن ميدانه تأبين العصور القادمة، وليتذكر دائماً أنَّه لكي يحمل معه إلى القبر ندم أخيه، يجب أن يُظهر المواهب ويمارس الفضيلة. ونادراً ما كانت تبلل دموع الناس مراسم جنازة أقوى الملوك — الذين استنزفوهم عموماً أثناء حياتهم. وكانت أسماء الطغاة تثير الرعب عند من يسمعون نطقها. ارتعدوا إذن أيّها الملوك القساة! يا من تغرقون رعاياكم في البؤس — وتغمروهم بدموعٍ مرة، وتهلكون الأمم التالفة، وتحولوا الأرض المثمرة الى مقبرة قاحلة، وترتجفون من السمات الدامية التي سيصوركم بها المؤرخ المقبل للأجيال التي لم تولد بعد، فلا آثاركم الرائعة، ولا انتصاراتكم المهيبة أو جيوشكم التي لا تعد ولا تحصى، ولا حاشيتكم المتملقة، يمكن أن تمنع الأجيال القادمة من إهانة أعرافكم البغيضة، ومن الانتقام لأجدادهم من جرائمكم المتعالية.

ولا ينظر الإنسان إلى انحلاله بألمٍ فحسب، بل يتمنى أيضاً أن يكون موته حدثاً مثيراً لاهتمام الآخرين. ولكن، وكما قلنا سابقاً، يجب أن تكون لديه مواهب، وإحسان،

* – فوكيون: سياسي وجنرال أثيني، ولد تقريباً عام 402ق.م، وكان صديقاً حميماً لسقراط. (المترجم) وللمزيد أنظر: [Phocion - World History Encyclopedia]

وفضيلة حتى يهتم بحالته المحيطون به، وقد يتأسفون على رماده. وبالتالي أليس من المدهش أن ينهمك العدد الأكبر من البشر بأنفسهم إلى حدٍ كبير، وينغمسون تماماً في غرورهم، ويكونوا مكرسين لمواضيعهم الصبيانية ومنشغلون دائماً برعاية عواطفهم التافهة على حساب سعادة عائلاتهم، غير مكترثين برغبات الزوجة وغير مبالين بما يلزم أطفالهم، ومهملين لدعوات الصديق، ويغضون الطرف عن واجبهم تجاه المجتمع، ولا يثيرون بموتهم مشاعر الأحياء أو يجب نسيانهم في الوقت الحاضر؟ وهناك عدداً لا متناه من الملوك الذين لا يخبرنا التاريخ بأيّ شيء عنهم سوى أنّهم عاشوا. وعلى الرغم من العقم الذي يمرّ به البشر في الغالب من حيث وجودهم، غير أنّهم ينزعجون من العناية القليلة التي تُمنح لهم لجعلهم عزيزين على الكائنات التي تحيط بهم، وعلى الرغم من الأفعال العديدة التي يرتكبونها لإثارة استياء جماعاتهم، إلا أنَّ حب الذات عند كلّ فرد يقنعه بأنَّ موته يجب أن يكون حدثاً مثيراً للاهتمام؛ فيُظهر له، إذا جاز لنا التعبير، أنَّ نظام الأشياء ينقلب عند وفاته. أيُّها الفاني والضعيف والتافه! ألم تعرف أنَّ **سيزوستريس Sesostrises**(*) **والإسكندر الأكبر والقيصر** قد ماتوا؟ ومع ذلك، لم يتوقف مسار الكون، وكان زوال هؤلاء الغزاة المشهورين الذي أحزن بعض العبيد المفضلين، موضوعاً يسعد الجنس البشري بأسره. فهل تؤمن بحماقة أنَّ مواهبكَ يجب أن تهم جنسك وتجعله يحدّ على وفاتك؟ واحسرتاه! لم يعد **كورنيليوس Corneilles**،(*) **ولوك، ونيوتن، وبويل Boyles**،(**) **وهارفي Harveys**،(***) **ومونتسكيو**، موجودين! ومقابل تأسف عدد قليل من الأصدقاء

---

* - **سيزوستريس**: اسم أطلقه المؤرخ اليوناني هيرودوت على ملك مصر القديمة الذي قاد حملة عسكرية كبيرة ضد أوروبا، وهو أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة. (المترجم) وللمزيد راجع: [حسن، سليم، موسوعة مصر القديمة، ج13، مؤسسة هنداوي، 2019، ص.592]

* - **كورنيليوس تاسيتس**: (56–120م) مؤرخ وسياسي روماني، ومن أشهر أعماله "الحوليات". (المترجم) وللمزيد راجع: [Britannica.com/biography/Tacitus-Roman-historian]

** - **روبرت بويل**: (1627–1691) كيميائي وفيزيائي إيرلندي، من أبرز من عمل في مجال الغازات وخواصها، ووضع قانون عرف باسمه. (المترجم)، وللمزيد راجع: [Britannica.com/biography/Robert-Boyle]

*** - **وليام هارفي**: (1578–1657) طبيب إنجليزي وهو مؤسس علم وظائف الأعضاء عبر وصفه للدورة الدموية الكبرى في جسم الإنسان. (المترجم)، وللمزيد راجع: [Britannica.com/biography/William-Harvey]

الذين يواسون أنفسهم في الوقت الحاضر بأعمالهم الضرورية، لم يكترث الكثير من أتباعهم بموتهم. وبذلك تجرأ واطري نفسك، أنَّ سمعتك، وألقابك، وثرواتك، وملذاتك المتنوعة، ستجعل جنازتك حدثاً لا يُنسى! سيتحدث عنها قلة قليلة لمدة يومين، ولا تتفاجؤوا على الإطلاق، واعلموا أنَّه قد مات في العصور السابقة، في بابل، وسارد، وفي قرطاج، وأثينا، وفي روما، ملايين من المواطنين، أكثر شهرةً، وأقوى، وأكثر فخامة، وأكثر شهوانية منكم، ومع ذلك لم يهتم أحد بنقل أسماءهم إليكم. كن فاضلاً أيُّها الإنسان! في أيّ وضع يحدده لك مصيرك، وينبغي أن تكون سعيداً في حياتك، وتفعل الخير وتكون عزيزاً، وتكتسب المواهب، وينبغي احترامك، ويجب على الأجيال القادمة الإعجاب بك، وإن أصبحت تلك المواهب مفيدة لمصالحهم، فستجعلهم على درايةٍ بالاسم الذي حددوا به سابقاً كينونتك الفانية. لكن الكون لن ينزعج من خسارتك؛ فعندما تموت، تتكئ حينها زوجتك وأطفالك وأصدقاؤك باعتزازٍ على سرير موتك، وسوف ينشغلون بالمهمة الحزينة المتمثلة في إغلاق عينيك، وربما يكون أقرب جارك مبتهجاً من الفرح!

وبالتالي لا ينبغي أن يشغل الإنسان نفسه بوضعه المقبل، بل دعه يبذل قصارى جهده ليجعل نفسه مفيداً لمن يعيش معهم، ويجعل نفسه من أجل سعادته الخاصة، مطيعاً لوالديه، ومهتماً بأطفاله، ولطيفاً في علاقاته، ومخلصاً لأصدقائه، ومتسامحاً مع خدمه، وليجتهد في أن يصبح موضع تقديرٍ في أعين أقرانه اللاحقين، ودعه يخدم بأمانة دولةً تضمن له رفاهيته، ولتحفزه الرغبة في إرضاء الأجيال القادمة على تلك الأعمال التي ستثير تأبينهم له، ودع حب الذات المشروع، عندما يستحق ذلك، يجعله يتذوق مسبقاً تلك التوصيات التي يرغب في استحقاقها، وليتعلم أن يحب ذاته ويحترمها، ولكن لا تسمح له أبداً بالموافقة على تلك الرذائل الكامنة، وتلك الجرائم السرية التي ستحطُّ من قدره في عينيه، وتلزّمه بالخجل من سلوكه.

ومن ثم، دعه يفكر في وفاته باللامبالاة ذاتها التي سينظر إليها العدد الأكبر من أقرانه، ولينتظر الموت بثباتٍ وينتظره باستسلام هادئ، ودعه يتعلّم التخلص من تلك الأهوال العبثية التي ستغمره بها الخرافة، وليترك للمتعصب آماله الغامضة، وللأصولي تكهناته المجنونة، وللمتحيز تلك المخاوف التي يوّزع عليها كآبته، لكن لا تدع قلبه المحصن بالعقل يخشى بعد الآن انحلالاً سيقضي على كلّ شعورٍ له.

ومهما كان ارتباط الإنسان بالحياة، ومهما كان خوفه من الموت، فهو يرى كلّ يوم أنَّ هذه العادة، وهذا الرأي، وهذا التحيز، دوافع قوية بما يكفي للقضاء على هذه المشاعر في صدره، وجعله مغامراً جسوراً، وجعله يجازف بوجوده. كما أنَّ الطموح، والكبرياء، والغيرة، والحب، والغرور، والجشع، والرغبة في المجد، وذلك الإذعان للرأي الذي يزينه باللقب الرنان "مرتبة الشرف"، كلّها لها فعالية تجعله يغفل عن الخطر، وتبعده عن الموت، في حين يحدّ الغيظ وقلق الذهن، والعار والافتقار إلى النجاح، من ملامحه القاسية، وتجعله يعتبرها باباً يحميه من ظلم البشرية، كما أنَّ العوز، والاضطراب، والضيق، تطلعه على هذا الموت الذي يهدد سعادته بدرجة كبيرة. وينظر الفقير والمحكوم عليه بالعمل، والمعتاد على الحرمان، والمحروم من وسائل الراحة في الحياة إلى منهجه بلامبالاة؛ حيث يحتضن المتشائم اليأس عندما يكون تعيساً، وعندما يكون بلا مورد، ويسرع مسيرته بمجرد أن يرى أنَّ السعادة لم تعدْ في متناول يده.

وقد قام الإنسان في مختلف العصور وفي البلدان المختلفة بتكوين آراء مختلفة للغاية عن سلوك أولئك الذين امتلكوا الشجاعة بوضعِ حدّ لوجودهم. وقد استمدت أفكاره حول هذا الموضوع، كما هو الحال عند الآخرين جميعهم، نبرتها من مؤسساته الدينية والسياسية. كما أنَّ الإغريق والرومان والأمم الأخرى التي تعاون كلّ شيء فيها على جعلهم شجاعان وذو صدر رحب، اعتبروا الأبطال كالآلهة، وهم من قطع تسلسل الحياة طواعية. وفي الهند، يعرف البراهمة حتى الآن كيف يلهمون النساء ذوات الثبات الكافي بحرق أنفسهن على جثث أزواجهن. ولا يواجه الياباني في أكثر المناسبات تفاهةً أيّ نوعٍ من الصعوبة في إدخال خنجر في نهده.

والدين – بالنسبة للناس في بلدنا– يجعل الإنسان أقل إسرافاً في الحياة، ويعلّمه أنَّ إلهه الذي يريده أن يعاني، ويستمتع بعذاباته، يوافق بسهولة على إعدامه، ولكن لا ينبغي أن يحرره من حياة البؤس بقطعِ سلسلة أيامه على الفور. ويعتقد بعض الأخلاقيين من خلال تجردهم من ذروة الأفكار الدينية، أنَّه لا يجوز للإنسان مطلقاً أن يكسر شروط العهد الذي قطعه مع المجتمع. ونظر آخرون إلى الانتحار على أنَّه جُبن، واعتقدوا أنَّه ضعف، ويُظهر دنواً، ويتركه مثقلاً في مهاوي مصيره، ويرون أنَّه سيكون هناك المزيد من الشجاعة والارتقاء بالنفس في نصرة آلامه ومقاومة مصائب القدر. وإذا استشار

الإنسان الطبيعة حول هذه النقطة، فسوف يتبين له أنَّ كلّ أفعاله، تلك اللعبة الضعيفة في أيدي الضرورة، لا غنى عنها، وأنَّها تعتمد على علل تدفعه إليها رغماً عن أنفه، وتجعله ينجز من دون علّمه في كلّ لحظة من وجوده بعض قراراته. وإذا كانت القوة ذاتها التي تلزم جميع الكائنات الذكية بمراعاة وجودها، تجعل وجود الإنسان مؤلماً وقاسياً للغاية لدرجةٍ أن يجده غير محتمل، فإنَّه يتخلى عن جنسه، ويُدمّر نظامه، وينفذ قضاء الطبيعة الذي يقضي بألّا يكون موجوداً بعد الآن. حيث عملت هذه الطبيعة عبر آلاف السنين على تكوين الحديد الذي كان لابدّ من إحصاء أيامه في أحشاء الأرض.

وإذا درسنا علاقة الإنسان بالطبيعة، فسنجد أنَّ ارتباطه بها لم يكن بإرادته، ولم يكن متبادلاً من جانب الطبيعة أو الله. ولم تشارك قوة إرادته في ولادته، ومن الشائع أنَّه ملزم ضد إرادته بإنهاء حياته، ولا تكون أفعاله، كما أثبتنا، سوى النتائج اللازمة عن أسبابٍ مجهولة تقررها إرادته. وهو تحت عناية الطبيعة التي تكون بمثابة سيفٍ في يديه، ويمكنه أن يسقطه عليها دون أن تتهمه بقطع ارتباطاته بها أو وصم اليد التي تمسك به بالجحود، ولا يمكن للإنسان أن يحب وجوده إلّا إذا كان سعيداً، وحالما تجعله الطبيعة بأسرها يرفض هذه السعادة، وبمجرد أن يصبح كلّ ما يحيط به غير ملائم له، وعندما لا تقدّم أفكاره الكئيبة لخياله سوى الصور المؤلمة، فإنَّه لم يعد موجوداً بالفعل، ويكون معلقاً في الفراغ، وقد يتنحى عن رتبةٍ لم تعد تناسبه. ولا يجد فيها أيّ مصلحةٍ له، ولا توفر له أيّ حماية، ولم يعد من الممكن أن يكون مفيداً فيها لا لنفسه ولا للآخرين.

وإذا أخذنا في الاعتبار العهد الذي يوحّد بين الإنسان والمجتمع، فسيكون من الواضح أنَّ كلّ عقد مشروط لابدّ أن يكون متبادلاً، أيّ يفترض مزايا متبادلة بين الأطراف المتعاقدة. ولا يمكن ربط المواطن ببلده وأقرانه إلا بأواصر السعادة. ولكن هل هذه الروابط مقطوعة؟ وهو مفعمٌ بالحرية، فهل يستغله المجتمع بقسوة أو أولئك الذين يمثلوه، وهل يعاملونه بظلم، وهل يجعلون وجوده مؤلماً؟ وهل يوصله الخزي إلى إصبع الاحتقار، وهل يهدده العوز في عالمٍ قاسٍ؟ وهل يتخلى الأصدقاء الغدّارون عنه عند الشدائد؟ وهل تجرح الزوجة الخائنة قلبه؟ وهل يبتلي الأطفال المتمردون الجاحدون شيخوخته؟ وهل حصر سعادته بشيءٍ يستحيل عليه الحصول عليه؟ وهل شوّه الاستياء،

والندم، والحزن، واليأس، مشهد الكون بالنسبة له؟ وباختصار، أياً كانت الأسباب، إذا لم يكن قادراً على دعم شروره، فدعه يترك عالماً لم يعد يمثل له منذ ذلك الحين سوى صحراء مخيفة، ودعه يخرج إلى الأبد من بلدٍ يعتقد أنَّه لم يعد يرغب باعتباره من بين عددٍ من أبنائه، ودعه يغادر بيتاً مستعداً في رأيه لدفنه تحت أنقاضه، ودعه يتخلى عن مجتمعٍ لم يعد بإمكانه أن يسعد به؛ فسعادته وحدها يمكن أن تجعله عزيزاً عليه. وهل يمكن إلقاء اللوم على الإنسان الذي يجد نفسه عديم الفائدة، ويفتقر إلى الموارد في المدينة التي جعله القدر يولد فيها، وملزمٌ بالتخلي عنها عندما تغرقه كآبته في العزلة؟ والموت هو العلاج الوحيد لليأس، ويكون السيف عندئذ هو الصديق الوحيد — تُترك الراحة الوحيدة للتعساء، وطالما بقي الأمل قابعاً في صدره، وما دامت شروره تبدو له محتملة بالمطلق، وطالما يطري على نفسه برؤيتها تصل إلى النهاية، وطالما أنَّه يجد بعض الراحة في الوجود مهما كان ضامراً، فلن يوافق على حرمان نفسه من الحياة، إلا عندما لا يعد هناك ما يحفظ فيه ريعان هذا الوجود، ومن ثم تكون الحياة بالنسبة له أعظم الشرور، والموت هو الطريقة الوحيدة التي يمكنه من خلالها تجنب الإفراط في اليأس.[103]

وبذلك فإنَّ المجتمع الذي لا يملك القدرة أو الذي لا يرغب في حصول الإنسان على أيّ منفعة، يفقد جميع حقوقه عليه؛ فالطبيعة عندما جعلت وجوده بائساً تماماً، أمرته في الواقع بالتخلي عنها، ولا يفعل عند وفاته أكثر من تنفيذ أحد قراراتها كما فعل عندما تنفس لأول مرة. ولا شر من دون علاج بالنسبة لمن لا يخشى الموت، ولمن يرفض الموت توجد أيضاً فوائد متعلقة به في العالم، وفي هذه الحالة، دعه يستجمع قواه، ودعه يقابل بشجاعة المصير الذي يقهره، ودعه يستدعي تلك الموارد التي تزوده بها الطبيعة، إذ لا يمكن أن تتخلى عنه بالكامل عندما تصرف عنه الإحساس باللذة والآمال في رؤية فترة آلامه. أما المؤمن بالخرافة فلا نهاية لآلامه، ولا يجوز له التقليل منها.[104] حيث يحثّه دينه على أن يستمر في التأوه، وينهى عن لجوئه إلى الموت، مما يؤدي به إلى حالةٍ بائسة من الوجود، وسيُعاقب دائماً لجرأته على استباق الأوامر المتأخرة لإله قاسي يسعد برؤيته ينحدر إلى حالةٍ من اليأس، ويشاء ألا تكون لدى الإنسان الجرأة على التخلي عن المنصب المخصص له من دون موافقته.

ولا ينظم الإنسان حكمه على أقرانه إلا من خلال طريقته الخاصة في الشعور، ويعتبرها حماقةً، ويطلق اسم الهذيان على كلّ تلك الأفعال العنيفة التي يعتقد أنَّها لا تتناسب مع العلل التي أدّت إليها إلا قليلاً أو التي تبدو بالنسبة له أنَّها تراعي حرمانه من تلك السعادة التي يفترض فيها كائناً لا يمكنه من حيث التمتع بحواسه إيقاف ميله، ويعامل قرينه على أنَّه مخلوقاً ضعيفاً عندما لا يراه متأثراً بما يمسه إلا بشكلٍ طفيف أو عندما يكون غير قادر على دعم تلك الشرور التي يغريه بها حبه لذاته، والتي سيكون هو نفسه قادراً على تحملها بمزيدٍ من الثبات. ويتهم بالجنون كلّ من حرم نفسه من الحياة ومن الأشياء التي يعتقد أنَّها لا تستحق تضحيةً ثمينة جداً، ويتهمه بالخبل؛ لأنَّه تعلّم بنفسه اعتبار هذه الحياة أعظم نعمةٍ. ومن ثم فهو يحكم بنفسه دائماً على سعادة الآخرين، ونمط رؤيتهم، وطريقة شعورهم. وكذلك البخيل الذي يهلك نفسه بعد أن فقد كنزه، ويظهر أحمقاً في عيني من هو أقل تعلقاً بالثراء، والذي لا يشعر أنَّ الحياة من دون المال بالنسبة لهذا البخيل ليست سوى عذاب مستمر، وأنَّه لا يمكن لشيء في العالم أن يصرف عنه أحاسيسه المؤلمة، وسيخبرك بفخرٍ أنَّك لو كنت مكانه لما فعلت أكثر من ذلك، ولكن لكي تكون مكان إنسان آخر بالضبط، من الضروري أن تكون لديك منظومته ومزاجه وعواطفه وأفكاره، ومن الضروري في الواقع لهذا الآخر - لكي يوضع في الظروف ذاتها تماماً، أن تحركه العلل ذاتها، وفي هذه الحالة سيضحي جميع البشر، مثل البخيل، بحياتهم بعد حرمانهم من المصدر الوحيد لسعادتهم.

ولا يتبنى من حرم نفسه من وجوده هذا التطرف البغيض جداً بميله الطبيعي، إلا عندما لا يمتلك شيئاً في هذا العالم ملكة ابهاجه - عندما لا تبقى هناك وسيلة لصرف بلائه. ويكون سوء حظه مهما كان، حقيقياً بالنسبة له، وسواء أكانت منظومته قوية أم ضعيفة، فهي خاصة به وليست لآخر، حيث يعاني الإنسان المريض حقاً في مخيلته فحسب، وتضعه الأحلام المزعجة في موقفٍ غير مريح للغاية. ولذلك عندما يقتل المرء نفسه، يجب أن يستنتج أنَّ الحياة في غرفة نافعة أصبحت شراً عظيماً بالنسبة له، وفقد هذا الوجود كلّ مفاتنه في عينيه، وكانت كلّ الطبيعة بالنسبة له معدومة الجاذبية، ولم تعد تحتوي على أيّ شيء يمكن أن يغريه، وأنَّه بعد المقارنة التي أجراها خياله المضطرب بين الوجود وعدم الوجود، بدا الأخير بالنسبة له أفضل من الأول.

ولن يتوانى العديد من الأشخاص من أخذ خطورة هذه الأقوال المأثورة بالاعتبار، وأنَّها تسمح للتعيس على الرغم من التحيزات المتعارف عليها، بأن يقطع تسلسل الحياة، ولكن الأقوال المأثورة لن تحثّ الإنسان أبداً على تبني مثل هذا القرار العنيف، وهو طبعٌ تدهور بسبب الكآبة، ومزاج صفراوي، وعادة سوداوية، وخلل في المنظومة، واضطراب في العضوية كلّها، وهو في الواقع ضرورة، وليست تكهنات معقولة تولد في الإنسان التصميم على تدمير نفسه. ولن يدعوه شيء إلى هذه الخطوة طالما بقي العقل معه أو عندما يمتلك أيضاً الأمل – ذلك البلسم الملكي لكلّ شر. أما سيء الحظ الذي لا يمكنه اغفال أحزانه، ولا يمكنه أن ينسى آلامه، ولا تغيب شروره عن عقله، فهو ملزم باستشارة هذا وحده. وإلى جانب ذلك، ما هي المساعدة أو ما هي الميزة التي يمكن أن يعدّ بها المجتمع نفسه من اختزال صعلوكٍ تعيس إلى بائس، ومن بغيض يطغى عليه الحزن إلى بائس معذَّب بالندم ولم يعد لديه أيّ دافع إلى جعل نفسه مفيداً للآخرين الذين تخلوا عنه، ولم يعد لهم مصلحة في الحفاظ على حياته؟ وأولئك الذين يدمرون أنفسهم هم من هذا القبيل، فلو عاشوا لاضطرت القوانين المهينة إلى إخراجهم في النهاية من المجتمع الذي وصمهم.

وبما أنَّ الحياة عموماً هي أعظم نعمةٍ للإنسان، فيفترض أنَّ من يحرم نفسه منها، دفعته إليه قوةٌ لا تُقهر. ذلك أنَّ فائض البؤس، وذروة اليأس، وتشوش دماغه الناجم عن الكآبة، هي التي تحث الإنسان على تدمير نفسه. وعندما تثيره دوافع معاكسة، كما قلنا من قبل، يكون ملزماً باتباع مسارٍ متوسط يقوده إلى موته؛ فإذا لم يكن الإنسان فاعلاً حراً في أيّ لحظة من حياته، فهو أيضاً أقل من ذلك بكثير ليعمل على انهاء حياته.(105)

وهكذا سيتبين أنَّ من يقتل نفسه، لا يتعدى، كما يُقال، على الطبيعة أو خالقها. بل يتّبع الدافع الموجود في تلك الطبيعة ويتبنى بالتالي الوسيلة الوحيدة التي تدعه يتخلى عن كربه، ويخرج من الباب الذي تتركه مفتوحاً له، ولا يستطيع الإساءة إليها عند تنفيذ قانون الضرورة، حيث تحطم اليد الحديدية هذا المصدر الذي يجعل الحياة مرغوبة بالنسبة له، ويحثّه على الحفاظ على نفسه، ويُظهر له أنَّه يجب أن يتخلى عن الرتبة أو النظام الذي يجد نفسه فيه يائساً جداً من الرغبة في البقاء. ولا يحقّ لبلده أو لأسرته التذمر من عضو ليس لديها وسيلة لإسعاده، وبالتالي ليس لديها ما يأمل فيه. ولكي يكون مفيداً

لأيٍّ منهما، من الضروري أن يعتز بوجوده الخاص، وينبغي أن تكون له مصلحة في الحفاظ على نفسه، وينبغي أن يحب الروابط التي توحده مع الآخرين، ويجب أن يكون قادراً على الانشغال بسعادتهم. وينبغي أن يُعاقب المنتحر في عالمٍ آخر، وينبغي أن يتوب عن تسرّعه، وينبغي أن ينجو بنفسه، وينبغي أن يحمل معه إلى مسكنه المقبل أعضائه، وحواسه، وذاكرته، وأفكاره، وطريقة وجوده الفعلية، وطريقة تفكيره المحتوم.

وباختصار، ليس هناك ما هو أكثر فائدة للمجتمع من إلهام الإنسان بازدراء الموت، وأن يبعد عن ذهنه الأفكار الخاطئة التي تقع عواقبها عليه. ولا يمكن أن يفعل الخوف من الموت سوى خلق الجبناء، ولن يخلق الخوف من عواقبه المزعومة سوى المتعصبين أو كائنات كئيبة، وغير مفيدة لأنفسها وعديمة الجدوى بالنسبة للآخرين. والموت مصدر لا يجب أن يُسلب من الفضيلة المهانة التي كثيراً ما ترجع ظلم الإنسان إلى اليأس. وإذا كان الإنسان يخشى الموت قليلاً، فلن يكون عبداً ولا مؤمناً بالخرافات، وسوف تجد الحقيقة مدافعين أكثر حماسةً، وسيكون من الصعب الحفاظ على حقوق الإنسان، وسيكون الخطأ أقوى وسيُطرد الطغيان من الأمم التي يغذيها الجبن، ويبقيها الخوف. ولا يمكن للإنسان في الحقيقة أن يرضى ولا يسعد، حينما تفرض عليه آرائه أن يرتعش.

الفصل الخامس عشر
مصلحة الإنسان الحقيقية، أو الأفكار التي يكوّنها لنفسه عن السعادة. - لا يستطيع الإنسان أن يكون سعيداً من دون فضيلة

يجب أن تكون المنفعة كما ذكر آنفاً، المعيار الوحيد للحكم على الإنسان؛ فعندما يكون مفيداً، يساهم في إسعاد أقرانه، وعندما يكون متحيزاً، يزيد من بؤسهم. ولتأكيد هذا، دعونا نبحثُ فيما إذا كانت المبادئ التي وضعناها حتى الآن ضارة أم نافعة، ومفيدة أم غير مجدية للجنس البشري. فإذا كان الإنسان يسعى وراء سعادته، فلا يمكنه أن يستحسن سوى ما يحقق له هدفه أو يزوده بالوسائل التي يمكن أن يبلغه من خلالها.

وسوف يفيد ما قيل بالفعل في البرهنة على أفكارنا المتعلقة بما يشكل هذه السعادة التي أُثبت بالفعل أنّها مجرد متعة مستمرة،[106] ولكن لالتماس ذلك الشيء، من الضروري أن تكون الانطباعات التي يحدثها، والإدراكات التي يقدمها، والأفكار التي يتركها، وباختصار، ينبغي أن تكون تلك الحركة التي يثيرها في الإنسان مماثلة لمنظومته المتوافقة مع مزاجه، ومتماثلة مع طبيعته الفردية، وتعدّلت بحسب العادة، وتقررت وفق ما لا نهاية له من الظروف، ومن الضروري فعل الشيء الذي تحرك بسببه أو الذي تبقى فكرته معه، وبعيداً عن إضعافه وتبديد مشاعره، ينبغي الالتفات إلى تقويتها، ومن الضروري، من دون إجهاد عقله أو إرهاق قدراته أو تشويش أعضائه، أن ينقل هذا الشيء إلى عضويته درجة من النشاط تتناسب معه باستمرار. ولكن ما هو الشيء الذي يوحد بين كلّ هذه الصفات؟ وأين الإنسانُ الذي تتعرض أعضائه للإثارة المستمرة من دون أن يُرهق، ومن دون أن يعاني من إحساس مؤلم، ولا انقباض صدر؟ حيث يتأهب الإنسان دائماً لتحذير وجوده بطرق أكثر حيوية طالما أنَّ بإمكانه أن يكون كذلك من دون ألم، وماذا أقول؟ هو يقبل أن يعاني كثيراً بدلاً من عدم الشعور، ويعوّد ذاته على ألف من الأشياء التي يجب أن

تؤثر في البداية عليه بطريقة مزعجة، وغالباً ما تنتهي بتحولها إلى رغبات أو لن تعد تؤثر عليه بأي شكلٍ من الأشكال.[107] وبالفعل أين يمكن أن يجد دائماً أشياءً في الطبيعة قادرة على توفير الحافز المطلوب باستمرار لتبقيه ضمن نشاط يتناسب مع حالة منظومته، وتعرّض حركته المفرطة للتغير الدائم؟ ودائماً ما تكون أكثر الملذات حيويةً هي الأقل متانةً؛ لأنَّها أكثر ما يستنفذه.

وينبغي ألا يكفّ الإنسان عن أن يكون سعيداً، ويُفترض أن تكون قواه غير متناهية؛ وسيقتضي ذلك أن يُرفق بحركته النشاط والمتانة التي لا يمكن أن يغيرها شيء أو من الضروري أيضاً أن تكتسب الأشياء التي يتلقى منها التنبيه خصائص أو تفقدها، بحسب الحالات المختلفة التي يلزم أن تمرّ بها عضويته تباعاً، وسيتطلب ذلك تغيير ماهيات الكائنات بما يتناسب تماماً مع ميوله، ويجب أن تخضع للتأثير المستمر لألف علةٍ تعدله من دون علمه ورغماً عن أنفه. وإذا كانت هذه العضوية تخضع في كلّ لحظة لتغييرات ملحوظة إلى حدٍ ما، ويمكن إرجاعها إلى درجات مختلفة من المرونة، والكثافة، وصفاء الغلاف الجوي وإلى جزءٍ من السائل الناري الذي يجري عبر دمه، وإلى انسجام أعضائه، وإلى النظام الموجود بين أجزاء جسده المختلفة. وفي كلّ فترة من فترات وجوده، إذا لم يكن لأعصابه التوترات ذاتها، ولأليافه المرونة ذاتها، ولعقله النشاط ذاته، ولخياله الاتقاد ذاته، وما إلى ذلك، فمن الواضح أنَّ السبب ذاته الذي أدى إلى حفظه بالصفات ذاتها، لا يمكن أن يؤثر عليه دائماً بالطريقة ذاتها. وهذا هو سبب استيائه من تلك الأشياء في موسمٍ ما وسروره منها في موسم آخر. فهذه الأشياء لم تتغير بحد ذاتها بشكلٍ محسوس بل إنَّ أعضاءه، وميوله، وأفكاره، وطريقة رؤيته، وطريقة شعوره هي التي تغيرت، وهذا هو مصدرُ تقلب الإنسان.

وإذا لم تكن الأشياء ذاتها في تلك الحال مؤهلة بشكلٍ دائم لتكوين سعادة الفرد ذاته، فمن السهولة أن ندرك أنَّها لا تزال أقل قدرةً على إرضاء جميع البشر، أو أنَّ السعادة ذاتها لا يمكن أن تكون مناسبة للجميع. فالكائنات تتنوع بالفعل من حيث مزاجها، وملكاتها، ومنظومتها، وخيالها، وأفكارها، وآرائها المتميزة، ومن الضروري أن تشكل العادات المتناقضة التي يعدّلها بشكلٍ مختلف ما لانهاية له من الظروف المادية أو المعنوية، مفاهيم مختلفة تماماً عن السعادة. ولا يمكن أن تكون تلك الخاصة بالبخيل مثل تلك التي

لدى المبذر، وتلك الخاصة بالشهواني، مثل تلك الخاصة بالبلغمي، وتلك الموجودة عند المسرف، مثل تلك التي يتمتع بها العاقل الذي يدّخر لصحته. ونتيجة لذلك، تتكون سعادة كلّ فرد من منظومته الطبيعية، ومن تلك الظروف، والعادات، والأفكار التي عدّلته سواء كانت صحيحة أو خاطئة. ولا تكون هذه المنظومة وهذه الظروف أبداً هي ذاتها عند أيّ أثنين من البشر؛ ويترتب على ذلك أنَّ موضوع آراء إنسان ما يجب ألا يكترث به آخر أو يكون غير راضٍ عنه، وهكذا، كما قلنا من قبل، لا يمكن لأحد أن يكون قادر على الحكم على ما قد يساهم في سعادة أخيه الإنسان.

و(المصلحة)، هي الشيء الذي يربطه كلّ فرد بحسب مزاجه وأفكاره الخاصة، برفاهيته التي سيُدرك من خلالها أنَّ هذه المصلحة ليست سوى تلك التي تصور كلّ فرد أنَّها ضرورية لسعادته. لذلك يجب أن نستنتج أنَّه ما من دمغة بلا فائدة تماماً. فالبخل هو جمع الثروة، والتبذير هو تبديدها. وتكون مصلحة الطَموح في الحصول على السلطة، وأنْ ينعم الفيلسوف المتواضع بالهدوء، ومصلحة الفاسق هي أن يسلّم نفسه من دون تحفظ لكلّ أنواع اللذة، ومصلحة الإنسان الحكيم في الامتناع عمّا قد يؤذيه، وتكون مصلحة الشرير في إرضاء عواطفه بأيّ ثمن، ومصلحة الفاضل أن يستحق بفضل سلوكه حب وقبول الآخرين، وألا يفعل شيئاً يمكن أن يحط من قدر نفسه في ناظريه.

وهكذا، عندما يُقال: إنَّ (المصلحة هي الدافع الوحيد لأفعال الإنسان)، فمن المفترض الإشارة إلى أنَّ كلّ إنسان يعمل بطريقته الخاصة لتحقيق سعادته التي يضعها في شيءٍ ما، سواء كان مرئياً أو مخفياً، وحقيقياً أم وهمياً، وتوجيه نظام سلوكه برمته نحو بلوغه. وهذا يؤكد أنَّه لا يمكن أن يُطلق على أيّ إنسان أنَّه نزيه، فهذه التسمية تنطبق فقط على أولئك الذين نجهل دوافعهم، أو الذين نستحسن مصلحتهم. وهكذا، فإنَّ الإنسان الذي يجد متعةً في مساعدة أصدقائه عند المحن أكبر من الحفاظ في خزائنه على كنزٍ عديم الفائدة، يُسمى كريماً، ومخلصاً، ونزيهاً، وبالأسلوب ذاته يُسمى كلّ البشر نزيهون، عندما يشعرون بأنَّ مجدهم أغلى بكثير من ثروتهم. وباختصار، يُعتبر كلّ البشر نزيهون عندما يضعون سعادتهم في تقديم التضحيات التي يعتبرها الإنسان مكلفة؛ لأنَّه لا يربط القيمة ذاتها بالشيء الذي ضحى من أجله.

وغالباً ما يحكم الإنسان بشكلٍ خاطئ جداً على مصلحة الآخرين، إما لأنَّ الدوافع التي تحركهم معقدة للغاية بحيث يتعذر عليه كشفها أو بسبب عدم تمكّنه من الحكم عليهم بإنصاف، ومن الضروري امتلاك العيون ذاتها، والأعضاء ذاتها، والمشاعر ذاتها، والآراء ذاتها، والالتزام مع ذلك بتشكّيل حكمه على أفعال البشرية من خلال تأثيرها عليه، ويستحسن المصلحة التي تحفزهم عندما تكون النتيجة مفيدة لجنسه، ومن هنا يُعجب بالشجاعة والكرم وحب الحرية والمواهب العظيمة والفضيلة وما إلى ذلك، ولا يستحسن بالتالي سوى الأشياء التي أطرى عليها ووضع سعادة الكائنات فيها، ويستحسن هذه الميول حتى عندما لا يكون قادراً على الشعور بآثارها، ولكن في هذا الحكم لم يكن هو ذاته نزيهاً، فالخبرة والتأمل والعادة والعقل تعطي طعماً لأخلاقه، ويجد متعةً كبيرة في أن يشهد على عملٍ عظيمٍ وسخي، مثلما يجد الفاضل في مشهدٍ ما الصورة الجميلة التي لم يكن يمتلكها. ومن يعتاد على ممارسة الفضيلة هو إنسان يضع دائماً نصب عينيه المصلحة وأنَّه يستحق العاطفة، ويستحق التقدير، وتأمين مساعدة الآخرين، وكذلك حبه وتقديره. وبإعجابه بهذه الأفكار التي أصبح معتاداً عليها، يمتنع حتى عن الجرائم المخفية؛ لأنَّ هذه من شأنها أن تحطّ من قدره أمام ناظريه، وهو يشبه الإنسان الذي اعتاد على النظافة منذ طفولته، وسيتأثر بألم عند رؤيته متسخاً وإن لم يشاهده أحد. والإنسان الصادق هو الذي أظهرتْ له الحقيقة مصلحته أو سعادته بطريقة عمل تجبر الآخرين على حب مصلحتهم الخاصة واستحسانها.

إنَّ هذه المبادئ المطوّرة كما يجب، هي الأساس الحقيقي للأخلاق، وليس هناك ما هو خيالي أكثر من تلك المبادئ التي تأسست على دوافع خيالية، ووضعت خارج الطبيعة أو بناءً على مشاعر فطرية، واعتبرها بعض المتأملون سابقة على خبرة الإنسان، ومستقلة تماماً عن تلك المزايا التي تنتج عن استخدامه لها؛ فماهية الإنسان هي أن يحب ذاته، وأن يميل إلى الحفاظ عليها، ويسعى إلى إسعاد وجوده.(108) وهكذا فإنَّ المصلحة أو الرغبة في السعادة، هي الدافع الحقيقي الوحيد لجميع أفعاله، وتعتمد هذه المصلحة على منظومته الطبيعية، ورغباته، وأفكاره المكتسبة، والعادات التي اتفق معها، وهو مخطئٌ بلا شك عندما تُظهر له منظومة فاسدة أو آراء خاطئة رفاهيته في أشياءٍ عديمة الفائدة أو ضارة له وللآخرين. ويسير بثباتٍ في دروب الفضيلة عندما تجعله الأفكار الحقيقية يؤسس سعادته

على سلوكٍ مفيد لجنسه، ويستحسنه الآخرون، ويجعله شيئاً نافعاً لأقرانه. وستكون الأخلاق علماً عديم الجدوى، إذا لم تثبت للإنسان بشكلٍ قاطع أنَّ مصلحته تكمن في أن يكون فاضلاً. ولا يمكن تأسيس الالتزام، أياً كان نوعه، إلا على الاحتمال أو التيقن من الحصول على خير أو تجنب الشر. وفي الواقع، ما من كائن عاقل وذكي يمكن أن يغفل في أيّ لحظة من حياته عن الحفاظ على ذاته أو ينسى رفاهيته، ويدين بالسعادة لنفسه، إلا وأثبتت الخبرة له بسرعة أنَّه عندما يفقد المساعدة لا يستطيع وحده الحصول على كلّ تلك الأشياء اللازمة لسعادته، ويعيش مع كائنات عاقلة وذكية، ومشغولة مثله بسعادتها الخاصة، ولكنها قادرة على مساعدته في الحصول على تلك الأشياء التي يرغب فيها، ويكتشف أنَّ هذه الكائنات لن تكون مؤيدة لآرائه، إلا عندما تجد مصلحتها متضمنة فيها، ويستنتج منها أنَّ سعادته تتطلب أن يتصرف بنفسه في جميع الأوقات بطريقةٍ مناسبة للتوفيق بين المودة والحصول على الاستحسان، فيستنبط التقدير ويؤمن مساعدة تلك الكائنات الأكثر قدرةً على تعزيز مقاصده. ويدرك أنَّ الإنسان هو أكثر ما يلزم لتحقيق رفاهية الإنسان، وأنَّه لحثّه على مشاركته في مصالحه، يجب أن يجعله يجد مزايا حقيقية في دعم مشاريعه، ولكن لجلب مزايا حقيقية لكائنات الجنس البشري، لابدّ أن تكون لديه فضيلة؛ لذلك يضطر الإنسان العاقل للشعور بأنَّ من مصلحته أن يكون فاضلاً. وليست الفضيلة سوى فن إسعاد ذاته من خلال سعادة الآخرين. والإنسان الفاضل هو الذي ينقل السعادة إلى تلك الكائنات القادرة على إسعاد حالته، وتكون ضرورية لحمايته ولديها القدرة على توفير حياةٍ كريمةٍ له.

وهذا هو الأساس الحقيقي لجميع الأخلاق، حيث يتأسس الفضل والفضيلة على طبيعة الإنسان، واعتمادها على رغباته. ويمكن للفضيلة وحدها أن تجعله سعيداً حقاً.(109) ومن دون الفضيلة، لا يمكن للمجتمع أن يكون مفيداً ولا قائماً بالفعل، ويمكن أن تكون لها منفعة حقيقية فقط عندما تجتمع كائنات حية على رغبة إرضاء بعضها بعض، وتميل إلى العمل على تحقيق مصلحتها المتبادلة، ولا توجد راحة عند تلك العائلات التي ليس لأعضائها ميلاً سعيداً لتزويد بعضهم البعض بالعون المتبادل، وليس لديهم مشاعر متبادلة تحفّزهم على مساعدة بعضهم البعض؛ وتدفعهم إلى التشبث ببعضهم ومساندة بعضهم على مآسي الحياة، وتوحيد جهودهم لإبعاد تلك الشرور التي أخضعتهم لها الطبيعة.

وتكون الروابط الزوجية عذبة فقط عندما تتناسب مع تحديد مصلحة كائنين توحدهما الحاجة إلى اللذة المشروعة، ومن هنا ينتج عنها الحفاظ على المجتمع السياسي، ووسائل تأثيره على المواطنين. وتفتن الصداقة فقط عندما تربط بشكلٍ خاص أكثر بين كائنين فاضلين، وهذا يعني أنَّ كائنين مفعمان بالرغبة الصادقة يتعاونان من أجل سعادتهما المتبادلة. وبعبارة أخرى، يستحق الإنسان عند إظهاره للفضيلة، الإحسان والثقة والاحترام من جميع أولئك الذين تربطه بهم علاقة ما، ولا يمكن لأيّ إنسان أن يكون سعيداً بشكلٍ مستقل.

وبالفعل فإنَّ سعادة كلّ فرد تتوقف على المشاعر التي يولدها، وعلى تلك المشاعر التي يثيرها في الكائنات التي قُدر له أن يكون بينها، وقد تبهرهم العظمة، وقد تنتزع السلطة والقوة منهم الإجلال عنوةً، وقد يغري البذخ النفوس الدنيئة والفاسدة، لكن الإنسانية، والخير، والرحمة، والإنصاف، يمكنها من دون مساعدة هؤلاء، ومن دون بذل جهود أن تثير فيه تلك المشاعر اللذيذة المتمثلة في المودة والحنان والاحترام، والتي يشعر جميع البشر العقلاء بضرورتها. ومن هنا لكي يكون فاضلاً عليه أن يضع مصلحته بما يتوافق مع مصلحة الآخرين، والتمتع بتلك الفوائد وهذه اللذة التي يثيرها هو ذاته بين أقرانه. ومن جعلته طبيعته وتربيته وتأملاته وعاداته عرّضة لهذه الميول، ومنحته ظروفه القدرة على إرضائهم، يصبح شيئاً مفيداً لكلّ من يقترب منه، ويستمتع بكلّ لحظة، ويقرأ بارتياح القناعة والبهجة التي نثرها على جميع الوجوه، وتستقبله زوجته وأطفاله وأصدقاؤه وخدمه بوجوه مماثلة وهادئة، مما يدل على ذلك المحتوى وهذا السلام الذي يعترف به بعمله؛ فكلّ ما يحيط به مستعداً للمشاركة في ملذاته وتقاسم آلامه، ويعتز به الآخرون ويحترموه ويتطلعون إليه، ويقوده كلّ شيء إلى تأملاتٍ مقبولة؛ فهو يعرفُ الحقوق التي اكتسبها بقلوبهم، ويطري على نفسه لكونه مصدر السعادة التي تأسر العالم كلّه، وتصبح حالته الخاصة، ومشاعر حب الذات الخاصة به، أكثر لذةً مائة مرة عندما يراها مشتركة مع جميع أولئك الذين ربط مصيره بهم. ولا تخلق له عادة الفضيلة أيّ رغبات، بل تكفي الفضيلة ذاتها لإشباعها، وبالتالي، تكون للفضيلة دائماً مكافأتها الخاصة، حيث تكافئ نفسها بكلّ المزايا التي تحصل عليها باستمرار للآخرين. وسيُقال، وربما يبرهن في ظل التكوين الحالي للأشياء: إنَّ الفضيلة بعيدة عن تأمين رفاهية أولئك الذين يمارسونها، وكثيراً

ما تُغرق الإنسان في المحن، وغالباً ما تضع عقبات مستمرة أمام سعادته، وفي كلّ مكان تقريباً من دون مقابل. ماذا أقول؟ يمكن تقديم ألف مثال كدليلٍ على أنَّها مكروهة في كلّ بلد تقريباً ومضطهدة وملزمة بندب جحود الطبيعة البشرية. وأجيب مع الاعتراف بالنتيجة اللازمة عن تشرد الإنسان وأخطاء عرقه، أنَّ الفضيلة نادراً ما تقوده إلى تلك الأشياء التي يصرّ فيها الجهل على خلق سعادتهم. وعددٌ كبير من المجتمعات المحكومة في كثيرٍ من الأحيان من قبل أولئك الذين يجعلهم جهلهم يسيئون استخدام سلطتهم، وتجعلهم تحيزاتهم أعداءً للفضيلة، ويجاملهم المتملقون، تضمن أن يفلتوا من العقاب الذي يستحقونه على أفعالهم، وعادةً ما تبالغ في تقديرهم، وتضفي لطفاً على الأشياء الأكثر ازدراءً، ولا تكافئ إلا على الأشياء الأكثر ابتذالاً، ولا تثيب إلا على الصفات الأكثر تحيزاً، ونادراً ما تنسجم مع هذه العدالة، والميزة الناجمة عنها بلا شك. ولكن الإنسان الصادق حقاً لا يتقاضى أجراً، ولا يتسم بالرغبة في الاقتراع في مجتمع تشكَّل على هذا النحو بشكلٍ سيئ؛ لأنَّه مقتنع بالسعادة الداخلية ولا يسعى إلى زيادة العلاقات التي لا تؤدي إلا إلى زيادة تعرضه للخطر، ويعرف أنَّ الجماعة الفاسدة زوبعةً لا يمكن للإنسان الصادق أن ينسجم معها؛ لذلك يتنحى جانباً ويتخلى عن المسار المألوف، والاستمرار في سحقه بنجاح. ويفعل كلّ ما بوسعه من خير في مجاله، ويفسح الطريق أمام الأشرار الراغبين بتوريطه، ويندب على الضربات الشديدة التي يلحقونها بأنفسهم. ويثني على الاعتدال الذي يوفّر له الأمن، ويشفق على تلك الأمم البائسة بسبب ضلالاتها التي جعلتها تعيسة بتلك المشاعر التي لم تكن سوى نتيجة مقدّرة لها ولكنها ضرورية، ويرى أنَّها لا تحتوي إلا على مواطنين بائسين يبتعدون عن تنمية مصلحتهم الحقيقية، ويبتعدون عن العمل من أجل سعادتهم المتبادلة، ويبتعدون عن الشعور بالقيمة الحقيقية للفضيلة، وغير واعيين كيف يجب أن تكون عزيزة عليهم، ولا يفعلون شيئاً سوى التهجم علانيةً عليها أو انتهاكها سراً، وباختصار، يكرهون صفةً من شأنها أن تكبح نزعاتهم المضطربة.

وعندما نقول: إنَّ الفضيلة هي المكافأة الخاصة بها، فهذا يعني ببساطة أن نعلن في مجتمع تُوجه آراؤه بالحقيقة، والخبرة، والعقل، أنَّ كلّ فرد على دراية بمصالحه الحقيقية، وسيفهم النهاية الحقيقة للارتباط، وستكون لديه دوافع سليمة لأداء واجباته، ويجد مزايا حقيقية في القيام بها، وسيقتنع في الواقع أنَّه لإسعاد نفسه بقوة، كان لابدّ له من أن

يشغل أفعاله برفاهية أقرانه، ومنفعتهم، ويستحق تقديرهم ولطفهم ومساعدتهم. وفي مجتمع حسن التكوين، ستتعاون الحكومة والقوانين والتربية والقدوة، لتثبت للمواطن أنَّ الأمة التي يشكل جزءاً منها هي الكلّ الذي لا يمكن أن يكون سعيداً ولا يمكن أن يعيش من دون فضيلة، وستقنعه الخبرة في كلّ خطوة بأنَّ رفاهية أعضاؤها لا يمكن أن تنتج إلا من اعتبار الجسد ككل، وستخلق العدالة شعوره بعدم وجود مجتمع يمكن أن يكون مفيداً لأعضائه، حيث لا تتوافق قوة الإرادات في أولئك الذين يعملون، مع مصالح الكل، بقدر ما ينتج عنها من ردة فعل مفيدة.

ولكن، يا للأسف! بسبب الفوضى التي أضفتها ضلالات الإنسان على أفكاره، من فضيلة، وعار، ونفي واضطهاد، لا يجد أيّ من تلك المزايا التي يحق توقعها، ويُظهر الإنسان بالفعل تلك المكافآت المزعومة مقابلها في حياته المقبلة، ويُحرم منها دائماً تقريباً في وجوده الفعلي. ويُعتقد أنَّه من الضروري خداعه وإغوائه وترهيبه لحمله على اتباع تلك الفضيلة التي تجعل كلّ شيء غير ملائم له؛ فيتغذى بآمالٍ بعيدة تحثّه على ممارسة الفضيلة، في حين يجعلها التأمل في العالم مكروهة لديه، وينزعج من الأهوال البعيدة التي تردعه عن ارتكاب الشر الذي يتفق الجميع على جعله لطيفاً وضرورياً. ومن هنا تدّعي السياسة والخرافة عبر تشكيلها لكائنات خرافية، ومن خلال خلق المصالح الوهمية، أنَّها تدعم تلك الدوافع الحقيقية والمتقدة التي توفرها الطبيعة، وتشير إليها الخبرة، والتي ينبغي على الحكومة المثقفة التمسك بها، ويجب على القانون أن يفرضها بالقوة، وينبغي أن يصادق عليها التعليم، وأن تحث القدوة عليها، ومن شأن الآراء العقلانية أن تجعلها ممتعة. فالإنسان الذي أعمته عواطفه التي لا تقل خطورةً عن الضرورة، يستبعده أسلافه، ويأذن له العرف، وتستعبده العادة، ولا يهتم بهذه الوعود والمخاطر غير المؤكدة والمصلحة الفعلية لمتعه الحالية، وقوة عواطفه، وثبات عاداته، ويرتقي دائماً إلى مرتبة أعلى من المصالح البعيدة المُشار إليها في رفاهه المقبل أو الشرور البعيدة التي تهدده وتبدو دائماً مشكوكاً فيها كلّما قارنها بالمزايا الحالية.

وهكذا، فإنَّ الخرافة، بصرف النظر عن جعل الإنسان فاضلاً من حيث المبدأ، لا تفعل أكثر من أن تفرض عليه نيّراً شديد القسوة ولا طائل منه، ولا يتحمله إلا المتعصبون أو الجبناء الذين، ومن دون أن يصبحوا أفضل، يقضمون بارتجاف الجزء الضعيف الذي

يضعونه في أفواههم. وتثبت الخبرة في الواقع بشكلٍ لا يقبل الجدل أنَّ الدين سدٌّ غير كافٍ لكبح سيل الفساد الذي تضفي عليه العديد من الأسباب المتراكمة قوةً لا تُقاوم، بل وأكثر من ذلك، ألا يؤدي هذا الدين نفسه إلى زيادة الفوضى العامة من خلال العواطف الخطيرة التي يطلقها ويكرسها؟ حيث تنحصر الفضيلة في كلّ مناخ تقريباً، في عدد قليل من الكائنات العاقلة التي لديها قوةٌ عقلية كافية لمقاومة تيار التحيز، وتكتفي بمكافأة أنفسها بالمزايا التي توزعها على المجتمع، وتُشبع ميولها المعتدلة بانتخاب عدد قليل من المؤيدين الفاضلين، وتنفصل باختصار عن تلك المزايا العبثية التي لا يفضي بها ظلم المجتمع عموماً إلا إلى الدناءة والخسة والجريمة.

وبالرغم من الظلم الذي يسود العالم، لكن هناك بعض البشر الفاضلين، حتى في حضن أكثر الأمم فساداً، وتوجد بعض الكائنات الصالحة التي لا تزال مغرمةً بالفضيلة، وعلى درايةٍ كاملة بقيمتها الحقيقية، ومستنيرة بما يكفي لمعرفة أنَّها تطلب التكريم حتى من أعدائها، وراضية على الأقل عن تلك الملذات والمكافآت الخفية التي لا توجد قوة على الأرض قادرة على حرمانهم منها. ويكتسب الإنسان الصادق حق التقدير، والتبجيل، والثقة، والمحبة، حتى عند أولئك الذين يكتشف أنَّ سلوكهم مناقض لسلوكه. وباختصار، الرذيلة مُلزمة بالتنازل للفضيلة التي تعترف بخجل بتفوقها. وبغض النظر عن كون هذه السطوة دمثة للغاية، وكبيرة جداً، ومعصومة من الخطأ، حتى لو ظلمه الكون كلّه، فلا يزال هناك للإنسان الصادق ميزة حب سلوكه، وتقدير نفسه، والغوص برضا في خبايا قلبه، والتفكير في أفعاله بهذا الرضا الخالص الذي يجب على الآخرين القيام به، إن لم يتم خداعهم. ولا توجد قوة تكفي لسلبه التقدير الذي يستحقه، وما من سلطة تكفي لتمنحها له عندما لا يستحقها، إلا عندما لا يكون لها أساس جيد فتكون عندئذ شعوراً سخيفاً، ويجب توجيه اللوم إليها عندما تظهر بمجد ذاتها في وضع مذل ومزعج للآخرين؛ فتُسمى عندئذ (غطرسة)، وإذا استندت على أفعال طائشة، فإنَّها تُسمى غروراً، ولكن عندما لا يمكن إدانتها، وعند معرفة أنَّها مشروعة، واكتشاف أنَّ لها أساساً متيناً، وعندما ترتكز على المواهب، وتقوم على أفعال عظيمة مفيدة للجماعة، وتبني صرحها على الفضيلة، مع أنَّ المجتمع لا ينبغي أن يحدد هذه المزايا بثمنها العادل، تكون مفخرةً نبيلة، وسمواً للعقل، ونبلاً للنفس.

وبالتالي دعونا لا نستمع إلى وعظ تلك الخرافة التي تلهّف أعداء سعادة الإنسان لتدميرها حتى في أعماق قلبه الذي شرّع له كراهية أقرانه واحتقار ذاته، والتي يظهر أنها تنتزع احترام الذات من الإنسان الصادق الذي غالباً ما يكون المكافأة الوحيدة المتبقية للفضيلة في عالمٍ فاسد. ولكي تمحو فيه هذه المشاعر المليئة بالعدالة وهذا الحب له، يجب أن تكسر أقوى مصدر يحثّه على التصرف بحق. فعلاً، ما الدافع المتبقي له ما عدا هذا في الجزء الأكبر من المجتمعات البشرية؟ أليست الفضيلة محبطة ومحتقرة؟ أليس من الجرأة ارتكاب الجريمة الجريئة والرذيلة الماكرة؟ أليس حب الرخاء العام مرهوناً بالحماقة، وينظر إلى الدقة في أداء الواجبات على أنها وهم؟ ألا يتم التعامل بسخريةٍ مع الشفقة، والحساسية، والحنان، ووفاء الزوجين، والصدق، والصداقة التي لا تنتهك؟ يجب أن تكون لدى الإنسان دوافع للعمل؛ فهو لا يتصرف بشكلٍ جيد ولا سيء، إلا بهدف تحقيق سعادته — فيما يعتقد أنَّ مصلحته تكمن فيه، ولا يفعل شيئاً من دون مبرر، وعندما تُمنع عنه المكافأة على الأعمال المفيدة، يتراجع ليصبح منبوذاً مثل الآخرين أو يكافئ نفسه باستحسانها.

وهذا يؤكد أنَّ الإنسان الصادق لا يمكن أن يكون تعيساً بالكامل، ولا يمكن أبداً حرمانه تماماً من التعويض الذي يستحقه، ويمكن للفضيلة أن تعوضه عن كلّ السعادة التي ينكرها عليه الرأي العام، لكن لا شيء يعوضه عن نقص الفضيلة. ولا ينتج عن ذلك أنَّ الإنسان الصادق سيُعفى من الآلام؛ فمثلما يتعرض الشرير للشرور الجسدية، قد يكون متعباً بسبب المرض، وقد يكون في كثيرٍ من الأحيان عرضةً للافتراء بالظلم ونكران الجميل والكراهية، ولكن في خضم كلّ مصائبه، وأحزانه، يجد الدعم في نفسه، فيكتفي بسلوكه، ويحترم نفسه، ويشعر بكرامته، ويعرف المساواة بين حقوقه، ويواسي نفسه بثقةٍ مستوحاة من عدالة قضيته. ولا تؤخذ هذه المساعدات بالحسبان على أنها خبيثة. وبالقدر ذاته من المسؤولية مع الإنسان الصادق تجاه الأسقام ونزوات مصيره، يجد خبايا قلبه مليئة بالإنذارات المروعة والعناية والتعاطف، والأسف والندم الذي يميته في نفسه، ولا يساندهن ضميره بل يحمّله عاراً، ويغلبه عقله، ويغرقه تحت العاصفة. فالإنسان الصادق ليس رواقيٌّ عديم الإحساس، ولا تمنحه الفضيلة عدم القدرة على الانفعال إلا إذا كان بائساً، فإنها تمكنه من التخلص من اليأس، وإذا كان ضعيفاً فلن يتذمر أقل من الكائن الشرير الذي يرهقه المرض، وإذا كان محتاجاً فهو أقل تعاسةٍ من حيث فقره، وإذا كان موصوماً بالعار، فلا يقع تحت وطأته مثل العبد البائس أمام الجريمة.

وبالتالي فإنَّ سعادة كلّ فرد تعتمد على تهذيب مزاجه، وتخلق الطبيعة كلّ من السعيد والتعيس، وهي الثقافة التي تعطي قيمةً لطبيعة التربة التي تشكلت، ويجعلها التعليم والتفكير مفيدة. ولكي يولد الإنسان سعيداً عليه أن يحصل من الطبيعة على جسمٍ سليم، وأعضاء تعمل بدقة، وعقلاً عادلاً، وقلباً تتشابه عواطفه ورغباته وتتطابق مع الظروف التي وضعها فيه مصيره. ومن هنا عملت الطبيعة كلّ شيء من أجله، عندما ضمّت إلى هذه الملكات قدراً من النشاط والطاقة كافيين لتمكينه من الحصول على تلك الأشياء التي جعلها موقفه وطريقته في التفكير ومزاجه مرغوبة. وقدّرت الطبيعة وجوده، عندما ملأت أوعيته الدموية بسائلٍ محموم، ومنحته خيالاً نشطاً للغاية، ورغبات متهورة للغاية بالحصول على أشياء مستحيلة أو غير مناسبة لظروفه أو التي لا يستطيع تحملها على الأقل من دون تلك الجهود المذهلة التي تعرض رفاهيته للخطر أو تقلق راحة المجتمع. والرجل الأكثر سعادةً بشكل عام هو الذي يمتلك عقلاً مسالماً، ويرغب فقط في الأشياء التي يمكنه الحصول عليها عن طريق العمل المناسب للحفاظ على نشاطه من دون إحداث صدمات عنيفة جداً أو مزعجة. والفيلسوف الذي تُشبع حاجاته بسهولة، والغريب عن الطموح، والمقتنع بالحلقة المحدودة لعدد قليل من الأصدقاء، هو بلا شك كائن تم تكوينه بسعادة أكثر من كونه فاتحاً طموحاً، ويختزل خياله الجشع اليأس من وجود عالم واحد فقط إلى تخريبه. ومن يولد سعيداً أو الذي تجعله الطبيعة عرضةً للتعديل بشكلٍ ملائم، ليس كائناً ضاراً للمجتمع، وما يزعج بشكلٍ عام هم البشر الذين ولدوا تعساء، فتجعلهم منظومتهم مضطربين، وغير راضين عن مصيرهم، ومخمورون بعواطفهم الفاسدة، ومفتونون بالمشاريع الصعبة، ويحرقون العالم ليجمعوا فوائد خيالية، ويخلقون منها سعادتهم. حيث يحتاج **الإسكندر** إلى تدمير الإمبراطوريات، وإغراق الدول بالدم، ودفن المدن في الرماد، وإبادة سكانها، لإرضاء هذا الشغف بالمجد الذي شكّل لنفسه عنه فكرةً خاطئة، إلا أنَّ خياله المتقد جداً تعطّش لها بلهفة، وبالنسبة **لديوجين** **Diogenes** ليس بحاجة سوى لجرة، وحرية الظهور بمظهرٍ غريب الأطوار، ولا يريد **سقراط** شيئاً سوى متعة تكوين تلاميذ للفضيلة.

وبذلك فإنَّ الإنسان من حيث منظومته كائناً تحركه الضرورة دائماً؛ لذلك يجب أن يرغب بها دائماً، وهذا هو السبب في السهولة الكبيرة في الحصول على الأشياء التي

يبحث عنها ويشبعها بسرعة. وللشعور بالسعادة، من الضروري بذل الجهود للحصول عليها، ولإيجاد مفاتن في التمتع بها، من الضروري أن تثير الرغبة بها عقبات، فيشعر الآن بالاشمئزاز من تلك الفوائد التي لم تكلفه سوى الآلام. وتوقع السعادة والعمل المطلوب للحصول عليها، والصور المتنوعة والمضاعفة التي يشكّلها له خياله، تزود دماغه بالحركة التي تناسبه، وهذا يعطي تنبيهاً لأعضائه، وينشط عضويته بأكملها، ويمارس ملكاته، ويشغل كلّ موارده، وبعبارة أخرى، يضعه ضمن نشاط مقبول، لا يمكن أن يعوضه عنه تمتعه بالسعادة بحد ذاتها. فالعمل هو العنصر الحقيقي للعقل البشري، وحالما يتوقف عن العمل، فإنّه يغرق في الكسل. ويمتلك عقله للسبب ذاته أفكاراً لتزويد معدته بالغذاء.[110]

وبالتالي فإنّ الدافع الذي تثيره الرغبة له بحد ذاته فائدةٌ عظيمة، والعقل هو ما يمارسه الجسد، ولولاه لما تمتع بالأغذية المقدمة إليه، والعطش هو ما يجعل لذة الشرب محببة للغاية. والحياة عبارة عن دائرة دائمة من الرغبات المتجددة والحاجات المشبعة، والراحة لا يتمتع بها إلا من يكدح، وهي مصدرُ التعب وسبب الحزن ونبع الرذيلة لمن ليس لديه ما يفعله. والمتعة المتواصلة لا تعني الاستمتاع بأيّ شيء؛ فالإنسان الذي ليس لديه ما يرغب فيه هو بالتأكيد أكثر تعاسةً من الذي يعاني.

ومن ثم يجب أن تثبت هذه التأملات المبنية على الخبرة للإنسان أنَّ الخير والشر يعتمدان على ماهية الأشياء. وأنَّ السعادة التي يجب الشعور بها لا يمكن أن تستمر. وأنَّ العمل ضروري لإقامة فواصل بين ملذاته، ويمتلك جسده سبباً لأن يمارس ما يشترك به مع الكائنات التي تحيط به، ويجب أن تكون لقلبه رغبات، ويمكن أن تمنحه المشكلة وحدها المذاق المناسب لرفاهيته، وهذا ما يلقي بظلاله على صورة الحياة البشرية. وبموجب قانون مصيره المحتوم، يضطر الإنسان إلى عدم الرضا عن حالته الحالية وبذل الجهود لتغييرها، والحسد المتبادل على تلك السعادة التي لا يتمتع بها أيّ فرد بشكلٍ كامل. وهكذا يحسدُ الفقير ثراء الغني، رغم أنَّ هذا الشخص غالباً ما يكون أكثر تعاسةً من جاره المحتاج، وهكذا ينظر الإنسان الغني بألمٍ إلى مزايا الفقير الذي يراه نشطاً ويتمتع بالصحة، وكثيراً ما يتأرجح حتى في حضن الفقر المدقع.

ولو كان الإنسان قانعاً تماماً، لما كان هناك أيّ نشاطٍ في العالم، ومن الضروري أن يرغب، ويتصرف، ويعمل، حتى يكون سعيداً، وهذا هو مسار الطبيعة، حيث تكمن

الحياة في العمل. ولا يمكن للمجتمعات البشرية أن تعيش إلا من خلال التبادل المستمر بين تلك الأشياء التي يضع الإنسان سعادته فيها. ويضطر الفقير للرغبة بالعمل حتى يتمكن من الحصول على ما يعرف أنَّه ضروري للحفاظ على وجوده. والحاجات الأساسية التي تمنحها الطبيعة له هي: أن يغذي نفسه ويكسوها، ويأويها، ويُكثر من جنسه؛ فهل استوفى هذه؟ ويضطر بسرعة إلى خلق أخرى جديدة تماماً أو بدلاً عنها، ولا يصقل خياله بموجب الأولى، بل يسعى لتنويعها، ويكون على استعداد لمنحها نكهةً طازجة ليصل إلى البذخ، وعندما يتجاوز دائرة الحاجات بأكملها، وعندما يستنفد تماماً مركباتها، يصيبه الاشمئزاز. وباستغنائه عن العمل، يكدّس جسده الخلائط، ويُحرم من الرغبات، ويشعر قلبه بالضعف، ويُحرم من النشاط، ويضطر إلى تقسيم ثرواته مع كائنات أكثر نشاطاً، وأكثر كدحاً منه؛ وهذه باتباعها لمصالحها الخاصة، تأخذ على عاتقها مهمة العمل لمصلحته والحصول على وسائل لإشباع رغباته، وخدمة نزواته لإزالة الكسل الذي يرهقه. ومن ثم، فإنَّ الغني العظيم هو الذي يثير طاقات ونشاط وصناعة المحتاجين، وهؤلاء يعملون لتحقيق رفاهيتهم الخاصة من خلال العمل من أجل الآخرين: وبالتالي فإنَّ الرغبة في تحسين حالته تجعل الإنسان ضرورياً لأخيه الإنسان، وهكذا تكون الحاجات المتجددة دائماً، وغير الكافية، مبادئَ للحياة، والنشاط، ومصدراً للصحة، وأساساً للمجتمع. ولو أنَّ كلّ فرد فكر في تلبية متطلباته الخاصة، لما كان هناك سبباً لاجتماعهم في المجتمع، ولكن حاجاته ورغباته ونزواته تضعه في حالة من الاعتماد على الآخرين، وهذه هي الأسباب التي تجعل كلّ فرد ملزم من أجل تعزيز مصلحته الخاصة بأن يفيد أولئك الذين لديهم القدرة على شراء الأشياء التي لا يمتلكها. والأمة ليست أكثر من اتحاد عدد كبير من الأفراد المرتبطين بعضهم البعض من خلال المعاملة بالمثل فيما يتعلق بحاجاتهم أو رغبتهم في اللذة المتبادلة، وأسعد إنسان هو من لديه أقل حاجات، وعدد هائل من الوسائل لإشباعها.[111]

إنَّ تطور الحاجات عند أفراد الجنس البشري، وكذلك في المجتمع السياسي، هو أمرٌ ضروريٌ للغاية، ويقوم على ماهية الإنسان، ويفترض أن يتم استبدال الحاجات الطبيعية بمجرد إشباعها بتلك التي يسميها حاجات خيالية أو وهمية، وتصبح هذه ضرورية لسعادته كالأولى. فالعرف الذي يسمح للأمريكي الأصلي بأن يمشي عارياً تماماً، يُلزم سكان أوروبا الأكثر تحضراً بأن يلبسوه، ويقنعه الفقير بملابس بسيطة للغاية تفيده في الشتاء

والصيف على حدٍ سواء، ويرغب الغني في الحصول على ملابس تناسب كلّ موسم، وسيختبر الألم إذا لم يشعر بالراحة في تغيير ملابسه مع كلّ اختلاف يعتري مناخه، ويكون تعيساً إذا لم تُظهر كلفة وتنوع زيه ثروته للجمهور المحيط به، وميزت رتبته، وأعلنت عن تفوقه. وبذلك تضاعف العادة حاجات الأثرياء، ومن ثم يصبح الغرور نفسه حاجة، مما يحرك آلاف السواعد التي تحرص كلّها على إشباع رغباتها، وباختصار، يوفر هذا الغرور ذاته للإنسان المضطر وسائل العيش على حساب جاره الفخم. ومن اعتاد على التباهي واعتاد على التفاخر بالرونق، تكون عاداته فخمة، وكلّما حُرم من شارات البذخ التي ربط بها فكرة السعادة، يجد نفسه تعيساً تماماً كالبائس الفقير الذي لا يمتلك ما يستر عورته. والأمم المتحضرة في يومنا هذا كانت متوحشة بالأصل وتتألف من قبائل ضالة، ومجرد مشردين كانوا مشغولين بالحرب والمطاردة، ومضطرين للبحث عن عيشٍ غير مستقر عن طريق الصيد في تلك الغابات، ومع مرور الوقت استقروا، وبدأوا في البداية بالعمل في الزراعة، ثم التجارة، وصقلوا تدريجياً حاجاتهم البدائية، ووسّعوا مجال عملهم، وولدوا ألف حاجة جديدة، وتصوّروا ألف وسيلة جديدة لإشباعها؛ وهذا هو التقدم الطبيعي والضروري للكائنات النشيطة التي لا تستطيع العيش بلا شعور، ولكي تكون سعيدة يجب أن تنوع إحساساتها بالضرورة.

وبقدر ما تتضاعف حاجات الإنسان، تصبح وسائل إشباعها أكثر صعوبة، ويضطر للاعتماد على عددٍ أكبر من أقرانه من المخلوقات، وتجبره مصلحته على إثارة نشاطهم ليلزمهم بالموافقة على آرائه، وبالتالي فهو مضطر لتزويدهم بتلك الأشياء التي يمكن أن يشعروا من خلالها بالإثارة. ولا يحتاج الهمجي إلا أن يمدّ يده ليجمع الثمار التي يجدها تكفي لتغذيته. ويتعين على المواطن الثري في مجتمعٍ مزدهر أن يضع أيادي عديدة للعمل على إنتاج طبق فخم والحصول على أطعمة غريبة تصبح ضرورية لإحياء شهيته الضعيفة أو لإطراء غروره المفرط. ومن هذا يتضح أنّه عندما تتضاعف حاجات الإنسان بالقدر ذاته، يضطر لزيادة وسائل إشباعها. وليس الغنى سوى معياراً للاتفاق، وبمساعدة منه يمكن للإنسان أن يجعل عدداً أكبر من أقرانه متفقين في إشباع رغباته، والتي يتم تهيئته من خلالها لدعوتهم من أجل مصالحهم الخاصة، وليشاركوه في ملذاته. ولكن ما الذي يفعله الغني في الواقع سوى أن يعلن للفقير أنّه يستطيع تزويده بوسائل العيش إذا قبِل أن يرضي

نفسه بإرادته؟ وماذا يفعل الإنسان في السلطة سوى أن يُظهر للآخرين أنَّه في وضع يوفر لهم به المتطلبات لإسعادهم؟ ويبدو أنَّ الملوك والنبلاء والأثرياء سعداء فقط لأنَّهم يمتلكون القدرة، ويتحكمون بالدوافع الكافية لتحديد عدد كبير من الأفراد ليشغلوا أنفسهم بإسعادهم.

وكلّما نظر الإنسان إلى الأشياء وزاد اقتناعاً بأنَّ آرائه الخاطئة هي المصدر الحقيقي لبؤسه، كلّما أوضح له ذلك أنَّ السعادة نادرة جداً لمجرد أن يربطها بأشياء محايدة أو عديمة الفائدة لرفاهيته أو التي تتحول بحدّ ذاتها إلى شرورٍ حقيقية عند الاستمتاع بها.

وبالتالي فإنَّ الثروات محايدة في حدّ ذاتها وتصبح بمجرد تطبيقها أشياءً مفيدة للإنسان أو تصبح مضرة لرفاهيته. والمال، عديم الفائدة بالنسبة للهمجي الذي لا يفهم قيمته، ويجمعه البخيل، (عديم الفائدة لهم) لئلا يبدده المبذر أو الشهواني الذي لا يستخدمه إلا لاجترار العيوب والندم. ولا تعني الملذات شيئاً للإنسان العاجز عن الشعور بها، وتصبح شراً حقيقياً عندما تشبّع بحرية كبيرة، وعندما تكون مدمّرة لصحته، وعندما تفسد اقتصاد عضويته، وعندما تجعله يتجاهل واجباته، وعندما تجعله وضيعاً في نظر الآخرين. وليست القوة شيئاً في حد ذاتها، ولا فائدة للإنسان منها إذا لم يستغلها لتعزيز سعادته: وتصبح مهلكة له بمجرد أن يسيء استخدامها، وتصبح بغيضة كلما استخدمها لجعل الآخرين بائسين. ولعدم تثقيفه بمصلحته الحقيقية، نادراً ما يكتشف الإنسان الذي يتمتع بكلّ الوسائل التي تجعله سعيداً تماماً، السر الذي يجعل هذه الوسائل خاضعة حقاً لسعادته. ومن هنا فإنَّ فن الاستمتاع هو أقل ما يمكن فهمه عند الآخرين، وكان لابدّ أن يتعلم الإنسان هذا الفن قبل أن يشرّع برغبته، في حين أنَّ الأرض مليئة بأفراد مشغولين فقط بالحصول على الوسائل من دون أن يكونوا على دراية بالغاية. ويرغب كلّ العالم في الثروة والسلطة، ومع ذلك فإنَّ قلة هم الذين تجعلهم هذه الأشياء سعداء حقاً.

ومن الطبيعي جداً عند الإنسان، ومن المعقول جداً، ومن الضروري للغاية، أن يرغب بتلك الأشياء التي يمكن أن تساهم في زيادة مجموع سعادته. فاللذة، والثروات، والسلطة، أشياءٌ تستحق أن يطمح إليها، وأن يبذل جهوداً كبيرة لأجلها، عندما يتعلم كيف يستخدمها بطريقة تجعل وجوده أكثر قبولاً. ومن المستحيل لوم من يرغب بها أو ازدراء من يأمر بها، أو كره من يمتلكها، إلا عندما يستخدم للحصول عليها وسائل بغيضة أو

عند حصوله عليها يجعل استخدامها مهلكاً، وضاراً له، ومؤذياً للآخرين. دعه يتمنى السلطة، ويسعى وراء العظمة، ودعه يطمح في السمعة، إن تمكّن من الحصول عليها من دون أن يقوم باجترارها على حساب راحته أو على حساب الكائنات التي يعيش معها، ودعه يرغب بالثروة، وعندما يعرف كيف يستخدمها يفيد ذاته فعلاً، ويفيد حقاً الآخرين، ولكن لا تسمح له أبداً باستخدام تلك الوسائل للحصول على تلك التي قد يضطر بها إلى لوم نفسه، أو التي قد تجذب إليه كراهية جماعاته. ودعه يتذكر دائماً أنَّ سعادته القوية يجب أن ترتكز على احترامه الخاص وعلى المزايا التي يجنيها للآخرين، ومن بين كلّ الأشياء التي قد يشير إليها طموحه في البداية، ويتعذر تنفيذها أكثر بالنسبة لكائن يعيش في المجتمع، هي تلك التي يحاول بها إسعادِ نفسه بشكلٍ حصري.

الفصل السادس عشر
أخطاء الإنسان، وفيما يشكل سعادته، ومصدر شرّه الحقيقي - العلاجات التي يمكن تطبيقها

لا يمنع العقل بأيِّ حال من الأحوال الإنسان من تكوين رغبات رحبة، ويكون الطموح عاطفة مفيدة لأبناء جنسه عندما يكون هدفه إسعاد عرقه. وعندما ترغب العقول العظيمة بالعمل في مجالٍ واسع، وينشر العباقرة الأقوياء والمثقفين والصالحين تأثيرهم الحميد على نطاقٍ كبير، يتوجب عليهم بالضرورة أن يحققوا السعادة لأعداد كبيرة من أجل تعزيز سعادتهم. في حين يفشل عدد من الأمراء في الاستمتاع بالسعادة الحقيقية، لمجرد أنَّ نفوسهم الضعيفة والضيقة مجبرة على العمل في مجالٍ واسع للغاية بحسب طاقاتهم، ومن ثم تتلاشى الأمم على نحوٍ متكرر في البؤس بسبب تراخي رؤسائها وكسلهم وعجزهم، وغالباً ما تخضع لأسياد لا يأخذون بالحسبان منفعتهم الذهنية إلا لتعزيز سعادتهم اللحظية، وكذلك تعزيز سعادة رعاياهم البائسين. وتكون العقول الأخرى، العنيفة جداً، والثائرة جداً، والنشيطة جداً، معذبة بسبب تقييدها في مجالٍ ضيق، ويصبح تعصبها الذي هو في غير محله كارثة للجنس البشري.[112] وعلى سبيل المثال: كان **الإسكندر** ملكاً، وكان مفسداً في الأرض، وكان أيضاً مستاءً من حالته، كالمستبد الكسول الذي خلعه عن عرشه. - لم تكن أنفس أيٍّ منهما متناسبة بأيِّ حال من الأحوال مع مجال عملهما.

ولن تكون سعادة الإنسان سوى نتيجة للانسجام القائم بين رغباته وظروفه. فالسلطة المطلقة بالنسبة لمن لا يعرف كيف يطبقها لصالح مواطنيه ليست شيئاً، وإذا جعلته تعيساً فهي شرٌّ حقيقي. وإذا تسببت في سوء حظ قسم من الجنس البشري، فهي إساءةٌ مقيتة. وعادةً ما يكون الأمراء الأقوياء غرباء عن السعادة، وعادةً ما يكون رعاياهم سيئوا الحظ جداً لمجرد أنَّهم يمتلكون أولاً جميع الوسائل التي تجعلهم سعداء من دون منحهم

أيّ نشاط، أو لأنَّ المعرفة الوحيدة لديهم هي الإساءة لهم. وسيكون الإنسان الحكيم المتربع على العرش أكثر الناس سعادةً، والملك هو الإنسان الذي لا يمكن بسلطته أيّ كان مداها، أن يحصل من أتفه رعاياه على أعضاءٍ أخرى وأنماطٍ أخرى من المشاعر، وإذا كانت لديه ميزة عليهم، فهي بسبب عظمة، وتنوع، وتعدد الأشياء التي يمكن أن يشغل نفسه بها، وكونها تمنح عقله نشاطاً دائماً، يمكن أن تمنعه من الاضمحلال والخلود إلى الكسل إذا ما كان عقله فاضلاً ورحباً، ويجد طموحه دائماً ما يغذيه عند تأمله في السلطة التي يمتلكها ليوحد عن طريق الرقة واللطف إرادة رعاياه مع إرادته، ومن مصلحتهم الحفاظ عليه، ليكون جديراً بميولهم، وإثارة احترام الغرباء، وانتزاع المباركات من جميع الأمم. وهذه هي الفتوحات التي يقترحها العقل على كلّ أولئك الذين يُقدّر لهم أن يحكموا مصير الإمبراطوريات:

هم رائعون بما يكفي لإرضاء الخيال الأكثر اتقاداً، وإرضاء الطموح الأكثر رحابة. فالملوك هم أسعد البشر فقط لأنَّ لديهم القدرة على إسعاد عدد كبير من البشر الآخرين، وبالتالي مضاعفة أسباب المحتوى الشرعي في أنفسهم.

ويشارك في مزايا السلطة السيادية كلّ أولئك الذين يشاركوا في حكم الدول. ومن ثم فإنَّ العظمة والرتبة والسمعة مرغوبة عند كلّ من هم على دراية بجميع الوسائل التي تجعلهم خاضعين لسعادتهم الخاصة، وهي عديمة الجدوى بالنسبة لأولئك البشر العاديين الذين ليس لديهم الطاقة ولا القدرة على استخدامها بطريقة مفيدة لأنفسهم، وهي بغيضة عندما يحصل عليها إنسان يساوي بين سعادته ورفاهية المجتمع، ويخطأ هذا المجتمع ذاته في كلّ مرة يحترم فيها بشراً يستخدمون القوة لتدميره فحسب، ولا يجوز أبداً الموافقة على ممارستهم وإن حصل منهم على فوائد جمة.

ولا فائدة من الثروات بالنسبة للبخيل الذي ليس سوى سجّانٌ بائس لها، وهي مضرّة للمنغمس فيها، ولا تجلب لهما سوى العيوب، والاشمئزاز، والتخمة، ويمكن أن تقدم في يد الإنسان الصادق، وسائل لا حصر لها لزيادة مجموع سعادته. ولكن قبل أن يشتهي الإنسان الثروة، من اللائق أن يعرف كيف يستخدمها. فالمال مجرد ممثل للسعادة، وللاستمتاع به يجب أن يُسعد الآخرين، وهذا هو الواقع. فالمال، بحسب ميثاق الإنسان،

يدرّ له كلّ الفوائد التي يرغب فيها، وهناك شيئاً واحد فقط لن يحصل عليه، وهو معرفة كيفية توظيفه بشكلٍ صحيح؛ لأنَّ حصول الإنسان على المال من دون معرفة السر الحقيقي في كيفية الاستمتاع به، كحيازته مفتاح قصرٍ مليء بالسلع ومُنع من دخوله، ولكونه مسرفاً إلى حدّ التبذير، يجب أن يلقي مفتاحه في النهر، ولكونه يستغله بشكلٍ سيء؛ فسيجعله فقط وسيلةً لإيذاء نفسه. وعندما تمنح أكبر قدر من الكنوز لإنسان مثقف فلن ينغمس بها، وإذاكان لديه عقل رحب ونبيل، فسوف يوسّع نطاق كرمه، ويستحق المودة عنها من أكبر عدد من أقرانه البشر، ويجتذب محبة وتكريم كلّ من حوله. وسيكبح نفسه عن ملذاته حتى يتمكن من التمتع بها حقاً؛ وسيعرف أنَّ المال لا يمكنه إعادة بناء عقل أنهكته المتعة، وأضعفه الإفراط، ولا يمكن أن ينشط جسداً أوهنه الفجور، ويصبح من الآن فصاعدًا عاجزاً عن إعالته، إلا لضرورة الحرمان، وسيعرف أنَّ فجور الشهوة يخنق اللذة من أساسها، وأنَّ كلّ كنوز العالم لا يمكن أن تجدد حواسه.

ويتضح من هذا أنَّه ليس هناك ما هو أكثر تفاهةً من تصريحات فلسفة قائمة ضد الرغبة في السلطة، والسعي وراء العظمة، واكتساب الثروات، والتمتع باللذة. — تكون هذه الأشياء مرغوبة للإنسان، عندما تسمح له حالته بأن يطمح بها، أو كلما اكتسب المعرفة بتحويلها إلى منفعتهِ الحقيقية، ولا يمكن للعقل أن يلومه أو يزدريه، وعندما يحصل عليها لا يضر بمصلحة أحد، وسيقدّره زملاؤه عندما يستخدم قوتها في تأمين سعادته وسعادة أقرانه. فاللذة هي المنفعة، ومن ماهية الإنسان أن يحبها، وتكون معقولة عندما تجعل وجوده ذو قيمة فعلية له، وعندما لا تكون عواقبها مفجعةً للآخرين. والثروات رموزاً للغالبية العظمى من فوائد هذه الحياة، وتصبح حقيقة في أيدي الإنسان الذي لديه دليلٌ على تطبيقها العادل. وتكون السلطة من أعظم الفوائد كلّها عندما يتلقى الذي أودعها من الطبيعة عقلاً نبيلاً، ورفيعاً وخيّراً وحيوياً بما يكفي، لتمكينه من بسط نفوذ سعادته على أممٍ بأكملها، ويضعه، من خلال هذه الوسائل في حالةٍ من الاعتماد الشرعي على إرادته؛ فلا يكتسب الإنسان حق قيادة البشر إلا عندما يجعلهم سعداء.

ولا يمكن أن يؤسس حق الإنسان على أخيه الإنسان إلا على السعادة الحقيقية التي يؤمنها له. أو يعطيه سبباً للأمل الذي سيوفره له، وإلا ستكون السلطة التي يمارسها من دون هذا، هي العنف، والاغتصاب، والاستبداد الواضح، وبناءً على قدرته على إسعاد

نفسه فحسب، تبني السلطة الشرعية هيكلها. ولا يستمد أحد من الطبيعة الحق في أن يهيمن على الآخرين، بل يُمنح طواعية لمن يتوقع منهم مصلحته. والحكومة هي حق السيطرة الممنوح للملك فقط لصالح أولئك الذين يحكمهم. وذو السيادة هم المدافعون عن الأشخاص، وأوصياء على الممتلكات، وحماة لحرية رعاياهم: وبهذا الشرط وحده يمكن الموافقة على الطاعة، ولن تكون الحكومة أفضل من السارق إن استفادت من السلطات التي تخولها لجعل المجتمع بائساً. وتتأسس إمبراطورية الدين على الرأي الذي يتمتع بموجبه الإنسان بقدرته على إسعاد الأمم، وتكون الآلهة أشباحٌ رهيبة إن جعلت الإنسان تعيساً.[113] ولا يمكن أن تكون الحكومة والدين مؤسستان معقولتان إلا عندما يسهمان على حدّ سواء في سعادة الإنسان الذي سوف يكون أحمقاً إن خضع لنيرٍ لم ينتج عنه سوى الشر، وسيكون في مرتبة الظلم إن أجبره على التنازل عن حقوقه، من دون بعض المزايا المقابلة.

ومن هنا تقوم السلطة التي يمارسها الأب على أسرته على المزايا التي يفترض أن يجنيها لها فقط. ولا يكون للرتبة في المجتمع السياسي أساسها إلا من حيث المنفعة الحقيقية أو الوهمية لبعض المواطنين، والتي يرغب الآخرون بسببها بتمييزهم واحترامهم وطاعتهم. ويكتسب الأغنياء حقوقاً على الفقراء، لمجرد الرفاهية التي يمكنهم الحصول عليها. وتصبح العبقرية والمواهب والعلم والفنون من حق الإنسان، لمجرد ما ينجم عنها من فائدة لهم، وما تمنحه لهم من بهجة، وللمزايا التي يجنيها المجتمع منها. وباختصار، إنَّ ما يعتز به الإنسان هو توقع السعادة وصورتها؛ لذلك يقدرها ويعشقها من دون توقف. وقد تستغله بسهولة الآلهة والملوك، والأغنياء والعظماء، وقد يبهرونه، ويرهبونه، لكنهم لن يتمكنوا أبداً من الحصول على الخضوع الطوعي لقلبه الذي يستطيع أن يمنحهم وحده حقوقاً مشروعة، ومن دون جعله يجني فوائد حقيقية ويُظهر الفضيلة. فالمنفعة ليست سوى السعادة الحقيقية. ولكونها مفيدة يجب أن تكون فاضلة، وكونها فاضلة يجب أن تجعل الآخرين سعداء.

وبذلك فإنَّ السعادة التي يستمدها الإنسان منهم، هي المعيارُ الثابت والضروري لمشاعره تجاه كائنات من جنسه، وللأشياء التي يرغب فيها، والآراء التي يعتنقها، والأفعال التي يقررها، وينخدع بتحيزاته في كلّ مرة يتوقف فيها عن الاستفادة من هذا المعيار لتنظيم

حكمه. ولن يخاطر أبداً بخداع نفسه عندما يفحص بدقة ما هي المنفعة الحقيقية التي يجنيها أبناء جنسه من الدين، ومن القوانين، ومن المؤسسات، والاختراعات والأعمال المختلفة للبشرية جمعاء.

وربما تغريه النظرة السطحية أحياناً، لكن الخبرة ستعيده - مساعدة التأمل- إلى العقل الذي لا يمكنه خداعه. وهذا يعلّمه أنَّ اللذة سعادة مؤقتة، وغالباً ما تتحول إلى شر. وأنَّ الشر مشكلة عابرة، وغالباً ما يصبح خيراً؛ فهو يجعله يفهم الطبيعة الحقيقية للأشياء، ويمكّنه من التنبؤ بالنتائج التي قد يتوقعها، ويجعله يميز بين الرغبات التي تسمح بإرضاء رفاهيته وتلك التي يجب أن يقاوم إغرائها. وباختصار، سيقنعه ذلك دائماً، أنَّ المصلحة الحقيقية للكائنات الذكية التي تحب السعادة وترغب في إسعاد وجودها، تتطلب منها اقتلاع كلّ تلك الأشباح، وإلغاء كلّ تلك الأفكار الوهمية، وتدمير كلّ تلك التحيزات التي تعيق سعادتها في هذا العالم.

وإذا استشار الخبرة، فسوف يدرك أنَّها من الأوهام والآراء التي يُنظر إليها على أنَّها مقدسة، ويجب عليه أن يبحث عن مصدر هذا العدد الكبير من الشرور التي تطغى على البشرية في كلّ مكان تقريباً. ونتيجة جهل الإنسان بالأسباب الطبيعية خلق الآلهة، وجعل الدجل تلك الآلهة مرعبة بالنسبة له، وطاردته هذه الأفكار المصيرية من دون أن تجعله أفضل، وجعلته يرتجف من دون أن يفيد نفسه أو الآخرين، وملأتْ عقله بالكائنات الخرافية، وعارضتْ بحد ذاتها تقدم عقله، ومنعته من السعي وراء سعادته. وجعلته مخاوفه عبداً لمن خدعوه بحجة تحقيق رفاهيته؛ فيرتكب الشر كلّما قالوا له إنَّ آلهته تطلب الجرائم، وعاش سيء الحظ؛ لأنَّهم جعلوه يؤمن أنَّ هذه الآلهة حكمت عليه بأن يكون تعيساً، وعبداً لتلك الآلهة، ولم يجرؤ أبداً على فك قيوده بنفسه؛ لأنَّ الكهنة البارعين لهؤلاء الآلهة أفهموه أنَّ الغباء، والتخلي عن العقل، وكسل العقل، ودناءة النفس، كانت الوسائل الأكيدة للحصول على السعادة الأبدية.

ومن هنا أعمّت التحيزات التي لا تقل خطورةُ الإنسان عن الطبيعة الحقيقية للحكومة، فالأمم تجهل الأسس الحقيقية للسلطة، ولا تجرؤ على طلب السعادة من أولئك الملوك المكلفين بجلب العناية لها، واعتقدت أنَّ ملوكها كانوا آلهة متنكرين، وحصلوا منذ ولادتهم على حق قيادة بقية البشر، وأنَّهم يستطيعون حسب رغبتهم التخلص من سعادة

الناس، وأنّهم ليسوا مسؤولين عن البؤس الذي أحدثوه. والنتيجة اللازمة عن هذه الآراء، هي تحول السياسة في كلّ مكان تقريباً إلى الفن المقدّر للتضحية بمصالح الكثيرين لنزوة الفرد أو لبعض الأوغاد المتميزين. وسجدت الأمم على الرغم من الشرور التي عانت منها أمام الأصنام التي صنعتها بأنفسها، واحترمت بحماقة أدوات بؤسها وخضعت لإرادتها الظالمة؛ فهدرت دمائها، واستنفدت كنوزها، وضحت بحياتها، لتزيد من طموح، وطمع، ونزوات لا تنتهي لهؤلاء البشر الذين ركعوا للرأي الراسخ، وانحنوا للرتبة، وخضعوا للّقب، والترف، والأبهة، والتباهي، وعلى المدى البعيد توقع ضحايا تحيزاتهم، عبثاً أنَّ رفاهيتهم في أيدي بشر هم أنفسهم تعساء نتيجة رذائلهم، وجعلهم إهمالهم للفضيلة غير قادرين على التمتع بالسعادة الحقيقية، ولم يكن لديهم سوى القليل من الميل ليشغلوا أنفسهم بازدهارها؛ فأهملت سعادتهم الجسدية والمعنوية بالقدر ذاته أو قُضِي عليها في ظل هؤلاء الزعماء.

وقد تُدرك الحماقة ذاتها في علم الأخلاق. حيث لم يجد الدين الذي تأسس على الجهل والخيال مرشداً أخلاقاً له في طبيعة الإنسان وفي علاقاته مع أقرانه، وفي تلك الواجبات التي تنبع بالضرورة من هذه العلاقات، وفضّل تأسيسها على علاقات خيالية، ادعى أنّها قائمة بينه وبين بعض القوى غير المرئية التي تخيلها من دون مبرر وجعلها تتكلم زوراً.(114)

وكانت هذه الآلهة غير المرئية التي يصورها الدين دائماً على أنّها طاغية غاضبة، وقيل إنّها تحكم مصير الإنسان - نماذج لسلوكه، وعندما كان يريد تقليد هؤلاء الآلهة المستبدين، وعندما كان يريد تكييف نفسه مع دروس مفسريهم، أصبح شريراً، وكان مخلوقاً غير قابل للانتماء أو كائناً عديم النفع أو مهووساً مضطرباً ومتعصباً ومتحمساً أيضاً. وكان هؤلاء وحدهم من استفاد من الدين، واستفادوا من الظلمة التي تورط فيها العقل البشري؛ حيث كانت الأمم تجهل الطبيعة، ولا تعرف شيئاً عن العقل ولا تفهم الحقيقة، ولم يكن لديها سوى دين قاتم خالٍ من أي فكرةٍ عن الأخلاق أو الفضيلة. وعندما ارتكب الإنسان الشر ضد أخيه الإنسان، اعتقد أنّه أساء إلى إلهه، لكنه آمن أيضاً أنّه غفر لنفسه بمجرد أن سجد له. وحالما قدم له هدايا باهظة الثمن، نال مصلحته من الكاهن. وهكذا، فإنَّ الدين، بصرف النظر عن منحه لأساس أكيد وطبيعي ومعروف للأخلاق، لم يبنيها سوى على أساسٍ غير ثابت، وجعلها تتألف من واجبات مثالية يستحيل فهمها بدقة. ماذا

قبل؟ أفسده أولاً، وانتهت كفاراته بإفساده. وهكذا عندما أراد الدين محاربة أهواء الإنسان الجامحة، حاول ذلك عبثاً وكان دائماً متعصباً ومحروماً من الخبرة، ولم يعرف شيئاً عن العلاجات الحقيقية، وكانت تلك التي طبقها مثيرةً للاشمئزاز، ومناسبة فقط لتمرد المرضى ضدهم، وتجاوزوها بما إنّها إلهية؛ لأنّها لم تُخلق للإنسان. وكانت غير فعالة؛ لأنّ الكائنات الخرافية لم يكن بإمكانها التأثير بأيّ شيء في تلك المشاعر الجوهرية التي تثيرها دوافع أكثر واقعية وأقوى، وتآمر كلّ شيء لتغذيتها في قلبه. ولم يكن من الممكن سماع صوت الدين أو الآلهة، في خضم اضطراب المجتمع، حيث صرخ الجميع في وجه الإنسان بأنّه لا يستطيع أن يسعد نفسه من دون أن يؤذي أخيه الإنسان، وجعل هذا الضجيج الباطل الفضيلة وحدها مكروهة بالنسبة له؛ لأنّهم كانوا دائماً يمثلونها على أنّها عدواً لسعادته – كلعنة الملذات البشرية. وبالتالي، فشل في مراقبة واجباته؛ لأنّ الدوافع الحقيقية لم تكن أبداً تحفزه على تقديم التضحية المطلوبة، وأصبح الحاضر يسود على المستقبل، والمرئي على غير المرئي، والمعروف على المجهول، وصار الإنسان شريراً؛ لأنّ كلّ شيء يعلمه أنّه يجب أن يكون كذلك حتى ينال السعادة.

وهكذا، فإنّ مجموع البؤس البشري لم يتضاءل أبداً، بل على العكس من ذلك، كان يتراكم إما بدينه أو حكومته أو تعليمه أو آرائه أو المؤسسات التي تبنّاها بهدف تحسين حالته. ولا يمكن تكرارها كثيراً، ومن الخطأ أن يجد الإنسان المصدر الحقيقي لتلك الشرور التي يعاني منها الجنس البشري، ولا تجعله الطبيعة تعيساً وبائساً، ولا يرغب إلهاً غاضباً في أن يعيش باكياً، ولا يجعله الفساد الموروث شريراً وبائساً، إنّما الخطأ فيما يُنسب إلى هذه الآثار المؤسفة.

ويمكن اعتبار الخير الملكي الذي سعى إليه كثيراً بعض الفلاسفة، وأعلن عنه الآخرون بنبرة شديدة، بمثابة كائن خرافي، كما كان ذلك الترياق العجيب الذي أراد بعض الأتباع نقله إلى البشرية كعلاجٍ شامل. وكلّ البشر يمرضون، وتصلهم عدوى الضلال منذ لحظة ولادتهم، لكن الأفراد يتأثرون بها بشكلٍ متفاوت، نتيجة منظومتهم الطبيعية وظروفهم الخاصة. وإذا كان هناك علاجٌ ملكي يمكن تطبيقه بشكلٍ عشوائي على أمراض الإنسان، فلا شك أنّ هناك علاجاً واحداً فقط، وهذا العلاج هو الحقيقة التي يجب أن يستمدها من الطبيعة.

وعلى مرأى من تلك الأخطاء التي تعمي العدد الأكبر من البشر - عن تلك الأوهام التي يُحكم على الإنسان أن يستمدها من حليب أمه، وبالنظر إلى تلك الرغبات، والنزعات التي يغضب بسببها على الدوام، والمشاعر التي تعذبه، والاستفسارات التي تقضي على راحته، والشرور المادية والمعنوية التي تهاجمه من كلّ حدب وصوب، سيميل المتأمل في البشرية إلى الاعتقاد بأنَّ السعادة لم تُصنع لهذا العالم، وأنَّ أيَّ جهدٍ لعلاج تلك العقول التي يتحد كلّ شيء لتسميمها، سيكون مشروعاً عديم الجدوى. وعندما يفكر الإنسان في تلك الخرافات العديدة التي تبقيه في حالةٍ من الذعر المستمر، وتفصله عن أخيه، وتجعله غير عقلاني، يرى الحكومات الاستبدادية العديدة التي تضطهده، ويفحص تلك القوانين المتعددة الطوائف والغامضة والمتناقضة التي تعذبه، والظلم الهائل الذي يئن تحت وطأته، وعندما يوجه عقله إلى الجهل البربري الذي يغرق فيه كلّ من على سطح الأرض تقريباً، وعندما يشهد تلك الجرائم الجسيمة التي تحطّ من قدر المجتمع وتجعله بغيضاً جداً بنظر كلّ فرد تقريباً، فإنَّه يواجه صعوبةً كبيرة في منع عقله من اعتناق الفكرة القائلة: إنَّ سوء الحظ يلحق فقط بالجنس البشري، وأنَّ هذا العالم مصنوعاً فقط لتجميع التعاسة، وأنَّ السعادة البشرية عبارة عن وهم أو على الأقل هدفاً سريع التبخر ويستحيل الإمساك به.

وهكذا فإنَّ البشر المؤمنين بالخرافات والضعفاء الذين يتغذون على الحزن، وينظرون من دون توقف إلى الطبيعة أو خالقها على أنَّهما غاضبين من الجنس البشري، يفترضون أنَّ الإنسان هو موضوع غضب السماء الدائم، ويزعجها برغباته، ويجعل من نفسه مجرماً بالسعي وراء سعادةٍ لم تُصنع له. وصدموا بملاحظة أنَّ تلك الأشياء التي يشتهيها بطرقٍ أكثر حيوية، ليست مؤهلة أبداً لإرضاء قلبه، وشجبوها باعتبارها رجسٌ شديد، وكأشياء تضر بمصلحته وبغيضة، وناصروه بتلك التي يجب أن يتجنبها تماماً، وسعوا إلى كبح جماح كلّ عواطفه، من دون أيّ تمييزٍ بين تلك التي هي أكثر نفعاً له والأكثر فائدةً لأولئك الذين يعيش معهم، وأرادوا أن يجعلوا الإنسان نفسه غير حساس - يجب أن يصبح عدوهم - أن ينفصل عن أقرانه - وأن يتخلى عن كلّ للذة - وأن يرفض السعادة، وباختصار، أن يكفّ عن كونه إنساناً، وأن يصبح غير طبيعي. بشرٌ! ألم يقولوا: "ولدتم لتكونوا تعساء، وقضى خالقُ وجودكم عليكم بالبلاء، فانصاعوا لآرائه واجعلوا أنفسكم

بائسين. وبمحاربة تلك الرغبات التي لا يكون هدفها السعادة، ونبذ تلك الملذات التي تحبونها بماهيتكم، لا تعلقوا أنفسكم بأيّ شيء في هذا العالم. وتحرروا من مجتمعٍ لا يعمل إلا على تأجيج مخيلتكم، وجعلكم تتنهدون أمام فوائد لا يجب أن تتمتعوا بها، حطموا مصدر نفوسكم. واقمعوا هذا النشاط الذي يسعى إلى تخصيص فترة لمعاناتكم، وألمكم، وذللوا أنفسكم، وتأوهوا. هذا هو الطريق الحقيقي لإسعادكم".

يا لهم من أطباء مكفوفين! وكم أخطأوا في اعتبار المرض حالة طبيعية للإنسان! ولم يروا أنَّ رغباته وأهوائه كانت أساسية له، وأنَّ دفاعه عن المحبة والرغبة في حرمانه من هذا النشاط الذي هو المبدأ الحيوي للمجتمع الذي يقول له أن يكره نفسه ويحتقرها، ويأخذ منه الدافع الأكثر جوهرية والذي يمكن أن يحثّه على الفضيلة. وهكذا، جعلهم الدين أكثر يأساً من خلال علاجاته الخارقة للطبيعة، بصرف النظر عن علاج الشرور التي زاد منها فحسب، فيمنحهم الثبات لتهدئة عواطفهم، ويجعلهم أكثر خطورةً وأكثر حقداً، ويحوّل ذلك إلى لعنةٍ أعطتها الطبيعة له للحفاظ عليه وعلى سعادته. ولا يصبح الإنسان أسعد بإخماد عواطفه، بل من خلال توجيهها نحو أشياء مفيدة، ويجب أن تكون بالضرورة مفيدة للآخرين، كونها مفيدة حقاً له.

وعلى الرغم من الأخطاء التي أعمّت الجنس البشري، ورغم إسراف مؤسسات الإنسان الدينية والسياسية، وبغض النظر عن الشكاوى والهمهمات إلا أنَّه يتنفس باستمرار أياً كان مصيره، ولا يزال هناك أفراد سعداء على الأرض. ويسعد الإنسان أحياناً أن يرى الملوك تحركهم العاطفة النبيلة لتغذية الأمم وإسعادها، ويصادف بين الحين والآخر **أنطونيوس، وتراجان، ويوليان، وألفريدAlfred، وهنري الرابعHenri IV**؛[115] ويلتقي بعقولٍ رفيعة تضع مجدها في تشجيع من يستحق، وتجعل سعادتها في التخفيف من الفقر، وتعتقد أنَّه من الشرف أن تمد يد العون للفضيلة المضطهدة. ويرى العبقرية منشغلة بالرغبة في إثارة إعجاب التابعين له عبر إفادتهم بما ينفع، والرضا بالاستمتاع بتلك السعادة التي يحصل عليها للآخرين.

ولا تعتقد أنَّ الإنسان الفقير نفسه مستبعداً من السعادة. ويلزم الاعتراف غالباً بما تجلبه له الرداءة والعوز من مزايا الترف والعظمة. ولا تكفّ نفس الإنسان المحتاج للعمل دائماً على تكوين رغبات، في حين يعاني الأغنياء والأقوياء في كثيرٍ من الأحيان من

الإحراج لعدم معرفتهم بما يتمنونه أو رغبتهم في أشياء يستحيل عليهم الحصول عليها.(116) ويعرف جسد الفقير الذي اعتاد العمل حلاوة الراحة، في حين تكون راحة الجسد هذه من أكثر ما يزعج من سئمَ كسله. حيث توفر الممارسة والتقشف لشخصٍ الحيوية والصحة والرضا، في حين أنَّ رعونة الآخر وكسله لا تمدّه إلا بالاشمئزاز والعجز. ويجعل العوز كلّ مصادر النفس تعمل وهو أمّ الصناعة. ومن حضنه تنبع العبقرية والمواهب والجدارة التي يبجلها الترف والترحال. وباختصار، تجد ضربات القدر في الفقير عصاً مرنة، تنحني دون أن تنكسر.

وبالتالي فإنَّ الطبيعة ليست زوجة أب لأكبر عدد من أطفالها. ومن وضعته الثروة في مكانٍ غامض، يجهل ذلك الطموح الذي يلتهم الحاشية. ولا يعرف شيئاً عن القلق الذي يحرم المتآمر من راحته، فهو غريبٌ عن ندم واشمئزاز وتعب الإنسان الذي اغتنى بغنائم الأمة ولا يعرف كيف يستفيد منها. وكلّما زاد جهد الجسد وكلّما استعاد الخيال ذاته، وتنوعت الأشياء التي يجري الإنسان وراء تأجيجها، وأشبع تلك الأشياء التي جعلته يشمئز، كلّما تقيد الخيال والعوز بالضرورة؛ فهو لا يتلقى سوى القليل من الأفكار، ولا يعرف إلا القليل من الأشياء، ونتيجة لذلك ليس لديه سوى القليل من الرغبة، ويكتفي بهذا القليل، في حين تكفي الطبيعة بأكملها بصعوبة لإشباع الرغبات النهمة، وإرضاء الحاجات الخيالية للإنسان المنغمس في الإسراف، والذي تجاوز الحد واستنفد كلّ الأشياء المشتركة. ويتمتع في كثيرٍ من الأحيان أولئك الذين يعتبرون بحسب تحيزهم أتعس الناس، بمزايا أكثر واقعية وأعظم بكثير من أولئك الذين يضطهدونهم، ويحتقرونهم، ولكنهم غالباً ما يرتدّون مع ذلك إلى بؤس حسدهم. وتكون الرغبات المحدودة منفعةً حقيقية؛ فالإنسان الأكثر بخلاً، من حيث ثروته المتواضعة، لا يرغب إلا في الخبز، ويحصل عليه بعرق جبينه، وسيأكله بسرورٍ إن لم يجعله الظلم دائماً مُراً بالنسبة له. ونتيجة هذيان الحكومات، يصل أولئك إلى الوفرة من دون أن يكونوا أكثر سعادة، ويتناقشون مع المزارع حول الثمار التي تنتجها الأرض من عمل يديه. ويضحي الأمراء بسعادتهم الحقيقية، وكذلك سعادة دولهم بهذه المشاعر، وتلك النزوات التي تثبط عزيمة الناس، وتغرق مقاطعاتهم في البؤس، مما يجعل الملايين تعساء من دون أن يستحقوا ذلك. ويُلزم الطغاة رعاياهم بأن يلعنوا وجودهم

ويتخلوا عن العمل، ويأخذوا منهم الجرأة في الإكثار من الذرية التي لن تكون سعيدة مثل آبائها، ويجبرها الإفراط في قمعها أحياناً على التمرد والانتقام لأنفسها عن طريق الاعتداءات الشائنة من الظلم الذي انهال على رؤوسها المخلصة. وبإرجاعهم العوز إلى اليأس، يضطرهم الظلم إلى البحث عن مصادر إجرامية لمواجهة بؤسهم. وتؤدي الحكومة الظالمة إلى الإحباط، وتفرغ مضايقاتها البلد، وتبقي الأرض بلا حراثة. ومن هنا ولدت المجاعة المخيفة التي تؤدي إلى العدوى والطاعون، ويؤدي بؤس الشعب إلى ثورات، حيث تتوتر عقولهم بسبب المصائب، وتكون الإطاحة بالإمبراطورية هي النتيجة الضرورية. ومن ثم فإنَّ المادة والأخلاق مرتبطان دائماً أو بالأحرى هما الشيء ذاته.

وإن لم تؤدِ الأخلاق السيئة للزعماء دائماً إلى مثل هذه التأثيرات الملحوظة، فإنَّها تولد على الأقل الكسل الذي ينجم عنه امتلاء المجتمع بالمتسولين والمجرمين الذين لا يمكن للدين ولا لرهبة القوانين أن توقف مجرى شرهم، ولا شيء يمكن أن يحثّهم على البقاء متفرجين تعساء برفاهية لا يُسمح لهم بالمشاركة فيها. ويسعون إلى سعادةٍ عابرة على حساب حياتهم، متى أغلق الظلم عليهم طريق العمل والصناعة التي ستجعلهم مفيدين وصادقين.

دعنا لا نقول بعد ذلك: إنَّه لا يمكن لأيّ حكومة أن تجعل جميع رعاياها سعداء؛ فلا شك أنَّها لا تستطيع أن تطري على ذاتها بإرضاء روح الدعابة المتقلبة لبعض المواطنين العاطلين الذين يضطرون إلى إثارة مخيلتهم لتهدئة الاشمئزاز الناجم عن التراخي، لكنها تستطيع ويجب عليها أن تشغل نفسها بخدمة الحاجات الحقيقية للشعب. فالمجتمع يتمتع بكلّ سعادة عندما يتغذى عدد أكبر من أعضائه بشكلٍ كامل، ويلبسون ملابس لائقة، ويسكنون مسكناً مريحاً، وباختصار، عندما يتمكنون من دون مجهود يفوق قوتهم، من الحصول على مكانٍ لإشباع تلك الحاجات التي جعلتها الطبيعة ضرورية لوجودهم. وترتاح أذهانهم بمجرد اقتناعهم بأنَّه لا يمكن لأيّ قوة أن تنهب منهم ثمار صناعتهم، وأنَّهم يعملون من أجل أنفسهم. ونتيجة للحماقة البشرية، تضطر الأمم بأكملها إلى الكدّ المتواصل، وإهدار قوتها، وعرقها تحت أعبائها، وإغراق الأرض بدموعها، من أجل الحفاظ على الترف، وإرضاء الأهواء، ودعم فساد عددٍ قليل من الكائنات غير العاقلة، وبعض البشر عديمي الفائدة الذين أصبحت السعادة مستحيلة بالنسبة لهم؛ لأنَّ خيالهم الحائر لم يعد

يعرف أيّ حدود. وهكذا، فإنَّ الأخطاء الدينية والسياسية قد حوّلت الوجه الجميل للطبيعة إلى وادي من الدموع.

وبسبب الافتقار إلى عقل استشاري أو عدم معرفة قيمة الفضيلة، أو عدم معرفة مصالحهم الحقيقية، أو عدم التعرف على ما يشكّل سعادة حقيقية ووطيدة، كثيراً ما يكون الأمير والشعب، والغني والفقير، والكبير والصغير، بلا شك، بعيدين جداً عن المضمون، مع أنَّك لو ألقيت نظرة محايدة على الجنس البشري، لوجدت أنَّه يشتمل على أكبر عددٍ من الفوائد مقارنةً بالشرور. ولا يوجد إنسان سعيد تماماً إلا وخرج عن مسارها. ومع ذلك، فإنَّ أولئك الذين يقدمون أكثر الشكاوى مرارةً من صرامة مصيرهم، ينظرون في الوجود من خلال خيوط دقيقة في كثيرٍ من الأحيان، مما يمنعهم من الرغبة في التخلي عنه. وبعبارة أخرى، تخفف العادة عند الإنسان من عبء متاعبه، ويصبح الحزن المتذبذب متعةً حقيقية، ويكون كلّ عوز متعةً في اللحظة التي يُشبع فيها، ويكون التحرر من الكآبة وغياب المرض حالة من السعادة يتمتع بها في الخفاء ومن دون حتى أن يدركها، ويساعده الأمل، والذي نادراً ما يتخلى عنه تماماً، على دعم المزيد من الكوارث الأكثر قسوةً. ويسخر السجين من قيوده، ويعود القروي المرهق من الغناء إلى كوخه، وباختصار، إنَّ الإنسان الذي يصف نفسه بأنَّه الأكثر سوءاً، لا يرى الموت يقترب منه من دون فزع، وعلى الأقل إذا لم يشوه اليأس الطبيعة تماماً في عينيه. (117)

وطالما يرغب الإنسان في استمرار وجوده، فليس له الحق في أن يطلق على نفسه تعيساً بالكامل، وطالما أنَّ الأمل يدعمه، فلا يزال يتمتع بفائدةٍ كبيرة. وإذا كان الإنسان أكثر عدلاً في تقديم تقرير لنفسه عن ملذاته وآلامه، فإنَّه يعترف بأنَّ مجموع الأول يفوق بكثير مقدار الأخير، وسيدرك أنَّه لا يحتفظ بسجلٍ دقيق جداً عن الشر فحسب، بل صحيفة عن الخير لا يُعتمد عليها كثيراً: وسيعترف في الواقع، أنَّه لم يكن هناك سوى أيام قليلة بائسة تماماً طيلة فترة وجوده. وتقوده حاجاته الدورية إلى لذةِ إشباعها، ويتأثر عقله دائماً بألف شيء، ويفرحه التنوع، والتعدد، والتجديد، ويوقف أحزانه، ويحرف استياءه. فهل شروره الجسدية عنيفة؟ أليست طويلة الأمد، وتقوده بسرعة إلى غايته، وتقوده مآسي عقله إليها على قدم المساواة، في الوقت الذي ترفض فيه الطبيعة كلّ سعادة له، وتفتح له باباً يترك الحياة من خلاله، فهل يرفض دخوله؟ ألا يزال يجد متعةً في الوجود، وهل تُصاب

الأمم باليأس؟ هل هم بائسون تماما؟ حيث يلجؤون إلى السلاح، ويتعرضون لخطر الموت، ويبذلون أعنف الجهود لإنهاء معاناتهم.

وهكذا، عندما يرى الإنسان الكثير من أقرانه يتشبثون بالحياة، يجب أن يستنتج أنَّهم ليسوا تعساء كما يعتقد. فلا تدعه إذن يمعن في شرور الجنس البشري. ودعه يُسكت تلك الدعابة الكئيبة التي تقنعه بأنَّ هذه الشرور لا علاج لها، ودعه يقلص عدد أخطائه تدريجياً، وستختفي مصائبه بالنسبةِ ذاتها. ولا يستنتج أنَّه غير صالح؛ لأنَّ قلبه لا يكفّ عن تكوين رغبات جديدة. وبما أنَّ جسده يحتاج إلى الغذاء يومياً، فليستنتج أنَّه سليم، وأنَّه يؤدي وظائفه. وطالما كانت لديه رغبات، فلابدّ أن يكون الاستدلال الصحيح: أن يبقى عقله في حالة نشاط ضروري، وينبغي أيضاً أن يستخلص من كلّ هذا أنَّ العواطف ضرورية له، وأنَّها تشكّل سعادة الكائن الذي يشعر، ويفكر، ويتلقى الأفكار، ويجب عليه بالضرورة أن يحب ويرغب فيما يعده بنمط وجود مماثل لطاقاته الطبيعية. وطالما أنَّه موجود، وطالما أنَّ مصدر عقله يحافظ على مرونته، فإنَّ هذا العقل يرغب فيه، وما دام يرغب في ذلك، فإنَّه يختبر النشاط الذي هو ضروري له، وطالما أنَّه يعمل فهو حي. ومن هنا يمكن مقارنة حياة البشر بالنهر، حيث المياه تتعاقب وتدفع بعضها البعض إلى الأمام، وتتدفق من دون انقطاع، وفُرض على هذه المياه إلى أن تجري على سرير غير متساوٍ، وتواجه على فترات متقطعة تلك العقبات التي تمنع ركودها، ولا تتوقف أبداً عن التموج والارتداد والاندفاع إلى الأمام، حتى يتم إعادتها إلى محيط الطبيعة.

الفصل السابع عشر
تلك الأفكار الصحيحة أو التي تأسست على الطبيعة، هي العلاجات الوحيدة لشرور الإنسان - خلاصة - ختام الجزء الأول

يرتكب الإنسان خطأً كلّما توقف عن الاسترشاد بالخبرة. وتصبح أخطاءه أكثر خطورة وتفترض ثباتاً أكثر تحديداً عندما تكتسي بعباءة الدين، ولا يوافق عندها أبداً على العودة إلى دروب الحقيقة، فيعتقد أنّه مهتم بشدة بعدم رؤية ما يكمن وراءه بوضوح، ويتخيل أنَّ لديه ميزة أساسية تتمثل في عدم فهمه لنفسه، وأنَّ سعادته تقتضي أن يغفل عن الحقيقة. وإذا أخطأ غالبية فلاسفة الأخلاق في القلب البشري، وإذا خدعوا أنفسهم بأمراضه والعلاجات المناسبة لها، وإذا كانت العلاجات التي قدموها غير فعالة أو حتى خطيرة، فذلك لكونهم تخلوا عن الطبيعة، وقاوموا الخبرة، ولم يكن لديهم الثبات الكافي لاستشارة عقلهم؛ لأنَّهم لم يتبعوا بعد أن تخلوا عن أدلة حواسهم، سوى نزوات الخيال إما لانبهارهم بسبب التعصب أو لاضطرابهم بسبب الخوف، وفضّلوا الأوهام التي يحملونها على حقائق الطبيعة التي لا تخدع أبداً.

وبسبب عدم الشعور بأنَّ الكائن الذكي لا يمكن أن يغفل للحظة عن الحفاظ على ذاته – مصالحه الخاصة، سواء كانت حقيقية أو وهمية – رفاهيته الخاصة، سواء كانت دائمة أو مؤقتة، وباختصار، سعادته، سواء كانت صحيحة أو خاطئة، وبسبب عدم التفكير في أنَّ الرغبات والعواطف ضرورية وطبيعية، وأنَّ كلّها حركات ضرورية لعقل الإنسان، افترض أطباء العقل البشري أسباباً خارقة للطبيعة لضلالاته، ولم يطبقوا سوى العلاجات الموضعية على شروره، سواء كانت عديمة الفائدة أو خطيرة. وبالفعل، لم يقدموا له عند رغبته في كبت رغباته، ومحاربة نزواته، وإبادة عواطفه، سوى وصايا عقيمة، وغامضة ولا تعمل مباشرةً، ولم تؤثر هذه الدروس العبثية على أحد، بل قيدت في معظم

الحالات بعض البشر الفانين الذين جرهم خيالهم الهادئ تدريجياً إلى الشر، وأزالت الأهوال التي رافقتهم طمأنينة أولئك الأشخاص الذين كانوا معتدلين بطبيعتهم، من دون أن تكبح المزاج صعب المراس عند أولئك الذين ثملوا بسبب أهواءهم أو جرفهم تيار العادة. وباختصار، لم تشكلْ وعود الخرافات، بالإضافة إلى التهديدات التي تحملها، سوى الأصوليين والمتعصبين، والذين هم خطرين أو غير مفيدين للمجتمع من دون أن تجعل الإنسان فاضلاً حقاً؛ أي مفيداً لأقرانه من البشر. ولم يرَ هؤلاء التجريبيون الموجهين بالروتين الأعمى، أنَّ الإنسان طالما أنَّه موجود فهو مضطرّ للشعور، والرغبة، وامتلاك العواطف، وإشباعها بما يتناسب مع الطاقة التي أعطته إياها منظومته، ولم يدركوا أنَّ التربية غرست هذه الرغبات في قلبه، ورسختها العادة، وعززت نموها حكومته التي غالباً ما تكون شريرة، وأنَّ الرأي العام دمغها باستحسانه لها، وجعلتها الخبرة ضرورية لهم، وأنَّ إخبار البشر الذين تشكلوا على هذا النحو يدمر عواطفهم، ويغرقهم في اليأس أو يأمرهم بعلاجات مقززة للغاية لمزاجهم. وفي الحالة الفعلية للمجتمعات الثرية، لكي نقول للإنسان الذي يعرف بالخبرة أنَّ الثروات تجلب كلّ لذة، ويجب ألا يرغب فيها، وألا يبذل أيّ جهدٍ للحصول عليها، ويجب أن ينأى بنفسه عنها، ينبغي إقناعه بأن يجعل نفسه بائساً. ولكي نخبر إنساناً طموحاً بألا يرغب في العظمة والقوة التي يتضافر كلّ شيء للإشارة إليه على أنَّها ذروة السعادة، ينبغي أن نأمره بأن يقلب في ضربة واحدة النظام المعتاد لأفكاره، وكأنَّنا نتحدث إلى إنسان أصم. ولكي نخبر عاشق ذو مزاجٍ متهور أن يكبت شغفه بالشيء الذي يفتنه، ينبغي أن نجعله يفهم أنَّ عليه التخلي عن سعادته. ومعارضة الدين لمثل هذه المصالح المتعسرة يعني محاربة الحقائق من خلال التكهنات الوهمية.

وفي الواقع، إذا فُحصتْ الأشياء من دون حيازتها، فسنجد أنَّ الجزء الأكبر من التعاليم التي غرسها الدين أو التي تعطيها الأخلاق المتعصبة والخارقة للطبيعة للإنسان، سخيفة ويستحيل تطبيقها. وحرمان الإنسان من العاطفة يعني الرغبة في ألا يكون مخلوقاً بشرياً، وعندما ننصح فرد ذو خيال عنيف بتلطيف رغباته، كأنَّنا ننصحه بتغيير مزاجه — ونفترض تدفق دمه بشكلٍ أبطأ. وعندما تقول للإنسان أن يتخلى عن عاداته، يعني الرغبة بأن يوافق المواطن الذي اعتاد أن يرتدي ثيابه على أن يمشي عارياً تماماً، وسيكون من المفيد له والمرغوب أن يغير ملامح وجهه ويدمر تكوينه ويمحو خياله أو يغير مجرى سوائله،

وتأمره ألا تكون لديه عواطف مماثلة لطاقته الطبيعية، أو ينحي جانباً تلك التي حولتها العادة وظروفه إلى رغبات.[118] ولكن هذه هي العلاجات التي يتباهى بها ويطبقها عدد أكبر من فلاسفة الأخلاق على الفساد البشري. فهل من المدهش إذن أنَّها لا تقود إلى الاختيار المنشود أو ترجع الإنسان فقط إلى حالة من اليأس، بسبب الانفعال الناجم عن الصراع المستمر الذي تثيره بين أهواء قلبه، وبين رذائله وفضائله، وبين عاداته وتلك المخاوف الوهمية التي ترغب بها الخرافة للتغلب عليه في جميع الأوقات؟ إنَّ رذائل المجتمع، بمساعدة الأشياء التي يستفيد منها لإثارة رغبات الإنسان، والملذات، والثروات، والعظمة التي تعتبرها حكومته من بين العديد من الأشياء الجذابة والمغرية بالنسبة له، والميزة التي تقدمها التربية وفوائد القدوة والرأي العام تجعلها عزيز عليه، وتجذبه من جهة، في حين تلتمسها الأخلاق القائمة له من جهة أخرى من دون جدوى. وهكذا، يغرقه الدين في البؤس – ويخوض صراعاً عنيفاً مع قلبه من دون أن ينتصر أبداً عندما تسود بالصدفة على الكثير من القوى المتحدة، وتجعله تعيساً – وتدمر مصدر عقله تماماً.

ومن ثم فإنَّ العواطف هي بمثابة التوازن الحقيقي بين المشاعر، فلا تدعه يسعى إذن إلى تدميرها، بل دعه يحاول توجيهها، ودعه يوازن بين تلك الضارة وتلك التي تفيد المجتمع. والعقل هو ثمرة الخبرة التي تكون بمثابة فن لاختيار تلك المشاعر التي يجب أن يستمع إليها من أجل سعادته الخاصة. والتربية هي الفن الحقيقي للنشر، والمنهج الصحيح لتنمية المشاعر المفيدة في قلب الإنسان. والتشريع هو فن كبح جماح المشاعر الخطرة وإثارة تلك التي قد تؤدي إلى الرفاهية العامة. وليس الدين سوى فن غرس وتغذية ذهن الإنسان بتلك الكائنات الخرافية، وتلك الأوهام، والخدع، والشكوك، التي تنجم عنها العواطف المقدرة له وللآخرين، ومن خلال صموده بثبات ضد هذه، يمكنه أن يضع نفسه على طريق السعادة.[119]

ولا يمكن للعقل والأخلاق أن يؤثران في أيّ شيء على البشرية، إذا لم يشيران لكلّ فرد إلى أنَّ مصلحته الحقيقية مرتبطة بسلوكٍ مفيد للآخرين ومفيد لنفسه، ولكي يكون هذا السلوك مفيداً يجب أن يوجهه لصالح أولئك الضروريين لسعادته، ومن ثم من مصلحة البشرية، ومن أجل سعادة الجنس البشري، ولتقدير نفسه، ومن أجل حب أقرانه، ومن أجل المزايا التي تترتب على ذلك، يجب أن تؤجج التربية في الحياة المبكرة خيال المواطن،

وهذه هي الوسيلة الحقيقية للحصول على تلك النتائج السعيدة التي يجب أن تجعله العادة يتآلف معها، ويجب على الرأي العام أن يجعلها عزيزة على قلبه، ويجب على القدوة أن توقظ ملكاته باستمرار. ويجب أن تشجعه الحكومة، بمساعدة المكافآت على اتباع هذه الخطة، وتُقابل الجريمة بالعقاب، ويجب أن تردع أولئك الذين هم على استعداد لمقاطعتها. وهكذا فإنَّ الأمل في الرفاه الحقيقي، والخوف من الشر الحقيقي، ستكون مشاعر مناسبة لمواجهة أولئك الذين من شأنهم إلحاق الضرر بالمجتمع بسبب تهورهم، وستصبح هذه الأخيرة على الأقل نادرة جداً، وبدلاً من تغذية عقل الإنسان بتخمينات غير مفهومة، وبدلاً من استجابة أذنيه لكلمات خالية من المعنى، يتم التحدث إليه فقط عن الحقائق، ولا تظهر سوى تلك المصالح التي تنسجم مع الحقيقة.

وكثيراً ما يكون الإنسان شريراً جداً، لمجرد أنَّه يشعر على الأغلب أنَّ من مصلحته أن يكون كذلك، فليكن أكثر تنويراً وسعادةً، وسيصبح بالضرورة أفضل. وسوف تملأ الحكومة العادلة والإدارة اليقظة في الوقت الحاضر الدولة بالمواطنين الشرفاء، وستمدّهم بمبررات حاضرة، وحقيقية وملموسة ليكونوا فاضلين، وستثقفهم فيما يتعلق بواجباتهم، وسوف تتولى رعايتهم، وتغريهم بأن تضمن لهم سعادتهم، وسيكون لوعودها وتهديداتها المنفذة بأمانة من دون شك وزنٌ أكبر بكثير من تلك الخرافة التي لا تظهر أبداً برأيهم بخلاف الفوائد الوهمية، والعقوبات المخادعة التي سيشكك بها الإنسان المتشبث بالشر في كلّ مرة يجد أن من مصلحته الاستفسار عنها، وستخبره الدوافع الحالية عن قلبه أكثر من تلك البعيدة وغير المؤكدة في أحسن الأحوال. فالطالح والشرير يشتركان جداً على الأرض، فهما عنيدان جداً من حيث دروبهما الشريرة، ويتمسكان بشدة بمخالفاتهما لمجرد أنَّه لا يوجد سوى عدد قليل من الحكومات التي تجعل الإنسان يشعر بميزة كونه عادلاً وصادقاً وخيّراً، وعلى العكس من ذلك، من الصعب إيجاد أيّ مكان لا تغريه فيه المصالح الأقوى بارتكاب الجريمة من خلال تفضيل ميول منظومة شريرة لم يحاول شيء تصحيحها أو توجيهها نحو الفضيلة.[120] ومن المؤكد أنَّ المتوحش الذي لا يعرف في قومه قيمة المال لن يرتكب الجريمة، أما إذا ترعرع في مجتمع متحضر؛ فسوف يتعلم حالياً الرغبة به وسيبذل جهوداً للحصول عليه، وينتهي بسرقته إن كان بإمكانه ذلك من دون خطر، إن لم يتعلم

منذ البداية احترام ممتلكات الكائنات الموجودة في بيئته. والحالة ذاتها تماماً عند الهمجي والطفل؛ فإهمال المجتمع والقائمين على تربيتهما، هو الذي يجعل كلّ منهما شريراً. ويتعلم ابن النبيل منذ طفولته الرغبة بالسلطة، ويصبح عندما ينضج طموحاً، وإذا كانت لديه براعة التسلل لصالحه، فسيصبح شريراً وقد يفلت بموجب ذلك من العقاب. لذلك ليست الطبيعة هي التي تجعل الإنسان شريراً، بل إنَّ مؤسساته هي التي تحتّم عليه الرذيلة. ولا يمكن أن يصبح الرضيع الذي نشأ بين اللصوص بشكلٍ عام سوى مجرم، وإذا ترعرع على يد أناس شرفاء، فستكون لديه الفرصة بأن يصبح إنساناً فاضلاً. وإذا تتبعنا مصدر ذلك الجهل العميق الذي يتسم به الإنسان من حيث أخلاقه، إلى الدوافع التي يمكن أن تمنح القوة لإرادته، فسنعثر عليه في تلك الأفكار الخاطئة التي شكلها عددٌ أكبر من المتأملين لأنفسهم عن الطبيعة البشرية. لكن علم الأخلاق أصبح لغزاً يستحيل كشفه؛ لأنَّ الإنسان جعل نفسه ثنائياً، وميز عقله عن جسده، وأفترض أنَّه من طبيعة مختلفة عن جميع الكائنات وأنماط العمل المعروفة، وذو خصائص مميزة عن جميع الأجساد الأخرى؛ لأنَّه حرر هذا العقل من القوانين الفيزيائية، لكي يخضع لقوانين متقلبة مشتقة من مناطق خيالية. واستغل الميتافيزيقيون هذه الافتراضات التي لا مبرر لها، وباستغلالهم لها جعلوها مبهمة تماماً. ولم يدرك هؤلاء الأخلاقيون أنَّ هذه الحركة ضرورية للعقل وكذلك للجسد الحي، وأنَّ كلاهما لا يتحركان إلا بالمادة والأشياء المادية، وأنَّ حاجات كلّ منهما تتجدد بحد ذاتها من دون توقف، وأنَّ حاجات العقل والجسد مادية بحتة، وأنَّ العلاقة الأكثر حميمية والأكثر ثباتاً موجودة بين العقل والجسد، أو بالأحرى لم يسمحوا بأن يُنظر إلى الشيء ذاته من منظورٍ مختلف. ورفض المتعنتون بآرائهم الخارقة للطبيعة أو غير المفهومة أن يفتحوا أعينهم، ليقتنعوا أنَّ الجسد بمعاناته جعل العقل بائساً؛ وأنَّ العقل ابتلى الجسد وأفسده، وأنَّ كلّ من ملذات وعذابات العقل لها تأثيرٌ على الجسد، فإما أن تغمره بالكسل أو تمنحه نشاطاً، واختاروا بالأحرى تصديق بأنَّ العقل يستمد أفكاره، سواء كانت سارة أو كئيبة من مصادر خاصة به، في حين الحقيقة هي أنَّه لا يستمد أفكاره من الأشياء المادية التي تمس الأعضاء المادية فحسب، والتي لا يتم تحديدها بما يماثلها ولا تؤدي إلى الحزن، بل أيضاً من خلال الحالة الفعلية التي توجد فيها السوائل والمواد الصلبة بالجسم، سواء كانت دائمة أو مؤقتة. وباختصار، كرهوا الاعتراف

بأنَّ العقل سلبي بحت، ويخضع للتغييرات ذاتها التي تطرأ على الجسم، وأنَّه لا يتحرك إلا من خلال تدخله، ولا يعمل إلا بمساعدته، ويتلقى أحاسيسه، وتصوراته، ويشكّل أفكاره، ويستمدّ سعادته أو بؤسه من الأشياء المادية، وبوساطة الأعضاء التي يتكون منها الجسد، ومن دون علمه في كثيرٍ من الأحيان، وغالباً رغماً عنه.

ونتيجة لهذه الآراء المرتبطة بأنظمة عجيبة أو أنظمة اختُرعت لتبريرها، افترضوا أنَّ العقل البشري فاعلاً حراً؛ أي لديه القدرة على تحريك نفسه – ويتمتع بميزة العمل بشكلٍ مستقل عن أيّ مثيرٍ يتلقاه من الأشياء الخارجية عبر أعضاء الجسد، وبغض النظر عن هذه المثيرات التي يمكنه أن يقاومها أيضاً، ويتوجه بطاقات خاصة به، إلا أنَّه لا يختلف من حيث طبيعته عن جميع الكينونات الأخرى فحسب، بل لديه طريقة عمل منفصلة، وبعبارة أخرى، هدفاً معزولاً، ولا يخضع لتلك لسلسلة من الحركات المتصلة التي تتصل بها الأجسام مع بعضها البعض في الطبيعة التي تعمل أجزائها دائماً. – لم يكن هؤلاء المتأملون المغرمين بمفاهيمهم السامية على دراية بأنَّ تمييز النفس أو العقل عن الجسد وعن جميع الكينونات المعروفة، يجعل من المستحيل تكوين أيّ فكرة حقيقية عنه، ولم يرغبوا بإدراك التماثل الكامل الموجود بين طريقة عمل العقل وتلك التي يتأثر بها الجسد؛ فغضوا بصرهم عن المطابقة الضرورية والموجودة باستمرار بين العقل والجسد، ولم يرَوا أنَّه مثل الجسد يخضع لحركة الجذب والتنافر التي تُعزى إلى الصفات المتأصلة في تلك الجواهر المادية التي تشغل أعضاء الجسد، وأنَّ قوة إرادته، ونشاط عواطفه، والتجدد المستمر لرغباته، ليست أكثر من نتائج لهذا النشاط الذي تحدثه على الجسد أشياء مادية لا تقع تحت سيطرته، وأنَّ هذه الأشياء تجعله إما سعيداً أو بائساً، ونشطاً أو ضعيفاً، وقانعاً أو ساخطاً، رغمٌ عنه وعن كلّ الجهود التي يمكنه القيام بها لجعلها على خلاف ذلك؛ فاختاروا بالأحرى البحث في السماء عن قوى وهمية لتحريكها، ولم يحملوا للإنسان سوى مصالح خيالية، بحجة الحصول على سعادةٍ مثالية له، ومنعه من العمل من أجل سعادته الحقيقية التي حُجبت حقاً عن معرفته؛ فتركزت اهتماماته على السماء، وغابت عن بصره على الأرض، وأخفوا الحقيقة عنه، وادعوا بأنَّه سيكون سعيداً بفعل الأهوال والأشباح والكائنات الخرافية. وباختصار، لم يسترشد المخادع والأعمى عبر مسارات الحياة المرنة إلا من قبل بشر عميان مثلهما، حيث أضاع كلّ منهما الآخر في المتاهة.

وينتج من كلّ ما قيل حتى الآن بشكلٍ واضح أنَّ جميع أخطاء البشرية، مهما كانت طبيعتها، تنشأ من تخلي الإنسان عن العقل، وعن الخبرة، ورفض أدلة حواسه، واسترشاده بالخيال الذي غالباً ما يكون مخادعاً، وبالسلطة المريبة دائماً. ويخطئ الإنسان دائماً في تحقيق سعادته الحقيقية، طالما أنَّه يهمل دراسة الطبيعة، والتحقيق في قوانينها الثابتة، والبحث فيها وحدها عن علاجات لتلك الشرور التي تنتج عن أخطائه الحالية، وسيكون لغزاً لنفسه طالما أنَّه يعتقد بازدواجيته، وأنَّه متحرك بقوةٍ لا يمكن تصورها، وقوانين وطبيعة يجهلها. وستبقى قدراته الفكرية والأخلاقية مبهمة بالنسبة له إذا لم يتأملها بالعيون ذاتها كما يفعل مع صفاته الجسدية، ولا ينظر إليها على أنَّها تخضع في كلّ شيء للنظم ذاتها. ويكون نظام قدرته الحرة المزعومة بلا دعم، وتناقضه الخبرة في كلّ لحظة، وتثبت أنَّه لا يتوقف عن كونه تحت تأثير الضرورة في جميع أفعاله، وتزوده هذه الحقيقة، بصرف النظر عن كونها خطرة على الإنسان، وبعيداً عن كونها مدمرة لأخلاقه، بأساسها الحقيقي من خلال جعله يشعر بضرورة تلك العلاقات القائمة بين كائنات عاقلة متحدة في المجتمع، واجتمعت بهدف توحيد جهودها المشتركة من أجل سعادتها المتبادلة. وينتج من ضرورة هذه العلاقات ضرورة واجباته، وهذه تشير إليه بمشاعر الحب التي ينبغي أن يمنحها للسلوك الفاضل أو هذا النفور الذي ينبغي أن يشعر به تجاه ما هو شرير. ومن هنا، سيكون الأساس الحقيقي للإلزام الأخلاقي واضحاً، وهو ضروري فقط لاتخاذ وسائل تحقق الغاية التي يفترضها الإنسان لنفسه من خلال اتحاده مع مجتمعٍ يضطر فيه كلّ فرْد من أجل مصلحته الخاصة، وسعادته الخاصة، وأمنه الشخصي إلى إجراء وإظهار سلوك مناسب للحفاظ على المجتمع، والمساهمة من خلال أفعاله في إسعاد الجميع. وبعبارة أخرى، يترتب على الفعل ورد الفعل الضروريين للإرادة البشرية، وعلى الجذب والتنافر اللازمين لعقل الإنسان أن تنحط كلّ أخلاقه، وأن يحافظ انسجام إرادته، وتناغم أفعاله على المجتمع الذي يصبح بائساً بسبب عدم تناغمه؛ وينحل بسبب افتقاره إلى الوحدة.

ويمكن أن نستنتج مما قيل، إنَّ الأسماء التي حدد بموجبها الإنسان الأسباب الخفية المؤثرة على الطبيعة، ونتائجها المختلفة، لا تعتبر ضرورية جداً في ظل وجهات نظر مختلفة. وسوف نجد أنَّ ما يسميه النظام يمثل النتيجة اللازمة عن علل ومعلولات يرى فيها أو يعتقد أنَّه يرى فيها الصلة التامة، والرتابة الكاملة التي ترضيه ككل عندما يجدها متوافقة

مع وجوده. وسيتبين بالطريقة ذاتها أنَّ ما يسميه بالفوضى هو النتيجة اللازمة بالمثل عن علل ومعلولات، يعتقد أنَّها غير مواتية له أو غير مناسبة لوجوده. وحدد باسم (الذكاء) تلك العلل الضرورية التي تنجم عنها بالضرورة سلسلة من الأحداث التي يشكل منها مصطلح (النظام). وأطلق اسم (الإلهية) على تلك العلل الضرورية الخفية المؤثرة على الطبيعة التي يعمل كلّ شيء فيها وفقاً لقوانين ثابتة وضرورية، و(المصير أو القدر) على العلاقة الضرورية بين تلك العلل والمعلولات المجهولة التي يراها في العالم، و(الصدفة) على تلك المعلولات التي لا يمكنه التنبؤ بها أو التي يجهل العلاقة الضرورية بينها وبين عللها. وأخيراً، (الملكات الفكرية والأخلاقية)، وتلك المعلولات والتعديلات اللازمة للكينونة المنظمة، والتي يفترض أنَّها تتأثر بفاعلٍ لا يمكن تصوره، ويعتقد أنَّها متميز عن جسده، وذو طبيعة مختلفة تماماً عنه، حددها بكلمة (النفس). واعتقد في النتيجة أنَّ هذا الفاعل خالد، وغير قابل للفناء كالجسد.

وقد ظهر أنَّ المذهب العجيب عن الحياة الأخرى مبنياً على افتراضات لا مبرر له، ويتناقض مع التأمل. وثبُت أنَّ الفرضية ليست عديمة الفائدة لأخلاق الإنسان فحسب، بل أُعيد تصميمها لشل جهوده، وصرفه عن تتبع الطريق الصحيح نحو سعادته بنشاط، وملئه بنزواتٍ رومانسية، وإبهاجه بأفكارٍ تضر بطمأنينة؛ وباختصار، تهدئة يقظة المشرعين بإعفائهم من منح التعليم، والمؤسسات، وقوانين المجتمع، كلّ هذا الاهتمام الذي من واجبهم أن يمنحوه من أجل مصلحته. ولابدّ من الشعور بأنَّ السياسة استندت بشكلٍ غير مسؤول إلى آراء قلة قادرة على إرضاء تلك المشاعر التي يتآمر كلّ شيء على تأجيجها في قلب الإنسان الذي يتوقف عن رؤية المستقبل عندما يغويه الحاضر ويحثه. وقد ظهر أنَّ ازدراء الموت شعورٌ مفيد، ومصممٌ لإلهام عقل الإنسان ليقوض بشجاعة ما قد يكون مفيداً حقاً للمجتمع. وبعبارة أخرى، سيتضح مما سبق، ما هو المناسب لإيصال الإنسان إلى السعادة، وكذلك ما هي العقبات التي تعارض سعادته؟

دعونا إذن لا نُتهم بالهدم من دون إعادة البناء، وبمحاربة الضلال من دون استبداله بالحقيقة، وتقويض أسس الدين والأخلاق السليمة في آن واحد. والأخيرة ضرورية للإنسان وتتأسس على طبيعته، وواجباتها مؤكدة، ويجب أن تستمر ببقاء الجنس البشري،

وتفرض عليه التزامات؛ لأنَّ الفرد أو المجتمع لا يمكن أن يستمر من دونها، ويحصل أو يتمتع بالمزايا التي تجبره الطبيعة على الرغبة بها.

استمع إذن أيُّها الإنسان! لتلك الأخلاق التي تتأسس على الخبرة وعلى ضرورة الأشياء، ولا تعير أذنك لتلك الخرافات التي تقوم على الضلالات والخداع والنزوات المتقلبة للخيال المضطرب. ودعه يتبع دروس تلك الأخلاق البشرية والمعتدلة التي تقود الإنسان إلى الفضيلة من خلال طريق السعادة، وليصم الآذان الصاغية لصرخات الدين غير الفعالة التي تجعل الإنسان حقاً تعيساً، ولا يمكن أن تجعله يوقّر الفضيلة التي يرسمها بألوانٍ بغيضة ومكروهة، وباختصار، دعه يرى ما إذا كان العقل، من دون مساعدة المنافس الذي يحظر استخدامه، سيقوده بالتأكيد نحو تلك الغاية العظيمة التي هي بمثابة موضوع لكلّ آرائه وميله.

ولكن ما الفائدة التي يجنيها الجنس البشري بالفعل من تلك المفاهيم السامية والخارقة للطبيعة، والتي غذى بها اللاهوت البشر خلال عصورٍ عديدة؟ حيث كلّ تلك الأشباح التي استحضرها الجهل والخيال، وكلّ هذه الفرضيات الدقيقة وغير العقلانية التي تُستبعد منها الخبرة، وكلّ تلك الكلمات الخالية من المعنى التي تكتظ بها اللغات، وكلّ تلك الآمال الخيالية والأهوال المرعبة التي أدّت إلى العمل بناءً على إرادة الإنسان. فهل جعلت الإنسان أفضل، وأكثر تنويراً من حيث واجباته، وأكثر إخلاصاً في أدائها؟ وهل أدخلت هذه الأنظمة العجيبة أو تلك الاختراعات السفسطائية التي تم دعمها بها، القناعة لذهنه والعقل إلى سلوكه، والفضيلة إلى قلبه؟ واحسرتاه! لم تفعل كلّ هذه الأشياء شيئاً أكثر من ادخال الفهم البشري في الظلام الذي يصعب التراجع عنه، وزرعت في قلب الإنسان أخطر الأخطاء، والتي بالكاد يمكن التجرّد منها، وأنجبت تلك المشاعر المصيرية التي قد تكون المصدر الحقيقي لتلك الشرور التي ابتلي بها جنسه.

توقف إذن أيُّها الفاني! ودع نفسك تنزعج من الأشباح التي أوجدتها مخيلتك أو شعوذتك. واعتزل الأمل الغامض الخاص بك، وحرر نفسك من مخاوفك العارمة، وتتبعْ من دون قلق الروتين الضروري الذي حددته لك الطبيعة، وانثر الطريق بالزهور إذا سمح مصيرك بذلك، وأزل إن أمكنك الأشواك المتناثرة فوقه. ولا تحاول إقحام آرائك في

مستقبلٍ مبهم يكفي غموضه ليثبت لك أنَّه عديم الفائدة أو ضار للجبان. ومن ثم فكرْ في إسعاد نفسك في هذا الوجود الذي تعرفه. وإذا كنت ستحافظ على نفسك، فكن زاهداً ومعتدلاً ومعقولاً، وإذا كنت تسعى إلى عدم زعزعة وجودك، فلا تسرف في المتعة. وامتنع عن كلّ ما يمكن أن يؤذي نفسك أو الآخرين. وكن ذكياً حقاً؛ أي تعلم تقدير نفسك للحفاظ على كينونتك، وتحقيق تلك الغاية التي تفترضها لنفسك في كلّ لحظة. وكن فاضلاً، حتى تتمكن من إسعاد نفسك بقوة، وحتى تتمكن من الاستمتاع بالعواطف، وتأمين الاحترام، والمشاركة في مساعدة الكائنات التي جعلتها الطبيعة ضرورية لسعادتك الخاصة. حتى وإن كانت ظالمة، اجعلها جديرة بحبك واستحسانك، وينبغي أن تعشْ راضياً، ولا تعكر صفوك، ولن تؤدي نهاية مسيرتك المهنية إلى أن تذم الحياة التي ستُعفى من الندم. وسيكون لك الموت باباً لوجودٍ جديد، ونظاماً جديداً ستخضع فيه، كما أنت حالياً، لقوانين القدر الأبدية التي تقضي بأنَّه لكي تعيش سعيداً هنا في الأسفل، يتوجب عليك أن تُسعد الآخرين. تألم، إذن، لتنسحب برفقٍ من رحلتك، وحتى ترقد بسلام على ذلك الحضن الذي أنجبك.

يا لك من شرير سيء الحظ! والذين يتناقضون معك دائماً، لا تستطيع عضويتهم الفوضوية التوافق مع الطبيعة الخاصة بك، ولا مع طبيعة جماعاتك مهما كانت جرائمك، ومهما كانت مخاوفك من العقاب في حياة أخرى، ألم تعاقب على الأقل بشدة بالفعل على هذا؟ ألا تضر حماقتك وعاداتك المخزية وفجورك بصحتك؟ ألا يشعرك طول الحياة بالاشمئزاز، ويتعبك انغماسك بها؟ ألا يعاقبك الخمول على أهواءك المشبعة؟ ألم تستسلم قوتك ومثابرتك بالفعل للضعف والعجز والندم؟ ألا تحفر رذائلك كلّ يوم قبرك؟ وفي كلّ مرة تلطخ نفسك بالجريمة، هل تجرأت على العودة إلى نفسك من دون رعب؟ ألم تجد ندماً ورعباً وخزياً ثابتاً في قلبك؟ ألم تخفْ من تمحيص أخيك؟ ألم ترتجفْ وأنت وحدك من تلك الحقيقة الرهيبة للغاية بالنسبة لك، والتي يجب أن تكشف عن معاصيك المظلمة وتلقي الضوء على جرائمك الهائلة؟ فلا تخف بعد الآن من التخلي عن وجودك، فهذا على الأقل سيضع حداً لتلك الأهوال الكبيرة التي ألحقتها بنفسك، وسيخلصك الموت أيضاً، بإنقاذه للأرض من عبءٍ ثقيل من ألد أعدائك؛ أي أنت.

الفصل الثامن عشر
أصل أفكار الإنسان عن الألوهية

إذا امتلك الإنسان الشجاعة للعودة إلى مصدر تلك الآراء المنقوشة بعمقٍ في دماغه؛ وإذا قدّم لنفسه تفسيراً أميناً للأسباب التي تجعله يعتبر هذه الآراء مقدسة، وإذا قام بفحص قاعدة آماله وأساس مخاوفه بهدوء، فسيجد أنَّها تُحدث في كثير من الأحيان تلك الأشياء أو تلك الأفكار التي تحركه بقوة أكبر، وليس لها وجود حقيقي، وهي عبارة عن كلماتٍ خالية من المعنى أو أشباح يولدها خيال مضطرب ويغيرها الجهل. وعند تشتت انتباهه بسبب المشاعر المتضاربة التي تمنعه من الاستدلال المبرر أو استشارة الخبرة عند حكمه، تقع ملكاته الفكرية في فوضى أفكاره الحائرة.

فالكائن العاقل المصنف ضمن طبيعة يتحرك كلّ جزء فيها، يمتلك مشاعر مختلفة نتيجة التأثيرات المقبولة أو غير المرغوبة التي تفرض عليه أن يختبرها؛ فيجد نفسه نتيجة لذلك سعيداً أو بائساً، وبحسب نوعية الأحاسيس التي تثيرها فيه، سوف يحب أو يخاف أو يسعى وراء الأسباب الحقيقية أو المفترضة لمثل هذه التأثيرات الملحوظة التي تؤثر على عضويته. ولكن إذا كان جاهلاً أو يفتقر إلى الخبرة، فسينخدع بجد ذاته على نحوٍ متكرر بهذه الأسباب، ولن تكون لديه معرفةً حقيقية بطاقتها، ولا فكرة واضحةً عن أسلوب عملها، وبالتالي حتى تشكل الخبرة المتكررة حكمه، سيعتريه الاضطراب والارتياب. فالإنسان عبارة عن كائنٍ لا يجلب معه شيئاً إلى العالم سوى القدرة على الشعور بطريقةٍ حيوية إلى حدٍ ما بحسب منظومته الفردية، وليس لديه معرفةٌ بأيٍّ من الأسباب التي تؤثر عليه، وتكشف له ملكة شعوره تدريجياً صفاتها المختلفة، ويتعلم أن يحكم عليها، ويتعرّف مع الزمن على خصائصها، وينسب إليها الأفكار حسب الطريقة التي أثّرت فيه، وتكون هذه الأفكار صحيحة أو غير صحيحة، بحسب سلامة بنيته العضوية، وبما يتناسب مع مقدرة هذه الأعضاء في أن توفر له خبرة مؤكدة ومتكررة.

وتتميز حركات الإنسان الأولى عبر حاجاته؛ وهذا يعني أنَّ أول دافع يتلقاه هو الحفاظ على وجوده الذي لن يكون قادراً على الحفاظ عليه من دون توافق العديد من الأسباب المماثلة، وتتجلى هذه الحاجات عند الكائن العاقل بالوهن العام، وانقباض واضطراب عضويته، مما يمنحه وعياً بإحساسٍ مؤلم، ويستمر هذا التشويش ويزداد حتى يعيد السبب المناسب لإزالته التناغم الضروري جداً لوجود الهيكل البشري. لذلك فإنَّ الحاجة هي الشر الأول الذي يختبره الإنسان، ومع ذلك فهو ضروري للحفاظ على وجوده. - ولولا هذا الاضطراب الذي أصاب جسده، وألزمه بتقديم علاج له، لما شعر بضرورة المحافظة على الوجود الذي حصل عليه. وسيكون الإنسان من دون الحاجات آلة جامدة، وعلى غرار الخضار لن يكون قادراً مثله على الحفاظ على نفسه أو استخدام الوسائل اللازمة للحفاظ على كيانه. وتُنسب إلى حاجاته عواطفه ورغباته وممارسة قدراته الجسدية والفكرية، وهي حاجاته التي تلزمه بالتفكير والإرادة والعمل على إرضائها، أو بالأحرى وضع حدٍ للإحساس المؤلم الذي يثيره وجودها، ويمارس بحسب قدرته وطاقاته نشاط قوته الجسدية أو يُظهر قواه العقلية. ولكون حاجاته دائمة، فهو ملزمٌ بالعمل من دون كللٍ للحصول على أشياء تكفي لإشباعها. وبعبارة أخرى، تبقى طاقة الإنسان في حالةِ نشاطٍ مستمر بسبب حاجاته المضاعفة، وبمجرد أن يتوقف عن الحصول على الحاجات، ويخلد إلى الكسل - يصبح فاتراً - ينحدر إلى اللامبالاة - ويغرق في وهنٍ غير ملائم لمشاعره أو يضر بوجوده، وتستمر حالة الخمول هذه حتى تثير حاجات جديدة قواه الكامنة وتقضي على البلادة التي أصبح فريسة لها.

من هنا يتضح أنَّ الشر ضروري للإنسان؛ ومن دونه لن يكون في وضعٍ يسمح له بمعرفة ما يؤذيه، وتجنب وجوده أو السعي وراء مصلحته الخاصة، ولن يختلف في شيء عن الكائنات الجامدة وغير المنظمة، ولولا تلك الشرور الزائلة التي يسميها "حاجات"، لما اضطر إلى استدعاء قدراته وتحريك طاقاته، واختيار الخبرة، ومقارنة الأشياء والتمييز بينها، وفصل تلك التي لديها قدرة على إيذائه عن تلك التي تمتلك الوسائل التي تفيده. وبعبارة أخرى، يكون الإنسان من دون الشر جاهلاً بالخير، وسيتعرض باستمرار للهلاك. وسيكون أشبه بالرضيع الذي يفتقر إلى الخبرة، ويخاطر ليواجه هلاكه في كلّ خطوة يخطوها، ولن يكون قادراً على الحكم على أيّ شيء، ولن تكن لديه أفضلية، ولن تكن

لديه إرادة، وسيكون محروماً من العواطف والرغبة، ولن ينفعل بسبب الأشياء المثيرة جداً للاشمئزاز، ولن يبذل جهداً للتخلص منها. ولن تكون لديه محفزات للحب ولا دوافع للخوف من أيّ شيء، وسيكون آلياً جامداً – لم يعد إنساناً بعد الآن.

ولو لم يكن هناك وجود للشر في هذا العالم، لما حلم الإنسان أبداً بالألوهية. ولو لم تسمح له الطبيعة بسهولة بإشباع كلّ هذه الحاجات المتجددة، ولو لم تعطه شيئاً سوى أحاسيس مقبولة، لكانت أيامه قد جرت من دون انقطاع ضمن وحدة دائمة، ولن تكون لديه أبداً دوافع للبحث عن الأسباب غير المعروفة للأشياء. والتفكير مضنٍ؛ لذلك فإنّ الإنسان القنوع دائماً سيشغل نفسه بإشباع رغباته فقط، والاستمتاع بالحاضر، والشعور بتأثير الأشياء التي من شأنها أن تحذره دائماً من وجوده بطريقة لابدّ أن يستحسنها بالضرورة، ولن يرهب قلبه شيء، وسيكون كلّ شيء مشابهاً لوجوده، فلن يعرف الخوف أو يعاني من عدم الثقة، ولا يشعر بالقلق من المستقبل. وقد تكون هذه المشاعر ناجمةً فقط عن إحساس مزعج لابدّ أنّه أثر عليه مسبقاً أو قطع مسار سعادته من خلال بعثرة الانسجام في عضويته.

وبغض النظر عن تلك الحاجات التي يجددها الإنسان في كلّ لحظة، ويجد في كثيرٍ من الأحيان أنّه من المستحيل إرضائها، فإنّ كلّ فرد يختبر عدداً من الشرور: يعاني من قسوة الفصول، ويتألم من الشُح، ويُصاب بالطاعون، وتتلفه الحرب، ويقع ضحية المجاعة، ويُبتلى بمرضٍ، ويتباهى بألف حادث...الخ. وهذا هو السبب الذي يجعل كلّ البشر خائفين وغير واثقين بأنفسهم. وتحذّره المعرفة التي يمتلكها عن الألم من جميع العلل المجهولة؛ أي جميع العلل التي لم يلمس نتائجها بعد، وتجعله هذه الخبرة متهوراً أو إن كانت مفضلة، تجعله يرغب بالفطرة بكلّ تلك الأشياء التي يجهل ما قد يحدثه تأثيرها عليه من عواقب. ويواكب قلقه وخوفه مدى الفوضى التي تحدثها فيه هذه الأشياء التي تُقاس بندرتها؛ أيّ قلة خبرته بها، وحساسيته الطبيعية واتقاد خياله. وكلّما كان الإنسان أكثر جهلاً وأقل خبرةً، زاد تعرضه للخوف، والعزلة، وغموض الغابة، والصمت، وظلام الليل، وهدير الريح، والضوضاء المفاجئة المشوشة، وكلّها مواضيع تثير الرعب لكلّ من لم يعتد على هذه الأشياء. والجاهل عبارة عن طفل يذهله كلّ شيء، ولكن هذه المخاوف تختفي أو تنقص بما يتناسب مع خبرته إلى حدٍ ما بالتأثيرات الطبيعية، وتتوقف مخاوفه تماماً بمجرد أن يفهم

أو يعتقد أنّه يفهم أسباب ذلك الفعل، وعندما يعرف كيف يتجنب آثاره. ولكن إذا لم يستطع إدراك الأسباب التي تزعجه أو التي يعاني منها، وإذا لم يستطع أن يجد أيّ تفسيرٍ للاضطراب الذي يعاني منه، فسيزداد قلقه وتتضاعف مخاوفه، ويضلله خياله، ويعظم شره. ويرسم بطريقة غير منظمة هذه الأشياء المجهولة من رعبه، ثم يُجري مماثلة بينها وبين تلك الأشياء الرائعة التي يعرفها بالفعل، ويقترح لنفسه الوسائل التي عادةً ما يتخذها لتخفيف غضبه، ويستخدم إجراءات مماثلة لتخفيف الغضب ونزع سلاح قوة العلّة الخفية التي تولد قلقه ورعبه ومخاوفه. وبالتالي يجعله ضعفه مؤمناً بالخرافات نتيجةً جهله.

ويوجد عددٌ قليل جداً من البشر، حتى في أيامنا هذه، ممن درسوا الطبيعة بشكل كافٍ، هم على دراية تامة بالعلل المادية أو المعلولات التي يجب أن تنجم عنها بالضرورة. ولا شك أنَّ هذا الجهل كان أعظم بكثيرٍ في العصور الساحقة من العالم، عندما لم يكن العقل البشري الذي لازال في مهده، قد جمع تلك الخبرة وخطى تلك الخطوات نحو التحسين الذي يميز الحاضر عن الماضي. وعرف الهمج المشتتين مجرى الطبيعة إما بشكلٍ ناقص للغاية أو لم يعرفوها على الإطلاق؛ فالمجتمع وحده يتقن المعرفة البشرية التي لا تتطلب جهوداً مضاعفة فحسب، بل أيضاً جهوداً مشتركة لكشف أسرار الطبيعة. وهذا يؤكد أنَّ كلّ العلل الطبيعية كانت ألغازاً لأسلافنا الضالين، وكانت الطبيعة بأكملها لغزاً بالنسبة لهم، وكانت كلّ ظواهرها عجيبة، وكانت كلّ حادثة مصدر رعب للكائنات التي كانت محرومة من الخبرة، ويبدو أنَّ كلّ ما رأوه تقريباً كان غريباً وغير عادي ومخالفاً لفكرتهم عن نظام الأشياء.

ومن هنا لا يمكن أن نتفاجأ إذا رأينا البشر في يومنا هذا يرتجفون عند رؤية تلك الأشياء التي كانت في السابق تملأ آباءهم بالفزع. وكان الكسوف، والمذنبات، والنيازك في الأزمنة القديمة، موضوعات للرعب عند جميع سكان الأرض، وهذه نتائج طبيعية جداً في نظر الفيلسوف الرزين الذي أدرك تدريجياً أسبابها الحقيقية، ولم يعد له الحق في الذعر من الجزء الأكثر عدداً والأقل تعليماً من الأمم الحديثة. ويجد الناس في يومنا هذا، وكذلك أسلافهم الجهلة شيئاً عجيباً وخارقاً للطبيعة في كلّ تلك الأشياء التي لم تعتد عليها أعينهم أو في كلّ تلك العلل المجهولة التي تؤثر بقوةٍ ولا يكون في ذهنهم أيّ فكرة عن إمكانية أن يكون هناك فاعلين معروفين وقادرين عليها. ويرى الجاهل عجائب، وآيات، ومعجزات في

كلّ تلك الآثار المدهشة التي هم أنفسهم غير قادرين على تقديم تفسيرٍ مرضٍ لها، ولكلّ العلل التي تُحدثها ويعتقدون أنّها خارقة للطبيعة، ولكن هذا لا يعني شيئاً أكثر من أنّهم ليسوا على دراية بها أو أنّهم لم يشهدوا حتى الآن فاعلين طبيعيين ذو طاقات متماثلة لإحداث تأثيرات مدهشة للغاية كتلك التي أذهلت بصرهم.

وإلى جانب الظواهر العادية التي شهدتها الأمم من دون أن تكون مؤهلة لكشف عللها، عانت في الأزمنة البعيدة جداً عنا من مصائب، سواء كانت عامة أو محلية، مما ملأها بأقسى حالات القلق وأغرقها في هاويةٍ من الذعر. وتذكّر تقاليد وسجلّات جميع الأمم حتى في يومنا هذا بالأحداث الكئيبة، والكوارث المادية، والنوائب المروعة التي كان لها تأثيرٌ في إثارة الرعب عموماً عند أجدادنا. ولكن إن صمت التاريخ عن هذه الثورات الهائلة، ألن يكن تفكيرنا فيما يمرّ تحت أعيننا كافياً لإقناعنا بأنّ جميع أنحاء كوكبنا، إذا ما تتبعنا مجرى الأمور، ستكون بالضرورة مضطربة مرة أخرى ومتقلبة، ومتغيرة، وتفيض، وفي حالة من الاحتراق الهائل؟ حيث غمرت المياه قارات شاسعة، واستحوذت البحار التي تجاوزت حدودها على سواد الأرض، وتركت هذه المياه بعد انحسارها أدلةً دامغة على وجودها من خلال بقايا الأصداف البحرية، وهياكل عظمية لأسماك البحر، وما إلى ذلك مما يصادفه المُلاحظ اليقظ في كلّ خطوة في أحشاء تلك البلدان الخصبة التي نقطن فيها الآن. وانطلقت النيران الجوفية من تلقاء ذاتها عبر البراكين الأكثر رعباً، والتي أحدثت فوهاتها في كثيرٍ من الأحيان تدميراً من كلّ صوب. وبعبارة أخرى تنازعت العناصر غير المفككة في أزمنة مختلفة فيما بينها للسيطرة على كوكبنا، وهذا دليلٌ واضح على حقيقةِ تلك الأكوام الشاسعة من الحطام، وتلك الأطلال الهائلة المنتشرة على سطحه. وبالتالي، ماذا ينبغي أن تكون مخاوف الجنس البشري الذي اعتقد في تلك البلدان أنّه رأى الطبيعة بأكملها مسلحة ضد أمنه وتهدد مسكنه بالدمار؟ ولماذا كان لابدّ من أخذ قلق الناس على هذا النحو من دون عناية، وتصور أنّهم رأوا الطبيعة تعمل بشكلٍ سيئ من أجل فنائهم؟ ومن رأى العالم حقاً متلاشياً إلى ذرات عندما انفجرت الأرض فجأة، وكانت فوهتها الفاغرة مقبرةً لمدنٍ كبيرة، ومقاطعات هائلة، وأممٍ بأكملها؟ وما هي الأفكار التي تحطم البشر، وتملأهم بالتالي رعباً، وتشكل لهم السبب الخطير الذي استطاع أن يحدث هذه الآثار الممتدة؟ ولا شك أنّهم لم ينسبوا هذه المصائب المنشرة على نطاقٍ واسع إلى

الطبيعة التي لا يمكن أن يتذمروا من أنّها كانت الخالقة لها، والمتواطئة في الفوضى الذي تعرضت لها بحدّ ذاتها، ولم يروا أنَّ هذه الثورات الهائلة، وهذه الاضطرابات الساحقة، كانت نتيجةً ضرورية لقوانينها الثابتة، وأنّها ساهمت في النظام العام الذي بقيتْ فيه.(121)

وفي ظل هذه الظروف المذهلة، كانت تلك الأمم التي لا ترى على هذه الكرة الدنيوية، أسباباً قوية بما يكفي لإحداث الظواهر العملاقة التي ملأت عقولهم بالفزع، وجعلتْ أعينهم المتدفقة والمرتجفة تنظر نحو السماء، وافترضوا أنَّ هؤلاء الفاعلين المجهولين دمروا بعدائهم غير المبرر سعادتهم الأرضية ليبقوا بمفردهم.

وشكّلت البشرية أفكارها الأولى عن الإله في حقبة الجهل، وفي مرحلة الذعر والكوارث. ومن هنا يتّضح أنَّ أفكارها حول هذا الموضوع يُشتبه بأن تكون زائفة، وأنّها تكون محزنة دائماً. وبالفعل أيّاً كان الجزء الذي تقع عليه أعيننا ضمن كوكبنا، سواء كان ذلك على المناخ المتجمد في الشمال أو على المنطقة الجافة في الجنوب أو تحت المناطق الأكثر اعتدالاً، نرى في كلّ مكان أنَّ الناس عندما يهاجمهم سوء الحظ، يصنعون لأنفسهم آلهة قومية أو يتبنوا تلك التي أعطاها لهم غزاتهم، ويسجدون مرتعشين في ساعةِ الكارثة أمام هذه الكائنات، سواء التي خلقوها أو تبنّوها. وتُربط فكرة هؤلاء الفاعلين الأقوياء دائماً بفكرة الرعب، ولا يُنطق باسمهم أبداً من دون أن يتذكّر ذهن الإنسان مصائبه أو مصائب أبيه، ويرتعش الإنسان حالياً؛ لأنَّ أسلافه ارتعشوا منذ آلاف السنين. ويوقظ التفكير بالآلهة عند الإنسان دائماً الأفكار الأكثر إيلاماً؛ فإذا لجأ إلى مصدر مخاوفه الفعلية وإلى بداية تلك الانطباعات الكئيبة التي تنطبع من تلقاء ذاتها في ذهنه عندما ينطق اسمه، فسيجدها في الفيضانات، وفي الثورات، وفي تلك الكوارث الممتدة التي أهلكت في أزمنة مختلفة أقساماً كبيرة من الجنس البشري، وأرعبت تلك الكائنات البائسة التي نجت من دمار الأرض، وهؤلاء عندما نقلوا تقليد مثل هذه الأحداث المؤلمة إلى الأجيال القادمة، نقلوا لهم مخاوفهم وتلك الأفكار القاتمة التي شكّلتها لهم تخيلاتهم المحيرة، إلى جانب جهلهم الهمجي بالعلل الطبيعية التي تثير غضب آلهتهم المنزعجة.(122)

وإذا كانت آلهة الأمم قد ولّدت في حضن الذعر، فقد تكرر ذلك في حضن اليأس الذي شكّل فيه كلّ فرد القوة المجهولة التي صنعها لنفسه حصرياً. وكلّما كان جاهلاً بالعلل المادية، وغير ممارس لنمط تأثيرها، وغير معتاد على آثارها، وكلّما واجه مصيبةً فادحة أو

أيّ إحساسٍ مؤلم، وقع في حيرة من كيفية تفسيره. وأثارتْ الحركة التي كانت رغمٌ عنه في عضويته، أمراضه، ومتاعبه، وعواطفه، وقلقه، والتغييرات المؤلمة التي خضع لها هيكله من دون أن يتمكن من فهم العلل الحقيقية، والموت الطويل، والتي تُعد جانباً هائلاً جداً من كائنٍ ارتبط بقوة بالوجود، وكانت النتائج التي نظر إليها على أنّها خارقة للطبيعة أو تصورَ أنّها كانت مبغضة لطبيعته الفعلية، وأرجعها إلى علةٍ جبارة أفسدتْ كلّ جهوده، واستبعدته في كلّ لحظة. وهكذا جعله خياله بائساً بسبب تحمله للشرور التي وجد أنْ لا مفر منها، وشكّل له تلك الأشباح التي ارتعد أمامها نتيجة وعيه بضعفه. ثم سعى من خلال السجود، والتضحية، والصلوات، لنزع غضب هذه الكائنات الوهمية التي جلبها له خوفه، وتخيل عن جهالة أنّها سبب بؤسه الذي صوّر له خياله أنّه يهبه قوة تخفف من معاناته، وحين ذاك أبدع هذا الإنسان التعيس في خضم حزنه وسخط عقله ومعاناته من سوء الحظ، إلهه الوهمي.

ولا يحكم الإنسان أبداً على الأشياء التي يجهلها بل بوساطة تلك الأشياء التي تدخل في نطاق معرفته، وبالتالي يعتبر الإنسان نفسه على أنّه النموذج، وينسب إليه الإرادة والذكاء والتصميم والتحيزات والأهواء، وباختصار، صفات مماثلة لما لديه، ولكلّ تلك العلل المجهولة التي لمس نتائجها. وبمجرد أن تؤثر عليه علةٌ مرئية أو مفترضة بطريقةٍ مقبولة أو مواتية لوجوده، يخلص إلى أنّها خير ولها نيةٌ طيبة تجاهه، ويحكم بالعكس على كلّ هؤلاء على أنّهم سيئون بطبيعتهم وأنّ لديهم نيةٌ بإحداث ضرر له، مما يسبب له الكثير من الإحساسات المؤلمة. وينسبُ آراء وخطط ونظام السلوك المماثل لسلوكه إلى كلّ ما تظهره أفكاره المحدودة على أنّه يؤدي إلى نتائج متصلة بها، وتؤثر بانتظام، وتعمل باستمرار بالطريقة ذاتها التي تحدث بشكلٍ موحد الإحساسات ذاتها لديه. ووفقاً لهذه المفاهيم التي يستعيرها دائماً من ذاته، ومن أسلوب العمل الخاص به، يحب أو يخشى تلك الأشياء التي أثّرت عليه، ويقترب بالتالي منها بثقةٍ أو خجلٍ، ويسعى وراءها أو ينفر منها بما يتناسب مع المشاعر التي أثارتها سواء كانت ممتعة أو مؤلمة. ويخاطبها اليوم، ويطلب مساعدتها، ويصلي لها طلباً لعونها، ويستحضرها لإيقاف آلامه، والامتناع عن تعذيبه، وعندما يكتشف بذاته الإحساس بالهبات، والسرور بالخضوع، يحاولُ حيازتها لمصالحه من خلال التذلل والتضحيات؛ فيمارس تجاهها كرم الضيافة الذي يحبه، ويمنحها ملاذاً، ويبني لها

مسكناً، ويزودها بكلّ الأشياء التي يعتقد أنّها سترضيها أكثر من غيرها؛ لأنّه يعلق عليها أعلى قيمة. وتمكننا هذه الميول من تفسير تكوّن آلهة الوصاية التي يصنعها كلّ إنسان لنفسه عند أمم متوحشة وغير مثقفة. وبهذا ندركُ أنَّ البشر الضعفاء، باعتبارهم حكماءً على مصيرهم، موزعين بين خير وشر، وحيوانات، وحجارة، ومواد جامدة لا شكل لها، ويحولونها إلى آلهة، ويطوقونها بالذكاء، ويكسونها بالرغبات ويمنحونها إرادة.

إنَّ الميل الآخر الذي يفيد في خداعِ الإنسان الهمجي، والذي سوف يخدع بالقدر ذاته أولئك الذين لا ينبغي أن ينيرَ لهم عقلهم هذه الموضوعات، هو التوافق العرضي بين معلولات معينة والعلل التي لم تنتجها أو التعايش بين هذه المعلولات وعلل معينة ليس لها أدنى صلة بها. وهكذا ينسب الهمجي صدقة أو الرغبة في تقديم خدمة له إلى أيّ شيء سواء كان حياً أو جامداً، كحجرٍ له شكلٌ معين، أو صخرةٍ، أو جبلٍ، أو شجرةٍ، أو ثعبانٍ، أو بومة، وما إلى ذلك. وإذا صادفَ هذه الأشياء في وضع معين في كلّ مرة، فلابدّ أن يكون ناجحاً في الصيد أكثر من المعتاد، ولابدّ أن يأخذ كمية غير عادية من السمك، ويجب أن ينتصر في الحرب، أو لابدّ أن يستوعب أيّ مشروع مهما كان، ويتعهده في تلك اللحظة — لن يكن هناك مبرراً للهمجي ذاته في ربط حقده أو شره بالشيء ذاته في وضع مختلف، أو بأيّ شيء آخر في وضعِ معين رمقته عيناه ربما في تلك الأيام التي تعرض فيها لحادثٍ خطير، ولعدم قدرته على الاستدلال يربط هذه المعلولات بعللٍ ترجع كلياً إلى عللٍ مادية، وظروفٍ ضرورية، ليس له ولا لفأله أدنى قدر من التحكم فيها، ومع ذلك، يجد أنّه من الأسهل بكثير نسبها إلى هذه العلل الخيالية، ولذلك يقدّسها ويمنحها مشاعر ويمنحها عزماً وذكاءً وإرادةً ويطوّقها بقوى خارقة للطبيعة. ولا يكون المتوحش في هذا سوى طفل غاضب من الشيء الذي يضايقه، تماماً مثل الكلب الذي يقضم الحجر الذي أصيب به من دون إرجاعه إلى اليد التي ألقتْ به.

هذا هو أساس إيمان الإنسان بالتكهنات السعيدة أو التعيسة الخالية من الخبرة، والتي ينظر إليها على أنّها تحذيرات وجهتها إليه آلهته السخيفة، التي ينسب إليها ملكات الحكمة والبصيرة التي يفتقر إليها هو ذاته. ويعتقد الجاهل عند تورطه في كارثة وعندما ينغمس في مشكلة، أنَّ حجراً، وزاحفاً، وطائراً، أفضل إرشاداً منه بكثير. ولا تؤدي الملاحظة الضئيلة عند الجاهل إلا إلى زيادة إيمانه بالخرافة؛ حيث يرى بعض الطيور تعلن

عن طريق طيرانها، ومن خلال زقزقتها، عن بعض التغييرات في الطقس، مثل البرد، والحر، والمطر، والعواصف، ويرى في فترات معينة أنَّ الأبخرة تنشأ من قاع بعض الكهوف المعينة، ولا حاجة إلى أيّ شيء آخر لإقناعه بالاعتقاد بأنَّ هذه الكائنات تمتلك معرفةً بالأحداث المقبلة وتتمتع بنعمة النبوة.

وإذا توصل بالخبرة والتفكير تدريجياً إلى عدم قبوله لما يتعلق بالقوة والذكاء والفضائل الموجودة بالفعل بهذه الأشياء، وإذا افترض على الأقل أنَّها تنشط بفعلِ علةٍ ما سرية أو خفية، فإنَّ أدوتها تكون بهذا الفاعل المخفي الذي يخاطب نفسه، ويدفع له نذوره، ويلتمس مساعدته، ويستنكر غضبه، ويسعى لإرضاء مصالحه، ومستعد لتخفيف غضبه، ولهذا الغرض يستخدم الوسائل ذاتها التي تتيح له إرضاء كائنات من جنسه أو كسبها.

وافترضت المجتمعات بالأصل، والتي ترى نفسها منكوبة في كثيرٍ من الأحيان من قبل الطبيعة أنَّ العناصر أو القوى الخفية التي تنظمها امتلكت إرادة وآراء وحاجات ورغبات مماثلة لما تمتلكه. ومن هنا، جاءت الأضاحي التي تخيلوها لتغذيتهم، وإراقة الخمور المسكوبة عليهم، والبخور لإرضاء أعصابهم الشمية. ولكن هل اعتقدوا أنَّ هذه العناصر أو محركيها الغاضبين يجب ارضاءهم مثل الإنسان الغاضب من خلال الصلوات، والإذلال، والهبة؟ حيث سُلب خيالهم عند اكتشاف الهبات التي ستكون أكثر قبولاً عند تلك الكائنات البكماء التي لم تعرف عن ميولهم. وهكذا أتى البعض بثمارِ الأرض، وقدّم البعض الآخر حزماً من الذرة وبعض الزهور المتناثرة على الريش، وزينهم البعض بإطار من أغلى المجوهرات، وقدم البعض لهم اللحوم، وضحى البعض الآخر بالحملان والعجول والثيران. ونظراً لأنَّهم كانوا دائماً غاضبين تقريباً من الإنسان، فقد قاموا بتلطيخ مذابحهم بالدم البشري، وقدموا قرابين من الأطفال الصغار. ومطولاً، كان هذيانهم هذا مماثلاً لبربرية خيالهم، لدرجة أنَّهم اعتقدوا أنَّه من المستحيل إهداء القرابين من الأرض لفاعلي الطبيعة المفترضين الذين طلبوا بالتالي التضحية للإله! وكان يُفترض ألا يتمكن كائناً لا متناهياً من الانسجام مع الجنس البشري إلا بواسطة أضحية لامتناهية.

وعادةً ما يُكلف المسنون، باعتبارهم ذو خبرة أكثر، بسلوكِ قرابين السلام هذه.[123] وأرفقها هؤلاء باحتفالات، وأقاموا طقوساً، وأخذوا الحيطة، واعتمدوا على الشكليات،

وأعادوا إلى أقرانهم اللاحقين المفاهيم المنقولة لهم عن أجدادهم، وجمعوا الملاحظات التي أدلى بها أسلافهم، وكرّروا الخرافات التي تلقوها. ومن ثم نشأ النظام الكهنوتي، وهكذا تأسست العبادة العامة، وشكّلت كلّ جماعة تدريجياً مجموعة من المعتقدات التي يجب على المواطنين مراعاتها؛ ونُقلت هذه من عرق إلى آخر.[124] وكانت هذه هي العناصر غير المشوهة والعابرة التي استفادت منها الأمم الجاهلة في كلّ مكانٍ لتأليف دياناتها التي كانت دائماً نظاماً لسلوك اخترعه الخيال، وتصوره عن جهل، لجعل القوى المجهولة التي اعتقدوا أنَّ الطبيعة خاضعة لها مؤيدة لآرائهم. وهكذا تم اختيار بعض الكائنات الغاضبة والهادئة في الوقت ذاته، على أساس الدين المعتمد دائماً. وبناءً على هذه المعتقدات الصبيانية وعلى هذه المفاهيم السخيفة، رسّخ الكهنة حقوقهم، وأسسوا سلطتهم، ونصبوا المعابد، وأقاموا المذابح، وأثقلوها بالثروة، ووطدوا عقائدهم. وباختصار، نشأت بنية جميع الأديان من مثل هذه الأسس الوقحة، وارتعش الإنسان أمامها لآلاف السنين، وعلى الرغم من أنَّ هذه الأديان قد اخترعها في الأصل متوحشون، إلا أنَّها ما زالتْ تتمتع بسلطة تنظيم مصير أكثر الأمم تحضراً. وعدّل العقل البشري هذه الأنظمة المدمرة للغاية لمبادئها بشكلٍ مختلف، وهو عقل يعمل على نحوٍ متواصل من حيث ماهيته على شيءٍ مجهول، ويوليه دائماً أهميةً من الدرجة الأولى ولا يجرؤ بعد ذلك على فحصه بهدوء.

وكان هذا مصيرُ خيال الإنسان في الأفكار المتعاقبة التي شكّلها لنفسه أو التي تلقاها عن الإله. وبُني اللاهوت الأول للإنسان على الخوف، وعلى غرار الجهل، وسواء ابتلته العناصر أو استفاد منها، فقد عشق هذه العناصر بحد ذاتها، وامتد تبجيله إلى كلّ شيء مادي فظ، وبعد ذلك قدّم إجلالاً إلى الفاعلين الذين افترض أنَّهم يترأسون هذه العناصر، وللعبقري القوي والعبقري المرؤوس، وللأبطال أو لبشر يتمتعون بصفاتٍ عظيمة. واعتقد بفضل التفكير، أنَّه بسّط الشيء عند إخضاع الطبيعة بأكملها لفاعلٍ واحد – لذكاء ملكي – للروح – لنفس كلية تحرك هذه الطبيعة وأجزائها. وانتهى الإنسان عند انتقاله من علّة إلى أخرى إلى إغفال كلّ شيء، ووضع إلهه في هذا الغموض وفي هذه الهاوية المظلمة، وشكّل كائنات خرافية جديدة ستبتليه حتى تتعذر عليه معرفة العلل الطبيعية المتعلقة بتلك الأشباح التي طالما وقّرها بغباء.

ولو قُدم تفسيرٌ أمينٌ حول أفكار الإنسان عن الألوهية، فسيكون مضطراً للاعتراف بأنَّ كلمة الله قد استُخدمت فقط للتعبير عن العلل الخفية والبعيدة والمجهولة لمعلولات شهدها، ويستخدم هذا المصطلح فقط عندما يكفّ مصدر العلل الطبيعية والمعروفة عن أن يكون واضحاً، وبمجرد أن يفقد التسلسل الذي يصل بين هذه العلل أو بمجرد أن يتعذر على عقله متابعة السلسلة، فإنَّه يحلّ المعضلة، وينهي بحثه من خلالها إرجاعها إلى الله، وبالتالي يعطي تعريفاً غامضاً لعلّة مجهولة، ويفرض عليه تقاعسه أو معرفته المحدودة التوقف عندها. لذلك عندما ينسبُ إلى الله إحداث ظاهرة ما، يمنعه جهله من كشف العلّة الحقيقية لها، فهل يفعل في الواقع أيّ شيء سوى استبدال ظلام عقله، والصوت الذي اعتاد أن يستمع إليه بخوفٍ شديد؟ ويمكن القول إنَّ الجهل ميراثٌ عند أغلب البشر، وهذه لا تنسب إلى الألوهية تلك المعلولات النادرة التي فاضت على حواسهم بقوة مذهلة فقط، بل أيضاً أبسط الأحداث والعلل التي تكون معرفتها أسهل لمن يرغب في التأمل فيها.(125) وباختصار، تعلق الإنسان دائماً بتلك العلل المجهولة، والمعلولات المدهشة التي منعه جهله من سبر غورها.

يبقى إذن التساؤل عمّا إذا كان بإمكان الإنسان أن يطري بشكلٍ معقول على نفسه لحصوله على معرفةٍ كاملة بسلطة الطبيعة،(126) وخصائص الكائنات التي تحتويها، والنتائج التي قد تنجم عن مركباتها المختلفة؟ فهل نعلّم لماذا يجذب المغناطيس الحديد؟ وهل نتعرّف بشكلٍ أفضل على سبب الجاذبية القطبية؟ وهل نحن في حالةٍ تسمح لنا بشرح ظاهرة الضوء والكهرباء والمرونة؟ وهل نفهم الآلية التي يحرك بها هذا التعديل في أدمغتنا، والذي نسميه قوة الإرادة، أذرعنا أو أرجلنا؟ وهل يمكننا أن نقدم لأنفسنا تفسيراً للطريقة التي تنظر بها أعيننا إلى الأشياء، والتي تتلقى من خلالها آذاننا الأصوات، والتي يتصور فيها ذهننا الأفكار؟ ومن ثم إذا كنا عاجزين عن تفسير سبب الظواهر الأكثر شيوعاً، والتي تعرضها لنا الطبيعة يومياً، فبأيّ سلسلةٍ من الاستدلال نرفض قدرتها على إحداث تأثيرات أخرى مبهمة بالنسبة لنا بالقدر ذاته؟ وهل ينبغي أن نكون أكثر تعليماً عندما نرى في كلّ مرة معلولاً لسنا قادرين على تطوير علّة له، وقد نقول بلا مبالاة: إنَّ هذا المعلول ناجمٌ عن قوة ومشيئة الله؟ - أي بواسطة فاعل ليس لدينا علّم به على الإطلاق، ونحن جاهلون به أكثر من جهلنا بالعلل الطبيعية. فهل يكفي إذن الصوت

الذي لا يمكننا ربط أيّ حاسة ثابتة به لشرح هذه المشكلات؟ وهل يمكن أن تدل كلمة الله على أيّ شيء آخر سوى العلل المبهمة لتلك المعلولات التي لا يمكننا شرحها؟

وعندما نكون بارعين مع أنفسنا، سنكون ملزمين بالاتفاق على ذلك الجهل الذي تورط أسلافنا فيه بشكلٍ موحد، وافتقارهم لمعرفة العلل الطبيعية، وأفكارهم القائمة حول قوى الطبيعة التي ولدتها الآلهة؛ أي من المستحيل ثانيةً أن ينتشل القسم الأكبر من البشر أنفسهم من هذا الجهل، ومن الصعوبة بالتالي أن يشكلوا أفكاراً بسيطة لأنفسهم عن تكوين الأشياء، والعمل المطلوب لاكتشاف المصادر الحقيقية لتلك الأحداث التي يعترفون بها أو يخشونها، والتي تجعلهم يعتقدون أنَّ فكرة وجود الله ضرورية لتمكينهم من تقديم تفسير لتلك الظواهر التي لا يمكنهم اكتشاف العلة الحقيقية لها. وهذا هو بلا شك السبب الذي جعلهم يتعاملون مع كلّ أولئك على أنَّهم غير عقلانيين، ولا يرون ضرورةً للاعتراف بفاعلٍ مجهول أو طاقةٍ سرية ما، والتي بسبب عدم معرفتهم بالطبيعة، وضعوها خارجها.

تولدُ ظواهر الطبيعة بالضرورة مشاعر مختلفة عند الإنسان، ويعتقد أنَّ بعضها مؤاتٍ له، وبعضها مضر، والبعض يثير حبه وإعجابه وامتنانه، والأخرى توقعه في مأزق وتسبب النفور وتدفعه إلى اليأس. ووفقاً للإحساسات المختلفة التي يشعر بها، يحب أو يخشى الأسباب التي ينسب إليها نتائج تحدث فيه هذه العواطف المختلفة، وتتناسب هذه المشاعر مع الآثار التي يختبرها؛ فيزداد إعجابه وتتعزز مخاوفه، وتكون الظواهر التي تمسّ حواسه بالقدر ذاته شاملة إلى حدٍ ما، ولا تقاوم إلى حدٍ ما أو مثيرة لاهتمامه. ويجعل الإنسان ذاته بالضرورة مركزاً للطبيعة، وبالفعل لا يمكنه أن يحكم على الأشياء، طالما أنَّه متأثراً بها، ويمكنه فقط أن يحب ما يعتقد أنَّه موات لكينونته، فيكره ويخشى كلّ ما يتسبب في معاناته. وباختصار، يطلق اسم فوضى كما رأينا على كلّ شيء يزعج اقتصاد آليته، ويعتقد أنَّ كلّ شيء على ما يرام، بمجرد أن يختبر شيئاً لا يتناسب مع طريقته الخاصة في الوجود. والنتيجة اللازمة عن هذه الأفكار، أنَّ الإنسان يؤمن إيماناً راسخاً بأنَّ الطبيعة بأكملها صُنعت له وحده، وأنَّ كلّ أعمالها كانت هي ذاته فقط، أو بالأحرى أنَّ العلل القوية التي خضعت لها هذه الطبيعة لم يكن لها هدفٌ سوى الإنسان وملاءمته مع كلّ التأثيرات التي تحدثها في الكون.

ولو كان هناك على هذه الأرض كائنات مفكرة أخرى إلى جانب الإنسان، لسقطت تماماً في تحيزات مماثلة معه؛ وهو شعورٌ مبنيٌ على ذلك الميل الذي يمتلكه كلّ فرد بالضرورة عن نفسه، الميل الذي سيبقى حتى يصحح العقل أخطاءه بمساعدة الخبرة.

وهكذا، كلّما كان الإنسان راضٍ، وكلّما كان كلّ شيء على ما يرام فيما يتعلق بذاته، فإنَّه يعجب أو يحب العلة التي يعتقد أنَّه مدين لها برفاهيته، وعندما يصبح غير راضٍ عن نمط وجوده، فإنَّه يخاف أو يكره العلة التي يفترض أنَّها أحدثت هذه النتائج. ولكن رفاهيته تلتبس مع وجوده، ويتوقف الشعور بها عندما تصبح عادية وطويلة الأمد؛ فيعتقد أنَّها متأصلة في ماهيته، ويستنتج من ذلك أنَّه تم تكوينه بحيث يكون سعيداً دائماً، ويجد من الطبيعي أنَّ كلّ شيء يجب أن يتزامن مع الحفاظ على كيانه. ولا يحدث الشيء ذاته بأيّ حال من الأحوال عندما يختبر نمطاً من الوجود لا يرضيه؛ فالإنسان الذي يعاني يندهش تماماً من التغيير الذي حدث في عضويته، ويحكم بأنَّه يتعارض مع الطبيعة؛ لأنَّه لا يتلاءم مع طبيعته الخاصة، ويتصور أنَّ تلك الأحداث التي جُرح بها تتعارض مع نظام الأشياء، ويعتقد أنَّ الطبيعة تكون مشوشة في كلّ مرة لا توفر له هذا النمط من الشعور المناسب لأفكاره، ويخلص من هذه الافتراضات إلى أنَّ الطبيعة أو الفاعل الذي يحركها هو ما يغضبه.

ومن ثم فإنَّ الإنسان غير الحساس تقريباً نحو الخير، يشعر بالشر بطريقة حيوية للغاية، ويعتقد أنَّ الأول طبيعي، ويظن أنَّ الآخر يتعارض مع الطبيعة. وهو إما جاهلٌ أو ينسى أنَّه يشكّل جزءاً من الكل، الذي تشكّل من تجمع المواد التي يكون بعضها متماثل والبعض الآخر غير متجانس، وأنَّ الكائنات المختلفة التي تتكون منها الطبيعة، قد وهبت مجموعة متنوعة من الخصائص التي تؤثر بفضلها بشكلٍ متنوع على الأجسام الموجودة بحد ذاتها ضمن مجال عملها، ولا يدرك أنَّ هذه الكائنات التي تفتقر إلى الخير، والخالية من الحقد، تعمل فقط وفقاً لماهيات خاصة بها وقوانين تفرضها عليها سماتها، من دون أن تكون قادرة على العمل بطريقة أخرى غير تلك التي تعمل بها. لذلك، بسبب عدم معرفته بهذه الأشياء، فإنَّه ينظر إلى خالق الطبيعة على أنَّه علة تلك الشرور التي يخضع لها، ويُحكم عليه بأنَّه شرير أو يُسخط عليه.

والحقيقة هي أنَّ الإنسان يعتقد أنَّ رفاهه دين عليه من الطبيعة، وأنَّه عندما يعاني من الشر الذي تمارسه عليه فإنَّها تظلمه، ويقتنع تماماً بأنَّ هذه الطبيعة صُنعت من أجله فقط، ولا يمكنه أن يتصور أنَّها ستجعله يعاني، إذا لم تحركها قوةٌ معادية لسعادته - لديها أسباب لإلحاق الأذى به ومعاقبته. ومن هنا يتضح أنَّ الشر هو الدافع الحقيقي أكثر بكثير من الخير لتلك الأبحاث التي أجراها الإنسان عن الإله — عن تلك الأفكار التي شكّلها عن ذاته - عن السلوك الذي اتخذه تجاهه. وما كان الإعجاب بأعمال الطبيعة أو الاعتراف بخيرها، ليحدد وحده لجوء الجنس البشري بشكلٍ مؤلم من خلال التفكير إلى مصدر هذه الأشياء، فبعد أن أطّلع في الحال على كلّ تلك النتائج المواتية لوجوده، لن يكلّف نفسه بأيّ حال من الأحوال عناء البحث ذاته عن العلل، وأن يعمل على اكتشاف تلك التي تزعجه أو التي يتألم منها. وهكذا عند تأمل الإنسان في الألوهية، كان دائماً يتأمل في علّة شروره التي فكّر فيها، وكانت تأملاته غير مثمرة؛ لأنَّ الشرور التي يعاني منها، وكذلك الخير الذي يتقاسمه هي نتائج لازمة بالقدر ذاته عن العلل الطبيعية التي كان يجب على عقله الإنحناء أمام قوتها، وبدلاً من أن يخترع عللاً وهمية لم يستطع أبداً أن يشكّل لنفسه سوى أفكار زائفة، مع العلم أنَّه يستعيرها دائماً من طريقته الخاصة في الوجود والشعور. وبرفضه بشدة لرؤية أيّ شيء غير ذاته، لم يعرف أبداً تلك الطبيعة الكلية التي يشكّل فيها جزءاً ضئلاً للغاية.

ومع ذلك، سيكون أدنى تأمل كافياً لتخليصه من هذه الأفكار الخاطئة. ويميل كلّ شيء إلى إثبات أنَّ الخير والشر هما نمطان للوجود يعتمدان على العلل التي يتحرك بموجبها الإنسان، وأنَّ الكائن العاقل ملزم باختبارهما. وفي طبيعة تتكون من عددٍ كبير من الكائنات المتنوعة إلى ما لانهاية، تنجم الصدمة عن اصطدام مادة متنافرة لابدّ أن تخل بالضرورة بالنظام، وتعطل نمط وجود تلك الكائنات المماثلة لها، وتتصرف هذه في كلّ شيء تفعله بموجب قوانين معينة، وبالتالي، فإنَّ الخير أو الشر الذي يختبره الإنسان هو نتيجةٌ ضرورية للصفات المتأصلة في الكائنات التي يجدها في مجال عملها. وتكون ولادتنا والتي نسميها نافعة، نتيجةً ضرورية مثل موتنا الذي نتصوره على أنَّه ظلم القدر، ومن طبيعة جميع الكائنات المتماثلة أن تتحد لتشكّل الكل، ومن طبيعة جميع الكائنات المركبة أن تفنى أو تتحلل من تلقاء ذاتها، وبعضها يحافظ على الوحدة لفترة أطول من البعض الآخر، والبعض يتلاشى بسرعةٍ كبيرة. ويلد كلّ كائن عند تحلله كائنات جديدة، وتفنى هذه بدورها لتنصاع إلى الأبد لقوانين الطبيعة الثابتة التي لا توجد إلا من خلال التغييرات

المستمرة التي تخضع لها جميع أجزائها. وبالتالي لا يمكن اتهام الطبيعة لا بالخير ولا بالشر، بما أنَّ كلّ ما يجري فيها ضروري - يحدث بوساطة نظام ثابت، يخضع له كلّ كائن آخر إلى الأبد بالإضافة إليها. وغالباً ما تصبح المادة النارية ذاتها التي يعتبرها الإنسان مبدأً للحياة، مبدأً للتدمير إما بإحراق مدينة أو انفجار بركان. ويكون السائل المائي الذي يجري عبر عضويته ضروري لوجوده الفعلي، وكثيراً ما يصبح وافراً جداً ويصل به إلى حدّ الاختناق، وهو سبب تلك الفيضانات التي تبتلع أحياناً الأرض وسكانها. ويكون الهواء الذي لا يستطيع من دونه التنفس، سبباً لتلك الأعاصير، وتلك العواصف التي كثيراً ما تجعل عمل البشر عديم الفائدة. ويلزم أن تفكك هذه العناصر روابطها، وينجم عنها بالضرورة عندما تُدمج بطريقة معينة ذلك الخراب، وتلك الأوبئة، والمجاعات، والأمراض، والآفات المختلفة التي يواجهها الإنسان بعيون ثاقبة ومشاعر عنيفة، ويطلب عبثاً مساعدة تلك القوى التي تصمّ عن سماع صرخاته، ولا يمارس صلواته أبداً إلا عندما تحلّ الضرورة ذاتها التي ألّمت به، والقوانين الثابتة ذاتها التي أغرقته بالمتاعب، محل الأشياء بالترتيب الذي يراه مناسباً لجنسه، والترتيب النسبي للأشياء الذي كان وسيظل دائماً المعيار الوحيد لحكمه.

لكن الإنسان لم يقدّم مثل هذه التأملات البسيطة، ولم يدرك أنَّ كلّ شيء في الطبيعة يحدث بموجب قوانين ثابتة، واستمر يفكرُ في الخير الذي تورط فيه على أنَّه نعمة له، والشر الذي يعاني منه على أنَّه دليل على غضب هذه الطبيعة التي افترض أنَّها مفعمة بالعواطف ذاتها التي تحركه، أو التي كان يحكمها على الأقل فاعلٌ سري أجبرها على تنفيذ مشيئتها التي كانت في بعض الأحيان مواتية، وأحياناً غير ملائمة للجنس البشري. وكانت بهذا الفاعل المفترض الذي لم ينشغل به إلا قليلاً عند أوج ازدهاره، ولكنه توجه في خضم مصيبته إلى التضرع له، وشكره على نعمه خوفاً من أن يؤدي نكران الجميل إلى إثارة غضبه، وهكذا عندما هاجمته كارثة، وعندما أصابه مرض، استدعاه بحماسة وطلب منه أن يغيّر لصالحه نمط عمله الذي يشكل الماهية ذاتها عند الكائنات، وكان على استعداد لإيقاف أدنى شر عانى منه، وربما قطع تلك السلسلة الأبدية للأشياء أو أوقفها.

وبُنيت على مثل هذه الادعاءات السخيفة تلك الصلوات الحماسية التي كان البشر دائماً مستائين من مصيرها ولا تتوافق أبداً مع رغباتهم الخاصة الموجهة إلى الإله. وكانوا يسجدون بلا انقطاع أمام القوة الخيالية التي أفادوا بأنَّ لها الحق في السيطرة على الطبيعة - التي افترضوا أنَّ لديها طاقةً كافية لتحويل مسارها، واعتبروا أنَّها تمتلك وسائل لجعلها

خاضعة لآرائه الخاصة، وهكذا يأمل كلّ واحد من خلال الهبات، والخضوع، أن تحثّه على إلزام هذه الطبيعة بإرضاء رغبات عرقه المتباينة. ويطلب المريض والذي يكون طريح الفراش من تلك الأخلاط المتراكمة في جسده أن تفقد في لحظة تلك الخصائص التي تجعلها مضرة لوجوده، وأن يجدد إلهه بفعل جبروته، أو يعيد خلق مصادر عضوية المتآكلة بسبب الضعف. ويشكو المزارع في بلدٍ ذو مستنقعات منخفضة من غزارة الأمطار التي غمرت الحقول، بينما يرفع سكان القمة حمدهم على النعم التي ينعمون بها، ويتوسلون لتستمر تلك التي تسبب اليأس لجاره. وبهذا يرغب كلّ شخص بأنْ يكون لديه إلهه، ويطلب منه وفقاً لنزواته اللحظية واحتياجاته المتقلبة أن يغير ماهية الأشياء الثابتة باستمرار لصالحه.

ويجب أن يتضح من هذا أنَّ الإنسان يطلب في كلّ لحظة معجزةً تدعمهُ. لذلك ليس من المستغرب على الإطلاق إظهاره لمثل هذه السذاجة الحاضرة، وأنَّه تبنّى بهذه السهولة العلاقة بين الأفعال العجيبة التي أعلن عنها له على نحوٍ كلّي أنَّها أفعال ناجمة عن القوة أو نتائج لإحسان الإله، وأنَّها دليلاً لا يقبل الشك بتاتاً على سيطرته على الطبيعة، وتوقع أنَّه إذا استطاع كسبها لمصلحته، فإنَّ هذه الطبيعة التي وجدها قاتمة جداً، وتميل قليلاً جداً لإرضاء آرائه ستكون عندئذ محكومة لصالحه.(127)

والنتيجة اللازمة عن هذه الأفكار، أنَّ الطبيعة سُلبت من كلّ قوة، واعتُقد أنَّها أداة سلبية تعمل وفقاً للمشيئة فحسب، وتكون تحت تأثير العديد من الفاعلين الأقوياء الذين خضعت لهم. وهكذا بسبب عدم تأمل الطبيعة من منظورها الحقيقي الذي كان الإنسان مخطأً بشأنه تماماً، اعتقد أنَّها غير قادرة على إحداث أيّ شيء بنفسها، ونسبَ شرف كلّ هذه الأحداث، سواء كانت مفيدة أو غير مواتية للجنس البشري إلى قوى خيالية، كان يغلّفها دائماً بميوله الخاصة، إلا أنَّه زادَ من قوتها. وباختصار، أقام الإنسان على أنقاض الطبيعة العملاق الخيالي عن الألوهية.

وإذا كان الجهل بالطبيعة قد ولّد الآلهة، فإنَّ معرفة الطبيعة يُعتبر تدميراً لها. وبمجرد أن يتثقف الإنسان تعظم قواه، وتزداد موارده بمقدار معرفته، وتساعده العلوم والفنون الحافظة على التطبيق الدؤوب، وتشجع الخبرة على تقدمه أو توفر له وسائل لمقاومةِ جهود العديد من العلل التي تكفّ عن ارهابه بمجرد حصوله على المعرفة الصحيحة بها. وبهذا تتبدد مخاوف الإنسان بالتناسب مع تنوير عقله، ويتعلم عندئذٍ أن يكف عن الإيمان بالخرافة.

الفصل التاسع عشر
علم الأساطير واللاهوت

كانت عناصر الطبيعة كما أوضحنا أول آلهة الإنسان التي استهلها بشكلٍ عام بعشق الكائنات المادية، وكما قلنا سابقاً، وهذا ما يمكن رؤيته عند الأمم البربرية، صنع كلّ فرد لنفسه إلهاً يخصّ بعض الأشياء المادية التي من المفترض أن تكون علّة لتلك الأحداث التي كان هو ذاته مهتماً بها، ولم يبتعد عن الطبيعة المرئية للبحث عن مصدر ما حدث له أو تلك الظواهر التي كان شاهداً عليها. وبما أنّه رأى في كلّ مكان معلولات مادية فحسب، فقد أرجعها لعلل من الجنس ذاته، وعجز في طفولته عن تلك التكهنات العميقة، وتلك التخمينات الدقيقة الناجمة عن الفراغ، ولم يتخيل أيّ علة مميزة للأشياء التي صادفها، ولا أيّ ماهية مختلفة تماماً عن كلّ ما شاهده.

وكانت ملاحظة الطبيعة هي الدراسة الأولى لأولئك الذين كان لديهم وقتٌ كافٍ للتأمل، ولم يتمكنوا من تجنب الاصطدام بظواهر العالم المرئي. حيث كان شروق وغروب الشمس، وعودة الفصول بشكلٍ دوري، وتغيرات الغلاف الجوي، وخصوبة الأرض وعقمها، ومزايا الري، والأضرار الناجمة عن الفيضانات، والنتائج المفيدة للحريق، والعواقب الوخيمة المترتبة على ذلك، أشياءٌ ملائمة ومناسبة لتشغل أفكارهم. وكان من الطبيعي بالنسبة لهم أن يصدقوا أنّ تلك الكائنات التي رأوها تتحرك من تلقاء ذاتها، تعمل بموجب طاقات خاصة بها، وخلصوا وفقاً لتأثيرها على سكان الأرض سواء كانت مواتية لهم أو غير مواتية، إلى أنّ لديها القدرة على إيذائهم أو الميل لمنحهم الفوائد. وفي حين اكتسب أولئك المعرفة أولاً من خلال اكتساب الهيمنة على الإنسان، فإنّ الهمجي، والمشرد، وغير المثقف، أو المشتت في غابات لا يربطه بتربتها إلا قليلاً، ولم يتعلم حتى الآن جني ثمارها، كانوا دائماً ملاحظين أكثر تمرّساً - أفراد مسترشدين بطرقِ الطبيعة أكثر من الناس أو بالأحرى الحشود المتناثرة التي وجدت جاهلة ومحرومة من الخبرة. ومكّنتهم معرفتهم الفائقة

من تقديم الخدمات لهم - واكتشفت لهم الاختراعات المفيدة التي حازتْ على ثقة الكائنات التعيسة التي أتتْ لتقديم يد المساعدة لهم، أما الهمج الذين كانوا عراة وجائعين إلى حدٍ ما، ومعرضين لأضرار الطقس، وهجمات الوحوش الشرسة، والمنتشرين في الكهوف، والهائمين في الغابات، والمشغولين بالصيد، ويبذلون جهوداً شاقة للحصول على لقمةِ عيشهم المحفوفة بالمخاطر، لم يكن لديهم وقتٌ كافٍ للقيام باكتشافات دقيقة لتسهيل عملهم أو لجعله أقل ديمومة. وهذه الاكتشافات عموماً هي ثمرة المجتمع؛ فالكائنات المنعزلة، والأسر المنفصلة، نادراً ما تقدّم أيّ اكتشافات - نادراً ما تفكر في صنع أيّ منها. في حين أنَّ الهمجي كائن يعيش في مرحلةِ الطفولة الدائمة، ولا يصل إلى مرحلة النضج إلا إذا جاء أحدهم ليخرجه من بؤسه. ويكون مثيراً للاشمئزاز في البداية وغير قابل للتواصل، وعنيد، ويتعرّف بنفسه تدريجياً على أولئك الذين يسدون له خدمة، وبمجرد أن يكتسب لطفهم، فإنَّه يمنحهم ثقته بسهولة، ويصل إلى حد التضحية بحريته لهم في النهاية.

ومن الشائع أن تصدر من حضن الأمم المتحضرة تلك الشخصيات التي حملت الأنسنة، والزراعة، والفنون، والقوانين، والآلهة، والآراء الدينية، وأشكال العبادة، إلى تلك العائلات أو الحشود التي لم تتشكّل بعد عند الأمم. ولطّف هؤلاء من أخلاقهم - جمعوهم معاً - وعلموهم جني مزايا قواهم الخاصة - تقديم المساعدة المتبادلة لبعضهم البعض - تلبية رغباتهم بسهولة أكبر. وبهذا جعلوا وجودهم أكثر راحةً وحازوا على حبهم، وحصلوا على تبجيلهم، واكتسبوا حقّهم بالتعبير عن آرائهم، وجعلوهم يتبنونها كما لو أنَّهم اخترعوها بأنفسهم أو وضعوها في البلدان المتحضرة التي أتوا منها. ويشير التاريخ إلينا بأشهر المشرّعين على أنَّهم بشرٌ أغنياء بالمعرفة المفيدة التي حصلوا عليها في أحضان الأمم المثقفة، ونقلوا إلى الهمج الذين يفتقرون للصناعة ويحتاجون إلى مساعدة، تلك الفنون التي كان يجهلها حتى ذلك الحين أولئك القوم الأقوياء: مثل **باخوس Bacchus**، و**أورفيوس Orpheus**، و**تريبتوليموس Triptolemus**، و**موسى Moses**، و**النوما Numas**، و**زمولكسيس Zamolixis**؛ وباختصار، كان كلّ أولئك أول من منحَ الأمم آلهتهم - وعباداتهم - ومبادئ الزراعة، والعلوم، واللاهوت، والفقه، والأحاجي، وما إلى ذلك. وربما يُسأل، عمّا إذا كانت كلّ تلك الأمم التي نراها محتشدة في الوقت الحاضر مشتتة في

الأصل؟ نجيب، ربما نجم هذا التشتت في أوقاتٍ مختلفة عن تلك الثورات الرهيبة التي لوحظ من خلالها سابقاً أنَّ عالمنا كان مسرحاً أكثر من مرة، وفي أزمنة بعيدة جداً لدرجةٍ أنَّ التاريخ لم يتمكن من نقلِ التفاصيل إلينا. وربما يكون اقتراب أكثر من مذنب قد أحدث على أرضنا عدة أضرارٍ شاملة، أدّت في كلّ مرة إلى القضاء على القسم الأكبر من الجنس البشري. وأولئك الذين تمكّنوا من الهروب من دمار العالم الممتلئ بالرعب والمنغمس في البؤس، لم يكن لديهم سوى القليل من الشروط للحافظ على معرفة ذريتهم، وطمسوا تلك المصائب التي كانوا ضحايا لها وشهوداً عليها، ولم يتمكنوا نتيجةً فزعهم وارتعاشهم من الخوف، من نقل تاريخ مغامراتهم المخيفة إلا من خلال تقاليد غامضة؛ ناهيك عن نقل الآراء والأنظمة والفنون والعلوم إلينا قبل هذه الثورات على كوكبنا. وربما كان هناك بشرٌ على الأرض منذ الأزل، إلا أنَّهم تعرضوا ربما في فترات مختلفة للإبادة تقريباً، وكذلك آثارهم وعلومهم وفنونهم، وشكّل أولئك الذين عاشوا بعد هذه الثورات المتعاقبة في كلّ مرة جنساً جديداً من البشر الذين تراجعوا بسبب الوقت والعمل والخبرة، تدريجياً عن نسيان اختراعات الأجناس البدائية. وربما يعود السبب في هذه الثورات المتعاقبة للجنس البشري إلى الجهل العميق الذي نرى فيه الإنسان منغمساً في تلك الأشياء التي تهمه أكثر. وربما يكون هذا هو المصدر الحقيقي لنقص معرفته - لرذائل مؤسساته السياسية والدينية التي طالما سيطر عليها الرعب، وهنا يكمن في جميع الاحتمالات سبب قلة الخبرة الطفولية، وتلك التحيزات الشبابية، التي تُبقي الإنسان في كلّ مكان ضمن مرحلة الطفولة، وتمكّنه قليلاً جداً من الاستماع إلى العقل أو استشارة الحقيقة. وللحكم على بطء تقدمه، ومن خلال ضعف تطوره في عددٍ من النواحي، يجب أن نميل إلى القول: إنَّ الجنس البشري تركَ مهده للتو أو لم يكن مقدّراً له بعدُ أن يبلغ سن الرجولة أو العقل.(128)

ومهما كان أمرُ هذه التخمينات، سواء كان الجنس البشري موجوداً دائماً على الأرض أو ما إذا كان من إنتاج الطبيعة لاحقاً،(129) فمن السهل للغاية العودة إلى أصل العديد من الأمم الموجودة، وسنجدها دائماً ضمن الحالة الهمجية، وهذا يعني أنَّها تتكون من جحافل مشردة جُمعتْ معاً، من خلال صوت بعض المبشرين أو المشرعين الذين تلقوا فوائد منهم، ومنحوهم الآلهة والآراء والقوانين. وهؤلاء الأشخاص الذين اعترف الناس المجتمعون حديثاً

بتفوقهم بسهولة، وطّدوا الآلهة القومية، تاركين لكلّ فردٍ تلك التي شكّلها لنفسه بحسب أفكاره الخاصة أو استبدلوها بأخرى جلبوها من تلك المناطق التي هاجروا منها.

ومن الأفضل أن يطبعوا دروسهم في أذهان رعاياهم الجدد، حيث أصبح هؤلاء البشر مرشدين، وقساوسة، وملوك، وكهنة لهذه المجتمعات الناشئة، وخاطبوا مخيلة من أصغى لهم. – وتعاون الشعر بشكله وخيالاته وأرقامه وقافيته وتناغمه لإرضاء خيالاتهم وإضفاء الانطباعات التي تركها على الدوام، وهكذا جُسدتْ الطبيعة بكامل أجزائها: وأخذ صوتها، وأشجارها، وحجارتها، وصخورها، وأرضها، وهواءها، ونارها، ومياهها، ذكاء الإنسان وأجرت محادثة معه وهي بحد ذاتها العناصر التي عبدها – السماء، التي كانت، وفقاً للفلسفة آنذاك، مقعرة مقوسة، ومنتشرة على الأرض التي افترضوا أنّها منبسطة مستوية، جعلوها هي ذاتها إلهاً، وتصوروا الزمن الذي يُطلق عليه اسم زحل، على أنّه ابن السماء،[130] في حين أنّ المادة النارية، والسائل الكهربائي الأثيري، وتلك النار غير المرئية التي تحيي الطبيعة، وتتخلل في كلّ الكائنات وتخصب الأرض، وهي المبدأ العظيم للحركة، ومصدر الحرارة، فقد تم تأليهها تحت اسم إله السماء والأرض: وتم التعبير عن اندماجه مع كلّ كائن في الطبيعة من خلال تحولاته – من خلال الزنا المتكرر المنسوب إليه. وكان مسلحاً بالرعد، للإشارة إلى أنّه أحدث الشهب، ورمزاً للسائل الكهربائي الذي يُسمى البرق. وتزوج من الرياح التي سُميت باسم **جونو Juno**، لذلك سُميت آلهة الرياح، وتم الاحتفال بزواجهما ضمن حفلٍ مهيب.[131] وهكذا، عند تتبع القصص الخيالية ذاتها، أصبحت الشمس، ذلك النجم السخي الذي له تأثيرٌ ملحوظ على الأرض، **أوزوريس Osiris**، و**بيلوس Belus**، و**ميثرا Mithras**، و**أدونيس Adonis**، و**أبولو Apollo**. والطبيعة التي أحزنها غيابه الدوري، كانت **إيزيس Isis**، و**عشتار Astarte**، و**فينوس Venus**، و**سايبيل Cybele**.[132]

وباختصار، تم تجسيد كلّ شيء: كان البحر تحت هيمنة **نبتون Neptune**. وعبد المصريون النار تحت اسم **سيرابيس Serapis**، ومن قبل الفرس، تحت اسم **هرمز Ormus** أو **أوروماسيس Oromaze**، ومن قبل الرومان تحت اسم **فيستا Vesta** و**فولكان Vulcan**.

كان هذا هو أصل علم الأساطير الذي يمكن أن يُقال إنَّه ابن الفلسفة الطبيعية، المزخرفة بالشعر، ومقدرٌ لها فقط وصف الطبيعة وأجزائها. ولو راجعنا العصور القديمة لأدركنا من دون مزيد من التعقيد أنَّ هؤلاء الحكماء المشهورين، وهؤلاء المشرِّعون، والكهنة، والفاتحين الذين كانوا معلمي الأمم الوليدة، كانوا يعشقون الطبيعة الحية أو الكلّ العظيم الذي يأخذونه بالاعتبار نسبةً إلى عملياته أو صفاته المختلفة، وهذا هو سبب اجتماع الهمج الجهلة لعبادته.(133) وكان هذا هو الكلّ العظيم الذي عبدوه، وأجزائه المختلفة التي جعلوها آلهتهم الدنيا، وخلقوا القدرَ من ضرورة قوانينها. وحجبت الرمزية نمط تأثيرها، وكانت أجزاءٌ طويلة من هذا الكلّ العظيم الذي تمثّل وثنياً من خلال التماثيل والرموز.(134)

ولكي نكمل البراهين على ما قيل، ونُظهر بوضوحٍ أنَّ الكلّ العظيم، والكون، وطبيعة الأشياء، كانت الهدف الحقيقي لعبادة العصور القديمة الوثنية، سنقدم هنا ترنيمة أورفيوس **Orpheus** الموجهة إلى الإله بان **Pan**:

"يا **بان**! أدعوك أيُّها الإلهُ القدير! أيَّتها الطبيعة الكلية! والسماء، والبحر، والأرض التي تغذّي الجميع، والنار الأبدية؛ لأنَّ هذه هي أعضاؤك، أيَّها القدير **بان**"...الخ. وما من شيءٍ يمكن أن يكون أكثر ملاءمةً لتأكيد هذه الأفكار من الشرحِ البارع الذي يُعطى لحكاية **بان**، وكذلك الشكل الذي يمثله. ويُقال: "**بان**، وفقاً للدلالة على اسمه، هو الشِعار الذي من خلاله قدّم القدماء مجموعة كبيرة من الأشياء؛ فهو يمثل الكون، واعتُبر في ذهن أحكم فلاسفة العصور القديمة على أنَّه أعظم وأقدم الآلهة. وتشكل الملامح المرسومة له صورة الطبيعة والحالة الوحشية التي وجدت فيها في البداية. ويمثل الجلد المرقط للنمر الذي يفيده كعباءة السماء المليئة بالنجوم والأبراج. وكانت شخصيته مكونة من أجزاء، بعضها مناسب لحيوان عاقل؛ أي للإنسان، والبعض الآخر للحيوان الخالي من العقل مثل الماعز". وهكذا، كما يقول: "يتكون الكون من ذكاءٍ يحكم الكل، ومن عناصر غزيرة مثمرة للنار والماء والأرض والهواء. وأحبَّ **بان** الشرب واتباع الحوريات؛ وهذا يعلن عن أنَّ الطبيعة المناسبة لديها رطوبةٌ لجميع منتجاتها، وأنَّ هذا الإله، مثل الطبيعة، يميل بشدة إلى التكاثر. ووفقاً للمصريين وأقدم الفلاسفة الإغريق، لم يكن لـ**بان** أبٌ ولا أم، لقد

خرج من ديموغورغون Demogorgon في اللحظة ذاتها مع الأقدار، وشقيقاته القدريات، وهو منهجٌ رائع للتعبير عن أنَّ الكون كان من عمل قوة مجهولة، وأنَّه تشكّل بموجب علاقات ثابتة، وقوانين الضرورة الأبدية، لكن أهم رمز له، والذي هو الأنسب للتعبير عن انسجام الكون، هو غليونه الغامض المكوّن من سبعةِ أنابيب غير متكافئة، ولكنه أُخِذَ بالحسبان لإنتاج ألطف وأكمل انسجام. وتمتلك الأجرام السماوية التي تتكون منها الكواكب السبعة لنظامنا الشمسي، أقطاراً مختلفة، ولكونها أجساماً غير متساوية الكتلة، فإنَّها ترسم دوراتها حول الشمس في فترات مختلفة، وينتج عن نظام حركتها رغم ذلك انسجام الأفلاك" وما إلى ذلك.(135)

وهنا يكمن بالتالي العالمُ الكبير العظيم، والكلّ العظيم، ومجموعة من الأشياء التي عبدها وألّهها فلاسفة العصور القديمة، بينما توقف الجهل عند الشعار الذي صورته هذه الطبيعة، وعند الرموز التي جسّدت أجزائها المختلفة، ووظائفها الهائلة، ولم يسمح له عقله الضيق وجهله البربري بأنْ يسمو إلى الأعلى، فهم وحدهم كانوا جديرين بالغوص إلى الأسرار، وعرفوا الحقائق المغلّفة بتلك الشعارات.

وفي الواقع، لم يخاطب مؤسسو الأمم الأوائل، وخلفاؤهم المباشرين بالسلطة، الناس إلا من خلال الحكايات والرموز والألغاز التي احتفظوا بالحق لأنفسهم في تقديم شرحٍ لها. وهذه هي النبرة الغامضة التي اعتبروها ضرورية، سواء أكان ذلك لإخفاء جهلهم أو للمحافظة على هيمنتهم على الجاهلين الذين يحترمون في الغالب ما يتجاوز فهمهم فقط. وكانت شروحاتهم تُملى دائماً بالفائدة أو الخيال الهذياني أو بالخداع. وهكذا، لم يفعلوا شيئاً من عصرٍ إلى آخر سوى جعل الطبيعة وأجزائها التي كانوا قد صوروها في الأصل، مجهولةً تماماً، حتى فقدوا النظر تماماً للأفكار البدائية التي استبدلوها بالعديد من الشخصيات الخيالية التي جُسدت هذه الطبيعة في البداية تحت سماتها. فعبد الناس هذه الشخصيات من دون أن يتوغلوا بالمعنى الحقيقي للخرافات الرمزية التي سُردت لهم. وهذه الكائنات المثالية ذات الشخصيات المادية التي اعتقدوا أنَّ فضيلةً غامضة وقوةً إلهية تكمن فيها، كانت موضوعات لعبادتهم، ومخاوفهم، وآمالهم. وكانت الأعمال الرائعة التي لا تُصدق والمنسوبة إلى هذه الآلهة الخيالية مصدراً لإعجابٍ لا ينضب، مما أعطى الدور دائماً

للخيال الذي لم يسعد الناس في تلك الأيام فحسب، بل حتى أبناء العصور اللاحقة. وهكذا نُقلت تلك الروايات الرائعة من عصرٍ إلى آخر، وعلى الرغم من أنَّها ضرورية لوجود كهنة للآلهة، لم تفعل شيئاً أكثر من تأكيد العمى عند الجاهل؛ ولم يفترض هذا أبداً أنَّها كانت الطبيعة، وعملياتها المختلفة، وأهواء الإنسان وملكاته المتنوعة التي دفنت تحت كومة من الرموز.(136) ولم ينظروا سوى إلى هؤلاء الأشخاص الرمزيين الذين حجبتهم الطبيعة تحتها؛ فنسبوا إلى تأثيرهم الخير وإلى استياءهم الشر الذي عاشوه، ودخلوا في كلّ نوع من أنواع الحماقات، وفي أفعال الجنون الأكثر هذياناً، لجعلهم ملائمين لآرائهم، وهكذا، بسبب عدم معرفتهم بحقيقة الأشياء، تحولت عبادتهم في كثيرٍ من الأحيان إلى التطرف الأكثر قسوةً وإلى الحماقة الأكثر سخافةً.

لذلك من الواضح أنَّ كلّ شيء يثبت أنَّ الطبيعة وأجزائها المختلفة كانت أول آلهة الإنسان في كلّ مكان. ودرسها الفلاسفة الطبيعيون إما بشكلٍ سطحي أو عميق، وشرحوا بعض خصائصها، وأسهبوا ببعض أساليب عملها. وصورها الشعراء لخيال البشر، وجسّدوها، وزودوها بملكاتٍ فكرية. وحملتْ التماثيل أفكار الشعراء، وزخرف الكهنة هذه الآلهة بآلاف الصفات الرائعة – بأكثر المشاعر رعباً – بصفاتٍ أكثر إبهاماً. وعبدها الناس، وسجدوا بأنفسهم أمام تلك الآلهة التي لم تتعرض للحب أو الكراهية، وللخير أو الحقد؛ وأصبحوا يضطهدون الحاقدين، والقساة، والظالمين، لكي يجعلوا أنفسهم مقبولين للسلطات الموصوفة لهم عموماً بأبشع السمات.

ومن خلال التفكير في الطبيعة المزخرفة على هذا النحو أو المشوهة بالأحرى، لم يعد يتذكر المتأملون اللاحقون المصدر الذي استمد منه أسلافهم آلهتهم، والحلي الرائعة التي زُينت بها. وتحول الفلاسفة والشعراء الطبيعيون بفعل الفراغ إلى ميتافيزيقيين ولاهوتيين، وسئموا من التفكير فيما أمكنهم فهمه، واعتقدوا أنَّهم توصلوا إلى اكتشافٍ مهم من خلال تمييزهم بمهارة بين الطبيعة وذاتها – عن الطاقات الخاصة بها – وعن قدرتها على العمل. وصنعوا تدريجياً كائناً مبهماً من هذه الطاقة، وجسدوه كما في السابق، وأطلقوا عليه اسم محرك الطبيعة أو الإله. وأصبحَ هذا الكائن المجرد الميتافيزيقي أو بالأحرى الكلمة، موضوعاً لتأملهم المستمر؛(137) فلم ينظروا إليه ككائنٍ حقيقيٍ فحسب، بل أيضاً على أنَّه أهم الكائنات، وبهذا الحلم اختفت الطبيعة تماماً. وسُلبت منها حقوقها، ولم تكن تعبّر سوى

عن كتلةٍ ثقيلة، ومعدومة القوة، وخالية من الطاقة، وكتلة من المادة الدنيئة غير الفعالة، وكونها غير قادرة على العمل بمفردها، لم تكن مؤهلة لأيّ من العمليات التي شاهدوها، ومن دون فاعلٍ صريحٍ ومباشر للقوة الدافعة التي ربطوها بها. وهكذا فضّل الإنسان دائماً قوةً مجهولة، وكان بإمكانه الحصول على بعض المعرفة بها لو تخلى فقط عن استشارة خبرته، لكنه يتوقف الآن عن احترام ما يفهمه، وتقدير الأشياء المألوفة لديه؛ فيصورُ لنفسه شيئاً عجيباً في كلّ شيء لا يستوعبه، ويجهد عقله علاوة على ذلك لفهم ما يبدو أنَّه يغيب عن نظره، وعند غياب الخبرة لم يعد يستشير أيّ شيء سوى خياله الذي يغذيه بالكائنات الخرافية. ونتيجة لذلك، فإنَّ هؤلاء المتأملون الذين ميزوا ببراعة بين الطبيعة وقدراتها الخاصة بها، جاهدوا على التوالي لإلباس القوى المنفصلة بهذه الطريقة بآلاف الصفات المبهمة؛ لأنَّهم لم يروا هذا الكائن الذي هو مجرد نموذج، وجعلوه كائناً روحياً- ذكياً- غير مألوف، وهذا يعني أنَّه جوهراً مختلفاً تماماً عن كلّ ما نعرفه. ولم يدركوا أبداً أنَّ جميع اختراعاتهم، وكلّ الكلمات التي تخيلوها، أفادتْ فقط بإخفاء جهلهم الحقيقي، وأنَّ كلّ علمهم المزعوم كان مقتصراً على الحديث عن الطريقة التي أثرتْ بها الطبيعة، ووجدوا أنفسهم بسبب ألف حيلة أنَّه من المستحيل فهمها. ويخدع الإنسان نفسه دائماً بسبب عدم دراسته للطبيعة، ويضلّ نفسه في كلّ مرة ينوي الخروج منها. ويجب عليه دائماً العودة بسرعة أو استبدال الكلمات التي لا يفهمها بنفسه بأشياء كان من الممكن أن يفهمها بشكلٍ أفضل لو أراد النظر إليها من دون تحيز.

ولكن، هل بإمكان اللاهوتي الاعتقاد أنَّه أكثر تنويراً لكونه استبدل الكلمات الغامضة: الروح، والجوهر غير المادي، والألوهية...إلخ، بمصطلحاتٍ أكثر وضوحاً، كالطبيعة، والمادة، والتحول، والضرورة؟ ومهما كانت هذه الكلمات الغامضة التي تخيلوها ذات مرة، كان من الضروري إرفاقها بالأفكار، وعند قيامه بهذا لم يكن قادراً على استخلاصها من أيّ مصدر آخر غير كائنات هذه الطبيعة المحتقرة، وهي دائماً الكائنات الوحيدة التي يمكنه الحصول على معرفةٍ بشأنها. وبالتالي رسمها الإنسان في نفسه، وأفاد عقله كنموذج عن العقل الكلي الذي لم يكنْ بالفعل وفقاً للبعض سوى جزءاً منه، وكان عقله معياراً للعقل الذي نظّم الطبيعة، وكانت عواطفه ورغباته نماذج أولية لتلك التي شغّل بها هذا الكائن، وكان ذكائه هو ذاك الذي شكّل منه ذكاء المحرك المفترض للطبيعة،

وأطلق على ما يناسبه اسم نظام الطبيعة، وكان هذا النظام المزعوم هو المقياس الذي قاس به حكمة هذا الكائن، والكيفية التي كانت بها تلك الصفات التي يسميها الكمال في ذاته، نماذجَ أولية وصورةً مصغرة للكمالات الإلهية. وهكذا، كان اللاهوتيون على الرغم من كلّ جهودهم، وسيظلون دائماً مجسدين حقيقيين. وبالفعل من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، منع الإنسان من جعل نفسه النموذج الوحيد لإله.[138] ولا يرى الإنسان بالفعل في إلهِهِ سوى الإنسان، لذلك دعه يستغل إرادةً كاذبة، ودعه يوسّع قدراته الخاصة قدر ما يستطيع، ودعه يُضخم كماله إلى أقصى حد، ولن يفعل شيئاً أكثر من صنع رجل ضخم ومُبالغ فيه، والذي يجعله وهمياً بسبب تكديسه للصفات المتعارضة معاً. ولن يرى في الإله سوى كائناً من الجنس البشري، وسوف يجتهد فيه لتعظيم النسب، حتى يشكّل كائناً لا يمكن تصوره تماماً. ووفقاً لهذه المواقف، ينسب الذكاء والحكمة والخير والعدالة والعلم والقوة إلى الإله؛ لأنَّه هو نفسه ذكي، ولديه فكرة عن الحكمة عند بعض الكائنات من جنسه، ولأنَّه يحب أن يجد فيها أفكاراً مواتية لنفسه، ويقدّر الذين يظهرون الإنصاف، ولأنَّ لديه معرفة يعتقد أنَّها أكثر شمولاً في بعض الأفراد منه، وباختصار؛ لأنَّه يتمتع ببعض الملكات التي تعتمد على منظومته الخاصة. ويوسّع أو يبالغ الآن في كلّ هذه الصفات، وتلزمه رؤية الظواهر الطبيعية التي يشعر أنَّه غير قادر على إنتاجها أو تقليدها، بإحداث هذا الاختلاف بين إلهه وذاته، لكنه لا يعرف متى يتوقف، ولا يخشى أن يخدع نفسه إذا رأى أيَّ حدود للصفات التي يعينها له؛ لذلك فإنَّ كلمة لامتناه هي المصطلح المجرد والغامض الذي يستخدمه لوصفه. ويقول: إنَّ قوته لا متناهية، مما يدل على أنَّه عندما يرى تلك الآثار الهائلة التي تنتجها الطبيعة، لا يكون لديه تصور أين يمكن أن تنتهي قوته، وأنَّ خيره وحكمته ومعرفته لامتناهية، وهذا يفصح عن أنَّه يجهل المدى الذي يمكن أن تحمله هذه الكمالات في كائنٍ تفوق قوته كثيراً ما لديه من قوة. ويقول: إنَّ إلهه أبدي، أيْ مداه غير محدود؛ لأنَّه غير قادر على تصور أنَّه كان من الممكن أن يكون له بداية أو يمكن أن يتوقف عن الوجود، وهذا يُعتبر عيباً في تلك الكائنات اللحظية التي يرى فيها التحلل، ويراها تتعرض للموت. ويفترض أنَّ علّة تلك المعلولات التي يشهدها ثابتة، ودائمة، وغير خاضعة للتغيير مثل كلّ الكائنات الزائلة التي يعرف أنَّها خاضعة للانحلال، والفناء، وتغيير الشكل. إنَّ هذا المحرك المزعوم للطبيعة كائناً غير مرئي دائماً

للإنسان، وتكون طريقة عمله مبهمة، حيث يعتقد أنَّ هذا الإله، يشبه المبدأ الخفي الذي يحيي جسده، وأنَّه القوة المحركة للكون. وهكذا، عندما يتوصل بحكم التباهي إلى الاعتقاد بأنَّ المبدأ الذي يتحرك به جسده هو جوهر روحي وغير مادي، فإنَّه يجعل إلهه روحانياً أو غير مادي بالطريقة ذاتها، ويجعله عظيماً وإن كان بلا حدود، وغير متحرك رغم أنَّه قادر على تحريك الطبيعة، وغير قابل للتغيير على الرغم من أنَّه يفترض أنَّه خالق لكلِّ التغييرات التي حدثت في الكون.

ومن هنا كانت فكرة وحدة الإله نتيجة للرأي القائل: إنَّ هذا الإله هو نفس الكون، ومع ذلك لم يكن سوى ثمرةً متأخرة للتفكير البشري.[139] وكانت رؤية تلك المعلولات المتعارضة والمتناقضة في كثيرٍ من الأحيان، والتي يراها الإنسان تحدث في العالم، تميلُ إلى إقناعه بأنَّه يجب أن يكون هناك عدد من القوى أو الأسباب المميزة المستقلة عن بعضها البعض. ولم يكن قادراً على تصور تلك الظواهر المختلفة التي رآها ناجمة عن علّة وحيدة وفريدة، لذلك اعترفَ بالعديد من العلل أو الآلهة التي تعمل بموجب مبادئ مختلفة، واعتبر بعضها ودوداً والبعض الآخر معادياً لعرقه. وهذا هو أصل تلك العقيدة القديمة جداً، والكلية للغاية التي افترضت أنَّ مبدأين في الطبيعة أو قوتين ذات مصلحة معاكسة كانتا في حالة حرب دائمة مع بعضهما البعض، وبمساعدة هذا أوضح ذلك المزيج الثابت بين الخير والشر، وهذا المزج بين الرخاء وسوء الحظ، وبعبارة أخرى، تلك التقلبات الأبدية التي يتعرض لها البشر في هذا العالم. وهذا هو مصدر تلك المعارك التي كان من المفترض أن توجد في العصور القديمة بين الآلهة الخيّرة والشريرة، بين **أوزوريس وتيفوس Typhceus**، وبين **أوروسماديس Orosmadis** و**اريمانيس Arimanis**، وبين إله السماء والأرض والإله **تيتان Titanes** [إله الجبابرة]، وبين يهوه والشيطان. وفي هذه المواجهات، يرجح الإنسان دائماً من أجل مصلحته الخاصة كفة النصر للإله الرحيم، وظل هذا وفقاً لجميع التقاليد المتوارثة، دائماً في خضم ميدان المعركة، ومن الواضح أنَّه من صالح البشرية أن يسود الإله الخيّر على الإله الشرير.

حتى عندما يعترف الإنسان بإله واحد فقط، كان يفترض دائماً أنَّ أقسام الطبيعة المختلفة أُسنِدت إلى قوى تابعة لأوامره العليا التي يمنح بموجبها ملك الآلهة رعايته لإدارة العالم. - تضاعفت هذه الآلهة التابعة بشكلٍ مذهل، وكان لكلِّ إنسان، وكلِّ مدينة، وكلِّ

بلد، آلهتهم المحلية، والحافظة لهم، وكان لكلّ حدث، سواء كان محظوظاً أو مؤسفاً علةً إلهية، وكانت ناجمة عن أمر ملكي، ويعتمد كلّ تأثير طبيعي، وكلّ عملية من عمليات الطبيعة، وكلّ عاطفة، على الألوهية التي مال فيها الخيال اللاهوتي لرؤية الآلهة في كلّ مكان، وأخطأ دائماً في رؤية الطبيعة على أنَّها منمقة أو مشوهة. وضبط الشعر أشكاله المتناغمة في هذه المناسبات، وبالغ في التفاصيل، وحرك صوره، واستقبل الجهل الساذج الصور بلهفة، واستمع إلى العقائد بخضوع.

وهذا هو أصل تعدد الآلهة، وهذه هي الأسس التي تشبه ألقاب التسلسل الهرمي التي أسسها الإنسان بينه وبين الآلهة؛ لأنَّه شعر أنَّه غير قادر مباشرةً على مخاطبة الكائن المبهم الذي اعترف أنَّه ملك الطبيعة الوحيد، حتى من دون وجود أيّ فكرةٍ مميزة عن هذا الموضوع. وهذا هو علم الأنساب الحقيقي لأولئك الآلهة المرؤوسين الذين يضعهم الجهل كوسيلة تناسبية بينهم وبين أول العلل الأخرى. ونتيجة لذلك، نرى الآلهة مقسمين عند الإغريق والرومان إلى فئتين: كانت تُسمى الأولى الآلهة العظيمة،[140] التي شكّلت نوعاً من النظام الأرستقراطي المميز عن الآلهة الثانوية، أو عن العديد من الآلهة العرقية. ومع ذلك فإنَّ الرتبة الأولى من هذه الآلهة الوثنية، كانت خاضعة مثل الأخيرة للقدر؛ أيّ المصير الذي من الواضح أنَّه ليس سوى الطبيعة التي تعمل بموجب قوانين ثابتة وصارمة وضرورية، وكان يُنظر إلى هذا المصير على أنَّه إله الآلهة. ومن الواضح أنَّ هذا لم يكن أكثر من تجسيد ضروري، ولذلك كان من الضعف عند الوثنيين أن يتعبوا من تضحياتهم، ويتضرعوا بصلواتهم إلى تلك الآلهة التي يعتقدون هم أنفسهم أنَّها خضعت لأوامر مصير لا يرحم، ولم يكن من الممكن بالنسبة لهم أن يغيروا بموجبه الوصايا. لكن الإنسان يكف دائماً عن التفكير عندما تكون مفاهيمه اللاهوتية موضع تساؤل.

وما قيل يفيد بالفعل بإظهار المصدر المشترك لهذا العدد الكبير من القوى الوسيطة، والتابعة للآلهة، ولكنها متفوقة على الإنسان، وملأ بها الكون،[141] وكرّمها تحت أسماء الحوريات، والآلهة، والملائكة والشياطين وجني خيّر وشرير والأرواح والأبطال والقديسين وما إلى ذلك. وهذه تشكّل فئات مختلفة من الآلهة الوسيطة التي أصبحت أساساً لآمالهم أو موضوعاً لمخاوفهم، ووسيلةً للمواساة أو مصدراً للرهبة بالنسبة لأولئك البشر الفانين الذين ابتكروها فقط عندما وجدوا أنَّه من المستحيل أن يشكلوا لأنفسهم أفكاراً مميزة

وواضحة عن الكائن المبهم الذي يحكم العالم بشكلٍ رئيسي، أو عندما يئسوا من القدرة على التواصل معه مباشرة.

وبعض أولئك الذين أعطوا الموضوع اهتماماً أكثر من غيره، اختصروا عبر تأملهم وتفكيرهم، الكل إلى إله واحد قدير، تكفي قوته وحكمته للسيطرة عليهم. وكان يُنظر إلى هذا الإله على أنَّه ملك يغار من الطبيعة. وأقنعوا أنفسهم بإعطاء المنافسين والمرتبطين بالملك كلّ تكريم من شأنه أن يسيء إليه – وأنَّه لا يستطيع تحمّل تقسيم الهيمنة – وأنَّ القوة اللامتناهية والحكمة اللامحدودة لن يكن لها فرصة لتقسيم السلطة ولا لأيّ مساعدة. وهكذا اعترف بعض المفكرين الذين فكروا بعمقٍ بإله واحد، أنَّهم سعداء بعملهم هذا لكونهم حققوا أهم اكتشاف. ومع ذلك، لابدّ أنَّهم شعروا في الحال بالحيرة الشديدة بسبب الأفعال المتناقضة لهذا الإله الواحد. لدرجة أنَّهم اضطروا إلى أن ينسبوا إليه الصفات الأكثر تضارباً وتطرفاً ليفسروا تلك الآثار المتناقضة التي كذّبت بشكلٍ ملموس وواضح بعض الصفات التي خصصوها له. وعندما افترض الإنسان وجود إله خالق لكلّ شيء، اضطر إلى أن ينسب الخير والحكمة والقوة غير المحدودة، والقبول بالإحسان إلى النظام الذي تخيل أنَّه رآه في الكون، بحسب الآثار الرائعة التي شهدها، ولكن كيف يمكنه من ناحية أخرى تجنب أن ينسب إلى هذا الحقد الإلهي الإسراف والنزوة، والاضطرابات المتكررة والشرور الهائلة التي كثيراً ما يكون الجنس البشري مسؤولاً عنها؟ كيف يمكن للإنسان أن يتجنب تصويره للإسراف، وهو دائماً يعمل على تدمير ما فعلته يديه؟ كيف نتمكن من عدم الشك في عجزه، عندما لا يؤدي دائماً تلك المشاريع التي من المفترض أنَّه صنعها بنفسه؟

ولحل هذه الصعوبات، خلق الإنسان أعداءً للإله، كانوا رغم خضوعهم للإله الأعلى مؤهلين لتعكير صفو هيمنته، وإحباط آرائه، حيث خُلق ملكاً، ووجد خصوماً مستعدين، مهما كانوا عاجزين، للتنازع على تاجه. وهذا هو أصل حكاية الجبابرة أو الملائكة المتمردين، الذين جعلهم افتراضهم ينزلقون إلى هاوية البؤس – والذين تحولوا إلى شياطين أو إلى جن الشر؛ لم يكن لهؤلاء وظائف أخرى سوى إجهاض مشاريع الله تعالى، وإغواء أولئك الذين كانوا رعاياه وترعرعوا على التمرد.[142]

ونتيجة لهذه الحكاية المضحكة، صوروا ملك الطبيعة على أنَّه دائم الشجار مع الأعداء الذين خلقهم بنفسه، وعلى الرغم من قوته اللامتناهية، لم يتغلب عليهم بالكامل أو لم يتمكن من ذلك؛ حيث كان في حال من العداء المستمر، فيكافئ من يطيع قوانينه، ويعاقب أولئك الذين تآمروا لسوء الحظ مع أعداء مجده. ونتيجة لهذه الأفكار المستعارة من سلوك ملوك أرضيين غالباً ما يكونون دائماً في حالة حرب، ادعى بعض البشر أنَّهم كهنة الله؛ فجعلوه يتكلم، وكشفوا عن نواياهم المستترة، واستنكروا انتهاك قوانينه باعتبارها أبشع جريمة، واستقبلها الجهلاء دون أن يفحصوها، ولم يدركوا أنَّ منْ كلمهم كان إنسانٌ وليس إلهٌ، ولم يفكروا أنَّه كان من المستحيل على المخلوقات الضعيفة أن تتصرف على عكس إرادة إله افترضوا أنَّه خالقاً لكلّ الكائنات، ولذلك لا يمكن أن يكون له أعداء في الطبيعة إلا أولئك الذين خلقهم بنفسه. وقيل إنَّ الإنسان تمكن على الرغم من اعتماده الطبيعي وقوة إلهه اللامتناهية، من الإساءة إليه، وكان قادراً على التصدي إليه وإعلان الحرب عليه، والإطاحة بمخططاته، وارباك النظام الذي أسسه. ولا شك أنَّ هذا الإله، كان من المفترض لكي يستعرض قوته أن يخلق أعداءً له حتى يستمتع في قتالهم، رغم أنَّه لا يريد تدميرهم أو تغيير ميولهم السيئة. وبذلك كان يُعتقد أنَّه منح لأعدائه المتمردين وكذلك للبشرية جمعاء، حرية انتهاك أوامره، وإبادة مشاريعه، وإثارة غضبه، والاستحواذ على خيره. ومن هنا اعتُبرت كلّ منافع هذه الحياة على أنَّها مكافآت، وشرورها على أنَّها عقوبات مستحقة. ويبدو في الواقع أنَّ نظام الإرادة الحرة للإنسان قد اختُرع فقط لتمكينه من ارتكاب الخطيئة ضد الله، وتبرئة هذا الأخير من الشر الذي يجلبه للإنسان بممارسة الحرية المقدرة له.

ومع ذلك، أفادت هذه المفاهيم السخيفة والمتناقضة كأساسٍ لكلّ الخرافات في العالم، اعتقاداً أنَّهم فسروا بذلك أصل الشر وسبب بؤس الإنسان. ولكن لم يستطع الإنسان أن يرى سوى أنَّه عانى كثيراً أو تلطخ بالتراب من دون أن يرتكب أيّ إثم، ودون أيّ خطيئة معروفة لإثارة غضب إلهه، وأدرك أنَّه حتى أولئك الذين امتثلوا لأنظمته المزعومة بأكثرِ الطرق إخلاصاً كانوا غالباً متورطين في الخراب ذاته مع أجرأ منتهكي قوانينه. وأمام عادة الانحناء للسلطة والارتعاش أمام ملكه الدنيوي الذي منحه امتياز أن يكون ظالماً، ولا يجادل في ألقابه، ولا ينتقد أبداً سلوك أولئك الذين امتلكوا السلطة في أيديهم، لم يجرؤ

الإنسان على البحث في سلوك إلهه أو اتهامه بالقسوة غير المبررة. وإلى جانب ذلك، اخترع الكهنة، والملك السماوي وسائل لتبريره، وتبرير تلك الشرور أو تلك العقوبات التي يتعرض لها البشر أنفسهم، وافترضوا نتيجة للحرية التي ادعوا أنَّها مُنحت للمخلوقات، أنَّ الإنسان لديه خطيئة وأنَّ طبيعته منحرفة، وأنَّ الجنس البشري كلّه حمل معه عقاباً تكبده بسبب أخطاء أسلافه التي لا يزال ينتقم بها ملكهم العنيد من ذريتهم الأبرياء. ووجد البشر هذا الانتقام مشروعاً تماماً؛ لأنَّهم وفقاً للتحيزات الأكثر خزياً جعلوا العقوبات متناسبة مع قوة وكرامة الجاني، أكثر بكثير من تناسبها مع حجم الجريمة أو واقعيتها. واعتقدوا نتيجة لهذا المبدأ، أنَّ الإله لا يُشك في حقه في الانتقام، ولا تناسب ولا غاية للانتهاكات التي ارتُكبت ضد عظمته الإلهية. وباختصار، عذّب العقل اللاهوتي نفسه ليجد بشراً مذنبين، وليبرئ الإله من الشرور التي خبرتها الطبيعة سابقاً بالضرورة. واخترع الإنسان ألف حكاية ليعطي سبباً للوضع الذي دخل فيه الشر إلى هذا العالم، ويبدو دائماً أنَّ الانتقام من السماء له دوافع كافية؛ لأنَّه اعتقد أنَّ الجرائم المرتكبة ضد كائن عظيم وقدير على نحوٍ غير متناه يجب أن يُعاقب عليها على نحوٍ غير متناه.

وعلاوة على ذلك، رأى الإنسان أنَّ القوى الدنيوية، حتى عندما ارتكبت أبشع أشكال الظلم، لم تحمّله أبداً عبء كائنٍ ظالم، والتشكيك في حكمتها، والتذمر من سلوكها. ولم يمضِ حين ذاك إلى اتهام الحاكم المطلق للكون بالظلم أو الشك في حقوقه أو التذمر من صرامته، واعتقد أنَّ الله تمكّن من ارتكاب كلّ شيء ضد ما اقترفته يديه الهزيلتين، وأنَّه لا يدين بشيء لمخلوقاته. وأنَّ له الحق في أن يمارس عليهم سيادةً مطلقة وغير محدودة. وهكذا يعمل طغاة الأرض، إذ يفيد سلوكهم التعسفي كنموذجٍ يطابقونه مع الإله؛ فوضعوا فلسفةً للتشريع خاصة بالإله بناءً على أسلوب حكمهم السخيف وغير المعقول. - ومن هنا نرى أنَّ أكثر البشر شراً أفادوا كنموذج عن الإله، وأنَّ الحكومات الأكثر ظلماً تم جعلها نموذجاً لإدارته الإلهية. ولا يتوقف الإنسان على الرغم من قسوته ولاعقلانيته عن القول: إنَّه الأكثر عدلاً ومليئاً بالحكمة.

وافتتن البشر في جميع البلدان بآلهة خيالية، وظالمة، ودمويّة، وعنيدة، ولم يجرؤوا أبداً على البحث في حقوقها. -كانت هذه الآلهة في كلّ مكان قاسية وفاسدة ومتحيزة، وشبهوا هؤلاء الطغاة الجامحين الذين يقومون بأعمال شغب ويفلتون من العقاب ببؤس

رعاياهم الذين كانوا ضعفاء جداً أو خدعوا إلى حدٍ كبير بمقاومتهم، أو انهاروا تحت ذلك النير الذي غمروا به. إنَّ الإله ذو الشخصية البشعة التي جعلونا نعبدها حتى يومنا هذا، وإله المسيحيين الذي يشبه آلهة الإغريق والرومان، يعاقبنا في هذا العالم وسيعاقبنا في عالمٍ آخر على تلك الأخطاء التي جعلتنا الطبيعة عرضة لها. ومثل الملك المخمور بسلطته، يقوم باستعراض عبثي لسلطته، ويبدو أنَّه مشغولٌ فقط بمتعةٍ صبيانية لإظهار أنَّه سيد وأنَّه لا يخضع لأيِّ قانون. ويعاقبنا لجهلنا بماهيتهِ التي لا يمكن تصورها ومشيئته الغامضة. ويعاقبنا على ذنوب آبائنا، وتقرر نزواته الاستبدادية مصيرنا الأبدي، ووفقاً لقراراته المصيرية، نصبح رغمّ عنا أصدقاءه أو أعداءه، ولا يحررنا إلا عندما تكون لديه المتعة البربرية في تأديبنا على تلك المساوئ الضرورية التي جعلتنا فيها عواطفنا أو عيوبنا نصنع حريتنا. وباختصار، يُظهر لنا اللاهوت في جميع العصور، أنَّ البشر يُعاقبون على أخطاء حتمية وضرورية، وهم كألعاب مؤسفة لإله مستبد وشرير.(143)

وبناءً على هذه المفاهيم غير المعقولة، أسس اللاهوتيون في جميع أنحاء الأرض العبادة التي يجب على الإنسان أن يقدمها للإله الذي امتلك الحق في أن تكون متعلقة به، ومن دون أن يكون مرتبطاً بها؛ فأعفته سلطته العليا من جميع الواجبات تجاه مخلوقاته. وأصرّوا بعنادٍ على اعتبار أنفسهم مذنبين كلّما واجهوا المحن. ومن ثم لا تندهشوا إذا كان الإنسان المتدين في حالة خوف مستمر. حيث كانت تذكره فكرة الله دائماً بفكرةٍ طاغية لا يرحم، يتباهى ببؤس رعاياه، ويمكن لهؤلاء، حتى من دون معرفتهم به، أن يثيروا استياءه في كلّ لحظة، مع أنَّهم لم يجرؤوا أبداً على أن يلحقوا به الظلم؛ لأنَّهم اعتقدوا أنَّ العدالة لم تتحقق لتنظيم تصرفات كلّ ملك قدير، وضعته رتبته العالية فوق الجنس البشري، على الرغم من تخيلهم أنَّه قد شكّل الكون بالكامل من أجل الإنسان.

ومن ثم بسبب عدم أخذهم الخير والشر بالاعتبار كنتائج ضرورية على حد سواء، وبسبب عدم رجوعهم إلى علّتها الحقيقية، خلقَ البشر لأنفسهم عللاً وهمية وآلهة خبيثة، وتعلقوا بما لا يمكن لأيِّ شيء أن يتحرر من أوهامه. — ولكن لو أنَّهم نظروا إلى الطبيعة، لرأوا أنَّ الشر المادي نتيجة ضرورية لخصائص معينة لبعض الكائنات، وعرفوا بأنَّ الأوبئة والأمراض المعدية ناجمة عن عللٍ مادية وظروف خاصة – وأنَّ المركبات، رغم أنَّها طبيعية للغاية، غير أنَّها مقدّرة لأنواعها، وسيبحثون في الطبيعة بحدّ ذاتها عن أدوية مناسبة

لإضعاف تلك التي يعانون منها أو التسبب في إيقافها. وكانوا سيرون بطريقة مماثلة أنَّ الشر الأخلاقي لم يكن سوى نتيجة ضرورية لمؤسساتهم السيئة التي لم تُنسب لإله السماء، بل يجب أن تُنسب لظلم أمراء الأرض الذين افتعلوا تلك الحروب، والفقر، وتلك المجاعات، وتلك الهزائم، والمصائب، وتلك الرذائل، والجرائم التي يئنون في ظلها كثيراً. وبالتالي، لكي يتخلصوا من هذه الشرور، لا ينبغي أن يمدّوا أيديهم المرتعشة بلا فائدةٍ نحو الأشباح غير القادرة على التخفيف عنهم، ولم تكن خالقة لأحزانهم، وكان ينبغي عليهم أن يبحثوا في إدارةٍ أكثر عقلانية، وفي قوانين أكثر إنصافاً، ومؤسسات أكثر عقلانية، عن علاج لهذه المصائب التي نسبوها زوراً إلى انتقام الله الذي صُوِّرَ لهم على هيئة طاغية، ويجنبونه في الوقت ذاته متعة الشك في عدالته وخيره.

ولا يتوقف الكهنة في الواقع أبداً عن التكرار إنَّ إلههم ذو الخير غير المتناه، لا يتمنى إلا الخير لمخلوقاته، وصنع كلّ شيء لهم وحدهم، وعلى الرغم من هذه التأكيدات والإغراءات فإنَّ فكرة شره ستكون بالضرورة هي الأقوى، ومن المرجح أن تلفتْ انتباه البشر أكثر من اهتمامهم بخيره، وتكون هذه الفكرة القائمة أول فكرةٍ تُطرح بحدّ ذاتها دائماً على العقل البشري، كلّما انشغل بالإله. وتترك فكرة الشر بالضرورة انطباعاً حيوياً على الإنسان أكثر بكثير من انطباع الخير، ونتيجة لذلك، سيتفوق الإله المرعب دائماً على الإله الرحيم. وبالتالي، سواء كانوا يعترفون بتعددية الآلهة ذات المصالح المتعارضة، أو كانوا يعترفون بملكٍ واحد فقط في الكون، فإنَّ المشاعر المثيرة للدموع سوف تسود بالضرورة على الحب، وسوف يعبدون الإله الخيّر فقط حتى يمنعوه من ممارسة نزواته وأوهامه وحقده، وطالّما أنَّ القلق والرعب يلقيان بالإنسان عند قدميه، فإنَّ صرامته وقسوته هما اللذان يسعيان إلى نزع سلاحه. وباختصار، على الرغم من أنَّهم يؤكدون لنا في كلّ مكان أنّ الإله مليئاً بالشفقة والرحمة والخير، إلا أنّه دائماً ما يكون عبقرياً خبيثاً، وسيداً متقلباً، وشيطاناً كبيراً، ويقدمون له في كلّ مكان الولاء الخانع والعبادة التي يمليها الخوف.

ولا ينبغي أن يفاجئنا شيئاً في هذه الميول، ويمكننا أن نتعامل بصدقٍ مع ثقتنا وحبنا فقط لأولئك الذين نجد فيهم رغبةً دائمة بتقديمِ الخدمة لنا، وبمجرد أن يكون لدينا سبب للشك في مشيئتهم أو قوتهم أو حقهم في إيذائنا، فإنَّ فكرتهم تؤذينا، ونخشى منهم ولا نثق

بهم، ونتخذ الاحتياطات اللازمة ضدهم، ونكرههم من أعماق قلوبنا، حتى من دون أن نجرؤ على الاعتراف بمشاعرنا. وإذا كان لابدّ من النظر إلى الإله على أنّه المصدر المشترك بين الخير والشر الذي يحدث في هذا العالم، وإذا كانت لديه الرغبة أحياناً في إسعاد البشر، وإغراقهم في بعض الأحيان في البؤس أو معاقبتهم بصرامة، فيجب على البشر أن يخشوا بالضرورة نزواته أو قسوته، وأن يكونوا أكثر انشغالاً بتلك التي يرون بها الحل في كثيرٍ من الأحيان أكثر من خيره. وهكذا فإنَّ فكرة ملكهم السماوي يجب أن تجعل الإنسان دائماً غير مرتاح، ويجب أن تجعله قساوة أحكامه يرتعش أكثر بكثير من مقدرة خيره على مواساته أو تشجيعه.

وإذا انتبهنا إلى هذه الحقيقة، فسوف نشعر لماذا ارتعشت كلّ أمم الأرض أمام آلهتها وصنعتْ لهم العبادة الأكثر خيالاً ولاعقلانية وكآبة وقسوة، ولا تتفق خدمتها بما أنّها كانت مستبدة مع ذاتها إلا قليلاً، ولا تعرف أيّ قاعدة أخرى غير خيالاتها المواتية أحياناً، وتضرّ برعاياها في كثيرٍ من الأحيان، وباختصار، مثل السادة المتقلبين الذين يتوددون بلطفهم أقل من ترويعهم بعقوباتهم، وخبثهم، وبتلك القسوة التي لم يجرؤوا حتى الآن على الحكم عليها بأنّها ظالمة أو مجحفة. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نرى المتعبدين للإله، والذين يظهرونه بلا توقف للبشر على أنّه نموذجاً للخير والإنصاف والكمال، يسلمون أنفسهم لأقسى أشكال الغلو بحق أنفسهم، بهدف معاقبة أنفسهم، ومنع الانتقام السماوي، ويرتكبون في الوقت ذاته أبشع الجرائم ضد الآخرين عندما يعتقدون أنّهم بذلك يستطيعون التجرد من سلاحِ الغضب، والتماس العدل، واستدعاء رحمة إلههم. ولم يكن لكلّ الأنظمة الدينية للبشر، وتضحياتهم، وصلواتهم، وعاداتهم وطقوسهم أبداً أيّ هدف آخر غير تجنب غضب الإله، ومنع نزواته، وأن يثيروا فيه مشاعر الخير، التي يرونه ينحرف عنها في كلّ لحظة. ولم يكن لكلّ الجهود وكلّ خفايا اللاهوت أبداً أيّ غايةٍ أخرى سوى التوفيق في سيادة الطبيعة بين تلك الأفكار المتعارضة التي ولدتها هي بحد ذاتها في عقول البشر. وقد نجدُ تماماً هذه الغاية في فن تأليف الكائنات الخرافية من خلال الجمع بين الصفات التي من المستحيل التوفيق بين بعضها البعض.

نهاية المجلد الأول

ملاحظات

1- كتب شخصٌ اسمه روبينيت Robinetعملاً بالاتجاه ذاته، يُدعى (عن الطبيعة De la Nature)، الذي لا ينبغي الخلط بينه وبين كتاب البارون دي هولباخ.

2- Vide R. A. Davenport's *Dictionary of Biography*, Boston edition, (page 324, Article, Holbach. ربما يكون من الجيد أن نضيف أنَّه ولد عام 1723، في هايدشيم بألمانيا، على الرغم من أنَّه تلقى تعليمه في باريس، حيث قضى الجزء الأكبر من حياته. وكان عضواً مميّزاً في العديد من الأكاديميات الأوروبية، وملّماً بشكلٍ خاص بعلم المعادن. وتوفي عام 1789.

3- Vide *A Discourse of Natural Theology*, by Henry Lord Brougham, F.R.S., &c.Philadelphia: Carey, Lea, and Blanchard. 1835. Pages 146 and 147.

4- من المستحيل الاطلاع على الأعمال اللاهوتية القديمة والحديثة من دون الشعور بالاشمئزاز من الاختراع التافه لتلك الآلهة التي جعلوا منها موضوعات مرعبة أو محبة للبشرية. لنبدأ بسكان الهند ومصر واليونان وروما، أيّ تفاهة وحماقة في عبادتهم - أيّ نذالة وعار عند كهنتهم! وهل ما لدينا أفضل؟ قال **شيشرون Cicero**: لا! لم يتمكن منجمان من النظر إلى بعضهما من دون سخرية، لكنه لم يكن يعتقد أنَّ يأتي زمن ويكون هناك مجموعة من البؤساء اللئام والتعساء، وعند أخذهم لقب القس، سيحاولون إقناع إخوتهم البشر بأنَّهم يمثلون الإله على الأرض!

5. أثبت **تولاند Toland** المعروف بشكلٍ قاطع هذه الحقيقة التي لا يزال ينكرها العديد من الميتافيزيقيين، في كتاب ظهر له في بداية القرن الثامن عشر، بعنوان (رسائل إلى سيرينا *Letters to Serena*). وسيكون من الجيد أن يشير إليه أولئك الذين يستطيعون التعامل مع هذا العمل النادر، وستتبدد شكوكهم حول هذا الموضوع، إن كانت لديهم أيّ شكوك.

6- كلّ فعل له رد فعل مساوٍ له بالشدة ومعاكس له بالاتجاه (V. Bilfinger, de Deo, Anima et Mundo. §ccxviii. page 241.) وبعدها يضيف المعلق - رد الفعل

المذكور بحسب نشاط المريض، أو في حالة نشاط بدني يتم القيام به من تلقاء ذاته. ومع ذلك يوجد فعل من دون رد الفعل المعطى في الأجسام، طالما أنَّ الجسم بالنسبة لحركة القوى الخارجية، يقاوم الحركة ويتفاعل في هذا المسار بفضل المقاومة ذاتها. وبذل الجهود ضد الفاعلية أو اجبار الجسم على معارضة المقاومة الداخلية في البداية، هي قوة القصور الذاتي، أو السلبي. لذلك يتأثر الجسم بقوة القصور الذاتي. وفي المقابل تكون قوة القصور الذاتي وقوة القوة الدافعة للجسم ذاته على خلاف ذلك، كما لو أنَّه يدفع نفسه. ومع ذلك فإنَّ قوة القصور الذاتي هي الفعل الوحيد الذي يُمارس مقابل القوة المبذولة...إلخ، (ibidem).

7- اعتبر الفلاسفة الطبيعيون، ونيوتن بحد ذاته، أنَّ سبب الجاذبية لا يمكن تفسيره. ومع ذلك، يبدو أنَّه من الممكن الاستدلال عليه من خلال حركة المادة التي تحددها الأجسام على نحوٍ مختلف. فالجاذبية ليست سوى طريقة للتحريك - ميلاً نحو المركز. ولكن، للحديث بشكلٍ صحيح، فإنَّ كلّ حركة هي جاذبية نسبية: فما يسقط بالنسبة لنا، يصعد بالنسبة للأجسام الأخرى. ويترتب على ذلك بالتالي أنَّ كلَّ حركة في الكون ناجمة عن الجاذبية؛ لأنَّ الكون لا يتضمن أعلى ولا أسفل ولا مركز إيجابي. إذ يبدو أنَّ وزن الأجسام يعتمد على التكوين الخارجي والداخلي، والذي يعطيها تلك الحركة التي تُسمى الجاذبية. فتسقط كرة من الرصاص لكونها كروية بسرعة، ولكن إن اختُزلتْ هذه الكرة إلى صفائح رفيعة جداً، فستبقى لفترة أطول في الهواء، وسيؤدي فعل النار إلى ارتفاع هذا الرصاص في الجو. وهنا سيعمل الرصاص بعد تعديله بشكلٍ مختلف وبأوضاع مختلفة تماماً.

8- أنظر الملاحظات المجهرية للسيد **نيدهام Needham**، والتي تؤكد بشكلٍ كامل على عبارة المؤلف أعلاه.

9- العقل البشري غير كافٍ في الواقع لتصور اللحظة التي كان فيها كلّ شيء عدماً أو عندما يموت الجميع، وإن تم الاعتراف بأنَّ هذا صحيح، فهو ليس حقيقة بالنسبة لنا؛ لأنَّه لا يمكننا بحكم طبيعة منظومتنا أن نعترف بالمواقف على أنَّها حقائق، ولا يمكن تقديم أيّ دليل عليها يتعلق بحواسنا: ربما نوافق بالفعل على تصديقها؛ لأنَّ الآخرين يقولون ذلك، ولكن هل سيرضى أيّ كائن عاقل بمثل هذا الاعتراف؟ وهل يمكن أن ينجم أيّ خير أخلاقي عن هذه الثقة العمياء؟ وهل يتوافق مع العقيدة السليمة، ومع الفلسفة، ومع

العقل؟ وهل نولي في الواقع أيّ اعتبارٍ لفهم الآخر عندما نقول له: سأصدق هذا لأنَّك في جميع المحاولات التي غامرتَ بها بقصد إثبات ما تقوله، قد فشلتَ تماماً، واضطررت أخيراً إلى الإقرار بأنَّك لا تعرف شيئاً عن المادة؟ ولماذا ينبغي أن نعتمد أخلاقياً على مثل هؤلاء الأشخاص؟ وربما تتفوق فرضية على أخرى، وقد يدمر نظام آخر، ومجموعة جديدة من الأفكار؟ وربما تقلب أفكار يوم سابق. وقد يُحكم على **غاليليين** آخرين بالإعدام- قد ينشأ **نيوتن** آخر – قد نفكر ونجادل ونختلف، وقد نتشاجر ونعاقب وندمر، بل قد نمحو أولئك الذين يختلفون عنا في الرأي، ولكن عندما نفعل كلّ هذا، سنكون ملزمين بالتراجع عن ضلالنا الأصلي، والاعتراف بأنَّ ما ليس له علاقة بحواسنا، وما لا يمكن أن يظهر لنا من خلال بعض الأساليب العادية التي تتجلى بها أشياء أخرى لا وجود له بالنسبة لنا وغير مفهوم من قبلنا. ولا يمكن أبداً إزالة شكوكنا بالكامل، ولا يمكن أن نتمسك بإيماننا الراسخ وبرؤية ما لا يمكننا حتى أنّ نشكل فكرة عنه. وباختصار، طالما بقينا على ما نحن عليه، يجب إخفاء ذلك عنا بحجابٍ لا يمكننا إزالته بأيّ قوة أو ملكة أو طاقة نمتلكها؛ فكلّ من لا يستعبدهم التحيز، يوافقون على حقيقة الموقف: أنَّ لاشي ينشأ عن لا شيء.

اعترف العديد من اللاهوتيين بأنَّ الطبيعة كلّاً مفعماً بالحيوية. واتفق جميع الفلاسفة القدماء تقريباً على اعتبار العالم أبدياً. حيث يقول **أوكلوس لوكانوس Ocellus Lucanos**،(*) متحدثاً عن الكون: "لقد كان دائماً وسيظل دائماً." ويؤكد لنا **فاتابل Vatable**،(**) و**غروتيوس Grotius**:(***) أنّه لتقديم العبارة العبرية بشكلٍ صحيح في

---

* – **أوكلوس لوكانوس**: فيلسوف فيثاغوري ولد في القرن السادس قبل للميلاد. (المترجم) وللمزيد أنظر: OCELLUS LUCANUS: On The Nature Of The Universe Taurus, The Platonic Philosopher, On The Eternity Of The World. Julius Firmicus Maternus Of the Thema Mundi; In Which the Positions of The Stars at The Commencement of The Several Mundane Periods Is Given. Select Theorems on The Perpetuity of Time, By Proclus. Translated from The Originals by Thomas Taylor.)

** – **فرانسيس فاتابل**: (1495–1547) عالم إنسان فرنسي، قدم العديد من الترجمات اللاتينية، وشارك في ترجمة سلسلة من الكتاب المقدس اللاتيني، وارتبط اسمه به. (المترجم)، وللمزيد أنظر: (https://link.springer.com/referenceworkentry)

*** – **هوغو غروتيوس**: (1583–1645) شخصية بارزة في الفلسفة والنظرية السياسية والقانون والمجالات المرتبطة بها خلال القرن السابع عشر ولمئات السنين بعدها.(المترجم)، وللمزيد أنظر: (Hugo Grotius (Stanford Encyclopedia of Philosophy))

الفصل الأول من سفر التكوين، يجب أن نقول: "عندما خلق الله السماء والأرض، كانت المادة بلا شكل" وإذا كان هذا صحيحاً، ويمكن لكلّ عبريٍ أن يحكم بنفسه، فإنَّ الكلمة التي قُدمتْ (خلق) تعني فقط الطريقة والشكل والترتيب. ونحن نعلم أنَّ الكلمات الإغريقية (خلق وكوّن) تشير دائماً إلى الشيء ذاته. ووفقاً للقديس جيروم **Jerome**، فإنَّ كلمة الخلق لها نفس معنى الإيجاد، والتأسيس، والبناء. ولا يقول الكتاب المقدس في أيّ مكان بطريقة واضحة: إنَّ العالم خُلق من العدم. ويعترف كلّ من **ترتليان**، والأب **بيتاو Petau**،(*) بالقول: "تترسخ هذه الحقيقة من خلال التفكير أكثر من ترسيخها عن طريق السلطة." ويُظهر القديس **جوستين Justin** المادة المتأملة على أنَّها أبدية، حيث أثنى على **أفلاطون** بقوله: "إنَّ الله عندما خلقَ العالم أعطى دفعاً للمادة وشكلّها فقط". وكان **بيرنت Burnet** و**فيثاغورس Pythagoras** يؤيدان هذا الرأي تماماً، وحتى خدمة الكنيسة قدموا ربما الدعم لها؛ لأنَّهم على الرغم من الاعتراف بها ضمنياً في البداية، لكنهم نفوها صراحةً في النهاية بالقول: "هو الآن كما كان منذ الأزل، وسيظل دائماً عالماً بلا نهاية." ومن السهل أن ندرك أنَّ ما لا يمكن أن يكف عن الوجود يجب أن يكون دائماً.

10 – أولئك الذين راقبوا الطبيعة عن كثب، يعرفون أن حبتين من الرمل ليستا متشابهتين تماماً. وبمجرد أن تكون الظروف أو التعديلات ليست ذاتها بالنسبة للكائنات من النوع ذاته، لا يمكن أن يكون هناك تشابهاً دقيقاً بينهما. أنظر الفصل السادس. حيث فهم **لايبنتز Leibnitz** العميق والدقيق هذه الحقيقة جيداً. وهذه هي الطريقة التي شرح له بها أحد تلاميذه: من الواضح أنَّ كل عنصر من عناصر الأشياء المادية يكون مختلفاً من حيث مبدأ التطابق indiscernibilium، إلى درجة عدم تمييز أحدها عن الآخر، وتصبح كلّ الأشياء موجودة خارج بعضها بعض، وهي النقاط التي تختلف فيها عن الكيانات الرياضية، نظراً لأنَّ الأولى القادرة على الاستفادة من هذا الافتراض غير متطابقة أبداً. (Bilfinger, De Deo, Anima Et Mundo, page 276.)

11– إذا كان صحيحاً أنَّ كلّ شيء لديه ميلٌ لتشكيل كتلة واحدة فريدة أو وحيدة، وفي تلك الكتلة الفريدة ستأتي اللحظة التي يبذل فيها الكلّ جهداً، فستبقى على

---

* – **الأب بيتاو**: (1583– 1652) من أبرز علماء الدين في القرن السابع عشر. (المترجم)، وللمزيد أنظر: (Catholic Encyclopedia (1913) /Denis Pétau - Wikisource, the free online library)

هذه الحالة إلى الأبد – ولن يكن هناك إلى الأبد سوى جهد واحد، وسيكون هذا موتاً أبدياً وكلياً. وفهم الفلاسفة الطبيعيون الجهد على أنَّه ما يبذله جسم ما تجاه جسم آخر من دون انتقال موضعي. وهذا يؤكد وفقاً للكيميائيين، أنَّه لا يمكن أن يكون هناك سببٌ للانحلال؛ لأنَّ الأجسام لا تعمل عندما تتحلل. فأجسادنا لا تعمل إن كانت مفككة.

12– سيبقى كلّ شيء على حاله في هذا العالم إن لم يكن له بداية، لكن العالم حادثاً من حيث التكوين، وعند بداية كلّ تكوين جديد تكون النهاية لآخر – [V. Censorin. De Die Natali].

ويعبر الشاعر **ماركوس مانيليوس Manilius**(*) عن ذاته بالطريقة ذاتها في هذه السطور الجميلة: –

كلّ الأشياء تتغير، والقانون خلقه البشر
قرأوا أو تعرفوا على الأرض لسنوات،
وتجاهلوا المظهر المتنوع عبر العصور.
لكن العالم يبقى آمناً، حيث أسبغ عليه كلّ ما لديه من خيرات مراعياً لما يلي:
أن يحد من عمره، ويقلل من الشيخوخة،
ولا جدوى من حركته، وما ينشأ عنها من تعب
فالشيء ذاته سيحدث دائماً، ويكون دائماً على المنوال ذاته.
(Manilii Astronom. Lib. I.).

كان هذا أيضاً رأي **فيثاغورس**، كما ورد كذلك عند **أوفيد Ovid**،(**) في الكتاب الخامس عشر من التحولات، القصيدة 165، ما يلي: –

* – ماركوس مانيليوس: ولد في القرن الأول الميلادي، شاعر روماني وكاتب قصيدة في خمسة كتب تدعى القصيدة الفلكية. (المترجم) وللمزيد أنظر:[Marcus Manilius / Roman poet / Britannica]

** – بيليوس أوفيديوس ناسو **Publius Ovidius Naso**: (43 ق.م. – 17 م)، المعروف بلقب أوفيد، شاعر روماني قديم، من أشهر أعماله "التحولات" (Metamorphoses) بعام 8 م، والتي كانت عن الميثولوجيا الإغريقية والرومانية. وعرف بكتابته حول استكشاف الحب مثل قصيدة "فن الحب" (Ars Amatoria) التي كتبها في السنة الأولى قبل الميلاد. (المترجم) وللمزيد راجع: [أوفيد، مسخ الكائنات، نقله إلى العربية: ثروت عكاشة، مراجعة: مجدي وهبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1992]

كلّ الأشياء تتغير، وليس هناك نيةٌ أو خطأ من جهة أخرى

وهذا ما يجري، هنا وهناك ...إلخ

13- يمكن أن نلاحظ هنا أنَّ جميع المواد الروحية (أي تلك التي تحتوي على نسبة كبيرة من المواد النارية والقابلة للاشتعال، مثل النبيذ، والشراب المسكر، والمشروبات الكحولية، وما إلى ذلك) هي تلك التي تسّرع المعلومة العضوية عند الحيوانات، من خلال إيصال الحرارة إليها. وهكذا، يولد النبيذ الشجاعة، وحتى الفطنة. وفي فصلي الربيع والصيف، تفقس أعدادٌ لا حصر لها من الحشرات، وتنبعث نباتات وافرة في الحياة؛ لأنَّ مادة النار تكون أكثر وفرةً مما كانت عليه في الشتاء. ومن الواضح أنَّ هذه المادة النارية هي علّة التخمر والتولد والحياة — إله السماء والأرض عند القدماء.

14- هلاك الفرد من جيل إلى آخر. وبالتالي يمكن القول بدقة: لا شيء في الطبيعة يولد أو يموت، وفقاً للإجماع على تلك المصطلحات. ويؤكد هذه الحقيقة العديد من الفلاسفة القدامى، حيث يخبرنا **أفلاطون**: "وفقاً للتقليد القديم، وُلِد الأحياء من الأموات، كما أتى الأموات من الأحياء؛ هذا هو الروتين المستمر للطبيعة". ويضيف عنه هو نفسه: "من يدري إن كان حياً وليس ميتاً؛ وإن كان ميتاً وليس حياً؟" وكانت هذه عقيدة **فيثاغورس**، وهو رجلٌ يتمتع بموهبةٍ كبيرة وليس أقل شهرة. ويقول **أمبادوقليس Empedoclec**: "لا يوجد ولادة ولا موت بالنسبة لأيّ بشري، بل فقط مزيج وفصل لما تم تركيبه، وهذا ما يسمونه عند البشر بالولادة والموت". ويشير ثانيةً "أولئك الرضع أو الأشخاص الذين يعانون من قصر النظر ولديهم فهم ضيق للغاية، والذين يتخيلون أنَّ أيّ شيء يولد لم يكن موجوداً من قبل أو أنَّ أي شيء يمكن أن يموت أو يفنى تماماً".

15- تطلّب العقل الثاقب والحريص لـ**فرانكلين Franklin** أن يلقي ضوءً على طبيعة هذا السائل الرقيق، ليطور الوسائل التي يمكن أن تجعل آثاره غير ضارة، ويتوجه إلى الأهداف المفيدة للظاهرة التي جعلت الجاهلين يرتعشون، وملأت أذهانهم بالرعب، وقلوبهم بالفزع، باعتبارها إشارة إلى غضب الآلهة؛ فأعجبوا بهذه الفكرة، وسجدوا، وضحوا من أجل إله السماء أو يهوه، شاكين غضبهم.

16- نظام الجذب والتنافر هذا قديم جداً، لكنه تطلب من **نيوتن** تطويره. ويبدو أنَّ هذا الحب الذي عزا إليه القدماء كشف أو تحليل الفوضى، لم يكن سوى تجسيداً لمبدأ

الجاذبية. ومن الواضح أنَّ جميع حكاياتهم وخرافاتهم حول الفوضى لا تشير سوى إلى الاتفاق أو الاتحاد الموجود بين المواد المتماثلة والمتجانسة، والتي نشأ عنها وجود الكون: بينما كان عدم الانسجام أو النفور، الذي أطلقوا عليه اسم "σοις" علةً للانحلال والفوضى، وعدم الانسجام. وبالكاد يمكن أن يبقى هناك شك لكن هذا كان أصل عقيدة المبدأين. ووفقاً لديوجين اللايرتي **Diogenes Laeertius**، أكد الفيلسوف **إمبادوقليس**: "أنَّ هناك نوعاً من المحبة التي تتوحد من خلالها العناصر، ونوعاً من الكراهية التي تنفصل من خلالها العناصر أو تتفكك".

17- يعترف القديس **أوغسطين** بهذا الميل؛ لأنَّ الحفاظ على الذات موجود عند جميع الكائنات، سواء كانت متعضية أم لا. - انظر رسالته (De Civitate Dei, lib. Xi. Cap. 28)

18- هذا هو رأي **أفلاطون**، الذي يقول: "المادة والضرورة هما الشيء ذاته، وهذه الضرورة هي أمُ العالم." ولا يمكننا في الحقيقة تجاوز هذا القول المأثور، فالمادة تؤثر لأنَّها موجودة، وهي موجودة لتؤثر. وإذا تم التساؤل عن كيفية وجود المادة أو لماذا هي موجودة؟ نجيب، لا نعلم: لكن بالاستدلال من خلال القياس على ما لا نعرفه مما نفعله، نرى أنَّها موجودة بالضرورة، أو لأنَّها تتضمن في حد ذاتها السبب الكافي لوجودها. ولنفترض أنَّ هناك كائناً مميزاً عنها خلقها أو أنشأها أو معروفاً أقل منها، لا يزال علينا الاعتراف بأنَّ هذا الكائن ضروري، ويتضمن سبباً كافياً لوجوده. ولا نعمل بعد ذلك على إزالة أيّ صعوبة، ولا نلقي ضوءاً أوضح على هذا الموضوع، ولا نتقدم خطوةً واحدة، ونضع جانباً الفاعل الذي نعرف من خلاله بعض خصائصها، لنلجأ إلى قوة من المستحيل تماماً أن نتمكن من تشكيل أيّ فكرة تميزها، ولا يمكن إثبات وجودها. ولذلك يجب أن تكون هذه في أفضل الأحوال من نقاط الاعتقاد التأملي، وقد يفكر فيها كلّ فرد بسبب غموضها، ببصريات مختلفة وفي ظل جوانب مختلفة، ويجب تركهم بالتأكيد أحراراً ليحكم كلّ منهم على طريقته الخاصة؛ فلا يمكن للربوبي أن ينفي تماماً سبب معاداته للملحد بسبب عدم إيمانه؛ ويجب على الطوائف العديدة لكلّ من المذاهب المختلفة المنتشرة على وجه الأرض أن تجعله عقيدة، والنظر بعين الرضا على انحراف الآخر؛ وتستند إلى تلك البديهية الأخلاقية العظيمة، التي تتوافق تماماً مع الطبيعة، وتحتوي على نواة سعادة الإنسان - "لا تفعل مع شخص آخر، ما لا ترغب أن يفعله الآخرون بك"؛ لأنَّه من

الواضح، وفقاً لمذاهبهم أنَّه من بين جميع أنظمتهم المتنوعة، يمكن لنظام واحد فقط أن يكون على حق.

19- قوة الطرد المركزي هي مصطلحٌ فلسفي، استُخدم لوصف تلك القوة التي تحاول من خلالها جميع الأجسام المتحركة حول أيّ جسم آخر في دائرة أو قطع ناقص أن تبتعد عن محور حركتها عند مماس السطح الخارجي أو محيطه.

20- المعجزة، بحسب بعض الميتافيزيقيين، هي المعلول الناجم عن قوة غير موجودة في الطبيعة. —المعجزة هي المعلول الناجم عن قوة لا تكفي الطبيعة لمعرفتها. -(See Bilfinger, De Deo, Animo et Mundo). ونستنتج من ذلك أنَّه يجب البحث عن العلّة وراء الطبيعة أو خارجها؛ مع أنَّ العقل يحثّنا على عدم العودة إلى العلل الخارقة للطبيعة لشرح الظواهر التي نراها، قبل أن نتعرّف تماماً على العلل الطبيعية – أي على القوى والقدرات التي تحتويها الطبيعة بحد ذاتها.

21- أي عندما يميل بكلّ مثير يتلقاه، وكلّ حركة ينقلها، إلى الحفاظ على صحته وإسعاده، من خلال تعزيز سعادة أقرانه من البشر.

22- يقول كاتب غير معروف: "اعتدنا بأنفسنا على التفكير بأنَّ الحياة نقيض الموت؛ وهذه تبدو لنا في ظل فكرة الهلاك المطلق التي حرصنا إلى حدّ ما على استثناء النفس منها، بما أنَّ النفس أو العقل، ليست شيئاً بالأساس سوى نتيجة للحياة التي تكون أضدادها حية وغير حية. فالموت لا يتعارض مع الحياة، ذلك أنَّه مبدأ لها. حيث تشكلت من جسد حيوان واحد لم يعد حياً، آلاف الكائنات الحية الأخرى". أنظر:(Miscellaneous Dissertations: Amsterdam. 1740, pp.252, 253.)

23- نحن نقارن دائماً بين ذكاء الكائنات الأخرى وذكائنا، وإذا لم يكن ذاته، ننكر وجوده، وهو خطأٌ فادح للغاية؛ لأنَّ الكائن رغم أنَّه قد يبدو محروماً من ذكائنا، إلا أنَّ لديه ذكاء خاص بمنظومته، مما يقوده إلى الاندفاع بأكبر قدرٍ ممكن نحو غاية لا نراها؛ فجميع الكائنات، فيما يتعلق بالغاية التي تفترضها الطبيعة لذاتها، مزودة بدرجة من الذكاء تسمح لها بالضرورة ببلوغها. وافتراض أنَّ كائناً محروماً من الذكاء يعني فحسب أنَّ ذكاءه لا يشبه ذكاءنا، وأنَّنا لا نفهمه – وبالقول: إنَّ الكائن يؤثر عن طريق الصدفة، هو للاعتراف فحسب بأنَّنا لا نرى غايته والمكانة التي يشغلها في سلسلة الوجود الكلية. ومن

المؤكد تماماً أنَّ جميع الكائنات تمتلك ذكاءً، وإن كنا ربما لا نفهمه، وليس من المؤكد أنَّ كلّ الكائنات تميل إلى الغاية، وإن كنا ربما لا ندركها.

24. يُقال إنَّ **أناكساغوراس Anaxagoras** كان أول من افترض أنَّ الذكاء خلق الكون وحكمه. ويلومه **أرسطو** على أنَّه صنع آلةً ذاتية الحركة بهذا الذكاء. أيّ أنَّه نسب إحداث الأشياء لمجرد أنَّه كان في حيرة من أمره، لأسباب وجيهة تتعلق بتفسير سبب مظهرها. — أنظر: (Bayle's Dictionary, Art. Anaxagoras, Note E.)

25- لقد لجأ لعدم قدرته على التوفيق بين هذه الفوضى الواضحة وبين الإحسان الذي يربطه بهذه العلة إلى جهدٍ آخر من خياله. وصنع علةً جديدة، عزا إليها كلَّ الشر، وكلّ البؤس الناتج عن هذه الفوضى، وقد أفادت شخصيته كنموذج، أضاف إليه تلك التشوهات التي تعلّم أن يحتفظ بها باستخفاف، وفي مضاعفته لهذه العلل المضادة أو المدمرة، تسبب في الهرج والمرج.

26- يقول كاتب غير معروف: "يجب أن نعرّف الحياة قبل أن نتمكن من التفكير في النفس، ولكن هذا الذي أقدره مستحيل؛ لأنَّ هناك أشياء في الطبيعة بسيطة للغاية بحيث لا يمكن للخيال تقسيمها أو اختزالها إلى أيّ شيء أبسط منها، وهذه هي الحياة، بياضٌ، وضوءٌ، لم نتمكن من تحديدها إلا من خلال تأثيراتها."- انظر: (Miscellaneous Dissertations, printed at Amsterdam, 1740, page 232.) – الحياة عبارة عن دمج حركة طبيعية لكائن منظم، بحركة يمكن أن تكون فقط خاصة بالمادة.

27. ما أن يتشرّب الإنسان فكرةً لا يستطيع فهمها، يتأمل فيها حتى يعطيها تجسيداً كاملاً. وهكذا رأى أو تخيل أنَّه رأى المادة النارية تتغلغل في كلّ شيء؛ فظن أنَّها كانت المبدأ الوحيد للحياة والنشاط، وشرّع في تجسيدها، وأعطاها شكلاً خاصاً بها، وأطلق عليها اسم المشتري أو إله السماء، وانتهى بعبادة هذه الصورة لخالقه كقوة استمد منها كلّ خير اختبره، وكلّ شر عانى منه.

28- سيجيب اللاهوتيون من دون تردد على هذا السؤال بطريقة أكثر عقائدية وإيجابية. ولن يخبروك فقط من أين جاء الإنسان، بل أيضاً كيف ومن الذي أوجده؛ وما قاله وما فعله عندما سار على الأرض لأول مرة. ومع ذلك، تقول الفلسفة الحقيقية – "أنا لا أعرف".

29- كيف نعرف أنَّ الكائنات والمنتجات المختلفة التي قيل إنَّها خُلقت في الوقت ذاته مع الإنسان، ليست النتاج المتأخر والعفوي للطبيعة؟ فمنذ أربعة آلاف عام تعرّف الإنسان على الأسد: - حسنًا! ماذا عن الأربعة آلاف سنة؟ من يستطيع أن يثبت أنَّ الأسد الذي رآه الإنسان لأول مرة منذ أربعة آلاف عام، لم يكن موجوداً بعد آلاف السنين؟ أو مرة أخرى، أنَّ هذا الأسد لم ينتج بعد آلاف السنين ذو القدمين المتباهي الذي يسمي نفسه بغطرسة ملك الكون؟

30- يا له من شاعر تراجيدي يلجأ إلى الله، عندما لا يجد حجةً أخرى لشرح القضية.(Cicero, de, Divinatione Lib. 2) ويقول ثانية: آلهة تلك الأشياء ما هي إلا شعوذة عظيمة تسن القوانين، ولا يبحث عن العلل.- (المرجع ذاته).

31. لا شيء في الطبيعة منحط أو تافه، وهو مجردُ كبرياء ينشأ من فكرة خاطئة عن تفوقنا، مما يتسبب في ازدرائنا لبعض منتجاتها. ولكن المحار في نظر الطبيعة الذي ينبت في قاع البحر يكون عزيز ومثالي مثل ذو القدمين المتباهي الذي يلتهمه.

32- سؤال مقنع جداً يطرح نفسه في هذه المناسبة: إذا كان هذا الجوهر المميز الذي يُقال إنَّه يشكل أحد الأجزاء المكونة الإنسان، هو حقاً ما يتم الحديث عنه، وإذا لم يكن كذلك، فليس هو الموصف إن كان مجهولاً. وإذا لم يكن واضحاً للحواس، وإذا كان غير مرئي، فبأيّ وسيلةٍ تعرّف الميتافيزيقيون أنفسهم عليه؟ كيف كوّنوا فكرةً عن الجوهر الذي أخذوه بالحسبان على أنَّه لا يمكن إدراكه تحت أيّ ظرف له بشكلٍ مباشر أو عن طريق المماثلة التي يدركها عقل الإنسان؟ وإذا تمكنوا من تحقيق ذلك بشكلٍ إيجابي، فلن يكن هناك أيّ لغز في الطبيعة، وسيكون من السهل تصوّر الزمن الذي يكون فيه الجميع عدماً، عندما يكون الجميع قد رحلوا، مع الأخذ بالاعتبار حدوث كلّ شيء نراه، مثل الحفر في حديقة أو قراءة محاضرة. ويتلاشى الشك عند الجنس البشري، ولم يعد من الممكن أن يكون هناك أيّ اختلاف في الرأي، بما أنَّ الكل يجب أن يكون لديهم بالضرورة رأي واحد حول موضوع يسهل أن يصل إليه محقق.

ولكن سيتم الرد ويعترف المادي بحد ذاته، كما اعترف الفلاسفة الطبيعيون في جميع العصور، بالعناصر والذرات والكائنات البسيطة وغير القابلة للتجزئة التي تتكون منها الأجسام، - وأكدوا، وليس لديهم المزيد، واعترفوا أيضاً أنَّ العديد من هذه الذرات، والعديد من هذه العناصر، إن لم يكن كلّها، غير معروفة بالنسبة لهم، ومع ذلك، فإنَّ هذه

الكائنات البسيطة، وهذه الذرات عند المادي ليست هي ذاتها الروح أو النفس عند الميتافيزيقي. وعندما يتحدث الفيلسوف الطبيعي عن الذرات، وعندما يصفها بأنَّها كينونات بسيطة، فإنَّه لا يشير سوى إلى أنَّها متجانسة، ونقية، وغير مختلطة، لكنه بعد ذلك يسمح بأن تكون لديها أجزاء ممتدة منفصلة بالتالي عن طريق الفكر، على الرغم من عدم وجود فاعل طبيعي آخر يكون على دراية بقدرته على تقسيمها – تلك الكائنات البسيطة من هذا الجنس عرضة للحركة، ويمكن أن تنقل الفعل، وتتلقى المثير، وتكون مادية، وموضوعة في الطبيعة، وغير قابلة للهلاك؛ وبالتالي، إذا لم يستطع معرفتها بحد ذاتها، يمكنه تكوين فكرة عنها عن طريق القياس؛ وهكذا، عمل بشكلٍ واضح ما فعله الميتافيزيقي بشكلٍ غامض، والأخير، بهدف جعل الإنسان خالداً، والصعوبات التي تواجه رغبته، نظراً لأنَّ الجسد يتحلل – يخضع للقانون الكلي العظيم – ولحل الصعوبة، وإزالة العائق، منحه نفساً متميزة عن الجسد، والذي يقول: إنَّه مستثنى من عمل القانون العام، ولتفسير ذلك، أطلق عليه اسم الكائن الروحي الذي تنفي خصائصه جميع الخصائص المعروفة، وبالتالي لا يمكن تصوره، ومع ذلك، لجأ إلى ذرات السابق. ولو جعل لهذا الجوهر مصطلحاً آخر ممكن لتقسيم المادة، لكان على الأقل واضحاً؛ وكان من الممكن أيضاً أن يكون خالداً؛ لأنَّه وفقاً لأفكار جميع البشر، سواء أكانوا ميتافيزيقيين أو لاهوتيين أو فلاسفة طبيعيين، فإنَّ الذرة عنصر غير قابل للهلاك، ويجب أن يكون موجوداً إلى الأبد.

33- بما أنَّ الإنسان يأخذ في حسبانه في جميع تأملاته النموذج، ولم يسبق له أن تخيل روحاً في داخله ومنحها امتداداً، وجعلها كلية، نسب إليها جميع الأسباب التي يمنعه جهله من أن يلمّ بها. وهكذا حدد ذاته مع الخالق المفترض للطبيعة، ثم استفاد من الافتراض بشرح ارتباط النفس بالجسد. ومنعه تقاعسه من إدراك أنَّه كان يوّسع فحسب دائرة أخطائه، عبر ادعائه بأنَّه يفهم أكثر مما يُحتمل أنَّه لن يعرفه أبداً، ومنعه حبه لذاته من الشعور، كلما عاقب شخصاً آخر لأنَّه لم يفكر كما فعل، وارتكب أكبر قدر من الظلم، وإن لم يكن قادراً بشكلٍ مرضٍ على إثبات أن الآخر على خطأ –وهو على حق، وإذا كان هو ذاته ملزماً باللجوء إلى فرضيات، وافتراضات غير المبررة، أسس عليها مذهبه، فقد تكون قابلية طبيعته للخطأ هذه خاطئة، هكذا تعرض **غاليليو** للاضطهاد؛ لأنَّ الميتافيزيقيين واللاهوتيين في عصره اختاروا إقناع الآخرين بما كان واضحاً أنَّهم لم يفهموه. أما بالنسبة للميتافيزيقيين المعاصرين لنا، فقد يحلمون بروحٍ كونية وراء نمط النفس

البشرية – بذكاء لامتناه وراء نمط الذكاء المتناه، لكنهم بعملهم هذا لا يدركون أنَّ هذه الروح أو الذكاء، سواء افترضوا أنَّهما متناهيين أو لامتناهيين، لن تكون ملاءمة أكثر أو مناسبة لتحريك المادة.

34- ووفقاً لهذه الإجابة، يتكرر لاتناهي الجوهر غير الممتد أو الجوهر غير الممتد ذاته إلى ما لانهاية له من الأزمنة، وسيشكل جوهر له امتداد، وهذا أمرٌ سخيف؛ لأنَّ النفس البشرية ستكون وفقاً لهذا المبدأ، لا متناهية مثل الله، بما أنَّه يفترض أنَّ الله كائناً بلا امتداد، فهو غير متناه من حيث الأزمنة ككل في كلّ جزء من الكون – والشيء ذاته يُذكر عن النفس البشرية، ومن هنا يجب أن نستنتج بالضرورة أنَّ الله ونفس الإنسان لا متناهيان على حد سواء، إلا إذا افترضنا جواهر غير ممتدة ذات امتدادات مختلفة، أو أنَّ إلهًا بلا امتداد امتد أكثر من النفس البشرية. ومع ذلك هذه هي الملاحم الشعرية التي يعتقد بعض علماءنا الميتافيزيقيين اللاهوتيين أنَّ الكائنات تصدقها! وبهدف جعل النفس البشرية خالدة، جعلها هؤلاء اللاهوتيون روحانية، وبالتالي جعلوها كائناً مبهماً، ولو أنَّهم قالوا إنَّ النفس كانت القسم الأدق من المادة، لكان ذلك مفهوماً – وخالدة أيضاً؛ لأنَّها ستكون ذرةً وعنصراً غير قابل للتحليل.

35. الكلمة العبرية Ruach ريح تعني التنفس، والنَفس. والكلمة اليونانية πνευμα الروح تعني الشيء ذاته، وهي مشتقة من πνευω، النَفس. ويذكر **لاكتانتيوس Lactantius** أنَّ الكلمة اللاتينية الروح anima تأتي من الكلمة اليونانية άνεμος التي تعني الريح. وأجمع بعض الميتافيزيقيين الذين يخشون من النظر إلى ما وراء الطبيعة البشرية على أنَّ الإنسان يتألف من ثلاث جواهر، الجسد والنفس والفكر–Ζωμχ ، ψυχη،Νος، أنظر: (Marc.Antonin, Lib. Liii.16).

36- بحسب **أوريجانوس**، ατωματος، الروح incorporeus، صفة تُمنح إلى الإله، وتشير إلى جوهر أكثر رقة من ذلك الموجود في الأجسام العامة. ويقول اللاهوتي **تيرتليان**: من يستطيع أن ينكر وجود الآلهة في الجسد ووجود الروح؟ ويقول أيضاً: نحن ندرك أنَّه يوجد هنا مادة حية، ومن خلال حجمها نثبت أنَّنا نمتلك نوعاً من المادة الصلبة، ويمكننا التصرف على أساسها بأيّ شكل من الأشكال، والشعور بها.(V. De Resurrectione Carnis.)

37- يدين النظام الروحاني، كما هو معترف به اليوم، بكلّ براهينه المزعومة إلى **ديكارت**. وعلى الرغم من أنَّ النفس اعتُبرت قبله على أنَّها روحية، إلا أنَّه كان أول من

أثبت أنّها "ما يُعتقد أنَّه يجب تمييزه عن المادة" ومن هنا يستنتج أنَّ النفس أو ما يفكر عند الإنسان، هو الروح - أيّ جوهر بسيط وغير قابل للتجزئة. ولكن ألن يكون أكثر اتساقاً مع المنطق والعقل القول: بما أنَّ الإنسان، والذي هو مادة وليس لديه فكرة سوى عن المادة، يتمتع بملكة التفكير — أي أنَّه عرضة لتعديل معين يُسمى بـ(الفكر) — أنظر (Bayle's Dictionary, Art. Pomponatius and Simonides)

38- بالرغم من ضآلة العقل والفلسفة في النظام الروحاني، إلا أنَّنا يجب أن نعترف بأنَّه يتطلب مكراً عميقاً من جانب اللاهوتيين الأنانيين الذين اخترعوه. ولكي ينال الإنسان الثواب والعقاب بعد الموت، كان من الضروري استثناء جزء منه من الفساد والانحلال - عقيدة مفيدة للغاية بالنسبة للكهنة، وهدفهم الأكبر هو ترهيب الجاهلين وحكمهم ونهبهم - مكنتهم تلك العقيدة أيضاً من إرباك الكثير من الأشخاص المستنيرين، والذين لا يستطيعون بالقدر ذاته فهم "الحقائق السامية" عن النفس والإله! ويخبرنا هؤلاء الكهنة الشرفاء أنَّ هذه النفس غير المادية ستُحرق، أو بعبارة أخرى، ستعاني في الجحيم بفعل العنصر المادي للنار، ونحن نؤمن بكلمتهم !!!

39. فليقرأ أولئك الذين يرغبون في تكوين فكرة عن القيود التي يفرضها اللاهوت على عبقرية الفلاسفة المولودين في ظل "الحكم المسيحي"، تلك الرومانسيات الميتافيزيقية لـ**لايبنتز، وديكارت، ومالبرانش Malebranche، وكودوورث Cudworth،** إلخ. وندرس بهدوء الأنظمة العبقرية والمبتذلة التي تحمل عنوان: (الانسجام المحدد مسبقاً للعلل العرضية، ما قبل الحركة المادية،) إلخ.

40- عندما يُسأل عالم لاهوت، عازم على الاعتراف بجوهرين مختلفين بشكلٍ أساسي عند الإنسان، لماذا يضاعف الكائنات من دون ضرورة؟ سيجيب: "لأنَّ التفكير لا يمكن أن يكون خاصية للمادة". ومن ثم إذا سُئِل:" ألا يستطيع الله أن يمنح للمادة ملكة التفكير؟" سيجيب: "لا! نظراً لأنَّ الله لا يستطيع أن يفعل أشياء مستحيلة!" ولكن هذا هو الإلحاد، لأنَّه حسب مبادئه، من المستحيل أن تنتج الروح أو التفكير مادة، كما أنَّه من المستحيل أن تنتج المادة روحاً أو فكراً: لذلك يجب أن نستنتج مقابله أنَّ الروح لم تخلق العالم، بل العالم خلق الروح، وأنَّ العالم أبدي، وإذا كانت الروح الأبدية موجودة، فلدينا كائنان أبديان، وهذا سخف. ولذلك إذا كان هناك جوهر أبدي واحد، فهو العالم الذي لا يمكن الشك في وجوده أو إنكاره.

41- من الواضح أنَّ فكرة الأرواح التي تخيلها الهمج واعتمدتها أنا الجاهل، تؤخذ بالحسبان على أنَّها تأخر تقدم المعرفة؛ لأنَّها تمنعنا من البحث في العلة الحقيقية للمعلولات التي نراها، بإبقاء العقل البشري في حالة من اللامبالاة والكسل. وقد تكون حالة الجهل هذه مفيدة جداً للاهوتيين المخادعون، ولكنها ضارة جداً بالمجتمع. ومع ذلك هذا هو السبب في اضطهاد الكهنة في جميع العصور لأولئك الذين كانوا أول من قدم تفسيرات طبيعية لظواهر الطبيعة -كشاهد على ذلك **أناكساغوراس وأرسطو وغاليليو وديكارت** - وحديثاً **ريتشارد كارليل Richard Carlile وويليام لورانس William Lawrence** و**روبرت تايلور Robert Taylor** و**أبنر نيلاند Abner Kneeland**؛ الذي قد نضيف إليه اسم العالم المبجل **توماس كوبر Thomas Cooper**، دكتوراه في الطب، ورئيس مؤخراً لكلية كولومبيا، جنوب كارولينا.

42- الدليل على ذلك موجود في أعمال الأكاديمية الملكية للعلوم في باريس: حيث يخبروننا عن رجل كُشفت جمجمته، وهي غرفةٌ يُغلف فيها دماغه بقشرةٍ بحجم يتناسب مع الضغط باليد على دماغه، فأصاب الرجل نوع من عدم الإحساس الذي حرمه من كلّ شعور. ويقول **بارتولين Bartolin**: إنَّ دماغ الإنسان أكبر بمرتين من دماغ الثور. وقدم **أرسطو** هذه الملاحظة بالفعل. وفي جثة أبله شرّحها **ويليس Willis**، وجد أنَّ دماغه أصغر من دماغ الإنسان العادي، ويقول: إنَّ أكبر فرق وجده بين أجزاء جسد هذا الأبله وتلك الخاصة بالبشر الأكثر حكمةً، هو أنَّ ضفيرة الأعصاب الوربية التي تتوسط بين الدماغ والقلب، صغيرة للغاية، ومصحوبة بعددٍ أقل من الأعصاب عن الإنسان العادي. وبحسب **ويليس**، فإنَّ القرد هو من بين جميع الحيوانات التي لديها أكبر دماغ نسبياً بالنسبة لحجمه، وهو أيضاً، الأكثر ذكاءً بعد الإنسان، وهذا ما يؤكده أيضاً الاسم الذي يحمله في التربة التي ينتمي إليها، وهو إنسان الغابة: أوتانج أو الإنسان الوحش. ولذلك هناك ما يدعو للاعتقاد بأنَّ الاختلاف الموجود في الدماغ بالكامل لا يوجد فقط بين الإنسان والوحوش، بل أيضاً بين الإنسان الفطن والجاهل؛ وبين المفكر والجاهل. وبين الإنسان ذو الفهم السليم والمجنون. ومرة أخرى، تثبت العديد من الخبرات أنَّ هؤلاء الأشخاص الذين اعتادوا على استخدام قدراتهم الفكرية، تكون عقولهم واسعة أكثر من غيرهم، وقد لوحظ الشيء ذاته لدى الملّاحون أو السباحون، الذين لديهم أذرعاً أكبر بكثير من البشر الآخرين.

43- تتمتع جميع أجزاء الطبيعة بإمكانية الوصول إلى الحيوية، والعقبة الوحيدة هي في الحالة وليس من حيث الجودة. فالحياة كمالٌ للطبيعة، وليس لها أجزاء لا تميل إليها، ولا تصل إليها بالوسائل ذاتها. ولا تختلف الحياة عند الحشرة، والكلب، والإنسان، سوى في أنَّ هذا التأثير أتم بالنسبة لنا، وبما يتناسب مع بنية الأعضاء؛ لذلك إذا طُرح السؤال ما هو المطلوب لتحريك الجسد؟ نجيب، لا يحتاج إلى مساعدة خارجية ويكفي أن تنضم قوة الطبيعة إلى منظومته.

44- يقول الدكتور **كلارك** **Clarke**: إنَّ الضمير هو فعل التأمل الذي أعرف من خلاله أنَّني أفكر، وأنَّ أفكاري أو أفعالي تخصني ولا تخص الآخرين. - أنظر رسالته ضد **دودويل Dodwell**.

45- ثبت من هذا بما فيه الكفاية أنَّ الفكر له بداية، ومدة، ونهاية، أو بالأحرى ولادة، وتتابع، وانحلال، مثل جميع التحولات الأخرى في المادة، ومثلها، ينفعل الفكر ويقرر، ويزداد، وينقسم، ويتركب، ويكون بسيطاً، وما إلى ذلك. ولذلك إذا كانت النفس أو المبدأ الذي يفكر، غير قابل للتجزئة، فكيف تكون للنفس ملكة الذاكرة والنسيان، وتكون قادرة على التفكير المتواصل، والتقسيم، والتجريد، والتركيب، وتوسيع أفكارها، والاحتفاظ بها، وفقدانها؟ وكيف يمكن أن تتوقف عن التفكير؟ وإذا بدت الأشكال قابلة للقسمة في المادة، فإنَّ ذلك يكون فقط عند النظر إليها عن طريق التجريد، وفقاً لمنهج علماء الهندسة، لكن هذا التقسيم للشكل ليس موجوداً في الطبيعة، حيث لا توجد نقطة أو ذرة أو شكلاً منتظماً تماماً؛ لذلك يجب أن نستنتج أنَّ أشكال المادة ليست أقل قابلية للتجزئة مما يُعتقد.

46- كائن مكون من رجل وحصان.

47- كائن مكون من حصان له أجنحة.

48- لا يوصف!

49- رجل له قرنان، وذيل وقدم مشقوقة.

50- لن يكون من غير المعقول أن نفترض أنَّ ما يسميه الأطباء السيال العصبي؛ الذي يعطي إشعاراً سريعاً للدماغ بكلّ ما يحدث للجسم، ليس أكثر من مادة كهربائية؛ وأنَّ النسب المختلفة لهذه المادة المنتشرة من خلال نظامه، هي سبب هذا التنوع الكبير الذي يجب اكتشافه عند الإنسان وفي الملكات التي يمتلكها.

51- إذا تأملنا قليلاً سنجد أنَّ الحرارة هي مبدأ الحياة. فعن طريق الحرارة تنتقل الكائنات من الخمود إلى الحركة – من السكون إلى الهياج – من حالة السبات إلى حالة الحياة النشطة. وتم إثبات ذلك من خلال البيضة التي تتحول إلى دجاجة بفعل الحرارة؛ ويجب أن يكفي هذا المثال من بين الآلاف التي قد نذكرها، لإثبات حقيقة أنّه من دون حرارة لا توجد ولادة.

52- يعتمد التعاطف على الحساسية الجسدية التي لا تكون هي ذاتها أبداً لدى جميع البشر. وبالتالي كم هو سخيفٌ أن نجعل التعاطف مصدراً لكلّ أفكارنا الأخلاقية وتلك المشاعر التي نختبرها تجاه أقراننا من المخلوقات. ليس كلّ البشر غير حساسين على حد سواء فحسب، بل هناك الكثير ممن لم يتطور لديهم الحس – مثل الملوك والكهنة ورجال الدولة –

"والشجعان المأجورين الذين يدافعون

عن عرش الطاغية – المرعوبين خشيةً منه!"

53- تثبت الخبرة أنَّ الجريمة الأولى دائماً ما تكون مصحوبة بآلام ندم أكثر من الجريمة الثانية؛ وتلك أكثر من الثالثة، وهكذا بالنسبة لما يليها. والفعل الأول يكون بداية للعادة؛ ويؤكد ذلك الناجحون؛ فمن خلال قوة مواجهة العقبات التي تحول دون ارتكاب الأفعال الإجرامية يصل الإنسان إلى قوة قهرها بسهولة ويسر. وهكذا كثيراً ما يصبح شريراً بفعل العادة.

54- يقول هوبز: إنَّ "طبيعة جميع الكائنات المادية التي تحركت على نحوٍ متكرر بالطريقة ذاتها، تتلقى باستمرار قدرة أكبر أو تحدث الحركات ذاتها بسهولة أكثر. وهذا هو الذي يشكل العادة في الأخلاق كما في الفيزياء. (V. Hobbes's Essay on Human Nature.).

55- لقد اعتادوا على الاستخدام المنظم والمتواصل لعقولهم، ولا يظنون أنّه عجيب، ولا يبحثون عن أسباب الأشياء التي يرونها.(Cicero de Natur: Deorum Lib. ii. Cap. 2.)

56- يجب أن تكون هناك مصلحة متبادلة بين المحكوم والحاكم، وكلّما كانت هذه المعاملة بالمثل مطلوبة، يكون المجتمع في حالة من الفوضى تلك، التي تحدثنا عنها في الفصل الخامس – يكون على وشك التدمير.

57- قال شاعر قديم بحق: توجد مدينة سيرفون في أيّ زمن.

58- قال **سينيكا** لسبب وجيه: مخطئ إذا كنت تعتقد أنَّ الرذائل نحدثها نحن؛ ويستوعبها السلف.(V. Sebec. Epist. 91, 95, 124.)

59- يقتلون كبار السن في بعض الدول، والأطفال عند بعضهم يخنقهم آباؤهم. وقام الفينيقيون والقرطاجيون بذبح أطفالهم لآلهتهم. والأوروبيون يمتدحون المبارزات، في حين يعتبرها أولئك الذين يرفضون تفجير أدمغة الآخرين عاراً. ويعتقد الإسبان والبرتغاليون أنَّه من الجدير بالتقدير حرق الزنديق. ويرى المسيحيون أنَّه من الصواب قطع رقاب من يختلف عنهم في الرأي. وفي بعض البلدان تقوم النساء بالدعارة من دون أن تشعر بالعار. وفي حالات أخرى، يكون من حسن الضيافة أن يقدم الرجل زوجته إلى أحضان الغريب، ورفض قبول هذا يثير استياءه ويدعوه إلى الغضب.

60- يعتقد بعض الفلاسفة القدماء أنَّ النفس تحتوي في الأصل على مبادئ لمفاهيم أو عقائد متعددة، وأطلق الرواقيون على هذه مصطلح Προληψις الآراء المسبقة. في حين أطلق عليها علماء الرياضيات اليونان κοινας Εννοιας الأفكار الكلية. ولليهود عقيدة مشابهة استعاروها من الكلدانيين. وعلّم حاخاماتهم أنَّ كلّ نفس قبل أن تتحد بالبذرة التي يجب أن تشكل جنيناً في رحم امرأة، يُؤتمن على رعايتها ملاك يجعلها ترى أرض السماء، والجحيم، ويقولون: إنَّ هذا يتم بمساعدة المصباح الذي يطفئ نفسه بمجرد وصول الطفل إلى العالم. أنظر (Gaulmin. De ciia et morte Mosis.)

61- قد تُظهر هذه مبالغةً تتعلق بعقيدة الأسقف **كلوين Cloyne**، لكن لا يمكن أن تكون أكثر من المبالغة المتعلقة بعقيدة **مالبرانش**، بطل الأفكار الفطرية الذي يجعل من الألوهية رابطة مشتركة بين النفس والجسد، أو أكثر من عقيدة أولئك الميتافيزيقيين الذين يؤكدون أنَّ النفس جوهر غير متجانس مع الجسد، وبإسنادهم أفكار الإنسان إلى هذه النفس، جعلوا الجسد في الواقع غير ضروري. ولم يدركوا أنَّهم كانوا محط اعتراض قوي، وهو أنَّه إذا كانت أفكار الإنسان فطرية، وإذا كان يستمدها من كائن أسمى ومستقل عن العلل الخارجية، وإذا كان يرى كلّ شيء في الله؛ فكيف يحدث أنَّ تكون الكثير من الأفكار الخاطئة شائعة، وأن تسود الكثير من الأخطاء التي يتشبع بها عقل الإنسان؟ ومن أين تأتي تلك الأفكار التي تثير جداً استياء الإله حسب رأي اللاهوتيين؟ وقد لا يكون هذا السؤال موجهاً لأتباع **مالبرانش**: هل كان **سبينوزا** يرى نسقه في الألوهية؟

62- كائن افترض الشعراء أنَّ له رأساً ووجهاً مثل المرأة، وجسد كالكلب وأجنحة كالطيور، ومخالب كالأسد، يطرح ألغازاً ويقتل من لا يستطيع تفسيرها.

63- إن هذا المبدأ الحقيقي جداً، والواضح جداً، والمهم جداً من حيث نتيجته، قد وضعه عددٌ كبير من الفلاسفة بكلّ بريقه. ومن بينهم **لوك** العظيم.

64- الأخلاق هي علم الحقائق؛ لذلك فإنَّ تأسيسها على فرضية لا يمكن أن يبلغها بحواسه وليس لديه وسيلة لإثباتها في الواقع، جعلها غير يقينية، وأثار لديه الفتنة وجعله يتجادل بلا توقف حول ما لا يستطيع فهمه أبداً. ويظهر التأكيد على أنَّ أفكار الأخلاق فطرية أو ناجمة عن الفطرة، أنَّ الإنسان يعرف كيف يقرأ قبل أن يتعلم حروف الأبجدية، وأنَّه على دراية بقوانين المجتمع قبل خلقها أو إصدارها.

65- أنظر المجلد الثاني، الفصل الرابع.

66. لا شيء يبلغ ذروة الحماقة أكثر من رفض الملكات الفكرية للحيوانات؛ التي تشعر، وتختار، وتتروى، وتعبّر عن الحب، وتُظهر الكراهية، وفي كثير من الحالات تكون حواسها أكثر حدةً بكثير من حواس الإنسان. حيث ستعود الأسماك بشكلٍ دوري إلى البقعة التي اعتادت أن يُرمى لها فيها الخبز.

67- يبدو أنَّ أكثر الممارسين مهارةً في الطب هم بشرٌ يتمتعون بمشاعر حادة للغاية، ومماثلة لتلك التي لدى علماء الأعضاء الذين حكموا بفضلهم بانتشار الأمراض بسهولة كبيرة، وقاموا على وجه السرعة بوضع تنبؤاتهم.

68- يقول **فرانسوا دي لاموث لوفاير La Motte Le Vayer**: "نحن نفكر بالأشياء في وقت ما عن غيره خلافاً لذلك تماماً، فنحن نختلف عندما نكون شباباً عن الشيخوخة — وعندما نكون جائعين غير عندما تكون شهيتنا مشبعة – وفي الليل غير في النهار – وعندما نكون غاضبين غير عندما نكون مبتهجين؛ وبالتالي نتغير كلّ ساعة، وتجعلنا ألف حالة أخرى في حالةٍ من عدم الاستقرار الدائم وعدم الثبات.

69- أنظر المجلد الثاني، الفصل الرابع.

70- أنظر الفصل الرابع عشر. - غالباً ما يُحفز الإنسان على إهلاك نفسه عن طريق الآلام العقلية أكثر من الآلام الجسدية. وقد يجعله ألف شيء ينسى معاناته الجسدية، بينما تلك التي في عقله يمتصها دماغه بالكامل؛ وهذا هو سببُ تفوق الملذات الفكرية على الملذات الأخرى.

71. يقضي الإنسان جزءاً كبيراً من حياته من دون حتى إرادة. حيث تعتمد إرادته على الدافع الذي يحدده. وإذا كان سيقدم سرداً دقيقاً لكلّ شيء يفعله على مدار كلّ يوم – من الاستيقاظ في الصباح إلى الاستلقاء عند الليل – فسيجد أنَّ أفعاله لم تكن إرادية إلى حدّ ما، بل كانت آلية، ومعتادة، وتقررها علل لم يكن قادراً على التنبؤ بها؛ فإما كان مجبراً على الاستسلام لها أو أغروه ليوافق عليها، وسيكتشف أنَّ جميع دوافع التي تحثه على عمله، وتسليته، وخطاباته، وأفكاره، كانت ضرورية، ومن الواضح أنَّها أغرته أو جذبته.

72– يقول القديس **أوغسطين**: "ليس كلّ ما يتبادر في ذهن الإنسان له قوة".

73– لا يوجد في الواقع فرق بين الإنسان الذي يُطرح من النافذة من قبل آخر، والإنسان الذي يرمي نفسه منها. باستثناء أنَّ الدافع في الحالة الأولى يأتي مباشرة من الخارج، في حين أنَّ الدافع الذي يحدد السقوط في الحالة الثانية ينبع من داخل عضويته الخاصة به، والتي لها علّة بعيدة خارجية أيضاً. وعندما وضع **موتيوس سكافولا Mutius Scavola** يده في النار، كان يعمل تحت تأثير الضرورة (بسبب الدوافع الداخلية) التي حثته على هذا الفعل الغريب، كما لو أنَّ ذراعه كانت ممسوكة من قبل بشر أقوياء: فالكبرياء، واليأس، والرغبة في تحدي عدوه، والرغبة في دهشته، والقلق من تخويفه، الخ. كانت السلاسل غير المرئية التي تربط يده بالنار. ودفع حب المجد والتعصب لبلدهم، بالطريقة ذاتها، **كودرس Codras** و**ديقيانوسDecius** إلى تكريس أنفسهم لأقرانهم اللاحقين. وكان الكولونيل الهندي والفيلسوف **بيريغرينوس Peregrinus** ملزمين بالقدر ذاته بحرق نفسيهما، وبرغبة مثيرة للدهشة من الحشد اليوناني.

74– اعترف العديد من المؤلفين بأهمية التعليم الجيد، وأنَّ الشباب هو مرحلة تغذية قلب الإنسان بنظام غذائي صحي. ولكنهم لم يشعروا أنَّ التعليم الجيد غير متوافق مع خرافات الإنسان بل ومستحيل؛ لأنَّ هذا يبدأ بإعطاء عقله تحيزاً زائفاً ولا يتماشى مع الحكومة التعسفية؛ لأنَّ هذا يقلقها دائماً خشية أن يصبح مستنيراً، وتغريه دائماً لجعله ذليلاً، وضيعاً، ومحتقراً، ومتألماً؛ وذلك يتعارض مع القوانين التي كثيراً ما تستهزئ بالظلم، ولا يمكن الحصول عليها من تلك العادات التي يتلقاها وتعارض الحس السليم، وذلك لا يمكن أن يوجد عندما يكون الرأي العام غير مؤيد للفضيلة، ومن السخف أن نتوقع تلك في البداية من مدربين غير قادرين، ومن أساتذة ذوي عقول

ضعيفة، ولا يملكون سوى القدرة على غرس تلك الأفكار الخاطئة عند تلامذتهم والتي أفسدتهم هم أنفسهم.

75- لا يمكننا أن نتصور عقيدةً أكثر فظاعة من تلك التي تغرس الفساد الطبيعي عند الإنسان والحاجة المطلقة لنعمة الله لجعله صالحاً. وتميل مثل هذه العقيدة بالضرورة إلى تثبيطه؛ فإما أن تجعله يتباطأ أو تدفعه إلى اليأس أثناء انتظار هذه النعمة. ويا له من نظام أخلاقي غريب ذلك الموجود لدى اللاهوتيين الذين ينسبون كلّ شر أخلاقي إلى خطيئة أصلية، وكلّ خير أخلاقي للعفو عنها! ولكن لا ينبغي الاندهاش بالتأكيد من أنَّ النظام الأخلاقي المبني على مثل هذه الفرضيات السخيفة ليس له فاعلية. - أنظر المجلد الثاني، الفصل الثامن.

76- شعر اللاهوتيون أنفسهم وأقرّوا بضرورة العواطف، وقد تطرق العديد من آباء الكنيسة إلى هذه العقيدة. ومن بينهم كتب الأب **سيناولت Senault** كتاباً صريحاً حول هذا الموضوع، بعنوان "استخدام العواطف Of the Use of the Passions".

77- من الواضح أنَّ كلّ دين يقوم على مبدأ القدرية. حيث افترض الإغريق أنَّ البشر عوقبوا بسبب أخطائهم الضرورية - كما يمكن رؤيته عند **أوريستيس Orestes**، وعند **أوديب Oedipus**، وما إلى ذلك، والذين ارتكبوا الجرائم التي تنبأت بها **الأوراكل Oracles** فقط. وقد بذل المسيحيون جهوداً عبثية ليبرروا إلقاء الله سبحانه وتعالى أخطاء البشر على إرادتهم الحرة، والتي تتعارض مع الجبرية، وهو اسم آخر للقدرية. ومع ذلك، لن يتجنب نظام النعمة الخاص بهم الصعوبة بأيّ حال من الأحوال؛ لأنَّ الله يمنح النعمة فقط لمن يشاء. وليس للدين في جميع البلدان أساس آخر سوى التشريعات المقدّرة لكائن طاغية يقرر بشكلٍ تعسفي مصير مخلوقاته. وتدور جميع الفرضيات اللاهوتية حول هذه النقطة؛ ومع ذلك، فإنَّ هؤلاء اللاهوتيين الذين يعتبرون نظام القدرية زائفاً أو خطيراً، لا يرون أنَّ هبوط الملائكة، والخطيئة الأصلية، والجبرية، ونظام النعمة، وعددٌ قليل من المختارين، وما إلى ذلك، يثبتون بلا شك أنَّ الدين هو النظام الصحيح للقدرية.

78- يمكن اختزال مسألة الإرادة الحرة إلى ما يلي: - لا يمكن ربط الحرية أو الإرادة الحرة بأيّ من وظائف النفس المعروفة؛ لأنَّ النفس في اللحظة التي تعمل فيها أو تتروى أو تشاء، لا يمكنها أن تعمل أو تتروى أو تشاء خلافاً لما تفعل؛ لأنَّ الشيء لا يمكن أن

يوجد ولا يوجد في الوقت ذاته. وإرادتي الآن، إذا جاز التعبير، هي التي تجعلني أتروى، ويجعلني تمهلي هذا أختار، وخياري يجعلني أعمل، وقراري يجعلني أنفذ ما جعلني تمهلي أختاره، ولم أتروَ إلا لأنَّ لدي دوافع جعلت من المستحيل بالنسبة لي ألا أرغب بالتروي. وهكذا لا توجد الحرية في الإرادة أو في التروي أو في الاختيار أو في الفعل. ولذلك يجب على اللاهوتيين ألا يربطوا الحرية بعمليات النفس هذه، وإلا سيكون هناك تناقضاً في الأفكار. وإذا لم تكن النفس حرة عندما تشاء أو تتروى أو تختار أو تعمل، فهل يخبرنا اللاهوتيون متى يمكنها ممارسة حريتها؟

ومن الواضح أنَّ اختراع نظام الحرية أو الإرادة الحرة كان لتبرئة الله من الشر الذي يحدث في هذا العالم. ولكن ألا يتلقى الإنسان هذه الحرية من الله؟ وألا يتلقى من الله ملكة اختيار الشر ونبذ الخير؟ وإذا كان الأمر كذلك، فقد خلقه الله عازم على الخطيئة، وإلا فإنَّ الحرية أساسية للإنسان ومستقلة عن الله – أنظر "مقالة عن الأنظمة Treatise of Systems"، ص124.

79- تثور طبيعة الإنسان دائماً ضد ما يعارضها؛ فيوجد بشرٌ سريعي الانفعال، ويغضبون حتى من الأشياء الجامدة وغير الحية؛ ويجب أن يعيدهم تأملهم في عجزهم عن تعديل هذه الأشياء إلى العقل. وغالباً ما يتمّ إلقاء اللوم على الآباء في إصلاح أطفالهم بغضب؛ لاعتقادهم بأنَّهم كائنات لم تتعدل بعد، أو ربما تعدلت بشكلٍ سيئ للغاية من تلقاء ذاتها، ولا يوجد شيء أكثر شيوعاً في الحياة من رؤية البشر يعاقبون على أخطاء ارتكبوها بأنفسهم.

80- لا ينظر العدد الأكبر من المجرمين إلى الموت إلا على أنَّه "ربع ساعة سيئة". وبناءً عليه نظر لصٌ إلى أحد رفاقه مُظهراً افتقاره للحزم تحت العقوبة، وقال له: "أليس هذا ما قلتهُ لك مراراً، وإنَّنا نمتلك في عملنا شرٌ واحد أكثر من سائر البشر؟"، وبذلك تُرتكب السرقات يومياً حتى عند أسفل السقالات حيث يُعاقب المجرمون. وفي تلك الأمم التي تُنزل عقوبة الإعدام باستخفاف شديد، هل يتم إيلاء اهتمام كافٍ لحقيقة أنَّ المجتمع يُحرم سنوياً من عددٍ كبير من الأفراد الذين كانوا قادرين على تقديم خدمة مفيدة للغاية، لو أدوا عملاً، وبالتالي تعويض الجماعة عن الأضرار التي اقترفوها؟ حيث تبرهن السهولة التي تسلب فيها حياة البشر على استبداد وعجز المشرّعين الذين يجدون أنَّها أقصر طريق لتدمير المواطنين، من السعي وراء الوسائل التي تجعلهم أفضل.

81- يمكن مقارنة المجتمع الذي يعاقب على التجاوزات التي ولدها هو ذاته، بإنسان هوجم بفوضى من القمل، وهو ملزمٌ بقتل الحشرات على الرغم من أنَّ بنيته المريضة هي التي تنتجها كلّ لحظة.

82- ولد **نابليون بونابرت Napoleon Buonaparte** بمصادفة غريبة في العام ذاته الذي نُشر فيه لأول مرة كتاب نظام الطبيعة.

83- يبدو أنَّ **موسى** آمن مع المصريين بالفيض الإلهي للنفس؛ فوفقاً له، "خلق الله الإنسان من تراب الأرض، ونفخ في أنفه نفحة الحياة، وأصبح الإنسان نفساً حية". (Gen.ii.7.) ومع ذلك يرفض المسيحيون في يومنا هذا نظام الفيض الإلهي هذا، نظراً إلى أنَّه يفترض أنَّ الألوهية قابلة للقسمة؛ إلى جانب أنَّ دينهم يحتاج إلى جهنم لتعذيب أنفس الملعونين، وكان من الضروري إرسال جزء من الألوهية إلى الجحيم، إلى جانب أنفس أولئك الضحايا الذين تم التضحية بهم لصالح انتقامه. وعلى الرغم من أنَّ **موسى**، في الاقتباس أعلاه، يبدو أنَّه يشير إلى أنَّ النفس كانت جزءاً من الألوهية، فلا يبدو أنَّ عقيدة خلود النفس مثبته في أيّ من الكتب المنسوبة إليه. وخلال السبي البابلي تعلم اليهود عقيدة الثواب والعقاب المقبل، التي علّمها **زرادشت** للفرس، لكن المشرّع العبري لم يفهمها أو على الأقل ترك شعبه جاهلاً بالأمر.

84- أعلن **شيشرون** قبل **أبادي** أنَّ خلود النفس فكرة فطرية عند الإنسان، ومع ذلك، من الغريب الحديث في قسمٍ آخر من أعماله عن اعتبار **فيريسيدس Pherecydes**(*) كمخترعٍ لعقيدة تقول: تقضي طبيعة خلود الانفس ذاتها، ولا أعرف كيف تتمسك بها عقول البشر، الالتزام برضا نفوس الأمة على كلّ شيء. — [Tusculam Disputat, lib.i.]

85- أنصار عقيدة خلود النفس، والعقل هكذا: "كلّ الناس يرغبون في أن يعيشوا إلى الأبد؛ لذلك سيعيشون الى الأبد". لنفترض أنَّ الحجة رُدت عليهم: "كلّ الناس يرغبون بطبيعة الحال في أن يكونوا أغنياء؛ لذلك سيكون كلّ الناس اغنياء في يوم من الأيام".

* - **فيريسيدس السيروسي**: (580ق.م- 520 ق.م) فيلسوف ومؤرخ يوناني ينسب إلى حقبة ما قبل السقراطية. (المترجم) للمزيد أنظر: [Granger, Herbert, The Theologian Pherecydes of Syros and the Early Days of Natural Philosophy, Harvard Studies in Classical Philology, Vol. 103. (2007),pp.135-163.]

86- مثل الأطفال، كلّ حدائقهم في الظلام:

ومع أنَّنا نخشى النور أحياناً، غير أنَّه ليس هناك ما يرعب أكثر مما يحمله الظلام للأطفال.

[Lucretius, Lib. III. V. 87, et seq.]

87- عند موت شخص آخر لم يشاهده في الحياة الواقعية:

كيف يسمح لنفسه أن يندب عليه وهو ميت، لدرجة الكذب.

ويكابد من خلفه الألم

[Lucret.Lib.III.]

88- دراسة الموت Μελέτη το Θάνατο. وكما قال **لوكانوس**: الموت لمعرفة مصير البشر.

89- ماذا عن الأشياء التي نتذمر منها في الطبيعة، ولحسن الحظ، أنَّ حياته تكون طويلة إنْ عرف كيف يعيشها.— [V.Smec. de Brevitate Vitae.] يشكو الإنسان من قصر مدة الحياة – من السرعة التي يمضي بها الزمن؛ ومع ذلك فإنَّ العدد الأكبر من البشر لا يعرفون كيف يوظفون الزمن أو الحياة.

90- أولئك الذين يجرؤون على التفكير بأنفسهم – أولئك الذين رفضوا الاستماع إلى أدلتهم المتعصبة – أولئك الذين لا يحترمون الكتاب المقدس – أولئك الذين كانت لديهم الجرأة لاستشارة عقلهم – أولئك الذين غامروا بجرأة للكشف عن المحتالين – أولئك الذين شككوا في الرسالة الإلهية ليسوع المسيح – أولئك الذين يعتقدون أنَّ يهوه انتهك الحشمة عند زيارته لزوجات النجارين – أولئك الذين ينظرون إلى مريم على أنَّها ليست أفضل من مومس متجولة – أولئك الذين يعتقدون أنَّ القديس **بولس** كان محتالاً رئيسياً – أن يكونوا أذكياء إلى الأبد في محيطات ملتهبة من الكبريت المحترق، وأن يطفو إلى الأبد في أشد العذابات ألماً، في بحار الكبريت السائل، ويبكون ويعضون على أسنانهم: عجباً إذن، إذا كان الإنسان يخشى أن يُلقي به في هذه الخلجان البشعة – إذا كان عقله يبغض الصورة المروعة – إذا كان يرغب في تأجيل هذه العقوبات المروعة لفترة – إذا كان يتمسك بوجود مؤلم، كما قد يكون كذلك، بدلاً من مواجهة هذه الأمور القاسية المقززة.

91- كما كان **موسى**، و**صموئيل** و**داود** عند اليهود، و**محمد** (ص) عند المسلمين. كان عند المسيحيين، قسطنطين، والقديس **كيرلس** **Cyril**، والقديس **أثناسيوس** **Athanasius**، والقديس **دومينيك** **Dominic**، والعديد من اللصوص الأتقياء والمضطهدين المتحمسين الذين تبجلهم الكنيسة! وقد نضيف أيضاً إلى هذه القائمة الصليبيون، والعصابات، والمتشددون، وقدّيسونا غير الأرثوذكس المعاصرين، والمحققين الموحدين في ماساتشوستس الذين لو كانت لديهم السلطة، لأدانوا **أبنير نيلاند** في النيران الملتهبة.

92- ليس لدى الإنسان الفاضل والصالح ما يخشاه، بل لديه كلّ ما يأمل به؛ لأنَّه لو كان على عكس ما يستطيع أن يحكم به، وكان ينبغي أن يكون هناك وجود في الآخرة، ألن يتم تنظيم أفعاله بالفضيلة، ألن يكون منسجماً مع وجوده الحالي لكي يحصل على فرصة عادلة بالاستمتاع إلى أقصى حد بتلك السعادة المعدّة لنوعه؟

93. دعونا نراجع تاريخ الكهنة في كلّ العصور، وسنجده على الدوام النظام الماكر والتافه ذاته. إذ يجب أن يخشى **تانتالوس** **Tantalus** دائماً، بسبب إفشاء أسرارهم، الغرق في الكبريت المحترق، والحجر المهيأ للسقوط على رأسه المخلص؛ بينما تم تطويب **رومولوس** **Romulus** وعبادته كإله باسم **كورينوس** **Quirinus**.وتسبب نظام الكهنوت نفسه في إعدام الفيلسوف **كاليستينيس** **Callisthenes**، لمعارضته عبادة **الإسكندر**، ورفع الراهب **أثناسيوس** ليكون قديساً في الجنة!

94- هل تم إيلاء الاهتمام الكافي لحقيقة تلك النتائج كنتيجةٍ لازمة عن هذا الاستدلال الذي سنكتشف عند الفحص أنَّه جعل المقام الأول عديم الفائدة تماماً، نظراً لأنَّ عدداً من هذه الأنظمة المختلفة ونقيضها، تركت الإنسان يعتقد بها أكثر من أيّ وقت مضى، وتركته يتبعها بطريقة أكثر أمانة، ولازال يعتبرها كفراً وتمرداً على الإله؛ لأنَّه لا يستطيع أن يؤمن بكلّ شيء، فيحكم عليه بالسجن أولئك الذين يختلف عنهم بسبب عقيدتهم؟

95- تبدو عقيدة القيامة عديمة الجدوى على الإطلاق بالنسبة لكلّ من يؤمن بوجود نفس تشعر، وتفكر، وتتألم، وتتمتع بعد انفصالها عن الجسد: وبالفعل هناك طوائف تبدأ حقاً في الحفاظ على فكرة أنَّ الجسد ليس ضرورياً، لذلك لن يقوم أبداً. - ويتصورون مثل **بيركلي** **Berkeley**: أنَّ "النفس لا تحتاج إلى الجسد ولا إلى أيّ كينونة خارجية، إما بخبرة

الإحساسات أو امتلاك الأفكار". ويجب أن يفترض أتباع **مالبرانش** على وجه الخصوص أنَّ النفوس المرفوضة سوف ترى الجحيم عند الإله، وسوف تشعر أنَّها تحترق من دون أن تترك فرصة للأجساد لهذا الغرض.

96- لا شك في أنَّنا مدينون بالتكفير بالنار التي استخدمها عددٌ كبير من الأمم الشرقية، ويمارسها في هذا اليوم بالذات كهنة إله السلام الذين يتسمون بالقسوة لدرجة أنَّهم أودعوا بالنيران كلّ من يختلف عنهم في أفكارهم عن الإله. وكنتيجة لذلك النظام السخيف، يحكم القضاة المتحضرون بالنار على الفاسق والكافر - أيّ الأشخاص الذين لا يؤذون أيّ شخص، في حين يكتفون بمعاقبة أكثر اعتدالاً لأولئك الذين يلحقون ضرراً حقيقياً بالمجتمع. والكثير جداً من أجل الدين وآثاره!

97- إذا كانت أهوال الجحيم، كما يفترض المسيحيون، لامتناهية من حيث مدتها وشدتها، فيجب أن نستنتج أنَّ الإنسان الذي هو كائنٌ متناهي، لا يمكن أن يعاني بلا نهاية. والله بحد ذاته، على الرغم من الجهود التي قد يبذلها للمعاقبة الأبدية على أخطاء محدودة من حيث الزمان، لا يمكنه إيصال اللاتناهي للإنسان. ويمكن قول الشيء ذاته عن مباهج الفردوس، حيث لا يمكن للكائن المتناهي أن يفهم إلهاً غير متناهي أكثر من فهمه لما في هذا العالم. ومن ناحية أخرى، إذا كان الله يديم وجود الملعونين، كما تعلمها المسيحية، فإنَّه يديم وجود الخطيئة التي لا تتفق تماماً مع حبه المفترض للنظام.

98- عندما خرجت عقيدة خلود النفس لأول مرة من مدرسة **أفلاطون**، وانتشرت أولاً عند الإغريق، تسببت بأعظم خراب، وحتمت على العديد من البشر الذين كانوا مستائين من حالتهم، بإنهاء وجودهم. ورأى **بطليموس فيلادلفوس Ptolemy Philadelphus**، ملك مصر، تأثير هذه العقيدة، التي يُنظر إليها في الوقت الحاضر على أنَّها مفيدة للغاية، وعرضها على أدمغة رعاياه ودافع عن تعاليمها في ظل عقوبة الإعدام.

99- إنَّ فكرة الرحمة الإلهية تبهج الشرير وتجعله ينسى العدل الإلهي. وبالفعل، فإنَّ هاتين السمتين، والمفترض أن تكونا غير متناهيتين في الله، يجب أن يوازن كلّ منهما الآخر بطريقة لا تستطيع أيّ منهما التأثير على الآخر. ومع ذلك، يأخذ الشرير بالحسبان إله ثابت أو على الأقل يطري عليهم للهروب من نتائج عدالته من خلال رحمته. ويقول قاطع الطريق، الذي يعرف أنَّه يجب أن يموت عاجلاً أم آجلاً على المشنقة، أنَّه ليس لديه ما

يخشاه، وستتاح له بعد ذلك فرصة لتحقيق نهاية جيدة. ويعتقد كلّ مسيحي أنَّ التوبة الحقيقية تمحو كلّ آثامهم. وينسب سكان الهند الشرقية الفضائل ذاتها إلى مياه نهر الغانج.

100- يقال إنَّ الخوف من حياة أخرى قيدٌ مفيد على الأقل لكبح الأمراء والنبلاء الذين ليس لديهم أيّ شيء آخر؛ وأن هذا القيد إذا جاز التعبير، أفضل من لا شيء. ولكنه يثبت بشكلٍ كافٍ أنَّ الإيمان بالحياة المقبلة لا يتعارض مع أفعال الملوك. والطريقة الوحيدة لمنع الملوك من إلحاق الأذى بالمجتمع هي جعلهم خاضعين للقوانين، ومنعهم بالمطلق من حقهم أو سلطة استعبادهم للأمم واضطهادها وفقاً لأهواء أو لنزوة العابرة. ولذلك، فإنَّ الدستور السياسي الجيد المبني على الحقوق الطبيعية والتربية السليمة، هو الضابط الفعال الوحيد للممارسات السيئة لحكام الأمم.

101- يعتبر كثيرٌ من الأشخاص المقتنعين بفائدة الإيمان في حياة أخرى، أنَّ أولئك الذين لا يندرجون ضمن هذه العقيدة أعداءً للمجتمع. ومع ذلك، سيتبين عند الفحص أنَّ البشر الأكثر حكمةً واستنارة من العصور القديمة قد آمنوا، ليس فقط بأنَّ النفس مادية وتهلك مع الجسد، ولكن هاجموا أيضاً من دون تردد ومن دون ذريعة الرأي القائل بالعقاب المقبل. ولم يكن هذا الشعور غريباً بالنسبة للأبيقوريين، بل تبنّاه فلاسفة جميع الطوائف، من قبل الفيثاغوريين، والرواقيين، والمشائين، والأكاديميين؛ أي من أكثر رجال اليونان وروما تقوى وفضيلة. وهنا يتحدث **فيثاغورس**، وفقاً لأوفيد، هكذا:

يا أنواع أذهلها الخوف البارد من الموت،

ما هي وصماته، أيّ ظلمة تعطي مادة الخوف الفارغة

للشعراء، ورؤيتهم لمخاطر العالم؟

ويعترف **طيماوس لوقروس** Timseus of Locrise الذي كان فيثاغورياً، بأنَّ عقيدة العقاب المقبل كانت رائعة، وموجهة فحسب لحماقة الجهل، ولكنها تؤخذ بالحسبان قليلاً بالنسبة لأولئك الذين يهذبون عقلهم.

ويقول **أرسطو** صراحةً: "ليس للإنسان خيرٌ يأمل فيه ولا شرٌ يخشاه بعد الموت." ولم يكن لدى الأفلاطونيون الذين جعلوا النفس خالدة، أيّ فكرة عن العقوبات المقبلة؛ لأنَّ النفس وفقاً لهم كانت جزءاً من الإله، وبعد تحلل الجسد، عادت لترتبط به مرة أخرى. والآن لا يمكن أن يتعرض جزءٌ من الإله للمعاناة.

وافترض **زينون Zeno**، حسب **شيشرون**، أنَّ النفس مادة نارية، ومن هنا استنتج أنَّها أفنت ذاتها. — عند **زينون** الرواقي تكون النفس ناراً. وإذا كان الأمر كذلك، سيتم إطفاءها عندما تنفصل عن الجسد.

ولا يتفق هذا الخطيب الفلسفي الذي كان من طائفة الأكاديميين، دائماً مع ذاته؛ ومع ذلك، يتعامل في عدة مناسبات علانيةً مع أهوال الجحيم على أنَّها خرافات، وينظر إلى الموت على أنَّه نهاية كلّ شيء بالنسبة للإنسان. Vide Tusculan., C. 38.

وتمتلئ **سينيكا** بالمقاطع التي تتصور الموت كحالة من الإبادة الكاملة: - الموت ليس كذلك. وأعلم مسبقاً ما مدى هذه المقدرة التي كانت قبلي وستكون بعدي. وإذا كان هناك معاناة في هذه الحالة، فمن الضروري أنَّها كانت قبل أن نرى النور، لكننا لن نشعر بعد ذلك بأيّ مظلمة. ويقول عند حديثه عن موت أخيه: - لماذا إذن الحنين إلى أيّ شخص، سواء كان سعيداً أو غير موجود؟ لكن لا شيء يمكن أن يكون أكثر حسماً مما يكتبه لمارسيا Marcia لتعزيته. (الفصل 19)- تخيل أنَّه لا توجد أمراض يتأثر بها أيّ شخص من تلك الأشياء التي جعلت العالم السفلي مروعاً بالنسبة لنا، وتكون الرواية: خطر وشيك على الموتى، لا ظلام، ولا سجن، ولا احترق بالنار، ولا فيضانات، ولا نهر للنسيان، ولا مجالس للحكم، وتكون الحرية في تلك المحاكمة غير مقيدة للطغاة، ويكون الشعر الفاسد والبصيرة منبهات لا أساس لها. ويكون الموت نهايةً للألم وحلّ سيء للغاية لدرجة أنَّنا لا نستطيع أن نترك الأمور بهدوء، وهو مقدرٌ لنا قبل ولادتنا.

وهنا أيضاً فقرة ختامية أخرى من هذا الفيلسوف تستحق اهتمام القارئ: لو كانت النفس عادية جداً لكانت محتقرة، ولكان من المهين اخراج الناس من حالة الرعب، واختلف الزمان تماماً عند الإنسان الذي يعلم أنَّه لن يفعل شيئاً مع الموت، فيحتقر كلّ من يمس طبيعته، ويظهر بغضاً لحياته، ويعتبر الانتقال إلى الموت أمراً شريراً لأيّ شخص، ونهاية للكثيرين. [V. De Beneficiis, VII. i.]

ويشرح **سينيكا** التراجيدي عن ذاته بالطريقة ذاتها التي يشرح بها الفيلسوف:

لا شيء بعد الموت، والموت بحد ذاته لا شيء.

وتدور الدائرة بسرعة.

لا تسأل بعد موته، أين يقع مكان الميت؟

فمن ولدته وضع بها.

والموت يصيب الجسد.

فلا تشفق على نفسك.

[Troades]

لدى **ابكتيتوس Epictetus** الفكرة ذاتها. حيث يقول في مقطع ذكره **أريان Arrian**:- "ولكن إلى أين أنت ذاهب؟ لا يمكن أن يكون مكاناً للمعاناة، لن تعود إلا إلى المكان الذي أتيت منه؛ فأنت على وشك أن تصبح مرتبطاً بشكلٍ سلمي مرة أخرى بالعناصر التي استُخلصتَ منها.. وما في تكوينك من طبيعة النار سيعود إلى عنصر النار، وما هو من طبيعة الأرض، سوف ينضم إلى الأرض، وما هو من الهواء، سوف يجتمع بحد ذاته مع الهواء، وما هو من الماء، سوف يتحول إلى ماء؛ لا يوجد جحيم، ولا **أشيرون Acheron**،(*) ولا **كوكيتوس Cocytus**،(**) ولا **فليغيثون Phlegethon**.(***)"- أنظر **أريان** في [Epictet. Lib.iii.cap.13]. ويقول في مكان آخر: "تقترب ساعة الموت، ولكن لا تزيد من شرِّك، ولا تجعل الأمور أسوأ مما هي عليه، فقدمه لنفسك من وجهة نظرهم الحقيقية. وعندما يحين الوقت لتحلل المواد التي تتألف منها بحد ذاتها إلى العناصر التي تم استعارتها منها بالأصل، وما هو الرهيب أو الخطير في ذلك؟ هل هناك أيُّ شيءٍ في العالم، يفنى تماماً؟"- انظر **أريان**. [lib.iv.cap.7. §.1].

يقول **أنطونيوس** الحكيم والمتدين: "من يخاف الموت، إما يخاف أن يُحرم من كلّ شعور أو يخشى أن يعاين أحاسيس مختلفة. فإذا فقدتَ كلّ شعور، فلن تكون عرضةً للألم

* - أشيرون بحسب الأساطير الإغريقية هو اسم نهر من الأنهار الخمسة التي تجري في مملكة هاديس، ويعني نهر العويل، الذي يتم فيه نقل للموتى. (المترجم) وللمزيد راجع: [-ACHERON (Akheron) - Greek River Underworld River of Pain (theoi.com) & God]

**- ويعني حسب الأساطير اليونانية، نهر النحيب، وهو نهر في العالم السفلي. (المترجم) وللمزيد راجع: [Cocytus | Greek Myth Wikia | Fandom]

*** - ويعني النار المشتعلة، وهو بحسب الأساطير اليونانية أحد الأنهار الخمسة في المناطق الجهنمية من العالم السفلي. (المترجم) وللمزيد راجع:[Phlegethon | Greek Myth Wikia | Fandom]

أو البؤس. وإذا زودتَ بحواس أخرى ذات طبيعة مختلفة، فستصبح مخلوقاً من نوعٍ مختلف."
ويقول هذا الإمبراطور العظيم أيضاً: "يجب أن نتوقع الموت بهدوء، نظراً لأنَّه ليس سوى انحلالٍ للعناصر التي يتألف منها كلّ حيوان"-

[See the Moral Reflections of Marcus Antoninus, lib .ii].

ويمكن أن نضيف إلى دليل العديد من البشر العظماء في العصور القديمة الوثنية، مؤلف سفر الجامعة، الذي يتحدث عن الموت وحالة النفس البشرية، إذ يقول مثل الأبيقوريين:

"لأنَّ مَا يَحْدُثُ لِبَنِي الْبَشَرِ يَحْدُثُ لِلْبَهِيمَةِ، وَحَادِثَةٌ وَاحِدَةٌ لَهُمْ. مَوْتُ هذَا كَمَوْتِ ذَاكَ، وَنَسَمَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْكُلِّ. فَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْبَهِيمَةِ، لأَنَّ كِلَيْهِمَا بَاطِلٌ." (جا 3: 19). "يَذْهَبُ كِلاَهُمَا إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ. كَانَ كِلاَهُمَا مِنَ التُّرَابِ، وَإِلَى التُّرَابِ يَعُودُ كِلاَهُمَا." (جا 3: 20). وكذلك: "فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لاَ شَيْءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَفْرَحَ الإِنْسَانُ بِأَعْمَالِهِ، لأَنَّ ذلِكَ نَصِيبَهُ. لأَنَّهُ مَنْ يَأْتِي بِهِ لِيَرَى مَا سَيَكُونُ بَعْدَهُ؟" (جا 3: 22).

وباختصار، كيف يمكن للمسيحيين التوفيق بين منفعة أو ضرورة هذه العقيدة وحقيقة أنَّ مشرع اليهود مستوحى من الإله، هل بقيت صامتة بشأن موضوع يُقال إنَّ له أهمية كبيرة؟

102- يجب ملاحظة أنَّني لا أقول هنا مثل **هوبز**: إنَّ حالة الطبيعة هي حالة حرب، بل أنَّ البشر بطبيعتهم، ليسوا أخياراً ولا أشرار. وسيكون الإنسان في الواقع، إما خيّراً أو سيئاً حسب تعديله. وإذا كان البشر مستعدين لدرجةٍ كبيرة لإيذاء بعضهم البعض، فذلك فقط لأنَّ كلّ شيء يتضافر لمنحهم اهتمامات مختلفة. وكلّ واحد، إذا جاز لي القول، يعيش معزولاً في المجتمع، ويستغل رؤساءهم انقساماتهم لإخضاع الكل. إنَّ [فرّق تسد Divide et impera] هو المبدأ القائل إنَّ جميع الحكومات السيئة تتبعها الغريزة. وسيكون الطغاة في حالة سيئة إذا كان عليهم أن يحكموا البشر الفاضلين فقط.

103- لقد كان هذا رأيي في العديد من الناس العظماء، **فسينيكا**، الأخلاقي، الذي يسميه **لاكتانتيوغ Lactantiug** بالوثني الإلهي، الذي أشاد به القديس **أوستن** والقديس **أوغسطين**، يسعى بكلّ نوعٍ من الحجج لجعل الموت حالة من اللامبالاة بالنسبة للإنسان: من الخطأ أن تعيش، ولا داعي لأن تعيش. ولماذا لا تكون؟ وتحرر من كلّ الأطراف

الصغيرة والسهلة. ودعونا نشكر من لا يستطيع أن يحتفظ في حياته.- [V. Senec. Epist. xii.] ولطالما تم الثناء على **كاتو** Cato؛ لأنَّه لن ينجو من قضية الحرية، - لأنَّه لن يعيش عبداً. ولطالما كان **كورتيوس** Curtius، الذي دخل الفجوة طواعيةً لإنقاذ بلاده، نموذجاً للفضيلة البطولية. أليس من الواضح أنَّ هؤلاء الشهداء الذين سلموا أنفسهم للعقاب، فضّلوا ترك العالم للعيش فيه على عكس أفكارهم الخاصة عن السعادة؟ وعندما أراد **شمشون** Samson العظيم أن ينتقم من الفلسطينيين، ألم يوافق على الموت معهم كوسيلة وحيدة؟ وإذا تعرضت بلادنا للهجوم، ألا نضحي بأرواحنا طواعيةً دفاعاً عنها؟

104- المسيحية والقوانين المدنية للمسيحيين متناقضة للغاية من حيث اللوم على الانتحار. ويوفر العهد القديم أمثلة عن **شمشون وإليزار** Eleazar - أيّ إذا جاز القول: البشر الذين وقفوا عالياً جداً مع الله. فالمسيح أو ابن إله المسيحيين، إذا صح أنَّه مات من تلقاء نفسه، فمن الواضح أنَّه انتحار. ويمكن قول الشيء ذاته عن التائبين الذين جعلوا من تدمير أنفسهم شيئاً فشيئاً ميزة لهم.

105- يُقال: إنَّ الانتحار شائعاً جداً في إنجلترا التي ينتج مناخها الكآبة بين سكانها. ويُنظر في ذلك البلد إلى أولئك الذين يقتلون أنفسهم على أنَّهم مجانين - لا يبدو مرضهم أكثر عرضة للوم من أيّ هذيان آخر.

106- أنظر الفصل التاسع.

107- يقدم أمثلة عن هذه الحقيقة، التبغ، والقهوة، وقبلها البراندي أو الشراب المسكر. وكان هذا الأخير هو من مكّن الأوروبيين من استعباد الزنجي وإخضاع الهمجي. وهذا أيضاً هو سبب هروب الإنسان لرؤية المآسي ومشاهدة إعدام المجرمين. وباختصار، يبدو أنَّ الرغبة في الشعور، أو أن يُستثار بقوة، هو مبدأ الفضول - وذلك الشغف الذي نلتزم بناءً عليه بالعجيب، وما هو خارق للطبيعة، وغامض، وبكلّ شيء يثير الخيال. وكذلك يتشبث الناس بأديانهم كما يفعل الهمجي بالشراب المسكر.

108- يقول **سينيكا**: لذلك كان لا بد من وصف محبته للإنسان، أيّ أنظر كيف يسعدون به أو يسعد بهم، وسواء يسعد بذلك أم لا، فمن الجنون أن يشك في ذلك.

109- ومع ذلك، لا يوجد شيء كامل في حد ذاته، وأعلى تطور له هو قوة الطبيعة.- [Cicero. De Legibus 1.] ويقول في مكان آخر إنَّ نظام الفضيلة هو تعريف مطلق.

110- إنَّ الميزة التي يتمتع بها الفلاسفة ورجال الأدب على الجاهلين والعاطلين، أو على أولئك الذين لا يفكرون ولا يدرسون، ترجع إلى نوعية وكمية الأفكار المقدمة للعقل بسبب الدراسة والتفكير. حيث يجد عقل الإنسان الذي يفكر بهجةً في الكتاب الجيد أكثر مما يمكن الحصول عليه من كلّ الثروات التي يسيطر عليها الجاهلون. والدراسة هي جمع الأفكار؛ وعدد الأفكار وتركيبها يصنعان هذا الفرق الذي نلاحظه بين إنسان وآخر، إلى جانب منحه ميزة على جميع الحيوانات الأخرى.

111- لا يحتاج الإنسان الذي سيكون غنياً حقاً إلى زيادة ثروته، ويكفي أن يقلل من رغباته.

112- **أغسطس** غير سعيد بحدود الكَون اللامحدودة.- يقول **سينيكا** عن **الإسكندر**: بعد أن كان **داريوس والاسكندر** فقيراً. وجد رغبته بعد ذلك في شيء ما.

[V Senec. Epiit120..]

113- يقول **شيشرون**- لكن الإنسان الذي يرضي الله لن يفعل ذلك.- "لا يستطيع الله أن يجبر الناس على طاعته، إلا إذا أثبت لهم أنَّ له قوة تجعلهم سعداء أو تعساء". أنظر [the Defence of Religion, Vol. I. p. 433.]. يجب أن نستنتج من هذا أنَّنا على حق في الحكم على الدين والآلهة من خلال المزايا أو المساوئ التي تجلبها للمجتمع.

114- هكذا خلق **تروفونيوس Trophonius** من كهفه، بشراً بائسين يرتجفون، وهزوا أقسى الأعصاب، وجعلهم شاحبين من الخوف، ودهن متضرعوه البائسين والمخادعين، الذين اضطروا للتضحية له، أجسادهم بالزيت، واستحموا في أنهارٍ معينة، وبعد أن قدموا كعكتهم من العسل واستقبلوا مصيرهم، أصبحوا مكتئبين للغاية، وبائسين للغاية، لدرجة أنَّ أحفادهم حتى يومنا هذا، عندما يرون إنساناً حزيناً، يهتفون: "استشار **أوراكل تروفونيوس**.

115- يمكن أن نضيف الآن إلى هذه القائمة المزيلة، أسماء **جورج واشنطن George Washington** وتوماس **جيفرسون Thomas Jefferson**.

116- يقول **بترونيوس Petronius**: لا أعرف جيداً ما هو الفقر العقلي.

117- أنظر ما قيل عن الانتحار في الفصل الرابع عشر.

118- من الواضح أنَّ هذه النصائح اقترُحت رغم إسرافها، على العديد من الأديان. فكلّ من الهندي والياباني والمحمدي والمسيحي واليهودي، جعل الكمال وفقاً لخرافاته، يكمن في الصيام وإماتة الملذات الأكثر عقلانية والامتناع عنها، والتقاعد من العالم المزدحم، والعمل من دون توقف لمواجهة الطبيعة. ولم يكن عند الوثنيين كهنة للآلهة السورية أكثر عقلانية — حيث قادتهم تقواهم إلى تشويه أنفسهم.

119- يمكن أن نضيف الفلسفة إلى هذا، وهي فنُ الدفاع عن الحقيقة، ونبذ الضلال، والتأمل في الواقع، واستخلاص الحكمة من الخبرة، وتهذيب طبيعة الإنسان بسعادته، من خلال تعليمه أن يساهم في أعمال جماعاته؛ وباختصار، يتحد العقل والتعليم والتشريع، لتعزيز النهاية العظيمة للوجود البشري من خلال جعل عواطف الإنسان تتدفق ضمن العبقرية الراهنة لإسعاده.

120- يقول **سالوست Sallust**(*): يمكننا القول بالطريقة ذاتها أنَّ لا أحد شرير، ولا أحد خيّر.

121- وليس هناك في الحقيقة، ما هو أكثر إثارة للدهشة في غمر جزء كبيرٍ من الأرض، وابتلاع أمة بأكملها، وحريق بركاني، ونشر الدمار في مقاطعات بأكملها، من سقوط حجر على الأرض أو موت ذبابة؛ فلكلٍّ منهما مصدره من حيث ضرورة الأشياء.

122- لاحظ أحد المؤلفين الإنجليز بشكلٍ دقيق للغاية أنَّ الطوفان الشامل ربما لم يكن مقدّراً للعالم المعنوي أقل من المادي، حيث يحتفظ الدماغ البشري حتى يومنا هذا بانطباع عن الصدمة التي تلقاها في ذلك الوقت. أنظر: [Philemon and Hydaspis, p. 355]

وليس من المحتمل على الإطلاق أن يكون الطوفان المذكور في كتب اليهود والمسيحيين المقدسة شاملاً، ولكن هناك مبرراً للاعتقاد بأنّ جميع أجزاء الأرض قد غمرت في أوقات مختلفة. وأثبت ذلك من خلال التقاليد الموحدة لكلّ أمة في العالم، وكذلك من

* - سالوست: (86ق.م-34ق.م) مؤرخ روماني ومن أهم الأدباء اللاتينيين، اشتهر بكتاباته السردية التي تتناول الشخصيات السياسية والفساد والتنافس الحزبي. (المترجم) وللمزيد أنظر: [Sallust | Roman historian | Britannica]

خلال بقايا الأجسام البحرية الموجودة في كلّ بلد، والمغطاة بأعماق أكبر أو أقل. ومع ذلك، من الممكن أن يكون مذنب على اتصال مع عالمنا قد تسبب في إحداث هذه الهزة التي شملت قارات بأكملها في الحال! لهذا لم تكن المعجزة ضرورية.

123- الكلمة اليونانية سفير Πρεσβυς التي اشتُق منها اسم الكاهن، تعني الرجل العجوز. ولطالما شعر الناس بالاحترام لما يحمله طابع العصور القديمة، حيث ربطوا به دائماً فكرة الحكمة والخبرة البارعة. وربما ينجم عن هذا التحيز أنَّ البشر، يفضلون عند الشك عموماً سلطة العصور القديمة وقرارات أسلافهم على قرارات العقل والحس السليمين. وهذا ما نراه كلّ يوم في الأمور المتعلقة بالدين، والتي من المُفترض أن تكون طاهرة لم أدنسها في مهدها، رغم أنَّ هذه الفكرة بالتأكيد بلا أساس.

124- كان يعتبر لفترة طويلة أنَّه من التدنيس حتى التشكيك بأتباع باندكتس Pandects(*) عند شخص بعينه، والذي غامر في التفكير بهم، كان يُنظر إليه على أنَّه عدواً للثروة المشتركة أو التجمع السياسي the commonwealth، وكشخصٍ أسقط عدم تقواه عليهم انتقاماً لهذه الكائنات المحبوبة التي ولدها الخيال لوحده. ولم يكتفوا بتبني الطقوس، واتّباع الاحتفالات التي اخترعوها بأنفسهم، وشنَّت جماعة حرباً ضد أخرى، لإجبارها على قبول عقائدها الخاصة؛ حيث أعلن المخادعون الذين نظموهم، أنَّهم سيضفرون بهم بشكلٍ معصوم من الخطأ لصالح آلهة الوصاية الخاصة بهم: وهكذا للتوفيق بين مصلحتهم في كثيرٍ من الأحيان، ضحى الطرف المنتصر على مذابح آلهتهم، وأجساد أسراهم التعساء، وكثيراً ما حملوا همجيتهم الوحشية طول فترة إبادتهم لأمم بأكملها، لمجرد أنَّهم كانوا يعبدون آلهة مختلفة عن آلهتهم، وهكذا حدث في كثير من الأحيان أنَّ أصدقاء الثعبان غطوا عند انتصارهم مذابحه بجثث من يعبدون الحجر ومن وضعتهم ثروة الحرب في أيديهم.

125- إذا كان هناك إله، فهل يمكن أن نتصرف بعقلانية ونجعله على الدوام عاملاً لغبائنا، وكسلنا، ونقص معلوماتنا عن الأسباب الطبيعية؟ وهل نقدّم في الواقع، أيّ نوع

---

* - كلمة لاتينية ويطلق عليها أيضاً اسم دايجست، وهو مجموعة من المقاطع من كتابات الفقهاء الرومان، والمرتبة في 50 كتاباً تضم عناوين وفقاً للموضوع، وجمعت في عهد الإمبراطور الروماني جستينيان الأول في القرن السادس الميلادي، وتعتبر خلاصة وافية من الكتابات القانونية عن القانون الروماني. (المترجم) وللمزيد أنظر: [Pandects Roman law digest | Britannica].

من العبادة لهذا الكائن، من خلال تقديمه في كلّ مناسبة تافهة، لحلِ الصعوبات التي يلقيها الجهل في طريقنا؟ ومهما كانت طبيعة علّة الأسباب، فمن الواضح أنَّ أدنى تفكير بذلك كان من المغري إخفاءه عن نظرنا، ويجعل من المستحيل بالنسبة لنا أن يكون لدينا أقل معرفة به، إلا من خلال وساطة الطبيعة المختصة بلا شك بكلّ شيء، وهذه هي المأدبة الغنية الممتدة أمام الإنسان؛ الذي دُعيَّ للمشاركة بها، والمرحب به ليس له الحق في الاعتراض؛ وليحصل على المتعة عليه الطاعة، وليكون سعيداً يجب أن يجعل الآخرين سعداء، وليجعل الآخرين سعداء يجب أن يكون فاضلاً؛ ولكي يكون فاضلاً، يجب أن يقدس الحقيقة: ولكي يعرف ما هي الحقيقة، يجب أن يفحص بحذر، ويفحص بدقة كلّ رأي يتبناه. وهذا أكيد، أليست إهانة للإله أن يكسوه بأهوائنا الضالة، لينسبوا إليه ما يشبه الرؤية الضيقة للأشياء، ويمنحوه رغباتنا القذرة، ويفترضوا أنَّه يمكن أنْ يسترشد بمفاهيمنا المحدودة؛ ويجعلوه على مستوى مع الإنسانية الضعيفة من خلال تقيده بصفاتنا، مهما كنا نبالغ ربما فيها، لينغمسوا في رأي مفاده: إنَّه يتصرف أو يفكر كما نفعل، ويتخيلوا أنَّه يمكن بأيّ شكلٍ من الأشكال أنْ يشبه هذه الألعوبة الضعيفة، وأنَّه أعظم إنسان وأكثرهم تميزاً؟ لا! إنَّها العودة إلى عمق الظلام الكيميريوني Cimmerian.(*) فليجلس الانسان فرحاً بالعيد، ودعه يشترك عن قناعة فيما يجده، بل دعه لا يقلق ربه بصلواته غير المجدية، وفي الواقع تقول هذه الدعوات في الحال: إنَّه بخبرتنا المحدودة، ومعرفتنا الضئيلة، نفهم ما هو مناسب لحالتنا، وما هو مناسب لرفاهيتنا، بشكلٍ أفضل من علة كلّ الأسباب الذي تركتنا في أيدي الطبيعة.

126- كم عدد الاكتشافات في علم الفلسفة الطبيعية العظيم الذي حققته البشرية بشكلٍ تدريجي، والتي اعتبرها المتحيزون الجهلاء من أسلافنا في إعلانهم الأول على أنَّها غير شريفة ولا ترضي الإله، وتدنيساً هرطقياً لا يمكن تكفيره إلا بتضحية الأفراد المتسائلين الذين يدين عملهم لذريتهم بمثل هذا الامتنان اللامتناهي. حتى في الأزمنة الحديثة نرى إعدام **سقراط**، وإدانة **غاليليو**، في حين تم ازدراء العديد من المحسنين الآخرين للبشرية من قبل معاصريهم الجاهلين على تلك الأبحاث ذاتها في الطبيعة التي يحمل لها الجيل الحالي

* - قبيلة هندية أوروبية قديمة تعيش شمال القوقاز وبحر أزوف. (المترجم). وللمزيد أنظر: [https://www.britannica.com/topic/Cimmerian]

أعلى درجات التبجيل. وعندما يُسمح للكهنة الجاهلين بتوجيه آراء الأمم، يمكن للعلم أن يحقق تقدماً ضئيلاً للغاية، وستظل الاكتشافات الطبيعية دائماً معادية لمصلحة رجال الدين المتعصبين. وقد تظهر في أذهان البشر المفتونين بالفهم السطحي للكائنات المتحيزة، ورَعاً شديداً للرد على كلّ مناسبة: ربنا يفعل هذا، وربنا يفعل ذلك، لكن بالنسبة للفيلسوف المتأمل، ولمن يمتلك العقل، لن يكون مقنعاً أبداً بأنَّ الصوت والكلمة فحسب يمكن أن ترتبط بسبب الأشياء، ويمكن أن يكون لها أكثر من معنى ثابت، ويمكن أن تكفي لشرح المشكلات. وتُستخدم كلمة الله للدلالة على العلّة المبهمة لتلك الآثار التي تذهل البشرية، والتي لا يفكر الإنسان بشرحها. لكن أليس هذا هو الكسل المتعمد؟ ألا يتعارض بالتالي مع طبيعتنا أن نعطي إجابة للطفل على كلّ شيء لا نفهمه، أو بالأحرى ما منعنا كسلنا أو افتقارنا إلى الصناعة من معرفته؟ ألا نضاعف بالأحرى جهودنا لاختراق علة تلك الظواهر التي تصيب أذهاننا؟ وماذا قلنا عندما قدمنا هذه الإجابة؟ لا شيء سوى ما يعرفه الجميع.

127- كان من السهل إدراك أنَّ الطبيعة صماء أو على الأقل لم تقطع مسيرتها؛ لذلك اعتبر البشر أنَّ من مصلحتهم إخضاع الطبيعة بأكملها إلى فاعلٍ ذكي، والذي يُفترض على سبيل المقارنة، أنَّه يميل للاستماع إليهم أكثر من الطبيعة الجامدة التي لم يكونوا قادرين على التحكم فيها. والآن يبقى أن نُظهر، ما إذا كانتْ تعد المصلحة الأنانية للإنسان دليلاً كافياً على وجود فاعل يتمتع بالذكاء — وفيما إذا كان الأمر كذلك؛ لأنَّ الشيء قد يكون مناسباً للغاية!

128- ستبدو هذه الفرضيات جريئة بلا شك بالنسبة لأولئك الذين لم يتأملوا بشكل كافٍ في الطبيعة، ولكنها لن تكون متناقضة بالنسبة للباحث الفلسفي بأيّ حال من الأحوال. وربما لم يوجد طوفان لعام واحد فقط، بل عددٌ كبير منها أيضاً منذ وجود كوكبنا، وقد يكون هذا العالم نفسه حدثاً جديداً في الطبيعة، وربما لم يشغل دائماً المكان الذي يشغله حالياً. - أنظر الفصل السادس. ومهما كانت الفكرة التي يمكن تبنيها حول هذا الموضوع، فمن المؤكد تماماً، بغض النظر عن تلك العلل الخارجية التي يُعتقد أنَّها غيّرت وجهه تماماً كما قد يفعل تأثير المذنب، أنَّ هذا العالم يحتوي في حد ذاته على سبب كافٍ لتغييره تماماً، فالأرض تمتلك إلى جانب الحركة النهارية والمحسوسة، حركةً بطيئة للغاية تكاد تكون غير مدركة بالحس، ولابدّ أن يتغير كلّ شيء من خلالها في نهاية المطاف، وهذه هي

الحركة التي يعتمد عليها تقدم نقاط الاعتدال، التي لاحظها أبرخش **Hipparchus** وغيره من علماء الرياضيات؛ فمن خلال هذه الحركة، لابدّ أن تتغير الأرض تماماً في النهاية لعدة آلاف من السنين، وستؤدي هذه الحركة إلى أن يشغل المحيط تلك المساحة التي تشكّل حالياً البلدان أو القارات. ومن هذا سيتضح أنَّ عالمنا، وكذلك جميع الكائنات الموجودة في الطبيعة، لديها استعداد دائم للتغيير. وكانت هذه الحركة معروفة للقدماء، وهي التي أدّت إلى ما أطلقوا عليه اسم عامهم العظيم الذي حدده المصريون بستة وثلاثين ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين عاماً، والسابينيون بستة وثلاثين ألفاً وأربعمائة وخمسة وعشرون، في حين مدده أخرون إلى مئة ألف، مده بعضهم حتى سبعمائة وثلاثة وخمسون ألف سنة. - ومرة أخرى، يمكن أن نضيف إلى تلك الثورات العامة التي شهدها كوكبنا في أوقات مختلفة، تلك الثورات الجزئية، مثل فيضانات البحر، والزلازل، والحرائق الجوفية، التي أثرت أحياناً على تشتت أمم معينة، وجعلتهم ينسون كلّ تلك العلوم التي كانوا على دراية بها من قبل. ومن المحتمل أيضاً أن تكون النيران البركانية الأولى التي لم يكن لها فتحات تهوية سابقة، أكثر مركزية وأكبر من حيث الكمية قبل أن تنفجر قشرة الأرض، وبما أنَّ البحر يغسل الكلّ فيجب أن تكون قد غارت بسرعة في كلّ فتحة، حيث تمدد عند انحداره على الحمم البركانية المغلية على الفور إلى بخار، مما أدى إلى انفجار ساحق، في حين من المعقول أن نستنتج أنَّ الزلازل البدائية كانت ممتدة على نطاقٍ أوسع، وبقوة أكبر بكثير من تلك التي تحدث في أيامنا هذه. وقد تنتج أبخرة أخرى بفعل الحرارة الشديدة، وتمتلك مرونة أكبر بكثير من المواد التي تتبخر، مثل الزئبق، والماس، وما إلى ذلك، حيث ستكون القوة الممتدة لهذه الأبخرة أكبر بكثير من بخار الماء، حتى عند الحرارة الشديدة، وبالتالي قد تمتلك طاقة كافية لرفع الجزر أو القارات أو حتى فصل القمر عن الأرض، فإذا ألقي القمر، كما افترض بعض الفلاسفة، من التجويف الكبير الذي يحتوي الآن على بحر الجنوب؛ فإنَّ الكمية الهائلة من المياه المتدفقة من المحيط الأصلي، والتي غطت الأرض بعد ذلك، ستساهم كثيراً في مغادرة القارات والجزر التي قد ترتفع في الوقت ذاته فوق سطح الماء. وفي الأزمنة اللاحقة لدينا روايات عن سقوط أحجار ضخمة من السماء، والتي ربما تكون قد ألقيت بفعل انفجار من زلزال ما بعيد، من دون دفعها بقوة كافية لجعلها تدور حول الأرض، وبالتالي تنتج العديد من الأقمار الصغيرة أو الأقمار الصناعية.

129– قد تكون الحيوانات الأكبر التي نراها الآن انحدرت بالأصل من أصغر الحيوانات المجهرية التي ازدادت بكميات كبيرة مع تقدم الزمن، أو أنَّ الجنس البشري كما اعتقد الفلاسفة المصريون، كان في الأصل خنثى، وأنتج كالحشرة التمييز الجنسي بعد عدة أجيال. وكان هذا أيضاً رأي **أفلاطون**، ويبدو أنَّه كان رأي **موسى** الذي تلقى تعليمه عند المصريين، كما يمكن جمعه من الآيتين 27 و28 من الفصل الأول من سفر التكوين:

"فخلقَ اللهُ الانسان على صورته. على صورةِ الله خلقهُ. ذكراً وانثى خلقهم". وباركهم الله وقال لهم: «أثمروا وأكثروا واملأوا الارض، واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طيرِ السماء وعلى كلِّ حيوان يدب على الأرض». لذلك لا نفترض كثيراً، نظراً لأنَّ المصريين كانوا أمة مولعةً جداً بشرح آرائها بالهيروغليفية، أنَّ هذا الجزء الذي يصفُ **حواء** بأنَّها مأخوذة من ضلع آدم، كان شعاراً هيروغليفياً، يوضح أنَّ الجنس البشري كان في الحالة البدائية لكلا الجنسين، متحداً ثم انقسم بعد ذلك إلى ذكور وإناث.

130– تم تمثيل زحل كإله لا يرحم – ماهر بطبيعته، يلتهم أطفاله – ينتقم من غضب والدته على والده، ولهذا الغرض سلحته بمنجلٍ مكون من معادن مأخوذة من أحشائها، وضرب به **كويلوس Coelus**، في محاولة له لتوحيد نفسه مع **ثيا Thea**، وشوهه لدرجة أنَّه أصبح عاجزاً بعد ذلك عن زيادة عدد أطفاله، وقيل إنَّه قسّم العرش مع **يانوس Janus**، ملك إيطاليا، الذي يبدو أنَّ حكمه كان معتدلاً ومحباً جداً لدرجة أنَّه سُمي بالعصر الذهبي، وتمت التضحية بالضحايا من البشر على مذابحه حتى ألغاها **هرقل** الذي استبدلها بصورٍ صغيرة من الطين. وأقيمتْ الاحتفالات تكريماً لهذا الإله، وأطلِق عليها اسم **ساتورن Saturnalia**، وأقيمت لفترة طويلة قبل تأسيس روما، فكانوا يحتفلون في منتصف شهر كانون الأول تقريباً، إما في السادس عشر أو السابع عشر أو الثامن عشر، ويستمروا بعدها لعدة أيام، ولكنها في الأصل يوماً واحداً. وسادتْ الحرية الشاملة في الاحتفال، وسُمح للعبيد بالسخرية من أسيادهم – التحدث بحرية في كلّ موضوع – لم يُعدم أيّ مجرم – لم تُعلن الحرب، وقد كشف الكهنة عن قرابينهم البشرية ورؤوسهم العارية، ولم يُعتمدْ الظرف الخاص **بساتورن** في الاحتفالات الأخرى.

131– حضر هذه الأعراس جميع الآلهة، والخليقة الغاشمة بأكملها، والبشرية جمعاء، باستثناء امرأة شابة تدعى **شيلون Chelone**، سخِرت من الاحتفالات، فحولها عطارد أو [إله التجارة عند الرومان، المترجم] إلى سلحفاة، وحُكم عليها بالصمت الدائم. وكان

أقوى الآلهة، واعتُبر الملك والأب لكلّ من الآلهة والبشر، حيث امتدت عبادته إلى حدٍ بعيد، وتمتْ تأديتها بوقارٍ أكبر من عبادة أيّ إله آخر. وعلى مذابحه احرقتْ الماعز والأغنام والثيران البيضاء، وقيل: كان مسروراً فيها وقُدم البلوط تقديساً له؛ لأنَّه علَّم البشرية أن تعيش على الجوز، وكانتْ لديه العديد من النبوءات وتمَّ تسليمه وصاياه، وكان من أشهرها **دودونا Dodona** و**عمون Ammon** في ليبيا، وكان من المفترض أن يكون غير مرئي لسكان الأرض، حيث نصب أتباع **لاسيديميوم Lacedemonians** تمثاله بأربعة رؤوس، مما يشير إلى أنَّه استمع بسهولة إلى توسلات كلّ جانب من الأرض. - يصوِّر **مينيرفا Minerva** على أنَّه بلا أم، ولكنه جاءَ مسلحاً تماماً بدماغه، وعندها فتح **فولكان Vulcan** رأسه، والذي من المفترض أن نستنتج منه أنَّ الحكمة هي نتيجة هذا السائل الأثيري.

132- كان لـ**عشتار Astarte** معبداً رائعاً في **هيروبوليس Hieropolis**، يخدمها ثلاثمائة كاهن، كانوا يعملون دائماً في تقديم الذبائح. ولم يتم قبول كهنة **سايبيل Cybele**، الذين يُدعون **كوربانتس Corybantes**، و**غالي Galli** أيضاً، في وظائفهم المقدسة من دون بتر سابق. وعند الاحتفال بأعيادهم، استخدم هؤلاء الكهنة كلّ أنواع التعبيرات غير اللائقة، والدرامات، والصنجات الإيقاعية، وتصرفوا تماماً مثل المجانين، وامتدتْ عبادته في جميع أنحاء **فريجيا Phrygia**، وأسِستْ في اليونان تحت اسم أسرار **إليوسيس Eleusinian**.

133- أطلق الإغريق على الطبيعة اسم الإله الذي كان له آلاف الأسماء أو بكسيوناما (Mπξιονομα). ولم تكن كلّ آلهة الوثنية أكثر من طبيعة مدروسة وفقاً لوظائفها المختلفة وفي ظل وجهات نظر مختلفة. وتثبت الشعارات التي زخرفوا بها هذه الآلهة مرة أخرى هذه الحقيقة. وأدّت هذه الأنماط المختلفة من التفكير في الطبيعة إلى ولادة الشرك وعبادة الأصنام. أنظر:

[the critical remarks against Toland by M.Benoist, page 258].

134- لإقناع أنفسنا بهذه الحقيقة، ما علينا سوى الانفتاح على المؤلفين القدماء. يقول **فارو Varro**: "أؤمن بأنَّ الله هو روح الكون التي أطلق عليها الإغريق اسم الكونية، وأنَّ الكون بحدّ ذاته هو الله". ويقول **شيشرون**: "تلك التي تسمى قوانين الطبيعة، هي الآلهة"، أنظر: [de Natura Deorum, lib. iii. cap. 24.]. ويقول أيضاً: إنَّ

أسرار السمدرك، وليمنوس، وإلفسينا، كانت طبيعية أكثر بكثير من الآلهة التي شرحوها للمبتدئين. فالأشياء طبيعية أكثر من الآلهة. وانضم إلى هذه السلطات كتاب الحكمة، الفصل الثالث عشر. الإصدار 10، والرابع عشر. 15 و22. ويقول بليني **Pliny** بأسلوب دوغمائي للغاية: "يجب أن نؤمن بأنَّ العالم أو ما هو موجود تحت امتداد السماوات الواسعة هو الإله بحد ذاته، أبدي، وعظيم، وبلا بداية أو نهاية. أنظر: [Plin. Hist. Nat. lib. ii. cap. 1, init.]

135- هذا المقطع مأخوذ من كتاب إنجليزي بعنوان، (Letters concerning Mythology رسائل تتعلق بالأساطير). ولا يمكننا أن نشك في أنَّ الأكثر حكمة عند الوثنيين عشق الطبيعة، وتلك الأساطير، أو اللاهوت الوثني المعين تحت أسماء لا متناهية وشعارات مختلفة. وعلى الرغم من أنَّ أبوليوس **Apuleius**، كان أفلاطونياً ومعتاداً على المفاهيم الغامضة وغير المفهومة لأستاذه، فإنَّه يسمي الطبيعة:" والدة طبيعة الأشياء، وسيدة كلّ العناصر، وأم النجوم على مدى العصور ...نسل الزمن، ووالدة العصر، وسيدة العالم كلّه". وهذه هي الطبيعة التي أحبها البعض تحت اسم والدة الآلهة، والبعض الآخر تحت أسماء سيريس، وفينوس، ومينيرفا...الخ. وباختصار، أُثبتتْ وحدة الوجود عند الوثنيين بوضوحٍ من خلال هذه الكلمات الرائعة في مأثورات مدوارا **Medaura**، الذي يقول في حديثه عن الطبيعة: "هكذا يحدث، وطالما أنَّنا لم نفحص أعضائها المختلفة، فلا شك في أنَّنا نعبدها كلّها".

136- استُخدمت عواطف وملكات الطبيعة البشرية كرموز؛ لأنَّ الإنسان كان يجهل العلّة الحقيقية للظواهر التي رآها. وبما أنَّ المشاعر القوية بدت وكأنَّها تحثّ الإنسان رغماً عنه، فقد نسبوا هذه المشاعر إلى الله أو عبدوها، وهكذا أصبح الحب معبوداً، وحولوا البلاغة والشعر والصناعة إلى آلهة تحت أسماء هيرميس، وعطارد، وأبولو، وسمي وخز الضمير بالإغراء. كما يؤله المسيحيون العقل تحت اسم الكلمة الكهنوتية.

137- تأتي الكلمة الإغريقية الله ΘΕΟΣمن الإقناع πίθημι، والضرورةpono أو بالأحرى مما يجب QEAOMDI، والمشاهدة specto، والدراسة contemplor، لإلقاء نظرة على الأشياء الخفية والسرية.

138- يقول **مونتين Montaign**،(*) "لا يستطيع الإنسان أن يكون على غير ما هو عليه، ولا يتصور الا بموجب قدرته، دعه يعاني من الآلام، فلن تكون لديه معرفةً بأيّ نفس سوى نفسه. وقال **اكزينوفان Xenophanes**:(**) "إذا فهم الثور أو الفيل النحت أو الرسم، فلن يفشلوا في تمثيل الإله على شاكلتهم، وعند ذلك سيكون لديهم قدرٌ من الدراية مثل **بوليكليتوسPolyclitus** أو **فيدياس Phidias**، الذي أعطاه شكلاً بشرياً. وقيل لإنسان يحتفل كثيراً إنَّ "الله خلق الإنسان على صورته"، فأجاب الفيلسوف: "أعاد الإنسان الإطراء"، واعتاد **لاموت لو فاير L'amotte le Vayer**(***) الإشارة إلى أنَّ "الروحانية كانت أساس كلّ نظامٍ مسيحي".

139- كلّفت فكرة وحدة الإله **سقراط** حياته. حيث عامله الأثينيون كملحدٍ يؤمن بإله واحد فقط. ولم يجرؤ **أفلاطون** على قطع عقيدة تعدد الآلهة؛ فحافظ على آلهة الحب والجمال فينوس، وجوبتير إله السماء القدير، وبالاس الذي كان إلهة البلد. ونظر الوثنيون إلى المسيحيين على أنّهم ملحدين؛ لأنّهم كانوا يعبدون إلهاً واحداً فقط.

140- وأطلق الإغريق على الآلهة العظماء اسم آلهة الكهوف - القُمرة Θεοι Cabin –καβιροι، وأطلق عليهم الرومان اسم آلهة الأجداد أو آلهة متفق عليها Dii majorum gentium or Dii consentes؛ لأنَّ العالم كلّه كان متفقاً في تأليه الأجزاء الأكثر إدهاشاً وحيوية في الطبيعة، مثل الشمس والنار والبحر والزمن، الخ، بينما كانت الآلهة الأخرى قومية بالكامل، أيّ تمّ تبجيلها فقط في دول معينة أو من قبل أفراد، كما

---

* - **ميشيل دي مونتين**: (1533-1592) كاتب فرنسي، ورائد للمقالة الحديثة في أوروبا، تأثر بكتاباته بأرسطو.(المترجم)، وللمزيد أنظر [Michel de Montaigne (Stanford Encyclopedia of Philosophy)]

** - **اكزينوفان**: (570 قبل الميلاد إلى 480 قبل الميلاد) فيلسوف يوناني، وشاعر، وناقد اجتماعي وديني. معرفتنا بوجهاتٍ نظره تقتصر على شعرهِ الباقي والذي يتضمن هجاء ونقدا لمجموعة واسعة من الأفكار الإغريقية مثل الاعتقاد بالبانثيون. (المترجم)، وللمزيد أنظر [The Oxford Dictionary of Philosophy, Blackburn, Simon (Ed),X,y, p.403.]

*** - **فرانسوا دي لا موت لو فاير**:(1588 - 1672)، كاتب فرنسي معروف باستخدام الاسم المستعار أوروسيوس تيبرو. تم قبوله في الأكاديمية الفرنسية في عام 1639، وكان مدرس لويس الرابع عشر. (المترجم)، وللمزيد أنظر: Bayle, Pierre. "Vayer." In Dictionnaire historique et critique، vols. Rotterdam,2, Netherlands: Reinier Leers, 1697.p.1193.

هو الحال في روما، حيث كان لكلّ مواطن آلهة له وحده، وكان يعشقها تحت أسماء بيناتس Penates، ولاريس Lares...الخ.

141- كان اسمهم عند الرومان Dii medioximi - الآلهة المتوسطة؛ حيث نُظر إليهم على أنّهم وسطاء أو شفعاء، وكقوى كان من الضروري تبجيلها إما للحصول على منفعة لهم أو تهدئة غضبهم أو صرف النظر عن نواياهم الخبيثة.

142- حكاية الجبابرة أو الملائكة المتمردة، قديمة للغاية ومنتشرة بشكلٍ عام في جميع أنحاء العالم، وتفيدُ بتأسيس لاهوت البراهمة عند الهنود، وكذلك بالنسبة للكهنوت الأوروبي. وتتحرك جميع الأجسام الحية وفقاً للبراهميين، بوساطة ملائكة هابطة من السماء، وتكفِّر في ظل هذه الأشكال عن تمردهم. وهذه الحكاية، بالإضافة إلى حكاية الشياطين، تجعل الإله يلعب دوراً سخيفاً للغاية، وتفترض في الواقع أنَّ الله يمنح الوجود للأعداء ليبقى يعمل بنفسه أو توجيهه، ولإظهار قوته. ومع ذلك، لا يوجد أيّ إظهار لهذه القوة، حيث يكون للشيطان وفقاً للمفاهيم اللاهوتية، أتباع أكثر بكثير من الإله.

143- لم يُظهر اللاهوت الوثني للناس في أقانيم آلهتهم سوى البشر الفاسقين والزناة والانتقاميين والمحبين للانتقام، والمعاقبة الصارمة على الجرائم الضرورية التي تنبأ بها الوحي. ويظهر لنا اللاهوت اليهودي والمسيحي إلهاً متحيزاً يختار أو يرفض، ويحب ويكره بحسب نزواته. وباختصار، طاغية يتلاعب بمخلوقاته، ويعاقب في هذا العالم الجنس البشري كلّه على جرائم إنسان واحد؛ فيجبر العدد الأكبر من البشر على أن يكونوا أعداءً له، حتى يعاقبهم في نهاية المطاف إلى الأبد؛ لأنّهم اخذوا منه حرية التصريح عنه. وتتأسس كلّ ديانات العالم على قدرة الله المطلقة على البشر، واستبداده عليهم وظلمه الإلهي. ومن هنا، كانت عقيدة الخطيئة الأصلية عند المسيحيين، ومن هنا جاءت المفاهيم اللاهوتية عن العفو، وضرورة وجود وسيط، وباختصار، هذا المحيط من السخافات التي يمتلئ بها اللاهوت المسيحي. وتظهر بشكلٍ عام أنَّ الله العاقل لن يكون ملائماً لمصالح الكهنة.

فهرس الأعلام

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

1 - أوفيد، **مسخ الكائنات**، نقله إلى العربية: ثروت عكاشة، مراجعة: مجدي وهبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1992.

2 - حسن، سليم، **موسوعة مصر القديمة**، ج13، مؤسسة هنداوي، 2019.

3 - رياض، محمد، وكوثر عبد الرسول، **أفريقيا**، مؤسسة هنداوي،2015.

4 - ساليس، د. فيكتور، **الميثولوجيا الحية: فن الحب والحياة في الأساطير اليونانية**، تحقيق وترجمة: نبيل سلامة، دار نوافذ للدراسات والنشر، ط1، 2011.

5 - عباس، راوية عبد المنعم، عباس، **جون لوك إمام الفلسفة التجريبية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1996.

6 - موسوعة ستانفورد للفلسفة، مجلة حكمة، **بول هنري تيري، بارون دي هولباخ**، تر: منال محمد خليف. 2021.

المصادر الأجنبية:

7- Bayle, Pierre. "Vayer." In Dictionnaire historique et critique ،vols. Rotterdam,2, Netherlands: Reinier Leers, 1697.p.1193.

8- Bayle's Dictionary, Art. Pomponatius and Simonides & Anaxagoras, Note E.

9- Benoist, M, **the critical remarks against Toland**.

10- Bilfinger, De Deo, Anima Et Mundo, page 276.

11- **Cicero de Natur**: de Natura Deorum, lib. iii. cap.

12- **Cicero de Natur**: Deorum Lib. ii. Cap. 2.

13- **Cicero de Natur**: Divinatione Lib.2

14- **Cicero de Natur**: Epictet. Lib.iii.cap.

15- **Cicero de Natur**: Marc.Antonin, Lib. Liii.

16- Gaulmin. **De ciia et morte Mosis.**

17- Granger, Herbert, **The Theologian Pherecydes of Syros and the Early Days of Natural Philosophy, Harvard Studies in Classical Philology**, Vol. 103. (2007).

18- Michel de Montaigne (Stanford Encyclopedia of Philosophy)

19- Miscellaneous Dissertations, printed at Amsterdam, 1740.

20- OCELLUS LUCANUS: **On the Nature of The Universe Taurus**, The Platonic Philosopher, On the Eternity of The World. Julius Firmicus Maternus Of the Thema Mundi; In Which the Positions of The Stars at The Commencement of The Several Mundane Periods Is Given. Select Theorems on The Perpetuity of Time, By Proclus. Translated from The Originals by Thomas Taylor.

21- Plin. Hist. Nat. lib. ii. cap. 1, init.

22- St. Augustine, **De Civitate Dei**, lib. Xi. Cap. 28

23- The concise Encyclopedia, Jonathan Ree And J.o. Urmson (Ed. s), **Western Philosophy**, Third Edition, Routledge, London and New York,2005.

24- **The Oxford Dictionary of Philosophy**, Blackburn, Simon (Ed), Oxford University Press, Oxford New York, 1994.

25- V. Bilfinger, de Deo, **Anima et Mundo**.

26- __________ De Beneficiis, VII. i.

27- ___________ De Resurrectione Carnis.

28- ___________ Hobbes's Essay on Human Nature.

29- ____________*Sebec. Epist.* 91, 95.

30- Vide *A Discourse of Natural Theology*, by Henry Lord Brougham, F.R.S., &c. Philadelphia: Carey, Lea, and Blanchard. 1835. Pages 146 and 147.

31- Vide R. A. Davenport's *Dictionary of Biography*, Boston edition, page 324, Article, Holbach.

المراجع المأخوذة من الانترنت:

32- Anne-Robert-Jacques Turgot, baron de. 'Aulne / French economist / Britannica
33- Aristides / Athenian philosopher / Britannica.
34- britannica.com/biography/Aristoxenus
35- Britannica.com/biography/Laurence-Sterne
36- Britannica.com/biography/Tacitus-Roman-historian.
37- Catholic Encyclopedia (1913)/Denis Pétau - Wikisource, the free online library
38- Claude-Adrien Helvétius/ French philosopher/ Britannica.
39- Dictionary of National Biography, 1885-1900/Abbadie, Jacques - Wikisource, the free online library.
40- Henry Peter Brougham, 1st Baron Brougham and Vaux/British politician/ Britannica.
41- https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english.
42- https://link.springer.com/referenceworkentry
43- https://www.britannica.com/topic/Cimmerian
44- Hugo Grotius (Stanford Encyclopedia of Philosophy)
45- Ithuriel's Spear (fs.fed.us).
46- larousse.fr/encyclopedie/personage/Pierre-Cornelle
47- Lycurgus / Spartan lawgiver / Britannica
48- Marcus Manilius | Roman poet | Britannica
49- paranormalarabia.com.
50- Pherecydes of Syros | Greek writer | Britannica.
51- Phocion - World History Encyclopedia.
52- Q, Hor. Flac. Car. Lib. III. 30, v.
53- Tertullian | Christian theologian | Britannica
54- Tiberius / Biography, Accomplishments, Facts & ،Death | Britannica.
55- vocabulary.com/dictionary/ignis%20fatuus.
56 - مـــاركوس بورســـيوس كـــاتو أوتيسينســـيس (سياســـة) - Mimir موســـوعة (mimirbook.com)
57 - الموسوعة العربية | سينيكا (لوكيوس أنايوس-) (إنسانية) arab-ency.com.sy

هذا الكتاب من أهم ما نُشر لـلبارون دي هولباخ، نظراً لما حمله من تحدّ لأكثر الأفكار تطرفاً على الإطلاق، وقدرته على كشف ما يكمن وراء رجال الدين العابثين في أفكار البشر، واليوم تُعاد ترجمته إلى العربية في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين، علّه يؤدي الوظائف التي أرادها منه البارون دي هولباخ، ومنها إعادة الإنسان إلى مكانه الصحيح، وتحقيق الغاية الأساسية من وجوده وهي حفظ بقائه وسعادته وإسعاد أقرانه، التي ينبغي البحث عنها في أحضان الطبيعة، وليس في المدينة الأفلاطونية التي لا يسكنها سوى المتدينين، وعليه أن يكتشف بنفسه النتائج الشريرة للخرافة والتعصب الديني.

وسيجد القارئ في هذا الكتاب دعوةً لكل أولئك الذين يعلنون لا أخلاقية الكتابات المتشككة، ليتحرروا من الأوهام اللاهوتية. لينبذوا العداوة والخلافات والاختلافات العرضية بين البشر، ويكفوا أيديهم عن الإسهام في تعاسة البشر، وترويعهم بقصص الموت ومن فكرة إله دموي منتقم. وينبغي أن ندّمر الأوهام التي لا يسعها سوى تضليلنا، ونبحث عن ترياقٍ للأضرار التي يجلبها لنا التعصب السيء التوجيه، والتعصب الديني الطاغي، في الطبيعة ذاتها وسنجده ضمن مواردها، حيث يقول هولباخ: "حان الوقت للنظر بجرأة في وجه الشر، وفَحص أسسه والتدقيق في بنيته الفوقية، ويجب أن يهاجم العقلُ بخبرته الإرشادية المخلّصة وتحصينه تلك التحيزات التي ظل الجنس البشري ضحيةً لها لفترة طويلة. ولهذا الهدف يجب إعادة العقل إلى مكانه المناسب". ينبغي أن نحرره من سلاسل العبودية الدينية القائمة على التحيز والجهل.

وينبغي أن نوقظ في داخله حبه للطبيعة، ونحرره من سخافة تخليه عن الخبرة؛ لأنّه من الطبيعة وسيعود إليها، ولا يمكنه كسر قوانينها أو تجاوزها ولو ذهنياً. ومن العبث أن ينطلق عقله إلى ما وراء العالم المرئي، حيث تفرض الضرورةُ الملحة دائماً عودته. ولذلك سيجد القارئ ضمن هذا الكتاب أكبر داعم له، وسيعثر على أساس لتساؤلاته، ويتحرر من وهم ثنائية "الجسد -النفس"، ولن يتمكن من الرد على مضامينه؛ لكونه يحتوي على كشفٍ لجميع المغالطات الدينية، وهو دليلٌ للفيلسوف المتحرر من العبودية الدينية، وللناخب الفقير الذي ضللته حماقات الخرافة على حدٍ سواء، وسيتجنب الناقدون الحديث عنه؛ لعلمهم بعدم قدرتهم المطلقة على التعامل مع منطقه القوي، ولن يتمكنوا من إنكار مزاياه؛ فهو كتابٌ لكاتب عظيم بلا شك، وتكمن ميزتهُ في بلاغة التأليف غير العادية، والمهارة التي تُستبدل بها الكلمات بالأفكار، ووضع الافتراضات كبراهين لاجتياز التيار، وفي توضيح المفردات وتعريفها.

المترجم



9 789922 717357